

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة



يقدم هذا الكتاب نظرية متكاملة في تزكية النفوس تستمد
الكثير من مادتها من كتاب إحياء علوم الدين بعد تنقيح وتهذيب وإعادة ترتيب

سعيد حوى

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه

﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

الطبعة الرابعة عشر

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عقد الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريديًا القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

مقدمة

بُعِثَ الرسل عليهم الصلاة والسلام ليذكّروا بآيات الله ، وليعلّموا هداية الله ، وليزكّوا الأنفس عليها . فالتعليم والتذكير والتزكية هي من أهم مهمات الرسل ، انظر مصداق ذلك في دعوة إبراهيم عليه السلام لذريته :

﴿ ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتكَ ويعلمهمُ الكتابَ والحكمة ويزكّيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (البقرة : ١٢٩) .

وانظر الاستجابة لهذه الدعوة والمنّة على هذه الأمة في قوله تعالى :

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكّيكم ويعلمكُم الكتابَ والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (البقرة : ١٥١) .

ولقد قال موسى عليه السلام لفرعون :

﴿ هَلْ لك إلى أن تزكّى * وأهديك إلى ربّك فتخشى ﴾ (النازعات : ١٨، ١٩) .

وقال تعالى :

﴿ وسيجنّبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكّى ﴾ (الليل : ١٧، ١٨) .

وقال :

﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها ﴾ (الشمس : ٩، ١٠) .

فتزكية النفس من مهمات الرسل ، وهي هدف للمتقين ، وعليها مدار النجاة والهلاك عند الله عز وجل. والتزكية في اللغة تأتي على معان: منها التطهير، ومنها النمو، وهي كذلك في الاصطلاح ، فزكاة النفس تطهيرها من أمراض وآفات ، وتحققها بمقامات ، وتخلقها بأسماء وصفات ، فالتزكية في النهاية : تطهرّ وتحقق وتخلق ، ولذلك وسائله المشروعه ، وماهيته وثمراته الشرعية ، ويظهر آثار ذلك على السلوك ، في التعامل مع الله عز وجل ومع الخلق ، وفي ضبط الجوارح على أمر الله . ولعل تفصيل هذا هو أهم ما تضمنه هذا الكتاب .

☆ ☆ ☆

إنّ تزكية القلوب والنفوس إنما تكون بالعبادات ونوع من الأعمال ، إذا أدي ذلك على كماله وتمامه ، فعندئذ يتحقق القلب بمعانٍ تكون النفس بها مزكاة ، ويكون لذلك آثاره وثمراته على الجوارح كلها كاللسان والعين والأذن وبقية الأعضاء ، وأظهر ثمرات النفس المزكاة حسن الأدب والمعاملة مع الله والناس : مع الله قياماً بحقوقه بما في ذلك بذل النفس جهاداً في سبيله ، ومع الناس على حسب الدائرة وعلى مقتضى المقام وعلى ضوء التكليف الرباني .

☆ ☆ ☆

وإذن فالتزكية لها وسائل من مثل الصلاة والإنفاق والصوم والحج والذكر والفكر وتلاوة القرآن والتأمل والمحاسبة وتذكر الموت ، إذا أديت هذه على كمالها وتمامها .

ومن آثار ذلك أن يتحقق القلب بالتوحيد ، والإخلاص ، والصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والحلم ، والصدق مع الله ، والمحبة له ، ويتخلى عما يقابل ذلك من رياء ، وعجب وغرور ، وغضب للنفس ، أو للشيطان ، وبذلك تصبح النفس مزكاة فتظهر ثمرات ذلك في ضبط الجوارح على أمر الله في العلاقة مع الأسرة والجوار والمجتمع والناس .

﴿ ألمْ ترَ كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حينٍ بإذن ربها ﴾ (إبراهيم : ٢٤) .

☆ ☆ ☆

والذي يحدث أن تزكية الأنفس يصيبها الضعف في الجيل بعد الجيل مما يقتضي تجديداً مستمراً لها ، فكما أنه في كل يوم توجد في هذه الأمة أنفس جديدة ، فالتزكية ينبغي أن تطال هذه الأنفس ، ولعل ضعف التزكية في عصرنا كان أكثر منه في أي عصر مضى ، فاقتضى ذلك كلاماً خاصاً في التزكية ، وكان هذا باعثاً على هذا الجهد ، ولذلك انصب الكلام فيه على وسائل التزكية وكيف تؤدى على الوجه الأكمل ، وعلى مقامات القلوب وأمراضها وأخلاقها الصالحة ، وعلى أدب العلاقات ، وكل ذلك مرتبط ارتباطاً مباشراً بتزكية الأنفس .

ولقد اخترنا أن نستخلص أكثر هذه المعاني من كتاب إحياء علوم الدين لحجة الإسلام محمد الغزالي لأسباب :

١ ـ أن الغزالي واجه في عصره من الضعف في الحياة الروحية ما نواجهه ، فالداء واحد وقد وصف الدواء فأجاد .

٢ ـ أنه قد استوعب في الموضوعات التي طرقها ما ذكره السابقون عليه ، فوجد في كتابه ما لم يوجد في غيره ، وأي كتاب بعده في موضوعاته لا يخرج أن يكون عالة عليه .

٣ ـ لقد اجتمع للغزالي في إحيائه عقل وبيان ، وهو مظنة التحقق بكل ما اعتقد وكتب ، ولهذا كان لكلامه صولة في الأنفس لا مثيل لها في كلام المؤلفين ، وما من إنسان تعامل مع الإحياء إلا ويحس هذا المعنى ، ولكن الإحياء نفسه كأي كتاب بشري فيه ما فيه ، ولذلك فقد اعترض بعض أهل التحقيق على بعض ما فيه ، ثم إن مباحثه على أقسام : فمنها ما هو ألصق بالفقه ، ومنها ما هو ألصق بالوعظ ، ومنها ما هو ألصق بالتحقيق والتحليل ، ومنها ما هو ألصق بعلوم شرعية أو عقلية ، ومنها ما هو ألصق بتزكية النفس وعلومها وهو الشيء الذي نريده ، ولذلك انصب جهدنا على استخلاص هذا النوع من الإحياء .

ولكن حتى هذا النوع قد دخل فيه ما هو محل إنكار من بعض الطبقات وبعضه طويل وبعضه معقد ، ولذلك فقد حذفت بعض كلامه مما لمْ أرَ الحاجة تدعو إليه وعلى هذا فمجموع ما راعيته في الاختيار في الأبحاث المختارة :

١ ـ أن أختار ما تمسّ الحاجة إليه في عصْرنا لقلّة التذكير به .

٢ ـ ثم هذا الذي اخترته أخرجت منه ما هو مثار أدنى جدل ، كما أخرجت منه ما هو أقرب إلى التعقيد والتطويل حتى لا يمل القارىء وليفهمه الجميع ، وأخرجت منه الحديث الضعيف وما بني عليه ، مع أن الحديث الضعيف لا يعني الموضوع ، بل يحتمل أن يكون من كلام رسول الله ﷺ ، وما أبقيت فيه من نصوص السنة فقد ذكرت تعليقات العراقي عليه بعد اختصارها ليعرف القارىء درجة الرواية ومحل وجودها مع التصرف في الأرقام ، على أن هناك مرويات لأئمة الحديث لم يذكر العراقي درجة قوتها ، لكن معناها صحيح فهذه ذكرت بعضها واعتبرت أن الأمر فيها واسع ، وأخرجت منه الروايات المنسوبة لرسل غير

رسولنا عليه الصلاة والسلام لأن هذه الروايات تحتاج إلى توثيق لا نملكه ، وإن كان هناك آراء بجواز الرواية عنهم ، وأخرجت منه ما كان حديثاً عن غيوب سواء كانت أخرويات أو من عالم الغيب إذا لم يكن أصلها موجوداً في كتاب أو سنّة صحيحة ، كما أخرجت منه ما يمكن أن يكون محل إنكار من بعض أهل التحقيق .

غير أن مجرد الاختيار من كتاب لا يشكّل بمفرده نظرية متكاملة ، كما أنه يفتقد التسلسل والتناسب والتناسق ، وأنا أحرص أن أقدّم نظرية متكاملة في التزكية مبنية على كلام الغزالي فاقتضى هذا منّي تبويباً وترتيباً وتقديماً للأبواب وللفصول ولبعض الفقرات ، كما اقتضى كتابةً لبعض الموضوعات ليخرج الكتاب كلاً متكاملاً ، وكأنه عقد منظّم أو سبيكة ذهب خالصة .

☆ ☆ ☆

لقد تعلق ناس كثيرون بكتاب الإحياء وقَوَّمُوه بأنه لم يؤلف في الإسلام مثله ، واشتد ناس على الإحياء وصاحبه حتى ليكادون يحرّمون النظر فيه .

وعندي أن في الإحياء معاني قد وُفِّقَ إليها الشيخ الغزالي بما لم يلحقه أحد، وفيه معانٍ أحسن صياغتها والكتابة فيها قد شاركه فيها كثيرون من العلماء ، وفي الإحياء معان أخر هي محل الخلاف والاختلاف .

فإذا تركنا لأهل التحقيق أن يناقشوا ، وإذا تركنا الجوانب المشتركة بين الإحياء وغيره ، فإن قسماً من الإحياء يكاد يكون من الدواء الذي عولجت فيه مشكلات في عصر الغزالي ، ويمكن أن تكون علاجاً لكثير من مشكلات عصرنا التي من أبرزها الخواء الروحي وتغلب الشهوات ، وقد اجتهدنا أن نستخلص منه أمثال ذلك مما يصلح أن يكون دواء للكثير من أمراض العصر ، بل كل عصر ، ونرجو أن يكتب لنا أجر المجتهدين .

☆ ☆ ☆

إنّ المربين في عصرنا يواجهون حالات خطيرة :

فالقلب قسا ، وأمراضه من حسد وعجب أصبحت فاشية ، وحسن التعامل ضعف ، والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن تتأثر بذلك ، لذلك كان لابد لمريدي تجديد الإسلام أن يفكروا في إحياء المعاني القلبية للعبادات ، وفي تحلية النفس بأخلاق العبودية ، وتخليتها من النزعات الحيوانية والشيطانية .

وإذ كان الأثر المباشر لموت القلوب فقدان المعاني القلبية الإيمانية : من صبر وشكر وخوف من الله ... وهي أشياء لابد منها لصلاح الحياة ، وإذ كان من الآثار المباشرة لهذا الموات وجود الحسد والعجب والغرور وهي أشياء خطيرة جداً على الحياة ، فلقد أصبح التركيز على هذه المعاني واجباً على الذين يريدون إصلاح الحياة الفردية والجماعية .

☆ ☆ ☆

وإذ كانت دائرة التعامل ودائرة الكلام هما الدائرتين الأكثر تأثراً بنواقص العبادة وأمراض القلوب فقد أضحت هاتان الدائرتان بحاجة إلى تجديد وإحياء ، وهذا وذاك راعيناه في هذا الكتاب .

☆ ☆ ☆

ولقد كتبنا كتابنا « تربيتنا الروحية » مستهدفين إحياء الكلام في هذه المعاني لكن الجانب التفصيلي فيه كان قليلاً ، وإذ كانت الكتب التي تتحدث عن هذه الموضوعات عليها ملاحظات من قبَل بعض الناس لاختلاط الغامض بالصريح والملتبس بالواضح ، وأحياناً لاختلاط البدعة بالسنة، فقد أضحى من المصلحة أن نتخيّر من كلام من تحدث عن مثل هذه الأمور بما يسدّ الحاجة إلى الجوانب العملية والتفصيلية في علم التزكية ، وبما تحتاجه عملية التجديد للمعاني الإيمانية القلبية والتجديد لأدب العلاقات ، وهما من أهم ما يحتاجه التجديد العملي للإسلام ، لذلك كان الاستخُلاص من الإحياء دقيقاً ، وانصب على لباب .

لقد استخلصت الجوانب القلبية التي ينبغي أن ترافق العبادات ، والأمراض الرئيسة التي يجب أن يتخلص منها القلب كالحسد ... والجوانب الرئيسة التي يجب أن يتحقق بها القلب : كالشكر والتوكل والخوف والمحبة .. والجوانب الرئيسة التي يجب أن يتخلّق بها الإنسان .

واستخرجت آداب اللسان ، وآداب العلاقات ابتداءً من آداب المعلم والمتعلم إلى أدب العلاقات مع الوالدين والأرحام والناس ... مع شيء من الكلام عن النفس والشيطان ومداخله على الإنسان . وأرى كل ذلك مما يجب على مسلمي عصرنا أن يأخذوه بعين الاعتبار .

☆ ☆ ☆

لقد واجهت الحركة الإسلامية المعاصرة ردة عن الإسلام تكاد تكون أخبث من الردة الأولى ، فكان أن وجهت كل قواها العلمية والفكرية لإخراج الناس منها ، ووجد بذلك تيار التجديد الإسلامي المعاصر ، وقد بدأ الأستاذ البنا رحمه الله هذا التيار وكان رحمه الله في القمة من كل خير ، كان قمة في الوعظ والتعليم والتزكية وغير ذلك ، فأطلق تيار التجديد في كل شيء ، وكانت الضرورات والاحتياجات المباشرة تتطلب إجمالاً أحياناً وتفصيلاً أحياناً ؛ فبقيت بعض المعاني مجملة بسبب من ذلك ، ومن ذلك ماهية السير القلبي والروحي إلى الله ، فكان على أبناء مدرسته أن يفصّلوا حيث اقتضت المرحلة تفصيلاً ، وعلى ضوء الأصول المعتمدة في دعوته رحمه الله ، وهي أصول مستقراة من العلم والتجربة ، رفيعة المستوى واسعة الشمول .

لقد غرقت الحركة الإسلامية المعاصرة في مرحلة من المراحل في الدفاع عن الإسلام والرد على الشبهات والهجوم على المتآمرين فشغلها ذلك عن بعض الواجبات ومنها الكتابة في هذه الشؤون بما يسع احتياجات المسلمين وأصناف الناس ، وقد آن الأوان أن نتوجه لإحياء معاني التزكية ، خاصةً والحركة قد توسعت ، وأنشطتها قد تشعبتْ ، ووجهات النظر قد تعددت ، مما يخشى منه أن تنطلق بعض الأمور بعيداً عما ينبغي ، أو تضعف جذوة النور في القلوب ، ومع أن كتب التراث مليئة بهذه المعاني ، وبالإمكان اعتماد الكثير من الكتب الموثقة فيها ، ولكن ذلك قد يوافق عصرنا ، وقد يكون زائداً عما نحتاجه ، أو ناقصاً عما يحتاجه المسلم العادي ، والكثير الكثير فيه خلاف كثير ، وهو محل جدل عريض .

كل ذلك دعا المهتمين بهذه الجوانب من أبناء الحركة الإسلامية أن يفكروا في أن يضعوا في أيدي أبناء العصر ما يلزمهم حتى لا يعيشوا في فراغ ، يملؤه خطأ أو ضلالٌ أو غفلة أو نسيان ، وكان كتابي هذا ترجمة لهذا التوجه .

وأعتقد أن الأبحاث التي ذكرتها في هذا الكتاب هي من خير ما يقرب إلى الله ويبعد عن سخطه ، وهي في الغالب من العلوم المفروضة فرضَ عينٍ على كل مسلم ومسلمة ، والتي تتأكد في عصرنا الخاوي .

ولئن كان تجديد الإسلام يدخل فيه تجديده على مستوى الأفراد والأسر والشعوب والإنسانية وعلى مستوى المجتمعات والحكومات فإن الإحياء الروحي هو المقدمة للتجديد الإسلامي كله ، فما لم تحيَ القلوب وتزكُ الأنفس ويتأدب مع الله ومع خلقه فلا جديد على الأرض الإسلامية ولا تجديد ، ومن هنا خصصنا هذه المعاني بالتأليف .

☆ ☆ ☆

وبما أنه من النادر أن تستخرج مختارات من كتاب ، ثم تظهر عليه سيما الوحدة وحسن التنسيق ووحدة الموضوع والتناسب بين السابق واللاحق وتسلسل الموضوع كما ذكرت سابقاً ، فإنني تجنباً لهذه المحاذير كتبت الكثير وتصرفت في الترتيب وقدمت لأبواب الكتاب ، وجعلت كل كلمة لي بين قوسين [ ] بحيث لا يختلط على القارىء كلام المصنف بكلام المؤلف ، وجعلت الكتاب في أربعة أبواب وخاتمة :

الباب الأول : في آداب العالم والمتعلم .

الباب الثاني : في وسائل التزكية من عبادات وأعمال وشمل ثلاثة عشر فصلاً .

الباب الثالث : في ماهية زكاة النفس وشمل ثلاثة فصول .

الباب الرابع : في ضبط اللسان وأدب العلاقات .

خاتمة الكتاب .

وسيجد القارىء في هذا الكتاب أنه أمام كنوز من المعاني الراقية ، وسيجد فيه من التحقيقات في باب التزكية ما يدعوه إلى قراءته مرّة بعد مرّة ، لأن الكثير مّما فيه يدخل في العلوم المفروضة فرض عين على كل مسلم ومسلمة .

☆ ☆ ☆

الباب الأول

في آداب العالم والمتعلم

تقديم

[وراثة النبوة هي مظنة التجديد الصحيح ، وإذ كانت المهمات الرئيسية للرسل عليهم الصلاة والسلام التذكير والتعليم والتزكية . فوارثُ النبوة الكامل هو من استطاع هذه الأمور على الكمال والتمام ، وقام بها وأدّى حقّ الله فيها ، ونادراً ما تجتمع هذه الثلاثة في واحد ، فقد نجد واعظاً غير عليم ، وعليماً لا يمتلك قدرة على الوعظ ، وعليماً واعظاً غير قادر على التزكية ، ومن اجتمعت له هذه الثلاثة مَلَكَ إكسير الحياة ، وإلا فعملية التجديد تبقى موزعة عند الراغبين فيها والقائمين عليها .

☆ ☆ ☆

وأهم ما ينبغي أن ينصب عليه وعظ الوعاظ التذكير بآيات الله في الآفاق والأنفس والتذكير بفعل الله وأيامه ، والتذكير بعقوباته وانتقامه ، والتذكير بما أعدّ ووعد وأوعد لأهل طاعته وأهل معصيته .

وأهم ما ينبغي أن ينصب عليه تعليم العلماء تعليم الكتاب والسنة التي هي شارحة الكتاب : ﴿ ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تُعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون ﴾ (آل عمران : ٧٩) .

وأهم ما ينبغي أن تنصب عليه تربية المربين إصلاح القلوب وتحسين السلوك : ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (البقرة : ١٥١) .

☆ ☆ ☆

ولكل عصر أمراضه وأعراضه ، وللعصور كلها أمراضها وأعراضها ، والعالم الرباني هو من استطاع أن يعالج الأمراض المعاصرة وأمراض العصور ، وتلك علامة نجاحه في التزكية .

منذ العصر الأول ظهر الإرجاء والتشيع والخارجية والاعتزال . ومبنى الإرجاء على ترك العمل ، ومبنى التشيع على الغلوّ في آل بيت رسول الله ﷺ ، ومبنى الخارجية على سفه العقول، والتسرع في التكفير، وعدم احترام أهل الفضل، وأن إيمانهم لا يجاوز حناجرهم، ومبنى الاعتزال على المسارعة إلى التأويل غير العليم ، مثل هذه الاتجاهات تعتبر أمراض العصور ، القابلة للظهور بشكل مستمر ، وعلى العالم أن يعالجها إن وجدت أو يوجد مناعة ضدها إن لم تكن موجودة ، وكذلك كل داء له صفة الاستمرارية في الظهور « دب بينكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ... » أخرجه أحمد والترمذي وهو صحيح .

ثم إن لكل عصر أمراضه . فمن أمراض عصرنا ما أشارت إليه النصوص :

« أول علم يرفع من الأرض الخشوع » أخرجه الطبراني بإسناد حسن .

« ولكنكم غثاء كغثاء السيل ... وليقذفنّ في قلوبكم الوَهَن ... حب الدنيا وكراهية الموت » . أخرجه أبو داود وهو حسن .

فأنت ترى أن عصرنا هو هذا العصر الذي قلّ فيه الخشوع وكثر فيه حب الدنيا وكراهية الموت ، فالعالم الذي لا ينجح في إزالة هذه الأمراض حظه من التجديد قليل ، فلابد للعالم أن يمتلك ناصية القدرة على مثل هذا بحيث يحس بذلك كل من تتلمذ عليه .

☆ ☆ ☆

والعالم الداعية عليه أن يرتب جلسات الوعظ وجلسات العلم وجلسات التزكية ، وقد يستطيع دمج بعض ببعض ، وقد يخصص للوعظ جلسة عامة ، وللتزكية جلسات خاصة يكون فيها ذكر ومذاكرة فردية أو جماعية يقرأ فيها ما هو أليق بها ، ويخصص للعلوم الدقيقة جلسات أخرى : للتلاوة والتجويد ، وللسنة وعلومها ، وللتفسير وعلوم القرآن ، وللفقه وأصوله ..

ونقطة البداية في نجاح العمل هو الأدب الذي يحكم العالم والمتعلم فما لم تربط الآدابَ المتعلمَ بأستاذه لا يستمر في السير ، وما لم يقم المعلم بأدب التعليم فإنّ ما يفسده يكثر أو يقل على حسب بعده أو قربه من الأدب ، ومن ههنا كانت معرفة أدب العالم والمتعلم من المهمات في السير إلى الله ، بل لإقامة الدين والدنيا .

وأنجح الحركات الدعوية في التاريخ الإسلامي هي التي تركّز منذ البداية على :

١ ـ الثقة بالقيادة والقائد ، ثقة تدعو إلى الطاعة القلبية .

٢ ـ الذكر المستمر والعلم الشامل واللازم والمناسب .

٣ ـ اللصوق بالبيئة الصالحة وحضور اجتماعاتها ـ ذكر ، علم ... ـ وتقوية العلاقات بين أبنائها .

٤ ـ تنمية آداب العلاقات الطيبة بينها وبين الناس .

٥ ـ القيام بالخدمة العامة بشغف وإقبال .

فحركة يجتمع للمبتدىء فيها مثل هذه المعاني حركة قابلة للحياة وللنمو ، ولذلك يجب أن يركّز العلماء العاملون على هذه المعاني لينصهر فيها المبتدىء منذ البداية .

☆ ☆ ☆

لقد دعا نوح عليه السلام قومه فقال :

﴿ أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ﴾ (نوح : ٣) .

ودعا كل رسول قومه إلى ذلك :

﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون ﴾ (الأنبياء : ٧) .

وقال هود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم الصلاة والسلام : ﴿ فاتقوا الله وأطيعون ﴾ .

فالم ينجح المربي في استخراج الطاعة المبصرة من التلميذ ويعوّده على العبادة ويحققه بالتقوى لا يكون قد فعل شيئاً ، ونقطة البداية في هذا هي احترام التلميذ لأستاذه وثقته به ، واستحقاق الأستاذ ذلك ، كل ذلك جعلنا نبدأ بذكر آداب العالم والمتعلم من الإحياء ، وها أنت ذا مع الغزالي في ذلك وجهاً لوجه] .

آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنتظم تفاريقها عشر جمل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف ؛ إذ العلم عبادة القلب وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهرة إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والأخباث ، فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن خبائث الأخلاق وأنجاس الأوصاف .

قال الله تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ (التوبة : ٢٨) تنبيهاً للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس ، فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مغسول البدن ولكنه نجس الجوهر ـ أي باطنه ملطخ بالخبائث ـ والنجاسة : عبارة عما يُجتنب ويُطلب البعد منه ، وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهلكات في المآل .

الوظيفة الثانية : أن يقلل علائقه من الاشتغال بالدنيا ، فإن العلائق شاغلة وصارفة ﴿ **ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه** ﴾ (الأحزاب : ٤) ومهما توزعت الفكرة قصّرت عن درك الحقائق ولذلك قيل : (العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلّك فإذا أعطيته كلّك فأنت من إعطائه إياك بعضه على خطر) ، والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدولٍ تفرّق ماؤه فنشّفت الأرض بعضه واختطف الهواء بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزروع .

الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العالم ولا يتأمّر على المعلم بل يلقي إليه زمام أمره بالكلية في كل تفصيل ، ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق . وينبغي أن يتواضع لمعلمه ، ويطلب الثواب والشرف بخدمته . قال الشعبي : « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بغلته ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله ﷺ فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبّل زيد ابن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ »[1] .

فلا ينبغي لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ، ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن

---

(١) الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا : هكذا نفعل . قال الحاكم صحيح الإسناد على شرط مسلم .

الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة ؛ فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهرباً من سبعٍ ضارٍ يفترسه لم يفرّق بين أن يرشده إلى الهرب مشهور أو خامل ، فالحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها إليه كائناً من كان ؛ فلذلك قيل :

العلم حرب للفتى المتعالي　　　كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمعَ وهو شهيد** ﴾ (ق : ٣٧) ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلاً للعلم فهماً ، ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد ، حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقي إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنّة . فليكن المتعلم لمعلمه كأرض دمثة نالت مطراً غزيراً فتشربت جميع أجزائها وأذعنت بالكلية لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقلده وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعها . وقد قال علي رضي الله عنه : (إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تعنته في الجواب ، ولا تلح عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفشي له سراً ولا تغتابن أحداً عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن زلّ قبلت معذرته ، وعليك أن توقّره وتعظّمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته) .

الوظيفة الرابعة : أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ويحيّر ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولاً الطريق الحميدة الواحدة المرضية ، ثم بعد ذلك يصغي إلى المذاهب .

الوظيفة الخامسة : أن لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من أنواعه إلا وينظر فيه نظراً ويطّلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبحّر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه ، فإن العلوم متعاونة وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله ، فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى : ﴿ **وإذْ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم** ﴾ (الأحقاف : ١١) ، قال الشاعر :

ومن يـك ذا فم مُـرٍّ مـريض ‏ يجـد مُرّاً بـه المـاء الـزلالا

فالعلوم « الشرعية » على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإعانة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد عن المقصود ، والقُوّام بها حفظة « الشريعة » كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحدٍ رتبة ، وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في كل فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالأهم . فإن العمر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ، ويكتفي منه بشمه ، ويصرف جمام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة ، ولست أعني به الاعتقاد الذي يتلقفه العامي وراثة أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصين الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبدٍ طهّر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله عنه الذي لو وُزِنَ بإيمان العالمين لرجح [كما شهد له به عمر في رواية صحيحة] .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل ، وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم .

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدريج . وليكن قصده في كل علم يتحراه الترقي إلى ما هو فوقه ؛ فينبغي ألا يحكم على علمٍ بالفساد لوقوع الخُلْفِ بين أصحابه فيه ، ولا بخطأ واحدٍ أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهمْ موجبَ علمهم بالعمل ؛ فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات ، متعللين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ، وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطأ شاهدوه من طبيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصوابٍ اتّفِقَ لواحد ، والكل خطأ ، بل ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ، ولذلك قال علي رضي الله عنه : لا تعرفِ الحقّ بالرجال . اعرفِ الحقّ تعرفْ أهله .

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيئان، أحدهما: شرف الثمرة، والثاني: وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية ، وثمرة الآخر الحياة الفانية فيكون علم الدين أشرف .

ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقة أدلته وقوتها ، وإنْ نُسِبَ الحساب إلى الطب كان أشرف ، وبهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله ، والعلم بالطريق الموصّل إلى هذه العلوم .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميله بالفضيلة ، وفي المآل القرب من الله سبحانه ، والترقي إلى جوار الملأ الأعلى من الملائكة والمقربين ، ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه ومماراة السفهاء ومباهاة الأقران ، ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحقارة إلى سائر العلوم ، أعني علم الفتاوى ، وعلم النحو واللغة المتعلّقين بالكتاب والسنة وغير ذلك من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ، ولا تفهمن من غُلوّنا في الثناء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم ، فالمتكفلون بالعلوم كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله ، فمنهم المقاتل ، ومنهم الردء ، ومنهم الذي يسقيهم الماء ، ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدهم ، ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده إعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتوا العلمَ درجات** ﴾(الحشر: ١١) وقال تعالى : ﴿ **هم درجاتٌ عند الله** ﴾(آل عمران : ١٦٣) والفضيلة نسبية.

فلا تظن أن ما نزل عن الرتبة القصوى ساقط القدر ، بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة : ﴿ **فَمَنْ يعملْ مثقالَ ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ (الزلزلة : ٧،٨) ومن قصد الله تعالى بالعلم أيّ علمٍ كان نَفَعَه ورَفَعَه لا محالة .

الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كيما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره ـ ومعنى المهم : ما يهمك ـ ولا يهمك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نور البصائر ما يجري مجرى العيان فالأهم ما يبقى أبد الآباد ، وعند ذلك تصير الدنيا منزلاً ، والبدن مركباً ،

والأعمال سعياً إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى ففيه النعيم كله ، وإن كان لا يعرفُ في هذا العالم قدره إلا الأقلون .

فتأمل هذا أولاً ، واقبل النصيحة مجاناً ممن قام عليه ذلك غالياً ولم يصل إليه إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف في وظائف المتعلم .

بيان وظائف المرشد المعلم

الوظيفة الأولى : الشفقة على المتعلمين وأن يُجريهم مجرى بنيه ، قال رسول الله ﷺ : « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده »[١] ، بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين ؛ فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية ، والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم ، وإنما المعلم هو المفيد للحياة الأخروية الدائمة ـ أعني معلم علوم الآخرة أو علوم الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا ـ ، وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها ، فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحابّ والتوادّ ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ، ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا ؛ فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى ، وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازلُ الطريق . والترافق في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التوادّ والتحابّ ، فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والترافق في طريقه ؟ ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازعٌ ، ولا سعة في سعادات الدنيا ، فلذلك لا ينفك عن ضيق التزاحم ، والعادلون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ (الحجرات : ١٠) وداخلون في مقتضى قوله تعالى : ﴿ **الأخلاءُ يومئذٍ بعضهمْ لبعضٍ عدوٌ إلا المتقين** ﴾ (الزخرف : ٦٧) .

الوظيفة الثانية : أن يقتدي بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجراً ، ولا يقصد به جزاء ، ولا شكراً بل يعلّم لوجه الله تعالى ، وطلباً للتقرب

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان .

إليه ، ولا يرى لنفسه منة عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأنْ تتقربَ إلى الله تعالى بزراعة العلوم فيها ، كالذي يعيرك الأرض لتزرع فيها لنفسك زراعة فنفعتك بها تزيد على منفعة صاحب الأرض ، فكيف تقلده منّة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل حكاية عن نوح عليه السلام : ﴿ **ويا قومِ لا أسألكم عليه مالاً إنْ أجريَ إلا على الله** ﴾ (هود : ٢٩) .

الوظيفة الثالثة : أن لا يدع من نصح المتعلم شيئاً وذلك كأن يمنعه من التصدّي لرتبة قبل استحقاقها ، والتشاغل بعلم خَفيّ قبل الفراغ من الجليّ ، ثم ينبهه على أن الغرض بطلب العلوم القرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس ما يصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده .

الوظيفة الرابعة : وهي من دقائق صناعة التعليم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح . وبطريق الرحمة لا بطريق التوبيخ ، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة ، ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ، ويهيّج الحرص على الإصرار ، وينبهك على هذا قصةُ آدم وحواء عليهما السلام وما نُهيا عنه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمراً بل لتتنبه بها على سبيل العبرة ، ولأن التعريض أيضاً يُميل النفوس الفاضلة والأذهان الذكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح التفطن لمعناه رغبة في العلم به ليعلم أن ذلك مما لا يعزب عن فطنته .

الوظيفة الخامسة : أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبّحَ في نفس المتعلم العلوم التي وراءه، كمعلم اللغة إذْ عادته تقبيح علم الفقه، ومعلم الفقه عادته تقبيح علم الحديث والتفسير ، وأن ذلك نقلٌ محضٌ وسماع وهو شأن العجائز ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفّر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تجتنب بل المتكفل بعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره ، وإن كان متكفلاً بعلوم فينبغي أن يراعى التدريج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

الوظيفة السادسة : أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقي إليه ما لا يبلغه عقله فينفره أو يخبط عليه عقله ، اقتداء في ذلك بسيد البشر ﷺ . فليبثّ إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها ، وقال ابن مسعود كما أخرج مسلم : « ما أحدٌ يحدثُ قوماً بحديثٍ لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم»، وقال علي رضي الله عنه ـ وأشار إلى صدره ـ: «إن ههنا لعلوماً جمة لوجدت لها حملة»، وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغي أن يفشي العالم كل ما يعلم إلى كل أحدٍ ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلاً للانتفاع به فكيف فيما لا يفهمه ؟ ولذلك قيل : كِلْ لكلّ عبدٍ بمعيار عقله ، وزِنْ له بميزان فهمه ، حتى تسلَم منه وينتفع بك وإلا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق :

فمن منحَ الجهالَ علماً أضاعهُ ومَنْ منعَ المستوجبين فقد ظلمْ

الوظيفة السابعة : أن المتعلم القاصر ينبغي أن يُلقي إليه الجلي اللائق به ، ولا يُذكر له أنّ وراء هذا تدقيقاً وهو يدخره عنه ؛ فإن ذلك يفتر رغبته في الجلي ، ويشوش عليه قلبه ، ويوهم إليه البخل به عنه ؛ إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله ، وأشدهم حماقة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكمال عقله . وبهذا يعلم أن من تقيد من العوام بقيد الشرع ورسّخ في نفسه العقائد المأثورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل ، وحسن مع ذلك سريرته ، ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك ، فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده ، بل لا ينبغي أن يُخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة ، بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعليم الأمانة في الصناعات التي هم بصددها ، ويملأ قلوبهم من الرغبة والرهبة في الجنة والنار كما نطق به القرآن ، ولا يحرّك عليهم شبهة ؛ فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويعسر عليه حلها فيشقى ويهلك .

الوظيفة الثامنة : أن يكون المعلم عاملاً بعلمه فلا يكذّبَ قوله فعله ، لأن العلم يُدركُ بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار ، وأرباب الأبصار أكثر . فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ، وكل من تناول شيئاً وقال للناس : لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نُهوا عنه فيقولون : لولا أنه أطيب الأشياء وألذها لما كان يستأثرُ به . ومَثَلُ المعلم المرشد من المسترشدين مثل النقش من الطين ، والظل من العود فكيف ينتقش

الطين بما لا نقش فيه ، ومتى استوى الظلُّ والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لا تَنْــــهَ عن خلــقٍ وتــــأتيَ مثلَـــــهُ   عــــارٌ عليـــــك إذا فعلــتَ عظيــمُ

وقال تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ (البقرة : ٤٤) ، ولـذلـك كان وزر العالِم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بزلته عالَم كثير ويقتـدون بـه . ومن سنَّ سنة سيئة فعليه وزرهـا ووزر من عمل بهـا . ولـذلـك قـال علي رضي الله عنـه : « قصم ظهري رجلان : عـالم متهتـك ، وجـاهـل متنسـك ؛ فـالجـاهـل يغر النـاس بتنسكـه ، والعـالم يغرهم بتهتكه » . والله أعلم .

☆ ☆ ☆

الباب الثاني

أمهات في وسائل التزكية :

١ ـ الصلاة .

٢ ـ الزكاة والإنفاق .

٣ ـ الصوم .

٤ ـ الحج .

٥ ـ تلاوة القرآن .

٦ ـ الذكر .

٧ ـ التفكر في خلق الله .

٨ ـ تذكّر الموت ، وقصر الأمل .

٩ ـ المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمعاتبة .

١٠ ـ الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

١١ ـ الخدمة والتواضع .

١٢ ـ معرفة مداخل الشيطان على النفس . وقطع الطريق عليها .

١٣ ـ معرفة أمراض القلوب وكيفية الخلاص منها .

تقديم

[هناك خلاف فلسفي حول : هل هناك انفصال بين الوسائل والمقاصد والآثار أو أن هناك تسلسلاً فقط، فالمسألة نسبية فكل وسيلة هي غاية بالنسبة لغيرها، وكل غاية هي وسيلة لغيرها، والنتائج نفسها لا تخرج عن كونها غايات ووسائل لشيء آخر ، وأيا كانت نتائج النقاش هذه فعملية التعليم والتسهيل والعرض تقتضي تفصيلاً تذكر فيه الوسائل على حدة ، والغايات على حدة ، والآثار والنتائج على حدة ، وإن كان هناك تداخل في النهاية ، ولا يظهر هذا التداخل كظهوره فيما نحن فيه من كلام عن التزكية .

فالصلاة وسيلة من وسائل التزكية، وهي المظهر الأرقى للعبودية والشكر، فهي إذن هدف في حدّ ذاتها فهي غاية ووسيلة . وبقدر ما تؤدى الصلاة على كمالها تكون علامة على أنّ النفس مزكّاة والقلب مطهَّر . فإقامتها على الكمال والتمام وسيلة وغاية وأثر ، وقل مثلَ هذا في أشياء كثيرة من هذه الأبحاث .

ومع هذا فليس أمامنا خيار إلا أن تقسّم أبحاثنا في هذا الكتاب إلى : وسائل التزكية ، وحقيقة التزكية ، وآثار التزكية وثمارها ، وهذا مضمون الأبواب الثلاثة القادمة .

والمراد بوسائل التزكية : هي الأعمال التي تؤثر تأثيراً مباشراً على النفس بأن تشفيها من مرض أو تخرجها من أسر أو تحققها بخلق ، وقد يجتمع هذا كله في عمل ، فأداء الصلاة مثلاً يخرج الإنسان من التكبر على الله ربّ العالمين ، وفي الوقت نفسه تنوّر الصلاةُ القلبَ فينعكس ذلك على النفس أن تترك الفحشاء والمنكر .

فنحن في باب وسائل التزكية سنتحدث عن مثل هذه الأعمال التي تترك أثرها في النفس فتتخلّص النفس بذلك من مرض أو تتحقق بمقام إيماني أو خلق إسلامي .

ومع أن أعمال الإسلام كلها يمكن أن تدخل في مثل هذا فإننا سنقتصر على بعض الأعمال التي هي أوضح من غيرها تأثيراً في النفس ، ومع أن التوبة محلّها ههنا فقد أخرناها إلى الباب الثالث حيث جعلناها هناك لقوّة محلّها في مقامات الإيمان واليقين .

ولأن معرفة مداخل الشيطان على النفس ، ومعرفة أمراض القلوب وكيفية الخلاص منها

شيء لابد منه لمريد التزكية فقد أدخلنا هذين الموضوعين في وسائل التزكية وفيا بين يدي هذا الباب رأينا أن نجول جولة عامة :

الفطرة البشرية قابلة لأن تتمرّغ بالنجاسات المعنوية كالشرك ، قال تعالى : ﴿ **إنّما المشركون نجس** ﴾ (التوبة : ٢٨) ولأن تتمرّغ بأوحال الشهوانية الخاطئة : ﴿ **فَخَلَفَ من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتّبعوا الشهوات** ﴾ (مريم : ٥٩) ولأن تتمرّغ بأنواع من أخلاق الحيوان التي لا تصلح للإنسان : ﴿ **إن هُمْ إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً** ﴾ (الفرقان : ٤٤) كما أن عند النفس قابلية لأن تنازع الربوبية مقامات كالكبر والعظمة ، ثم إنّ النفس تغشاها ظلماتٌ فلا ترى الحقائق كما هي فعندما نقول : تزكية النفس فالمراد تخليص النفس من نجاساتها ومن شهوانيتها الخاطئة وحيوانيتها الهابطة ومن منازعتها الربوبية وتخليصها من كل أنواع الظلمات وإنما بعث الرسل عليهم الصلاة والسلام لمثل هذا .

☆ ☆ ☆

والإنسان بينه وبين الحيوان قدْرٌ مشترك مما تحتاجه الحياة ، فليس كلامنا في مثل هذا ، وارتبطتْ بأنواعٍ من الشهوات المشروعة مصالحُ مشروعة فليس كلامنا عن مثل هذه ، وقد جعل الله عند الإنسان استعداداً للتخلق بكمالات من مثل الحلم والرحمة وجعل له صفات من مثل السمع والبصر ، فهذا القدْرُ من الكمالات التي يتصف بها الإنسان ، وهي من أوصاف الله ، ليست داخله فيما نحن فيه ، فإذا ما اعتقد الإنسان تنزيه الله وأعطى العبودية حقها ، لا يكون داخلاً فيما ذكرنا ، من منازعة الله أوصاف الربوبية .

☆ ☆ ☆

والتكليفات الإلهية تنصب على ما فيه صلاح الفرد والمجموع ، ولا صلاح للفرد والمجموع إلا بتزكية نفس الفرد ، لذلك كان من أهم التكليفات الربانية ما به تزكو الأنفس .

ونقطة البداية والنهاية في التكليف الرباني التوحيد فهو الذي يطهر النفس من أدران الشرك ، وما يستتبعه الشرك من عُجْبٍ وغرور وكِبْرٍ وحسد وغير ذلك ، وبقدر ما يتعمق التوحيد في النفس تزكو وتتحقق بثمرات التوحيد من صبر وشكر وعبودية وتوكل ورضا

وخوف ورجاء وإخلاص وصدق ...

لذلك كان التوحيد هو البداية والنهاية ، ومع أنه هو الوسيلة الأولى في تزكية النفس فقد ذكرناه في الباب الثالث حيث الكلام عن مقامات الإيمان واليقين .

ومن هنا جعلنا الوسيلة الأولى في زكاة النفس هي الصلاة ، فالصلاة بسجودها وركوعها وأذكارها تطهّر النفس من التكبر على الله ، وتذكّر النفس بالاستقامة على أمره : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ (العنكبوت : ٢٥) فهي وسيلة من وسائل التزكية ، ثم ذكرنا بعد ذلك ما اعتبرناه أدخل في الوسائل ، فالزكاة والإنفاق يطهران النفس من البخل والشح ، ويعرفان الإنسان أنّ المالك الحقيقي للأشياء هو الله ولذلك كانا وسيلتين من وسائل التزكية : ﴿ **الذي يُؤْتي ماله يتزكّى** ﴾ (الليل : ١٨) والصوم تعويد للنفس على ضبط شهوتي البطن والفرج فهو وسيلة من وسائل التزكية : ﴿ **كُتِبَ عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ (البقرة : ١٨٢) والحج تعويد للنفس على الترفع عن الرفث وعلى ترك الفسوق والجدال وغير ذلك فهو وسيلة من وسائل تزكية النفس : ﴿ **فمنْ فَرَضَ فيهن الحجَّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدال في الحج** ﴾ (البقرة : ١٩٧) وتلاوة القرآن تذكر النفس بكل الكمالات فهي وسيلة من وسائل تزكية النفس : ﴿ **وإذا تُليتْ عليهم آياتهُ زادتهم إيماناً** ﴾ (الأنفال : ٢) والأذكار هي التي تعمق الإيمان والتوحيد في القلب : ﴿ **ألا بذكر الله تطمئنُ القلوب** ﴾ (الرعد : ٢٨) وبذلك تصل النفس إلى أعلى درجات التزكية : ﴿ **يا أيتها النفسُ المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ (الفجر : ٢٧، ٢٨) .

والذكر والفكر توأمان في تفتيح قلب الإنسان على آيات الله ، ولذلك كان التفكر وسيلة من وسائل التزكية : ﴿ **إنَّ في خلقِ السموات والأرض واختلافِ الليل والنهار لآيات لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار * ربنا إنك من تُدْخِلِ النارَ فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار * ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أنْ آمنوا بربكم فآمنا ...** ﴾ (آل عمران : ١٩٠ ـ ١٩٣) .

فما استخرج هذه المعاني من القلب إلا اجتماع الذكر والفكر .

ومهما شردت النفس عن باب الله أو تكبرت وتجبرت أو غفلت فذكر الموت يرجعها إلى عبوديتها ، ويعرفها أنها مقهورة : ﴿ **وهو القاهر فوق عباده ويرسلُ عليكم حَفَظَةً حتى إذا جاء أحدَكم الموتُ توفّتهُ رسلنا وهم لا يفرطون** ﴾ (الأنعام : ٦١) لذلك كان تذكر الموت من وسائل التزكية : ﴿ **أو لَمْ ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله منْ شيء وأنْ عسى أنْ يكون قد اقتربَ أجلهم فبأيِّ حديثٍ بعده يؤمنون** ﴾ (الأعراف : ١٨٥) ، والمحاسبة اليومية للنفس ومراقبة الله فيها تجعل الفيئة سريعة ، والترقي متزيداً متجدداً لذلك كانت المحاسبة من وسائل التزكية ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدمت لغدٍ** ﴾ (الحشر : ١٨) ، وقد تُغلبُ النفس على أمرها فتقع في الغفلة أو المعصية أو الشهوة فلابد من مجاهدة حتى ترجع قال تعالى : ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾ (العنكبوت : ٦٩) ، لذلك كانت المجاهدة وسيلة من وسائل التزكية .

ولا يعمق معنى الخير في النفس كأمرها به ، ولا يعمق نفارها من الشر كنهيها عنه ، لذلك كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيلة من وسائل تزكية النفس ، حتى إن الذين لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ليستأهلون اللعنة ، وأي شيء في تدسية النفس أكبر من أن تكون ملعونة : ﴿ **لُعِنَ الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه** ﴾ (المائدة : ٧٨، ٧٩) .

واربط بين قوله تعالى : ﴿ **قد أفلحَ من زكّاها** ﴾ (الشمس : ٩) وبين قوله تعالى : ﴿ **ولتكنْ منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران : ١٠٤) لاحظ كلمة ﴿ **المفلحون** ﴾ لتدرك أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير وسيلة من وسائل التزكية .

وإذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من وسائل التزكية فالجهاد كذلك ؛ لأنه نوع من تعميق الخير والمعروف وإضعاف المنكر ، ولذلك كانت الشهادة في سبيل الله محّاءة الخطايا ، إنّ الذي يجاهد في سبيل الله يخرج مباشرة من عقد الخوف والشح إذ يهجم على الموت بائعاً نفسه لله عز وجل ﴿ **إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة**

يَقاتلون في سبيل الله فَيقتلون ويُقتلون .. ﴾ (التوبة : ١١١) ولا يفعل ذلك على الكمال والتمام إلا من وصفهم الله بقوله : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشّرِ المؤمنين** ﴾ (التوبة : ١١٢) ، فالجهاد من وسائل التزكية بل هو من أرقاها ولا يُقْبلُ عليه في الغالب إلا زكيٌّ النفس .

ومن وسائل تزكية النفس الخدمة العامة والخاصة والتواضع فإنهما ينفيان الكبر ، والعجب ، ويعمقان الألفة والتوادد وقد أُمر به رسول الله ﷺ : ﴿ **واخفضْ جناحكَ للمؤمنين** ﴾ (الحجر : ٨٨) .

ومن وسائل التزكية التوبة لأنها هي التي تصحح مسار النفس كلما انحرفت ، وهي التي ترد النفس إلى نقاط الانطلاق الصحيحة ، وهي التي تحول بين النفس وبين استمرارها في الخطأ لذلك يتكرم الله على أصحابها بأن يجعل سيئاتهم حسنات : ﴿ **إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات** ﴾ (الفرقان : ٧٠) .

ومع أن التوبة هذا شأنها فقد ألحقناها في الباب اللاحق لملحظٍ رأيناه ، وما عدا ذلك ممّا ذكرناه فقد تحدّثنا عنه في هذا الباب كوسيلة من وسائل التزكية ، مع فصلين اعتبرناهما ألصق بالوسائل : معرفة مداخل الشيطان ، ومعرفة الخلاص من أمراض النفس .

هذه أمهات في وسائل التزكية العامة ، وهناك أنواع من التزكية الخاصّة لأمراض خاصّة ، وبقدر ما تقام الوسيلة كاملة يكون لها أثرها الكامل وبقدر النقص فيها تنقص آثارها .

وقد التزمنا في هذا الكتاب أن نذكّرَ بما غفل عنه الناس ، ولذلك فنحن سنختار من الإحياء ما كان كذلك ، ومن هاهنا تخيّرنا أن ننقل الكلام عن المعاني الباطنة في أبحاث الصلاة والزكاة والصوم والحج وتلاوة القرآن ، لأن العبادات الرئيسة في الإسلام منوِّرة ومطهّرة بقدر ما تُلاحظ معانيها الباطنة ، فهي تؤثر التأثير الكامل إذا كانت كاملة بحيث يرافق عمل الظاهر فيها عمل الباطن ، كأنْ يرافق الصلاة الخشوع ، والزكاة حسن النيّة ، وتلاوة القرآن حسن التدبّر ، والذكر الحضور ، هذا النوع من الأداء هو المنور المطهّر على الكمال والتمام ، ولما كان الجانب القلبي من هذه الأمور قد حدث فيه الوهن والنقص عند السائرين إلى الله ؛ فقد انصبّ

الاختيار من كلام الغزالي عليه ، لأن ما سواه يؤخذ ويعطى في العادة بحيث لا يغيب عن الذين يعيشون في البيئات الإسلامية] .

فإلى الفصل الأول من فصول هذا الباب .

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

في الصلاة

[الصلاة هي الوسيلة العظمى في تزكية النفس ، وهي في الوقت نفسه علم وميزان على تزكية النفس ، فهي وسيلة وغاية بآن واحد ، فهي تعميق لمعاني العبودية والتوحيد والشكر ، وهي ذكر وقيام وركوع وسجود وقعود ، فهي إقامة للعبادة في الهيئات الرئيسية لوضع الجسد ، وإقامتها قطع لدابر الكبر والتمرد على الله واعتراف لله بالربوبية والتدبير فإقامتها على كمالها وتمامها قطع لدابر العجب والغرور بل قطع لدابر المنكر كلّه والفحشاء كلّها :

﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ (العنكبوت : ٢٩) .

وإنما تكون الصلاة كذلك إذا أقيمت بأركانها وسننها وتحقق صاحبها بأدب الظاهر والباطن ، ومن آداب الظاهر أداؤها كاملة بالجوارح ، ومن آداب الباطن الخشوع فيها ، والخشوع هو الذي يجعل للصلاة الدور الأكبر في التطهير ، والدور الأكبر في التحقق والتخلّق ، وتزكية النفس تدور حول هذا ، وإذ كانت أفعال الصلاة الظاهرة لا تغيب عن مسلم يعيش في البيئة الإسلامية ، فسنقتصر ههنا على ذكر آداب الباطن وهو الذي يسمّى بعلم الخشوع :

قال عليه الصلاة والسلام :

« أولُ عِلْمٍ يُرفعُ من الأرض الخشوع » أخرجه الطبراني بسند حسن .

وإذ كان الخشوع هو أول علامات المفلحين :

﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ (المؤمنون : ١، ٢) .

وإذ كان أهل الخشوع هم أهل البشارة من الله :

﴿ **وبشر المُخبتين * الذين إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم والصابرين على ما أصابهم والمقيمي الصلاة ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (الحج : ٣٤، ٣٥) .

إذا كان الخشوع هذا شأنه ففقدانه يعني فساد القلب وفساد الحال ، وصلاح القلب وفساده عليهما مدار الصلاح والفساد :

« إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » أخرجه البخاري ومسلم .

☆ ☆ ☆

إن الخشوع هو المظهر الأرقى لصحة القلب،فإذ يرتفع علم الخشوع فهذا يعني أن القلب المسلم قد خرب ، فما ذهب الخشوع إلا وقد غُلِبَ القلب بأمراض خطيرة وأحوال شريرة كحب الدنيا والتنافس عليها ، ومتى غلب القلب بالأمراض فَقَدَ التطلع إلى الآخرة ، ومتى وصل إلى ذلك فلا صلاح للمسلمين ، فحب الدنيا يعقبه التنافس عليها ، والتنافس عليها لا يقوم به أمر دنيا ودين .

☆ ☆ ☆

إن فقدان الخشوع علامة على فقدان القلب حياته وحيويته فالموعظة فيه لا تؤثر ، والأهواء فيه غلابة ، وتصوّرْ بعد ذلك كيف يكون الحال ؟ عندما تتغلب الأهواء ولا ينفع وعظ ولا تذكير فعندئذ تتغلب الشهوات ويقوم سوق التنافس على الجاه والغلبة والسيطرة والمال والشهوات ، وهذه إذا سيطرت لا يصلح معها دنيا أو دين !

☆ ☆ ☆

والخشوع علم بنص الحديث النبوي ، وهذا العلم قلَّ العارفون به ، فإذا ظفرت أيها المسلم بالخاشع الذي يستطيع أن يوصلك إلى الخشوع فتمسك به فإنه العالم حقاً إذ هذه علامة علماء الآخرة :

﴿ إنَّ الذين أوتوا العلم من قَبلِه إذا يُتلى عليهم يخرّون للأذقان سُجَّداً * ويقولون سبحانَ ربنا إنْ كان وعدُ ربنا لمفعولاً * ويخرّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ (الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩) .

☆ ☆ ☆

إن علم الخشوع مرتبط بعلم تصفية القلوب من أمراضها وتحققها بصحتها وذلك باب واسع ، ولذلك فعلماء الآخرة يبدأون بتلقين السالك إلى الله الذكر والحكمة حتى يحيا قلبه ، فإذا حيي قلبه نقوه من الأوصاف الذميمة ودلوه على الأوصاف الحميدة ، وههنا يأتي تعويد قلبه على الخشوع من خلال الحضور مع الله ، والتأمل في المعاني ولكل ذلك طريقةُ المشروعُ عندهم .

وأبحاث هذا الكتاب كلها تساعد في النهاية على التحقق بالخشوع ، فإذا اجتمع لك معها الاجتماع بالصالحين الخاشعين فذلك يعين على الوصول إلى الخشوع .

والخشوع في الصلاة هو ميزان خشوع القلب فبقدر ما تخشع في صلاتك فذلك علامة الخشوع في قلبك ، وقد اخترنا من كتاب الصلاة للغزالي هذا الجانب فقط فَهَاكَهُ وحاول التحقّقَ به] .

قال الغزالي رحمه الله :

ولنذكرْ ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها . ثم لنذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الآخرة .

بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب في الصلاة

اعلمْ أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ **أقم الصلاة لذكري** ﴾ (طه : ١٤) وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر ، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى : ﴿ **ولا تكنْ من الغافلين** ﴾ (الأعراف : ٢٠٥) نهي ظاهره التحريم وقوله عز وجل : ﴿ **حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ (النساء : ٤٣) تعليل لنهي السكران وهو مُطَّرِدٌ في الغافل المستغرق الهمَّ بالوسواس وأفكار الدنيا . وقوله ﷺ : « إنما الصلاة تمسكن وتواضع » حصر بالألف واللام وكلمة « إنما » للتحقيق والتوكيد وقال ﷺ : « كَمْ من قائمٍ حظُّهُ من صلاته التعبُ والنصب »[1] وما أرادَ به إلا الغافل والتحقيق أن المصلي مُنَاجٍ ربَّهُ عز وجل ، كما ورد به الخبر[2] ، والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة ، وبيانه أن الزكاة إن غفل

---

(١) أخرجه النسائي ولأحمد « رب قائم حظه من صلاته السهر » وإسناده حسن .

(٢) متفق عليه .

الإنسان عنها مثلاً فهي في نفسها مخالفة للشهوة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهرٌ للقوى كاسر لسطوة الهوى الذي هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلبُ حاضراً مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه محاورة ومناجاة مع الله عز وجل فإما أنْ يكون المقصود منه كونه خطاباً ومحاورة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحاناً للسان بالعمل .

ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهذيان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث إنه عمل بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق ، ولا يكون نطقاً إلا إذا أعربَ عما في الضمير ، ولا يكون معرباً إلا بحضور القلب ، فأي سؤال في قوله ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ (الفاتحة : ٦) إذا كان القلب غافلاً ؟ وإذا لم يقصد كونه تضرعاً ودعاء فأي مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد ؟ هذا حكم الأذكار .

ولا شك أن المقصود من القراءة والأذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، وأما الركوع والسجود فالمقصود بها التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظماً لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظماً للحائط الذي بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيماً لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ، ويقدم على الحج وسائر العبادات ، ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها المقصود وهو المناجاة، فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتنقيص المال قال الله تعالى : ﴿ **لن ينالَ الله لحومها ولا دماؤها ولكنْ يناله التقوى منكم** ﴾ (الحج : ٣٧) أي الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوبة فكيف الأمر في الصلاة ؟ فهذا ما يدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب .

وقد نقلَ عن بشر بن الحارث فيما رواه عنه أبو طالب المكي عن سفيان الثوري أنه قال : مَنْ لم يخشع فسدت صلاته. وروي عن الحسن أنه قال: كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف مَنْ على يمينه وشماله متعمداً وهو في الصلاة فلا

صلاة لـه . قـال رسـول الله ﷺ : « إن العبـد ليصلي الصلاة لا يُكتب لـه سـدسهـا ولا عشرها »[١] ، وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاتـه إلا مـا عقل منها . فجعله إجماعاً ، ومـا نقل من هـذا الجنس عن الفقهـاء المتورّعين وعن علمـاء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار ، والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا أن مقـام الفتـوى في التكليف الظـاهر يتقـدر بقـدر قصـور الخلـق . فـلا يمكن أن يشترط على النـاس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلـك يعجز عنـه كل البشر إلا الأقلين ، وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مردّ له ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغـافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالكلية ، فإنه على الجملة أقدم على العمل ظاهراً وأحضر القلب لحظـة . وكيف لا والذي صلى مع الحدث ناسياً صلاته باطلة عند الله تعـالى ، ولكن لـه أجر مـا بحسب فعله ، وعلى قدر قصوره وعذره ، ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أفتوا به من الصحـة مع الغفلة فإن ذلـك من ضرورة الفتوى ـ كما سبق التنبيـه عليـه ـ ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها .

وحـاصل الكلام : أن حضور القلب هو روح الصلاة ، وأن أقل مـا يبقى بـه رمـق الروح الحضور عنـد التكبير . فـالنقصـان منـه هلاك وبقـدر الـزيـادة عليـه تنبسـط الروح في أجـزاء الصلاة . وكم من حي لا حراك به قريب من ميت . فصلاة الغافل في جميعها إلا عنـد التكبير كمثل حي لا حراك به.نسـأل الله حسن العون .

بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

اعلم أن هـذه المعـاني تكثر العبـارات عنهـا ولكن يجمعهـا ست جمل وهي : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم ، والهيبة ، والرجـاء ، والحيـاء . فلنـذكر تفـاصيلهـا ثم أسبـابهـا ثم العلاج في اكتسابها . أما التفاصيل :

فالأول : حضور القلب ونعني به أن يفرّغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم بـه ،

---

(١) أخرجه أبو داود والنسـائي وابن حبان من حديث عمار بن ياسر .

فيكون العلم بالفعل مقروناً بـه ، ولا يكون الفكر جـائلاً في غيره ، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ، ولم يكن فيه غفلـة ، فقـد حصل حضور القلب .

ولكن التفهم : لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب،فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ ؛ فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الـذي أردنـاه بـالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه ، إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحـات . وكم من معانٍ لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ، ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجـه كانت الصلاة نـاهيـة عن الفحشـاء والمنكر ، فـإنهـا تفهم أمـوراً ؛ تلـك الأمـور تمنـع عن الفحشاء لا محالة .

وأمـا التعظيم : فهو أمر وراء حضور القلب والفهم ؛ إذ الرجل يخـاطب عبـده بكلام هـو حاضر القلب فيه ، ومتفهم لمعناه ، ولا يكون معظماً له ؛ فالتعظيم زائد عليهما .

وأمـا الهيبـة : فزائـدة على التعظيم بل هي عبـارة عن خـوف منشـؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هـائبـاً ، والمخـافـة من العقرب وسوء خلق العبـد ومـا يجري مجراه من الأسبـاب الخسيسة لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابـة ، والهيبـة خوف مصـدره الإجلال .

وأما الرجاء : فلا شك أنه زائـد فكم من معظم ملكاً من الملوك يهـابـه أو يخـاف سطوتـه ولكن لا يرجو مثوبتـه . والعبـد ينبغي أن يكون راجيـاً بصلاتـه ثواب الله عز وجل ، كما أنـه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل .

وأمـا الحيـاء : فهو زائـد على الجملـة لأن مستنـده استشعـار تقصيرٍ وتـوهم ذنب ويتصـوّر التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

وأما أسباب هذه المعاني الستة :

فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تـابع لهمتـك فلا يحضر إلا فيما يهمـك ، ومهما أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى ؛ فهو مجبول على ذلـك ومسخر فيـه . والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جـائلاً فيما الهمـة مصروفـة إليـه من أمور الـدنيـا ، فلا حيلـة ولا عـلاج لإحضـار القلب إلا بصرف الهمـة إلى الصـلاة ، والهمـة لا تنصرف إليهـا مـا لم يتبين أن

الغرض المطلوب منوط بها ، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى ، وأن الصلاة وسيلة إليها ، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهانتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر ممن لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عند المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والملكوت والنفع والضر فلا تظنن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان بطريق ذلك .

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى ، وعلاجه هو في إحضار القلب مع الإقبال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر . وعلاج دفع الخواطر الشاغلة قطع موادها ، أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها . وما لم تنقطع تلك المواد لا تنصرف عنها الخواطر ، فمن أحب شيئاً أكثر ذكره ، فذكر المحبوب يهجم على القلب بالضرورة ، لذلك ترى أن من أحب غير الله لا تصفو له صلاة عن الخواطر .

وأما التعظيم فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين ، إحداهما : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان ، فإن من لا تُعتقد عظمته لا تذعن النفس لتعظيمه . الثانية : معرفة حقارة النفس وخستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، وما لم تمتزج معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغني عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غيره صفات العظمة ، ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله ، لأن القرينة الأخرى - وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها - لم تقترن إليه .

وأما الهيبة والخوف فحالة للنفس تتولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة ، هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع عدم القدرة على الدفع . وبالجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة .

وأما الرجاء فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه ، وعميم إنعامه ، ولطائف صنعه ، ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة .

وأما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة ، وعلمه بالعجز عن القيام بعظيم حق الله عز وجل ، ويقوى ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها ، وقلة إخلاصها ، وخبث دخيلتها ، وميلها إلى الحظ العاجل في جميع أفعالها ، مع العلم بعظيم ما يقتضيه جلال الله عز وجل ، والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقّتْ وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء .

فهذه أسباب هذه الصفات ، وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضارُ سببه ، ففي معرفة السبب معرفة العلاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان ، واليقين ، وبقدر اليقين يخشع القلب .

وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يقيم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها ، وإلى من يقيم ولم يغب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه ، [حتى إنّ] جماعة كانت تصفرُّ وجوههم وترتعد فرائصهم . وكل ذلك غير مستبعد ، فإن أضعافه مشاهدٌ في همّ أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا ، مع عجزهم وضعفهم ، وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم حتى يدخل الواحد على ملكٍ أو وزير ويحدّثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عن حواليه أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر على الإخبار عنه ؛ لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه : ﴿ **ولكل درجات مما عملوا** ﴾ (الأنعام : ١٣٢) فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه ؛ فإن موقعَ نظر الله سبحانه القلوبُ .

ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لابد أن يكون معظماً لله عز وجل وخائفاً منه وراجياً له ومستحيياً من تقصيره ، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدر قوّة يقينه فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرّق الفكر ، وتقسيم الخاطر ، وغيبة القلب عن المناجاة ، والغفلة عن الصلاة . ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطرُ الواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ، ولا يُدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه ، وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمراً في ذاته باطناً .

أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإنّ ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تنجرّ منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سبباً للافتكار ، ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يُلْهِهِ ما جرى على حواسه ، ولكن الضعيف لابدّ وأن يتفرّق به فكره . وعلاجه قطع هذه الأسباب ، بأن يغضّ بصره ، أو يصلي في بيت مظلم ، أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه ، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره . ويحترز من الصلاة على الشوارع ، وفي المواضع المنقوشة المصنوعة ، وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير ليكون ذلك أجمع لهم . والأقوياء منهم كانوا يغضون البصر ولا يجاوزون به موضع السجود ، ويرون كمال الصلاة في أن لا يعرفوا مَنْ على يمينهم وشمالهم . وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعه ولا كتاباً إلا محاه .

وأما الأسباب الباطنة فهي أشدّ فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لا ينحصر فكره في فن واحد ، بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وغض البصر لا يغنيه ، فإن ما وقع في القلب من قبل كافٍ للشغل ، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ، ويعينه على ذلك أن يستعدّ له قبل التحريم بأن يجدّد على نفسه ذكر الآخرة ، وموقف المناجاة ، وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه ، فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله ﷺ لعثمان بن طلحة : « إني نسيت أن أقول لك أن تخمر القدر الذي في البيت ، فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم »[1] فهذا طريق تسكين الأفكار . فإن كان لا يسكن هوائج أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا ينجيه إلا الذي يقمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة الشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته ، وأنها إنما صارت مهمات لشهواته ، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق .

روي أنه ﷺ لما لبس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد

---

(١) أخرجه أبو داود .

صلاته ، وقال ﷺ : « اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي وائتوني بأنبجانية أبي جهم »[١] . وأمر رسول الله ﷺ بتجديد شراك نعله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها ويرد الشراك الخلق[٢] .

[وكان ﷺ في يده خاتم وكان على المنبر فرماه وقال : « شغلني هذا ، نظرة إليه ونظرة إليكم »[٣] . وروي أن أبا طلحة رضي الله عنه صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبسي طار في الشجر يلتمس مخرجاً فأتبعه بصره ساعة ثم لم يدرِ كَمْ صلى ؟ فذكر لرسول الله ﷺ ما أصابه من الفتنة ثم قال : يارسول الله هو صدقة فضعه حيث شئت][٤] .

فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القاطع لمادة العلة ولا يغني غيره .

فأما ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهمم التي لا تشغل إلا حواشي القلب . فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاذبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل الجاذبة ، ولكن مع هذا فلا ينبغي أن تترك المجاهدة وردّ القلب إلى الصلاة ، وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المرّ ولمرارته استبشعته الطباع ، وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالاً ، حتى إنّ الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدّثون أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذن لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

☆ ☆ ☆

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد مرسلاً بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح .

(٤) أخرجه مالك .

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند كل ركن وشرط من أعمال الصلاة

فنقول : حقك إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تغفل أوّلاً عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السوابق : فهي الأذان ، والطهارة ، وستر العورة ، واستقبال القبلة ، والانتصاب قائماً ، والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هولَ النداء يوم القيامة ، وتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة ؛ فإنّ المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته مملوءاً بالفرح والاستبشار ، مشحوناً بالرغبة إلى الابتداء فاعلم أنه يأتيك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال ﷺ : « أرحنا يا بلال »[1] ، أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذْ كانت قرة عينه فيها ﷺ .

وأما الطهارة : فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ، ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى ، فلا تغفل عن لبّك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيراً بالتوبة ، والندم على ما فرّطت ، وتصميم العزم على الترك في المستقبل ، فطهّر بها باطنك فإنه موضع نظر معبودك .

وأما ستر العورة : فاعلم أن معناه : تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق ، فإنّ ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فما بالك في عورات باطنك ، وفضائح سرائرك التي لا يطّلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضائح ببالك ، وطالب نفسك بسترها ، وتحققْ أنه لا يستر عن عين الله سبحانه ساتر . وإنما يغفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكانها فتذلّ بها نفسك ، ويستكين تحت الخجلة قلبك ، وتقوم بين يدي الله عز وجل قيامَ العبد المجرم المسيء الآبق ، الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف .

---

(١) أخرجه الدارقطني ولأبي داود نحوه بإسناد صحيح .

وأما الاستقبال : فهو صرفٌ ظاهرِ وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفَتَرى أنَّ صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوباً منك . هيهات فلا مطلوب سواه . وإنما هذه الظواهر تحريكات للبواطن وضبط للجوارح ، وتسكين لها بالإثبات في جهة واحدة حتى لا تبغي على القلب فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استتبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل ، فليكنْ وجه قلبك مع وجه بدنك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها ، فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه .

وأما الاعتدال قائماً : فإنما هو مثول بالشخص والقلب بين يدي الله عز وجل ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطرقاً مطأطئاً متنكساً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إلزام القلب التواضع والتذلل والتبري عن الترؤس والتكبر ، وليكن على ذكرك ههنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلع عند العرض للسؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطّلع عليك ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك ، وتخشع جوارحك ، وتسكن جميع أجزائك .

وأما النية : فاعزمْ على إجابة الله عز وجل في امتثال أمره بالصلاة ، وإتمامها ، والكف عن نواقضها ومفسداتها ، وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه ؛ رجاء لثوابه وخوفاً من عقابه ، وطلباً للقربة منه ، متقلداً للمنة منه بإذنه إياك في المناجاة ، مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظّم في نفسك قدر مناجاته ، وانظر مَنْ تناجي ، وكيف تناجي ، وبماذا تناجي ؟ وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجل ، وترتعد فرائصك من الهيبة ، ويصفرّ وجهك من الخوف .

وأما التكبير : فإذا نطق به لسانك فينبغي أن لا يكذبه قلبك ، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد إنك لكاذب ، وإنْ كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم : إنه ﷺ رسول الله . فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى ، فقد اتخذته إلهك ، وكبرته فيوشك أن يكون قولك : « الله أكبر » كلاماً باللسان المجرّد وقد تخلف القلب عن مساعدته ؛ وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوه .

وأما دعاء الاستفتاح : فأول كلماته قولك : « وجهتُ وجهيَ للذي فطر السموات والأرض » وليس المراد بالوجه الوجهَ الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة ، وإنما وجه القلب هو الذي تتوجه به إلى فاطر السموات والأرض ، فانظر إليه أمتوجهٌ هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق ، متبعٌ للشهوات أو مقبلٌ على فاطر السموات ؟ وإياك أن تكون أوّل مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق . ولنْ ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه ، فاجتهد في الحال في صرفه إليه ، وإن عجزت عنه على الدوام فليكنْ قولك في الحال صادقاً . وإذا قلت : « حنيفاً مسلماً » ، فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده ، فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً ، فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال ، وتندم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت : « وما أنا من المشركين » فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى ﴿ **فمن كان يرجو لقاءَ ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾ (الكهف: ١١٠) نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحمد الناس. وكن حذراً مشفقاً من هذا الشرك ، واستشعر الخجل في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك ، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت : « محياي ومماتي لله » فاعلمْ أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده ، وأنه إنْ صدر ممن رضاهُ وغضبهُ وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمور الدنيا لم يكن ملائماً للحال . وإذا قلت : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاعلم أنه عدوّك مترصدٌ لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وسجودك له مع أنه لُعِنَ بسبب سجدةٍ واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استعاذتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحبُّ الله عز وجل لا بمجرد قولك . .

فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ، ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه يسمعه من غيره ، وهي درجات أصحاب اليمين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان القلب فيترجمه ، وتفصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم** ﴾ فانْوِ به التبركَ لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وافهم أنّ الأمور كلها بالله سبحانه ، فلا جرم كان ﴿ **الحمد لله** ﴾ ومعناه : أنّ الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمةً أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث

إنه مسخر من الله عز وجل ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله تعالى . فإذا قلت : ﴿ الرحمن الرحيم ﴾ فأحضر في قلبك أنواع لطفه لتتضح لك رحمته ، فينبعث بها رجاؤك . ثم استثر من قلبك التعظيم والخوف بقولك : ﴿ مالك يوم الدين ﴾ أما العظمة فلأنه لا ملك إلا له ، وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه . ثم جدّد الإخلاص بقولك : ﴿ إياك نعبد ﴾ وجدّد العجز والاحتياج والتبري من الحول والقوّة بقولك : ﴿ وإياك نستعين ﴾ وتحقق أنه ما تيسرتْ طاعتك إلا بإعانته وأنّ له المنة إذ وفقك لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته . ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان اللعين . ثم إذا فرغت من التعوّذ ومن قولك : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعيّن سؤالك ولا تطلب إلا أهمّ حاجاتك وقل : ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك . وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين ، دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائغين من اليهود والنصارى والصابئين ثم التمس الإجابة وقل : « آمين » فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبه أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي ﷺ : « قسّمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين : نصفها لي ، ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل ... يقول العبد : ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ فيقول الله عز وجل : حمدني عبدي ... »[1] وهو معنى قوله : سمع الله لمن حمده ... فلو لم يكن من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟ وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرؤه من السور ـ كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن ـ فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر مننه وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ؛ والخوف حق الوعيد ؛ والعزم حق الأمر والنهي ، والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق أخبار الأنبياء .

وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى : ﴿ إذا السماء انشقت ﴾ (الانشقاق : ١) اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي مغلوباً عليه ـ وحق له أن يحترق قلبه بوعد سيده ووعيده ، فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر . وتكون هذه

(١) أخرجه مسلم .

المعاني بحسب درجات الفهم ، ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار الكلمات ، فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار والتسبيحات أيضاً . ثم يراعي الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل . ويفرق بين نغماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتمجيد . كان النخعي إذا مرَّ بمثل قوله عز وجل : ﴿ **ما اتخذَّ اللهُ من ولدٍ وما كان معه من إله** ﴾ (المؤمنون : ٩١) يخفض صوته كالمستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به . وروي أنه يقال لقارىء القرآن : « اقرأْ وارقَ ورتل كما كنت ترتل في الدنيا »[1] ، وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القلب مع الله عز وجل على نعت واحد من الحضور قال ﷺ : « إن الله عز وجل مقبلٌ على المصلي ما لم يلتفتْ »[2] ، وكما تجب حراسة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبقبح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجي ليعود إليه . وألزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطناً وظاهراً ثمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خشع الظاهر .

وكان الصدّيق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود . وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك عند من يعرف ملك الملوك ؟ وكل من يطمئن بين يدي غير الله عز وجل خاشعاً ، وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثاً ، فذلك لقصور معرفته عن جلال الله عز وجل ، وعن اطلاعه على سره وضميره . وقال عكرمة في قوله عز وجل : ﴿ **الذي يراك حين تقوم * وتقلبكَ في الساجدين** ﴾ (الشعراء : ١١٨، ١١٩) ، قال : قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه .

وأما الركوع والسجود فينبغي أن تجدّد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه ، وترفع يديك مستجيراً بعفو الله عز وجل من عقابه بتجديد نية ، ومتبعاً سنة نبيه ﷺ . ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بركوعك ، وتجتهد في ترقيق قلبك وتجديد خشوعك ، وتستشعر ذُلّك وعزّ مولاك واتضاعك وعلوّ ربك . وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك ، فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة ، وأنه أعظم من كل عظيم ، وتكرر ذلك على قلبك لتؤكده بالتكرار ، ثم ترتفع من

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) أخرجه أبو دواد والنسائي والحاكم وصحح إسناده .

ركوعك راجياً أنه راحم لـك ، ومؤكـداً للرجـاء في نفسـك بقولـك : « سمع الله لمن حمـده » أي أجاب لمن شكره . ثم تردف ذلـك الشكر المتقـاضي للمزيـد فتقول : « ربنـا لـك الحمـد ، وتكثر بقوله : « ملء السموات وملء الأرض » ثم تهوي إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانـة فتمكن أعزَّ أعضـائـك ـ وهو الوجـه ـ من أذل الأشيـاء وهـو التراب . وإن أمكنـك أن لا تجعـل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فـافعل فـإنـه أجلب للخشوع وأدل على الـذل ، وإذا وضعت نفسـك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنـك من التراب خلقت وإليـه تعود فعند هذا جدّد على قلبك عظمة الله وقل : « سبحان ربي الأعلى » وأكـده بـالتكرار فـإنّ الكرّة الواحدة ضعيفة الأثر ، فإذا رقّ قلبـك وظهر ذلـك فلتصـدق رجاءك في رحمـة الله فـإن رحمته تتسـارع إلى الضعف والـذل لا إلى التكبر والبطر فـارفع رأسـك مكبراً وسـائلاً حـاجتـك وقائلاً « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم » أو ما أردت من الدعـاء . ثم أكـد التواضع بـالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك .

وأما التشهد فإذا جلست لـه فـاجلس متـأدبـاً وصرح بـأن جميع مـا تـدلي بـه من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطـاهرة لله وكـذلـك الملـك لله وهو معنى « التحيـات » وأحضر في قلبك النبي ﷺ وشخصه الكريم وقل « سلام عليـك أيها النبي ورحمـة الله وبركاتـه » وليصـدّق أملـك في أنـه يبلغـه ويرد عليـك مـا هو أوفى منـه . ثم تسلم على نفسـك وعلى جميـع عبـاد الله الصالحين ، ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وافياً بعدد عباده الصـالحين . ثم تشهـد لـه تعالى بالوحدانية ولمحمد نبيه ﷺ بالرسالة مجدّداً عهد الله سبحانه بإعادة كلمتي الشهادة ومستأنفاً للتحصن بها . ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المـأثور مع التواضع والخشوع والضراعـة والابتهـال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك في دعائك أبويك وسائر المؤمنين . واقصد عنـد التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وانْو ختم الصلاة به . واستشعرْ شكرَ الله سبحانه على توفيقه لإتمام هـذه الطاعة . وتوهم أنكِ مودعٌ لصلاتك هذه وأنك ربما لا تعيش لمثلها .

ثم أشعر قلبـك الـوجـل والحيـاء من التقصير في الصـلاة ، وخَفْ أن لا تُقبـلَ صـلاتـك وأن تكون ممقوتاً بذنب ظاهر أو باطن فترد صلاتك في وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلهـا بكرمـه وفضله . كان يحيى بن وثاب إذا صلى مكث ما شـاء الله تعرف عليـه كآبـة الصلاة . وكان إبرهيم يمكث بعـد الصلاة سـاعـة كأنـه مريض . فهـذا تفصيل صلاة الخـاشعين ، الـذين هم في صـلاتهم

خاشعون ... والـذين هم على صلواتهم يحـافظون ... والـذين هم على صلاتهم دائمون . والـذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية. فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة، فبالقـدر الذي يسّر له منه ينبغي أن يفرح وعلى مـا يفوتـه ينبغي أن يتحسر وفي مـداراة ذلـك ينبغي أن يجتهد . وأما صلاة الغـافلين فهي مخطرة إلا أن يتغمـده الله برحمتـه والرحمـة واسعـة والكرم فائض فنسـأل الله أن يتغمدنا برحمته ويغمرنا بمغفرته إذ لا وسيلـة لنـا إلا الاعتراف بـالعجز عن القيام بطـاعتـه . واعلم أنّ تخليص الصلاة عن الآفـات وإخلاصهـا لوجـه الله عز وجل وأداءهـا بـالشروط البـاطنـة التي ذكرنـاهـا من الخشوع والتعظيم والحيـاء سبب لحصول أنوار في القلب ، ويختلف ذلك بالقوّة والضعف والقلة والكثرة وبالجلاء والخفاء .

[ولكنّ] هذه الأمور لا تتراءى إلا في المرائي الصقيلة .

فإذا كانت المرآة كلها صدئة تحتجب عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهدايـة بل لخبث متراكم الصدأ على مصب الهداية .

وبعد فمفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات . قال الله عز وجل : ﴿ **قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ (المؤمنون : ٢،١) فمدحهم بعـد الإيمـان بصلاة مخصوصـة وهي المقرونة بالخشوع . ثم ختم أوصـاف المفلحين بـالصلاة أيضـاً فقـال تعـالى : ﴿ **والـذين هم على صلـواتهم يحـافظـون** ﴾ (المؤمنـون : ٩) ثم قـال تعـالى في ثمرة تلـك الصفـات : ﴿ **أولـئـك هم الوارثون * الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون** ﴾ (المؤمنون : ١١،١٠) .

نسأل الله أن يجعلنـا منهم وأن يعيـذنـا من عقوبـة من تزينت أقوالـه وقبحت أفعـالـه إنـه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى .

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني

في الزكاة والإنفاق

[تشكّل الزكوات والإنفاق في سبيل الله الوسيلة الثانية في الأهمية في باب تزكية النفس ، لأن النفس مجبولة على الشح ، وهو رذيلة يجب تطهير النفس منها ، قال تعالى : ﴿ **وأُحْضِرت الأنفس الشُّح** ﴾ (النساء : ١٢٨) والإنفاق في سبيل الله هو الذي يطهّر النفس من الشح فتزكو بذلك النفس ، قال تعالى : ﴿ **وسَيُجَنَّبهَا الأتقى * الذي يُؤتي ماله يتزكّى** ﴾ (الليل : ١٧ ، ١٨) .

وإنما تؤدي الزكوات والإنفاق دوراً في تزكية النفس إذا لوحظ فيها أدب الظاهر والباطن ، وها نحن أولاء نقتصر على ذكر ذلك من كلام الغزالي لأن الجوانب الفقهية في الزكاة لا تغيب عن مسلم يعيش في البيئات الإسلامية . فلننتقل إلى كلامه ، وهو شافعي المذهب] .

☆ ☆ ☆

أداء الزكاة وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدي الزكاة خمسة أمور :

(الأول) النية : وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفرض ويسنّ له تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال : هذا عن مالي الغائب إن كان سالماً وإلا فهو نافلة جاز . وإذا وكّل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل ، أو وكّل الوكيل بالنية كفاه لأنّ توكيله بالنية نية .

(الثاني) البدار عقيب الحول ، وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تعجيلها شهر رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى .

(الثالث) أن لا يخرج بدلاً باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه .

(الرابع) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفي النقل تخييب للظنون . فإن فعل ذلك أجزأه في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة . ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء في تلك البلدة . [أقول : في عصرنا يحتاج الإنفاق إلى موازنات أشرنا إليها في رسالتنا : لمن تدفع صدقتك ؟] .

(الخامس) أن يقسّم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده .

وعليه يدل ظاهر قوله تعالى ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين** ﴾ (التوبة : ٦٠) الآية وقد عدم من الثانية صنفان في أكثر البلاد : وهم المؤلفة قلوبهم ، والعاملون على الزكاة . ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء ، والمساكين ، والغارمون ، والمسافرون ـ أعني أبناء السبيل ـ وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة ، والمكاتبون .

بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بزكاته وظائف :

الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها وأنها لِمَ جُعلتْ من مباني الإسلام مع أنها تصرفٌ مالي وليست من عبادة الأبدان وفيه ثلاثة معان :

الأول : أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد ، وشهادة بإفراد المعبود ، وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للموحد محبوب سوى الواحد الفرد ؛ فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى ، وإنما يُمتحن به درجة المحب بمفارقة المحبوب ، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون من الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم ومعشوقهم . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة** ﴾ (التوبة : ١١١) وذلك بالجهاد وهو مساحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل ، والمساحة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام :

قسم صدقوا التوحيد ، ووفوا بعهدهم ونزلوا عن جميع أموالهم فلم يدّخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال خمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله ، وعمر رضي الله عنه بشطر ماله فقال ﷺ : « ما أبقيت لأهلك » فقال : مثله ، وقال لأبي بكر رضي الله عنه « ما أبقيت لأهلك » قال (الله ورسوله)[1] ، فالصدّيق وفّى بتمام الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله .

القسم الثاني: درجتهم دون درجة هذا، وهم الممسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم وصرف الفاضل عند الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوهها ، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه .

وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم أما سمعت قوله عز وجل : ﴿ **وآتى المالَ على حبه ذوي القربى** ﴾ (البقرة : ١٧٧) الآية واستدلوا بقوله عز وجل : ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (البقرة : ٣) وبقوله تعالى : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناكم** ﴾ (البقرة : ٢٥٤) وزعموا أنّ ذلك غير منسوخ بآية الزكاة بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه : أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة ، والذي يصح في الفقه من هذا الباب أنه مهما أرهقته حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال : ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة قرضاً ولا يلزمه بذله بعد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض أي لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا مختلف فيه .

القسم الثالث : الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهي أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة قال الله تعالى : ﴿ **إن يسألكموها فَيُحْفِكُمْ تبخلوا** ﴾ (محمد : ٣٧) يُحْفِكُمْ : أي يستقص عليكم فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال .

المعنى الثاني : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال ﷺ: «ثلاث مهلكات: شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[١] . وقال تعالى : ﴿ **ومَنْ يوقَ شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ (الحشر : ٩) وإنما تزول صفة البخل بأن تتعوّد بذل المال ؛ فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير ذلك اعتياداً . فالزكاة بهذا المعنى طُهَرة أي تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله ، وبقدر فرحه بإخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى .

المعنى الثالث : شكر النعمة فإن لله عزوجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن ، والمالية شكر لنعمة المال . وما أخسَّ من ينظر إلى الفقير وقد ضُيِّقَ عليه الرزق وأُحْوِجَ إليه ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه .

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط وهو حسن لغيره .

الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ؛ ومن آداب ذوي الدّين التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ، ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات ، وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغتنم فإنّ ذلك لمة الملك « وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » فما أسرع تقلّبه ، والشيطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر . وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لزكاتها إن كان يؤديها جميعاً شهراً معلوماً ، وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سبباً لنماء قربته وتضاعف زكاته . وذلك كشهر المحرّم فإنه أوّل السنة وهو من الأشهر الحرم أو رمضان فقد كان ﷺ أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئاً [(١)] ولرمضان فضيلة ليلة القدر وأنه أنزل فيه القرآن ، وذو الحجة أيضاً من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام ، وفيه الحج الأكبر ، وفيه الأيام المعلومات وهي العشر الأول ، والأيام المعدودات وهي أيام التشريق . وأفضل أيام شهر رمضان العشر الأواخر . وأفضل أيام ذي الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ؛ فإنّ ذلك أبعد عن الرياء والسمعة قال ﷺ : « أفضل الصدقة جُهْدُ المقلِّ إلى فقير في سِرٍ »[(٢)] وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة ، وفي الحديث المشهور « سبعة يظلهم الله يومَ لا ظل إلا ظله أحدهم رجل تصدّق بصدقةٍ فلم تعلم شماله بما أعطت يمينه »[(٣)] وقال تعالى : ﴿ **وإنْ تُخفوها وتُؤْتوها الفقراءَ فهو خيرٌ لكم** ﴾ (البقرة : ٢٧) وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمعة ، وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعةٌ حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي ، فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى ، وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المعطي ، وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم . وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المعطي ، وكان يستكتم المتوسطَ شأنَهُ ، ويوصيه بأن لا يفشيه . كل ذلك احترازاً من الرياء والسمعة .

---

(١) أخرجه في الصحيحين .

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وأبو داود .

(٣) أخرجاه في الصحيحين .

الوظيفة الرابعة : أن يُظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتداء ويحرس سره من داعية الرياء فقد قال الله عزوجل : ﴿ **إن تُبدوا الصدقات فَنِعِمّا هي** ﴾ (البقرة : ٢٧١) وذلك حيث يقتضي الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدّق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدّق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المنّ والرياء وهو هتك ستر الفقير : فإنه ربما يتأذى بأن يُرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه . فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره ، وقد قال الله تعالى : ﴿ **وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية** ﴾ (فاطر : ٩٩) ندب إلى العلانية أيضاً لما فيها من فائدة الترغيب ، فليكن العبدُ دقيقَ التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى قال الله تعالى : ﴿ **لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى** ﴾ (البقرة : ٢٦٤) واختلفوا في حقيقة المن والأذى فقيل : المن أن يذكرها ، والأذى : أن يظهرها ، وقال سفيان : من منَّ فسدت صدقته ، فقيل له : كيف المن ؟ فقال : أن يذكره ويتحدّث به . وقيل : المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعيره بالفقر . وقيل : المنُّ أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة .

كانت عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما إذا أرسلتا معروفاً إلى فقير قالتا للرسول : احفظْ ما يدعو به ثم كانتا تردان عليه مثل قوله ، وتقولان : هذا بذاك حتى تخلص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الدعاء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الدعاء بمثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ، ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على التذلل والتواضع وقبول المنة ، ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ؛ هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يعالج القلب إلا بمعجون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها ، والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال قال تعالى : ﴿ **ويومَ حنين إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تُغنِ**

عنكم شيئاً ﴾ (التوبة : ٢٥) ويقال : إن الطاعة كلما استصغرت عظمت عند الله عز وجل . والمعصية كلما استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل : لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتعجيله وستره . وليس الاستعظام هو المن والأذى ، فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى ، بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير ، وأنه قد قنع لنفسه بأخسِّ درجات البذل فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثر فليتأمل أنه من أين له المالُ وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فلم يستعظم في حق الله تعالى ما هو عينُ حقِّ الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذله للثواب فلم يستعظم بذلَ ما ينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخَجِلِ من بخله بإمساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كهيئة من يطالب بردِّ وديعةٍ فيمسك بعضها أو يرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإنما لم يأمر به عبدَهُ لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ **فَيُحْفِكُمْ تبخلوا** ﴾ (محمد : ٣٧) .

الوظيفة السابعة : أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأحلّه وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وإذا كان المُخْرَجُ من شبهة فربما لا يكون ملكاً له مطلقاً فلا يقع الموقع . وفي حديث أبان عن أنس بن مالك : « طوبى لعبد أنفق من مالٍ اكتسبه من غير معصية »[1] وإذا لم يكن المخرج من جَيِّدِ المال فهو من سوء الأدب إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو لأهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غَيْرَهُ ، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعاقل من يُؤثر غيره على نفسه ، وليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذي يأكله قضاء وطر في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيثَ منه تنفقون ولستم بآخذيه**

---

(١) أخرجه ابن عدي والبزار .

إلا أنْ تُغمضوا فيه ﴾ (البقرة : ٢٦٧) أي لا تأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغماض فلا تؤثروا به ربكم . وفي الخبر (سبق درهمٌ مائة ألف درهم)[1] ، وذلك بأن يخرجه الإنسان وهو من أجلّ ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبذل ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه .

الوظيفة الثامنة : أن يطلب لصدقته من تزكو به الصدقة ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوص تلك الصفات وهي ستة :

الأولى : أن يطلب الأتقياء المعرضين عن الدنيا المتجرّدين لتجارة الآخرة قال ﷺ : « لا تأكلْ إلا طعام تقيٍ ولا يأكل طعامكَ إلا تقي »[2] وهذا لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شريكاً في طاعته بإعانتك إياه .

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إعانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحت فيه النية . وكان ابن المبارك يخصّ بمعروفه أهل العلم فقيل له : لو عممت ، فقال : إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقاً في تقواه وعمله بالتوحيد . وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستتراً مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى أو يكون من أهل المروءة ممن ذهبت نعمته وبقيت عادته فهو يتعيش في جلباب التجمل قال الله تعالى :
﴿ يحسبهمُ الجاهل أغنياءَ من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾
(البقرة : ٢٧٣) أي لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بربهم . وهذا ينبغي أن يطلب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

---

(١) أخرجه النسائي وابن حبان وصححه .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد بلفظ « لا تصحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي » .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو بسبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل : ﴿ **للفقراء الذين أُحْصِروا في سبيل الله** ﴾ أي حُبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة أو إصلاح قلب : ﴿ **لا يستطيعون ضرباً في الأرض** ﴾ (البقرة : ٢٧٣) لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف . فبهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطي أهل البيت القطيع من الغنم ـ العشرة فما فوقها ـ وكان ﷺ يعطي العطاء على مقدار العيلة[1] وسئل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال : كثرة العيال وقلة المال .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى قال علي رضي الله عنه : لأَنْ أصِلَ أخاً من إخواني بدرهم أحبُّ إليَّ من أن أتصدق بعشرين درهماً ، ولأن أصله بعشرين درهماً أحب إلي من أتصدق بمائة درهم . ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة . والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً يُقَدّمون على المعارف ، كما يتقدّم الأقارب على الأجانب . فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنية العظمى .

☆ ☆ ☆

(١) لأبي داود من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله ﷺ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه وأعطى الآهل حظين وأعطى العزب حظاً » .

الفصل الثالث

في الصوم

[يأتي الصوم في الدرجة الثالثة من الأهمية في تزكية النفس ، فمن الشهوات العاتية التي يمكن أن تحرف الإنسانَ شهوتا البطن والفرج ، والصومُ تعويد للنفس على التحكم بهاتين الشهوتين ، ولذلك كان عاملاً مهماً من عوامل تزكية النفس وإذا كان الصبر من أرقى مقامات النفس ، فإن الصوم تعويد للنفس على الصبر ولذلك ورد في الحديث : « الصوم نصف الصبر » أخرجه الترمذي وابن ماجه وهو حديث حسن ، وقد جعل الله الصوم وسيلة للتحقق بمقام التقوى ، فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كُتِبَ عليكم الصيامُ كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** ﴾ (البقرة : ١٨٣) والتقوى هي مطلب الله من العباد وهي تساوي تزكية النفس ، قال تعالى : ﴿ **ونَفسٍ وما سوّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكّاها * وقد خاب من دسّاها** ﴾ (الشمس : ٧ ـ ١٠) والصوم نافلة وفريضة ، ولا تخفى أحكامه على من يعيش في البيئات الإسلامية وإذْ كان هذا الكتاب في تزكية النفس فسنقتصر على آداب الصائم لأنه بذلك يؤدي الصوم دوره الأكبر في التزكية ، وهاك كلام الغزالي في ذلك] .

☆ ☆ ☆

أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم : فهو كَفُّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة . وأما صوم الخصوص : فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص : فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل الفطر [المجازي] في هذاالصوم بالفكرفيا سوىالله عزوجل واليوم الآخروبالفكرفيالدنيا إلا دنيا تُرادُ للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقرّبين ولا نُطوّل النظر في تفصيلها قولاً ولكن في تحقيقها عملاً ، فإنه إقبال بكنه الهمة على الله عز وجل ، وانصراف عن غير الله سبحانه ، وتلبس بمعنى قوله عز وجل : ﴿ **قُلِ اللهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ في خوضهم يلعبون** ﴾ (الأنعام : ٩١) .

وأما صوم الخصوص : وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام وتمامه بستة أمور :

الأول : غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره ، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل قال ﷺ : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس - لعنه الله - فمن تركها خوفاً من الله آتاه الله عز وجل إيماناً يجد حلاوته في قلبه »[1] .

الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، وإلزامه السكوت ، وشغله بذكر الله سبحانه ، وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان . وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . رواه بشر بن الحارث عنه . وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام : الغيبة ، والكذب . قال ﷺ : « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفثْ ولا يجهل وإنْ امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقلْ إني صائم إني صائم »[2] .

الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوّى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى : ﴿ **سماعون للكذب أكّالون**

---

(١) أخرجه الحاكم وصحح إسناده .

(٢) أخرجه مسلم والبخاري .

للسحت ﴾ (المائدة : ٤٢) وقال عز وجل : ﴿ **لولا ينهاهم الربانيون والأحبارُ عن قولهمُ الإثمَ وأكلهم السحت** ﴾ (المائدة : ٦٢) فالسكوت على الغيبة حرام وقال تعالى : ﴿ **إنكم إذاً مثلهم** ﴾ (النساء : ١٤) .

الرابع: كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام ، فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصراً فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه ، فالصوم لتقليله . وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهاً . والحرام سم مهلك للدين . والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله . وقد قال ﷺ : « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش »[١] فقيل : هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل : هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام ، وقيل : هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام .

الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء جوفه فما من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مُلِىء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدوّ الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أطعمت من اللذات وأشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ، ويستديم في كل ليلة قدراً من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه .

عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت [أي من عالم الغيب] وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ (القدر : ١) ومن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله . ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام .

السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً مضطرباً بين الخوف والرجاء ؛ إذ ليس يدري أيُقْبلُ صومه فهو من المقربين ، أو يرد عليه فهو من الممقوتين ؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها ، فقد روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مرَّ بقوم وهم يضحكون فقال : إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضماراً لخلقه يستبقون فيه لطاعته ، فسبق قوم ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون ، وخاب فيه المبطلون .

قال أبو الدرداء : يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف لا يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ! ولذرة من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادة من المغترين . ولذلك قال بعض العلماء : كم من صائم مفطر ، وكم من مفطر صائم .

وقد قال ﷺ : « إنَّ الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته »[1] .

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الخرائطي وإسناده حسن .

الفصل الرابع

في الحج

[قال تعالى : ﴿ فَمَنْ فرض فيهنّ الحجّ فلا رفثَ ولا فسوقَ ولا جدال في الحج ﴾ (البقرة : ١٩٧) وقال تعالى : ﴿ ومن يُعَظِّمْ شعائرَ الله فإنها من تقوى القلوب ﴾ (الحج : ٣٢) فالحج تعويد للنفس على معان ، من استسلام وتسليم ، ومن بذل الجهد والمال في سبيل الله ، ومن تعاون وتعارف ، ومن قيام لله بشعائر العبودية ، وكل ذلك له آثاره في تزكية النفس ، كما أنّه عَلَم على التحقق بزكاة النفس .

ولكي يؤتي الحج ثمراته كاملة لابدّ من مراعاة الآداب والأعمال القلبية فيه ، وهذا الذي ينصب عليه حديث هذا الكتاب ، وهاك كلام الغزالي في ذلك] .



في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة للحج

١ ـ بيان دقائق الآداب :

[أ] أن تكون النفقة حلالاً، وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرّق الهمّ حتى يكون الهمُّ مجرداً لله تعالى، والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعظيم شعائره.

[ب] التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد . وأعني بالإسراف : التنعم بأطيب الأطعمة والترفّه بشرب أنواعها على عادة المترفين . فأما كثرة البذل فلا سرف فيه . إذ لا خير في السرف ولا سرف في الخير ، كما قيل . وبذل الزاد في طريق الحج نفقته في سبيل الله عز وجل والدرهم بسبعمائة درهم . قال ابن عمر رضي الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده في سفره . وكان يقول : أفضل الحاج أخلصهم نية ، وأزكاهم نفقة ، وأحسنهم يقيناً . وقال ﷺ : « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة فقيل له يا رسول الله ما بر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام »[1] .

[جـ] ترك الرفث والفسوق والجدال كما نطق به القرآن . والرفث : اسم جامع لكل لغو وخنى ، وفحش من الكلام ، ويدخل فيه مغازلة النساء ، ومداعبتهن ، والتحدّث بشأن الجماع ومقدّماته ، فإن ذلك يهيّج داعية الجماع المحظور والداعي إلى المحظور محظور . والفسق : اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال : هو المبالغة في الخصومة والمماراة بما يورث الضغائن ويفرّق في الحال الهمة ويناقض حسن الخلق . وقد قال سفيان : مَنْ رفثَ فسد حجه . وقد جعل رسول الله ﷺ طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج . والمماراة تناقض طيب الكلام ، فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجمّاله وعلى غيره من أصحابه ، بل يلين جانبه ، ويخفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ، ويلزم حسن الخلق ، وليس حسن الخلق كفّ الأذى بل احتمال الأذى وقيل : سمي السفر سفراً لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلاً : هل صحبته في

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد .

السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه .

[د] أن يحج ماشياً إن قدر عليه فذلك الأفضل ، والتردد ماشياً من مكة إلى المواقف وإلى منى آكد منه في الطريق . وإن أضاف إلى المشي الإحرام من دويرة أهله فقد قيل : إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلي وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل : ﴿ **وأتموا الحج والعمرة لله** ﴾ (البقرة : ١٩٦) [وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤونة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأذاه ، وأقرب إلى سلامته وتمام حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفاً للأول بل ينبغي أن يفصّل : ويقال : من سهل عليه المشي فهو أفضل ، فإن كان يضعفه ويؤدي به ذلك إلى سوء الخلق وقصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كما أن الصوم للمسافر أفضل وللمريض ، ما لم يفض إلى ضعف وسوء خلق] .

[هـ] أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيكتب في ديوان المتكبرين المترفهين ، ويخرج عن حزب الضعفاء والمساكين وخصوص الصالحين .

(يقول الله تعالى : انظروا إلى زوار بيتي قد جاءوني شعثاً غبراً من كل فج عميق)[1] . وقال تعالى : ﴿ **ثم ليقضوا تفثهم** ﴾ (الحج : ٢٩) والتفث : الشعث والاغبرار ، وقضاؤه بالحلق وقص الشارب والأظفار وذلك عند التحلل من الإحرام . وكتب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد : اخلولقوا واخشوشنوا . أي البسوا الخلقان واستعملوا الخشونة في الأشياء . وقد قيل : زين الحجيج أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف .

[و] أن يتقرب بإراقة دم وإن لم يكن واجباً عليه ، ويجتهد أن يكون من سمين النعم ونفيسه ، وليأكل منه إن كان تطوّعاً ، ولا يأكل منه إن كان واجباً[إلا بفتوى إمام]. قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿ **ذلك ومَنْ يعظّم شعائرَ الله** ﴾ (الحج : ٣٢) إنه تحسينه وتسمينه . وسوق الهدي من الميقات أفضل إن كان لا يجهده ولا يكده .

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله « من كل فج عميق » وكذا رواه أحمد .

وليترك المكاس في شرائه فقد كانوا يغالون في ثلاث ويكرهون المكاس فيهنّ : الهدي والأضحية والرقبة ، فإنّ أفضل ذلك أغلاه ثمناً وأنفسه عند أهله ، (وروى ابن عمر أنّ عمر رضي الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلثمائة دينار فسأل رسول الله ﷺ أن يبيعها ويشتري بثمنها بدناً فنهاه عن ذلك وقال بل أهدها)[١] وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون . وفي ثلثمائة دينار قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بجمال التعظيم لله عز وجل فـ : ﴿ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكنْ يناله التقوى منكم** ﴾ وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قل « وسئل رسول الله ﷺ ما برّ الحج ؟ فقال العج والثج »[٢] ، والعج : هو رفع الصوت بالتلبية ، والثج : هو نحر البدن . وروت عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال : « ما عمل آدمي يوم النحر أحبّ إلى الله عز وجل من إهراقه دماً ، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها ، وإنّ الدم يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفساً »[٣] وفي الخبر : « لكم بكل صوفة من جلدها حسنة ، وكل قطرة من دمها حسنة ، وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا »[٤] .

[ز] أن يكون طيب النفس بما أنفقه من نفقة وهدي ، وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك ، فإنّ ذلك من دلائل قبول حجّه . فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل ، الدرهم بسبعمائة درهم ، بمثابة الشدائد في طريق الجهاد ، فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب ، فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل . ويقال : إن من علامة قبول الحج أيضاً ترك ما كان عليه من المعاصي ، وأن يتبدل بإخوانه البطالين إخواناً صالحين ، وبمجالس اللهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة .

---

(١) أخرجه أبو دواد وقال « انحرها » .

(٢) أخرجه الترمذي واستغربه وابن ماجه والحاكم وصححه والبزار واللفظ له .

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه .

(٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه البيهقي .

٢ ـ بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في النية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره :

اعلم أن أول الحج الفهم ـ أعني موقع الحج في الدين ـ ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ، ثم قطع العلائق المانعة منه ، ثم شراء ثوب الإحرام ، ثم شراء الزاد ، ثم اكتراء الراحلة ، ثم الخروج ، ثم المسير ، ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ، ثم دخول مكة ، ثم استتمام الأفعال ، وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للمريد الصادق وتعريف وإشارة للفَطِن . فلنرمز إلى مفاتحها حتى إذا انفتح بابها وعرفت أسبابها انكشف لكل حاجّ من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنة وغزارة فهمه .

أما الفهم : فاعلم أنه لا وصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتنزه عن الشهوات ، والكف عن اللذات ، والاقتصار على الضرورات ، والتجرّد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات . فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشهوات وهجروا التجرد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه ، بعث الله عز وجل نبيه محمداً ﷺ لإحياء طريق الآخرة وتجديد سنة المرسلين في سلوكها . فلما سئل عن الرهبانية والسياحة في دينه قال ﷺ : « أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف»[١] يعني الحج. وسئل ﷺ عن السائحين فقال: «هم الصائمون»[٢] فأنعم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحج رهبانية لهم ، فشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى ، ونصبه مقصداً لعباده ، وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخيماً لأمره . وجعل عرفات كالميزاب على فناء حوضه . وأكّد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره . يقصده الزوّار من كل فج عميق ، ومن كل أوب سحيق ، شُعثاً غبراً متواضعين لرب البيت ، ومستكينين له ، خضوعاً لجلاله واستكانة لعزته . مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت ، أو يكتنفه بلد ، ليكون

---

(١) رواه أبو داود من حديث أبي أمامة : أن رجلاً قال : يا رسول الله ائذن لي في السياحة فقال : « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله » ورواه الطبراني بلفظ « إن لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمتي الرباط في نحر العدو » وللبيهقي في الشعب من حديث أنس « رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله » وكلاهما ضعيف وللترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن رجلاً قال : يا رسول الله إني أريد أن أسافر فأوصني قال : عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) أخرجه البيهقي في الشعب وقال : المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسلا .

ذلك أبلغ في رقّهم وعبوديتهم ، وأتم في إذعانهم وانقيادهم . ولذلك وظّف عليهم فيها أعمالاً لا تأنس بها النفوس ، ولا تهتدي إلى معانيها العقول ، كرمي الجمار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية . فإن الزكاة إرفاقٌ ووجهه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسرٌ للشهوة التي هي آلة عدوّ الله وتفرغٌ للعبادة بالكف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعالٍ هي هيئة التواضع ، وللنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعي ورمي الجمار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس فيها ، ولا اهتداء للعقل إلى معانيها ، فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد ، وقصد الامتثال للأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه ، وصرف النفس والطبع عن محل أنسه ، فإن كل ما أدرك العقل معناه مال الطبع إليه ميلاً ما . فيكون ذلك الميل معيناً للأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والانقياد . ولذلك قال ﷺ في الحج على الخصوص « لبيك بحجة حقاً تعبداً ورقاً »[(١)] ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط نجاة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الانقياد وعلى مقتضى الاستعباد . كان ما لا يهتدي إلى معانيه أبلغ أنواع التعبدات في تزكية النفوس وصرفها عن مقتضى الطباع والأخلاق . إلى مقتضى الاسترقاق . وإذا تفطنت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التعبدات . وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأنّ البيت بيت الله عز وجل فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزائر له .

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصداً إلى مفارقة الأهل والوطن ، ومهاجرة الشهوات واللذات متوجهاً إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت ، وليعلم أنه عزمَ على أمرٍ رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظيماً خاطر بعظيم . وليجعل عزمه خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى بعيداً عن شوائب الرياء والسمعة ، وليتحقق أنه لا يقبل من قصده وعمله إلا الخالص .

---

(١) أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس .

وأما قطع العلائق : فمعناه : رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي ، فكل مظلمة علاقة ، وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيبه ينادي عليه ويقول : إلى أين تتوجه أتقصدُ بيتَ ملك الملوك وأنت مضيعٌ أمره في منزلك هذا ومستهين به ومهمل له ؟ أولا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغباً في قبول زيارتك فنفذ أوامره ، وردَّ المظالم وتبْ إليه أولاً من جميع المعاصي ، واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ما وراءك لتكون متوجهاً إليه بوجه قلبك ، كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك . فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أوّلاً إلا النصب والشقاء وآخراً إلا الطرد والرد .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال ، وإذا أحس من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبقى منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليتذكر أنّ سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأنّ زاده التقوى وأن ماعداه مما يظن أنه زاده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبقى معه ، كالطعام الرطب الذي يفسد في أوّل منازل السفر ، فيبقى وقت الحاجة متحيراً محتاجاً لا حيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحلة : فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له ما سخر من مركوبات ، وليتذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنازة التي يحمل عليها . فإنّ أمر الحج من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة ، ولينظر أيصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زاداً له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه . وما يدريه لعل الموت قريب وركوب الجنازة مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاط في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحلته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟ .

وأما شراء ثوبي الإحرام : فليتذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سيرتدي ويتزر بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفاً في ثياب الكفن لا محالة . فكما لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفاً عادته في الزي والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا في زي مخالف لزي الدنيا . وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه فارق الأهل والوطن متوجهاً إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا ، فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في زمرة الزائرين له الذين نودوا فأجابوا ، وشُوِّقوا فاشتاقوا واستُنهضوا فنهضوا ، وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق ، وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذي فخم أمره وعظَّم شأنه ورفع قدره تسلياً بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مناهم ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليُحضِرْ في قلبه رجاءَ الوصول والقبول ، لا إدلالاً بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ، ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاءً لتحقيقه وعدَهُ لمن زار بيته . وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل وافداً إليه إذ قال جل جلاله : ﴿ **ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموتُ فقد وقعَ أجرهُ على الله** ﴾ (النساء : ١٠٠) .

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليتذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينها من الأهوال والمطالبات . ومن انفراده من أهله وأقاربه وحشة القبر وكربته ووحدته . وليكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزوّداً لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه : إجابة نداء الله عز وجل فارْجُ أنْ تكون مقبولاً ، واخشَ أن يقال لك : لا لبيك ولا سعديكَ . فكنْ بين الرجاء والخوف متردداً ، وعن حولك وقوّتك متبرئاً ، وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متكلاً . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج علي بن الحسين رضي الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحلته اصفرّ لونه ، وانتفض ، ووقعت عليه الرعدة ، ولم يستطع أن يلبي فقيل له : لم لا تلبي ؟ فقال : أخشى أن يقال لي : لا لبيك ولا سعديك . وليتذكر الملبي عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات إجابته لنداء الله عز وجل إذ قال : ﴿ **وأذنْ في الناسِ بالحج** ﴾ (الحج : ٢٧) ونداء الخلق بنفخ الصور ، وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصَات القيامة مجيبين لنداء الله سبحانه ، ومنقسمين إلى مقرّبين وممقوتين ، ومقبولين ومردودين . ومترددين في أوّل الأمر بين الخوف والرجاء تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا ؟ .

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً ، ولْيَرْجُ عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل ، وليخشَ أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للمقت . وليكن رجاؤه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عميم ، والرب رحيم ، وشرف البيت عظيم ، وحق الزائر مرعي ، وذمام المستجير اللائذ غير مضيع .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ، ويقدّر كأنه مشاهد لرب البيت لشدّة تعظيمه إياه . وارْجُ أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقكَ اللهُ النظرَ إلى بيته العظيم ، واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة ، وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آملين لدخولها كافة ، ثم انقسامهم إلى مأذونين في الدخول ومصروفين ، انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضرْ في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبة بالملائكة المقرّبين الحافين حول العرش الطائفين حوله . ولا تظنن أن المقصود طواف جسمك بالبيت فحسب ، بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت ، حتى لا تبتدي الذكر إلا منه ، ولا تختم إلا به ، كما تبتدي الطواف من البيت وتختم بالبيت .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته ، فصمم عزيمتك على الوفاء ببيعتك ، فمن غدر في المبايعة استحق المقت . وقد روى ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : « الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يصافح بها خلقه كما يصافح الرجل أخاه »[1] .

وأما التعلّق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم : فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ورب البيت ، وتبركاً بالمماسة ورجاء للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك ، ولتكن نيتك في التعلّق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان ، كالمذنب

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه .

المتعلق بثياب من أذنب إليه، المتضرع إليه في عفوه عنه، المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مفزع له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل .

وأما السعي بين الصفا والمروة في فناء البيت : فإنه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء الملاحظة بعين الرحمة . كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى . وليتذكر عند تردده بين الصفا والمروة تردده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة ، وليتذكر تردده بين الكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان ، متردداً بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر ـ بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات ، واتباع الفرق أئمتهم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم ـ عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها ، وطمعهم في شفاعتهم ، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول. وإذا تذكرت ذلك فألزمْ قلبك الضراعةَ والابتهال إلى الله عز وجل ، فتحشرَ في زمرة الفائزين المرحومين ، وحقق رجاءك بحسن الظن بالله ؛ فالموقف موقف إجابة ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . وكأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة المجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج ، وغاية مقصوده ، فلا طريق إلى استدرار رحمة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد .

وأما رمي الجمار : فاقصد به الانقياد للأمر ؛ إظهاراً للرق والعبودية ؛ وانتهاضاً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم اقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لأمله . فإن خطر لك أن الشيطان عرض له وشاهده فلذلك رماه ، وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان ، وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ، ويخيل إليك أنه فعلٌ لا فائدة فيه ، وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به ؟ فاطرده عن نفسك بالجدّ والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان ، وتقصم به ظهره إذ لا يحصل إرغام أنفه إلا

بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والعقل فيه .

وأما ذبح الهدي : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكْمِلِ الهدي وارْجُ أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار ، فكلما كان الهدي أكبر وأجزاؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم .

وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك على حيطانها فتذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه ﷺ ، وجعل إليها هجرته ، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنته ، وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل . ثم جعل تربته فيها وتربة وزيريه القائمين بالحق بعده رضي الله عنهما . ثم مثّل في نفسك مواقع أقدام رسول الله ﷺ عند تردداته ، وتذكر مشيه وتخطيه في سككها ، وتصور خشوعه وسكينته في المشي ، وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعه ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه ، وإحباطه عمل من هتك حرمته ولو برفع صوته فوق صوته . ثم تذكر ما منّ الله تعالى به على الذين أدركوا صحبته وسعدوا بمشاهدته واستماع كلامه ، وأعظِمْ تأسفك على ما فاتك من صحبته وصحبة أصحابه رضي الله عنهم . ثم اذكرْ أنك قد فاتتك رؤيته في الدنيا وأنك من رؤيته في الآخرة على خطر . وأنك ربما لا تراه إلا بحسرة ، وقد حيل بينك وبين قبوله إياك لسوء عملك ، كما قال ﷺ : « يرفع الله إليَّ أقواماً فيقولون يا محمد فأقول : يارب أصحابي . فيقول : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول بعداً وسحقاً »[1] ، فإن تركت حرمة شريعته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعدولك عن حجته . وليعظُم مع ذلك رجاؤك أن لا يحولَ الله تعالى بينك وبينه أن رزقك الإيمان ، فما أجدرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة ، فإذا بلغت المسجد فاذكر أنها العرَصَة التي اختارها الله سبحانه لنبيه ﷺ ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة . وأنها جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً فَلْيَعْظُمْ أَمَلُكَ في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله خاشعاً معظماً . وما أجدر هذا المكان بأن يستدعي الخشوع من قلب كل مؤمن .

وأما زيارة رسول الله ﷺ : فينبغي أن تقف بين يديه وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ،

---

(١) متفق عليه .

ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرّب من شخصه الكريم لو كان حياً . وكما كنت ترى الحرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ماثلاً بين يديه فكذلك فافعل ، فإن المس والتقبيل للمشاهدة عادة النصارى واليهود . وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روي عنه ﷺ « أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته »[1] . هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه ، واكتفى بمشاهدة مشهده الكريم إذ فاته مشاهدة غرّته الكريمة ؟ وقد قال ﷺ : « من صلى عليّ مرة واحدة صلى الله عليه عشراً »[2] فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته ببدنه ؟ ثم ائت منبر الرسول ﷺ وتوهم صعود النبي ﷺ المنبر ، ومثّل في قلبك طلعته البهية كأنها على المنبر ، وقد أحدق به المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم وهو ﷺ يحثهم على طاعة الله عز وجل بخطبته ، وسَلِ الله عز وجل أن لا يفرّق في القيامة بينك وبينه ، فهذه وظيفة القلب في أعمال الحج . فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والهم والخوف ، وأنه ليس يدري أَقُبِلَ منه حجه ، وأثبت في زمرة المحبوبين أم رُدَّ حجه وأُلحِقَ بالمطرودين ؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله ، فإن صادف قلبه قد ازداد تجافياً عن دار الغرور وانصرافاً إلى دار الأنس بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثقْ بالقبول ، فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبه ؛ ومن أحبّه تولاه وأظهر عليه آثار محبته وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله . فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نعوذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ « إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام » .

(٢) أخرجه مسلم .

الفصل الخامس

في تلاوة القرآن

[تلاوة القرآن مهذِّبةٌ للنفس من جوانب شتى ، فهي تُعرِّف الإنسان على المطلوب منه وتثير عنده كل المعاني المرادة من تزكية النفس ، وتلاوة القرآن تنور القلب وتذكِّره فهي تكمّل عمل الصلاة والزكاة والصوم والحج في التحقق بمقام العبودية لله عز وجل ، وتلاوة القرآن تقتضي إحكاماً لأحكام التجويد والتزاماً يومياً بورد من القرآن .

وإنما يفعل القرآن فعله إذا رافقت تلاوته آداب الباطن في التأمل والخشوع والتدبر ...

وإذ كانت هذه المعاني محل غفلة فإننا سننقل بعض كلام الغزالي فيها] .

☆ ☆ ☆

أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهمَ أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلي عن موانع الفهم . ثم التخصيص . ثم التأثر . ثم الترقي . ثم التبري .

(فالأول) فهم عظمة الكلام وعلوّه ، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه .

(الثاني) التعظيم للمتكلم : فالقارىء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر ، وأن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال : ﴿ **لا يمسه إلا المطهرون** ﴾ (الواقعة : ٧٩) وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً ، فباطن معناه أيضاً بحكم عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهّراً عن كل رجس ومستنيراً بنور التعظيم والتوقير . وكما لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ، ولا لنيل معانيه كل قلب .

فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم ، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله ، فإذا أحضر بباله العرش والكرسي ، والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ، وعلم أنّ الخالق لجميعها والقادر عليها والرازقَ لها واحدٌ ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين نقمته وسطوته ، إنْ أنعم فبفضله ، وإن عاقب فبعدله ، وأنه الذي يقول : هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي ، وهؤلاء إلى النار ولا أبالي ، وهذا غاية العظمة والتعالي . فبالتفكر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

(الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل في تفسير [قوله تعالى] : ﴿ **يا يحيى خذ الكتاب بقوة** ﴾ (مريم : ١٢) أي بجد واجتهاد ، وأخذه بالجد أن يكون متجرداً له عند قراءته ، منصرف الهمة إليه عن غيره ، وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدّثُ نفسك بشيء ؟ فقال : أَوَ شيء أحب إليَّ من القرآن حتى أحدّثَ به نفسي ! وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم ؛ فإن المعظم للكلام الذي يتلوه يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه . ففي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان

التـالي أهـلاً لـه فكيف يطلب الأنس بـالفكر في غيره وهـو في متنزه ومتفرج والـذي يتفرّج في المتنزهات لا يتفكر في غيرها ؟

(**الرابع**) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه قد لا يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتـدبره . والمقصود من القراءة التـدبر . ولـذلـك سن الترتيل فيه ، لأن في الترتيل في الظاهر يتمكن من التدبر بالباطن . قـال علي رضي الله عنـه :(لا خيرَ في عبادة لا فقه فيها ، ولا في قراءة لا تدبر فيها) . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام . فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بـآيـة أخرى كان مسيئاً كمثل من يشتغل بالتعجب من كلمة واحدة ممن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكـذلـك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهـذا وسواس ، فقـد روي عن عـامر بن عبـد قيس أنه قـال : الوسواس يعتريني في الصلاة ، فقيل : في أمر الـدنيـا ؟ فقـال : لأنْ تختلف فيَّ الأسنـةُ أحبّ إليَّ من ذلـك ، ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يـدي ربي عـز وجـل . وأني كيف أنصرف . فعدّ ذلك وسواساً وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه والشيطـان لا يقـدر على مثله إلا بأن يشغلـه بمهم ديني ولكن يمنعـه بـه عن الأفضل . ولـما ذكر ذلـك للحسن قـال : إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا .

وعن أبي ذر قال : قام رسول الله ﷺ بنا ليلة فقـام بـآيـة يرددهـا وهي : ﴿ **إن تعـذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم..**﴾[1] الآية(المائدة:١١٨)، وقام تميم الـداري ليلـة بهـذه الآيـة: ﴿**أمْ حسب الـذين اجترحوا السيئـات..**﴾ الآيـة (الجاثية:٢١). وقـال بعضهم: إني لأفتتـح السـورة الآيـة : ﴿ **وامتـازوا اليوم أيهـا المجرمون** ﴾ (يس : ٥٩) وقـال بعضهم : إني لأفتتح السـورة فيوقفني بعض مـا أشهـد فيهـا عن الفراغ منهـا حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آيـة لا أتفهمها ولا يكون قلبي فيها لا أعدّ لها ثواباً . وحكي عن أبي سليمان الداراني أنه قـال : إني لأتلو الآية فأقيم فيها أربع ليال أو خمس ليال ، ولولا أني أقطع الفكر فيها مـا جـاوزتهـا إلى غيرهـا . وعن بعض السلف أنه بقي في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التـدبر فيهـا . وقـال بعض العارفين : لي في كل جمعة ختمة ، وفي كل شهر ختمة ، وفي كل سنة ختمة ، ولي ختمة منـذ

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه بسند صحيح .

ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد . وذلك بحسب درجات تدبره وتفتيشه . وكان هذا أيضاً يقول : أقمت نفسي مقام الأُجراء فأنا أعمل مياومة ومجامعة ومشاهرة ومسانهة .

(**الخامس**) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها ، إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل ، وذكر أفعاله ، وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام ، وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى : ﴿ **ليس كمثله شيء وهو السميع البصير** ﴾ (الشورى : ١١) وكقوله تعالى : ﴿ **الملك القدوسُ السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر** ﴾ (الحشر:٢٣) فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها، فتحتها معانٍ مدفونة لا تنكشف إلا للموفقين . وإليه أشار علي رضي الله عنه بقوله : ما أسرَّ إليَّ رسول الله ﷺ شيئاً كتمه عن الناس إلا أن يؤتي الله عز وجل عبداً فهماً في كتابه[1]. فليكن حريصاً على طلب ذلك الفهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من أراد علم الأوّلين والآخرين فليثوّر القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرهما . فليفهم التالي منها صفات الله عز وجل وجلاله ؛ إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمته . فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل ، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ، إذ كل شيء فهو منه وإليه وبه وله ، ومن لا يراه في كل ما يراه فكأنه ما عرفه ، ومن عرفه عرف أن كل شيء ما خلا الله باطل ، وأن كل شيء هالك إلا وجهه ، ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل : ﴿ **أفرأيتم ما تمنون * ...أفرأيتم ما تحرثون ... أفرأيتم الماء الذي تشربون ... أفرأيتم النار التي تورون** ﴾ (الواقعة : ٥٨ ـ ٧١) فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني بل يتأمل في المني وهو نطفة متشابهة الأجزاء ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعرق والعصب ، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات الشريفة من السمع والبصر والعقل وغيرها ، ثم إلى ما ظهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والكبر والجهل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى :

---

(١) أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود .

﴿ **أَوَلَمْ يرَ الإنسان أنَّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين** ﴾.(يس : ٧٧) فيتأمل هذه العجائب ليترقى منها إلى عجب العجائب وهو الصفة التي منها صدرت هذه الأعاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فإذا سمع منها كيف كُذِّبوا وضُربوا وقتل بعضهم . فليفهم منه صفة الاستغناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم ، وأنه لو أهلك جميعهم لم يؤثر في ملكه شيئاً . وإذا سمع نصرتهم في آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين ، كعاد وثمود وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته ، وليكن حظه منه الاعتبار في نفسه ، وأنه إن غفل وأساء الأدب واغتر بما أمهل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية . وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما في القرآن فلا يمكن استقصاء ما يفهم منه لأنّ ذلك لا نهاية له ، وإنما لكل عبد بقدر رزقه ، فلا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين : ﴿ **قُلْ لو كان البحرُ مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً** ﴾ (الكهف : ١٠٩) ولذلك قال علي رضي الله عنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهيم لينفتح بابه ، فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما في القرآن ولو في أدنى الدرجات دخل في قوله تعالى : ﴿ **ومنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً أولئك الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾ (محمد : ١٩) والطابع هي الموانع التي سنذكرها في موانع الفهم . وقد قيل : لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد ، ويعرف منه النقصان من المزيد ويستغني بالمولى عن العبيد .

(**السادس**) التخلي عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعوا عن فهم معاني القرآن لأسباب وحُجُب أسدلها الشيطان على قلوبهم ؛ فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن . وحُجُب الفهم أربعة : أولها : أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها ، فهذا يكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف ، فأنى تنكشف له المعاني ؟ ثانيها : أن يكون مقلداً لمذهب سمعه بالتقليد ، وجمد عليه ، ثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع للمسموع من غير وصوله إليه ببصيرة

ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدا له معنى من المعاني التي تباين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حملة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك ، فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيتباعد منه ويحترز عن مثله ، وينطبق هذا ابتداءاً على أتباع الفرق الضالة . ثالثها : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر ، أو مبتلى في الجملة بهوى في الدنيا مطاع ؛ فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصدئه ، وهو كالخبث على المرآة فيمنع جلية الحق من أن يتجلى فيه ، وهو أعظم حجاب للقلب ، وبه حجب الأكثرون . وكلما كانت الشهوات أشد تراكماً كانت معاني الكلام أشد احتجاباً ، وكلما خف عن القلب أثقال الدنيا قرب تجلي المعنى فيه . فالقلب مثل المرآة ، والشهوات مثل الصدأ ، ومعاني القرآن مثل الصور التي تتراءى في المرآة . والرياضة للقلب بإماطة الشهوات مثل تصقيل الجلاء للمرآة ، وقد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى : ﴿ **تبصرة وذكرى لكل عبد منيب** ﴾ (ق : ١٨) وقال عز وجل : ﴿ **وما يتذكر إلا من يُنيب** ﴾ (غافر : ١٣) وقال تعالى : ﴿ **إنما يتذكر أولوا الألباب** ﴾ (الزمر : ٩) فالذي آثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة فليس من ذوي الألباب ؛ ولذلك لا تنكشف له أسرار الكتاب . رابعاً : أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وأن ما وراء ذلك تفسير بالرأي وأن من فسّر القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار فهذا أيضاً من الحجب العظيمة [فالله عز وجلّ قد يفتح على القلوب من الفهوم الكثير مما لا ينقض ظاهراً ولايتناقض مع أقوال المفسرين المعتبرين] قال علي رضي الله عنه:إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن . ولو كان المعنى هو الظاهر المنقول [فقط] لما اختلف الناس فيه . [ولكن لابدّ أن تضبط الفهوم بضوابط اللغة والحكم] .

(السابع) التخصيص: وهو أن يقدرأنه المقصود بكلخطاب في القرآنفإن سمع أمراً أو نهياً قدّر أنه المنهي والمأمور ، وإنْ سمع وعداً أو وعيداً فكثل ذلك ، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السَمَرَ غير مقصود ، وإنما المقصود ليعتبر به ، وليأخذ من تضاعيفه ما يحتاج إليه ، فما من قصةٍ في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي ﷺ وأمته . ولذلك قال تعالى : ﴿ **ما نثبتُ به فؤادك** ﴾ (هود : ١٢٠) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من

أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين نصرة لله تعالى . وكيف لا يقدّر هذا والقرآن ما أُنزلَ على رسول الله ﷺ لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ؟ ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى : ﴿ **واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به** ﴾ (البقرة : ٢٣١) ، وقال عز وجل : ﴿ **لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون** ﴾ (الأنبياء : ١٠) ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم** ﴾ (النحل : ٤٤) ﴿ **كذلك يضرب الله للناس أمثالهم** ﴾ (محمد : ٣) ﴿ **واتّبعوا أحسنَ ما أُنزل إليكم من ربكم** ﴾ (الزمر : ٥٥) ﴿ **هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون** ﴾ (الجاثية : ٢٠) ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ (آل عمران : ١٣٨) وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الآحاد فهذا القارىء الواحد مقصود فماله ولسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى : ﴿ **وأُوحِيَ إليّ هذا القرآن لأُنذِرَكُمْ به ومَنْ بلغ** ﴾ (الأنعام : ١٩) قال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما كلّمه الله . وإذا قدّر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله فحسب بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمل ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده ، نتدبرها في الصلوات ، ونقف عليها في الخلوات ، وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات . وكان مالك بن دينار يقول : ما زرع القرآن في قلوبكم يا أهل القرآن ، إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى : ﴿ **ونُنَزِّلُ مِنَ القُرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً** ﴾ (الإسراء : ٨٢) .

(الثامن) التأثر : وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه ، فإن التضييق غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل : ﴿ **وإني لغفار** ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط : ﴿ **لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى** ﴾ (طه : ٨٢) وقوله تعالى : ﴿ **والعصر إن * الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر**﴾ ذكر أربعة شروط، وحيث اقتصر ذكر

شرطاً جامعاً فقال تعالى : ﴿ **إن رحمة الله قريبٌ من المحسنين** ﴾ (الأعراف : ٢٥٦) فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهمَ ذلك فجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن . ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا كثر حزنه وقلَّ فرحه ، وكثر بكاؤه وقل ضحكه ، وكثر نصبه وشغله وقلّت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد : نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للقلوب ولا أشد استجلاباً للحزن من قراءة القرآن وتفهمه وتدبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة فعند الوعيد وتقييد المغفرة بالشروط يتضاءل من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته . وعند ذكر الكفار ما يستحيلُ على الله عز وجل كذكرهم لله عز وجل ولداً وصاحبة يغض صوته ، وينكر في باطنه حياء من قبح مقالتهم . وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها . وعند وصف النار ترتعد فرائصه خوفاً منها ، ولما قال رسول الله ﷺ لابن مسعود : « اقرأ عليَّ قال : فافتتحت سورة النساء فلما بلغت : ﴿ **فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا** ﴾ (النساء : ٤١) رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي : حسبك الآن »[١] . وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استغرقت قلبه ﷺ بالكلية . ولقد كان في الخائفين مَنْ خرَّ مغشياً عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات في سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرجه عن أن يكون حاكياً في كلامه . فإذا قال : ﴿ **إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يومٍ عظيم** ﴾ (الأنعام : ١٩) ولم يكن خائفاً كان حاكياً . وإذا قال : ﴿ **عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير** ﴾ (الممتحنة : ٤) ولم يكن حاله التوكل والإنابة كان حاكياً . وإذا قال : ﴿ **ولنصبرنّ على ما آذيتمونا** ﴾ (إبراهيم : ١٢) فليكن حاله الصبر أو العزيمة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللعن على نفسه في قوله تعالى : ﴿ **ألا لعنة الله على الظالمين** ﴾ (هود : ١٨) وفي قوله تعالى : ﴿ **كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون** ﴾ (الصف : ٣) وفي قوله عز وجل : ﴿ **وهم في غفلة معرضون** ﴾ (الأنبياء : ١) وفي قوله : ﴿ **فأعرضْ عمن تولى عن ذكرنا ولم يُردْ إلا الحياة الدنيا** ﴾

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي .

(النجم : ٢٩) وفي قوله تعالى : ﴿ **ومن لم يتبْ فأولئك هم الظالمون** ﴾ (الحجرات : ١١) إلى غير ذلك من الآيات،وكان داخلاً في معنى قوله عز وجل : ﴿ **ومنهم أُميون لا يعلمونَ الكتاب إلا أماني** ﴾ (البقرة : ٧٨) يعني التلاوة المجردة وقوله عز وجل : ﴿ **وكَأيِّنْ من آيةٍ في السموات والأرض يمُرُّون عليها وهم عنها مُعرضون** ﴾ (يوسف : ١٠٥) لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض ، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها ، ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مثال من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عمارة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ، والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل : ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون** ﴾ (آل عمران : ١٨٧) ولذلك قال رسول الله ﷺ : « اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فلستم تقرءونه ـ وفي بعضها ـ فإذا اختلفتم فقوموا عنه »[1] قال الله تعالى : ﴿ **الذين إذا ذُكِرَ الله وجِلَتْ قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون** ﴾ (الأنفال : ٢) .

قال بعض القراء : قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانياً فانتهرني وقال : جعلت القرآن عليَّ عملاً اذهبْ فاقرأ على الله عز وجل . فانظر بماذا يأمرك وبماذا ينهاك . وبهذا كان شغل أهل القرآن وذلك أنّ تلاوة القرآن حق تلاوته : هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تفسير المعاني ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار . فاللسان يرتل ، والعقل يترجم ، والقلب يتعظ .

(التاسع) الترقي : وأعني به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه (فدرجات القراءة ثلاث ، أدناها : أن يقدر العبد كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقفاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه ، فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتملق والتضرع والابتهال . الثانية : أن يشهد بقلبه كأن الله عز وجل يراه ويخاطبه بألطافه ويناجيه بإنعامه وإحسانه فمقامه الحياء والتعظيم والإصغاء والفهم . الثالثة : أن يرى في الكلام المتكلم ، وفي الكلمات الصفات ، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث إنه منعم عليه بل يكون مقصورَ الهمّ على المتكلم ، موقوف الفكر عليه ، كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم عن

---

(١) متفق عليه .

غيره . وهذه درجة المقربين ، وما قبله درجة أصحاب اليمين ، وما خرج عن هذا فهو درجات الغافلين . وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال : والله لقد تجلى الله عز وجل لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون . وقال أيضاً وقد سألوه عن حالة لحقته في الصلاة حتى خر مغشياً عليه فلما سُرّيَ عنه قيل له في ذلك فقال : مازلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته ، ففي مثل هذه الدرجة تعظم الحلاوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كأني أسمعه من رسول الله ﷺ يتلوه على أصحابه . ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كأني أسمعه من جبريل عليه السلام يلقيه على رسول الله ﷺ ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعيماً لا أصبر عنه . وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما : لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأن بالطهارة تترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام . ولذلك قال ثابت البناني : كابدت القرآن عشرين سنة وتنعمت به عشرين سنة . وبمشاهدة المتكلم دون ما سواه يكون العبد ممتثلاً لقوله عز وجل : ﴿ **ففروا إلى الله** ﴾ (الذاريات : ٥٠) ولقوله : ﴿ **ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر** ﴾ (الذاريات : ٥١) وكل ما التفت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئاً من الشرك الخفي .

(**العاشر**) التبري : وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بعين الرضا والتزكية . فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصديقين فيها ويتشوّف إلى أن يُلْحِقَه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدّر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً ، ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول : اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري ، فقيل له : هذا الظلم فما بال الكفر ؟ فتلا قوله عز وجل : ﴿ **إن الإنسان لظلوم كفار** ﴾ (إبراهيم : ٣٤) وقيل ليوسف بن أسباط : إذا قرأت القرآن بماذا تدعو ؟ فقال : بماذا أدعو أستغفر الله عز وجل من تقصيري سبعين مرة . فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كانت رؤيته سبب قربه ، فإن شهد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وراءها . ومن شهد القرب في البعد مكر به بالأمن الذي يفضي به إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه ، ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محجوباً بنفسه ، فإذ جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا

الله تعـالى في قراءتـه كُشِفَ لـه سر الملكوت . وذلـك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف ، والشديد والمرجو والمخوف وذلك بحسب أوصافه ، إذ منهـا الرحمـة واللطف والانتقـام والبطش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حـالـة منها يستعد للمكاشفة بأمر يناسب تلك الحـالـة ويقـاربهـا ، إذ يستحيل أن تكون حـال المستمع واحدة والمسموع مختلفاً ؛ إذ فيـه كلام راض وكلام غضبـان،وكلام منعم ، وكلام منتقم ، وكلام جبار متكبر لا يبالي ، وكلام حنان متعطف لا يهمل .

☆ ☆ ☆

الفصل السادس

في الذكر

قال الغزالي رحمه الله :

اعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لا نجاة إلا في لقاء الله تعالى ، وأنه لا سبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد محباً لله تعالى وعارفاً بالله سبحانه . وأن المحبة والأنس لا تحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة به لا تحصل إلا بدوام الفكر في مخلوقاته وفي صفاته وأفعاله . وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتزاء منها بقدر البلغة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما جُبلتْ عليه من السآمة والملال لا تصبر على فن واحد من الأسباب المعينة على الذكر والفكر ، بل إذا رُدتْ إلى نمط واحد وأظهرت الملال والاستثقال وأن الله تعالى لا يمل حتى تملوا . فمن ضرورة اللطف بها أن تروّح بالتنقل من فنّ إلى فن ، ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتغزر بالانتقال لذتها ، وتعظم باللذة رغبتها ، وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها . فلذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة ، فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها ، فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا ، والشطر الآخر إلى العبادات رجح جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساوياً ، فأنى يتقاومان والطبع لأحدهما مرجّح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصفو في طلبها القلب ويتجرد . وأما الرد إلى العبادات فمتكلّف ولا يسلم إخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات ، فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة . ومن أراد أن تترجح كفة حسناته وتثقل موازين خيراته فليستوعبْ في الطاعة أكثر أوقاته فإنْ خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فأمره مخطر ، ولكن الرجاء غير منقطع ، والعفو من كرم الله منتظر ، فعسى الله تعالى أن يغفر له بجوده وكرمه ، فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة ، فإنْ لم تكُنْ من أهله فانظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ واقتبسه بنور الإيمان فقد قال تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه : ﴿ **إنّ لك في النهار سبحاً طويلاً * واذكر**

اسم ربك وتَبتَّلْ إليه تبتيلاً ﴾ (المزمل : ٨،٧) وقال تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك بكرةً وأصيلاً * ومن الليل فاسجدْ له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾ (الإنسان : ٢٦،٢٥) ، وقال تعالى : ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ (ق : ٤٠،٣٩) وقال سبحانه : ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم * ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم ﴾ (الطور : ٤٩،٤٨) ، وقال تعالى : ﴿ إن ناشئة الليلِ هي أشد وطأً وأقومُ قيلاً ﴾ (الإنسان : ٦) وقال تعالى : ﴿ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ (طه : ١٣) وقال عز وجل : ﴿ وأقِمِ الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ (هود : ١١٤) ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى : ﴿ أمَّنْ هو قانتٌ آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قُلْ هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ (الزمر : ٩) وقال تعالى : ﴿ تتجافى جنوبهم عن المضاجع يَدْعونَ ربهم خوفاً وطمعاً ﴾ (السجدة : ١٧) وقال عز وجل : ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ﴾ (الفرقان : ٦٤) وقال عز وجل : ﴿ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون ﴾ (الذاريات : ١٨،١٧) وقال عز وجل : ﴿ فسبحان الله حين تُمسون وحين تصبحون ﴾ (الروم : ١٧) وقال تعالى : ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغَداة والعشي يريدون وجهه ﴾ (الأنعام : ٥٢) فهذا كله يبين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على سبيل الدوام . ولذلك قال ﷺ : « أحبُّ عبادِ الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأظلة لذكر الله تعالى »[1] وقد قال تعالى : ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ (الرحمن : ٥) وقال تعالى : ﴿ ألم تر إلى ربك كيف مدّ الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً * ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً ﴾ (الفرقان : ٤٦،٤٥) . وقال تعالى : ﴿ والقمر قَدَّرناه منازل ﴾ (يس : ٣٩) وقال تعالى : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ (الأنعام : ٩٧) فلا تظنن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ، ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا فقط بَلْ لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد .

يدلك عليه قوله تعالى : ﴿ **وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفةً لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً** ﴾ (الفرقان : ٦٢) أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر ، وبيَّنَ أن ذلك للذكر والشكر لا غير . وقال تعالى : ﴿ **وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عددَ السنين والحساب** ﴾ (الإسراء : ١٢) وإنما الفضل المبتغى هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

[أقول : على مريد الآخرة أن يرتِّب على نفسه شيئاً من الاستغفار والتهليل والصلاة على رسول الله ﷺ إلى غير ذلك من الأذكار المأثورة ، كما أن عليه أن يُعَوِّدَ لسانه على الذكر المستمر من تسبيح أو استغفار أو تهليل أو تكبير أو حوقلة وذلك زيادة على ما يرتِّبه على نفسه من صلوات وعبادات وأعمال مما مر معنا ويمر ، فبقدر ما يأخذ نفسه بوسائل التزكية تزكو نفسه ويرتقي ، شعر بذلك أم لم يشعر] .

☆ ☆ ☆

الفصل السابع

في التفكر

[قال تعالى : ﴿ **أَوَلَمْ ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء** ﴾ (الأعراف : ١٨٥) .

وقال تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾ (آل عمران : ١٩٠،١٩١) من النص الثاني ندرك أن كال العقل لا يكون إلا باجتماع الذكر والفكر للإنسان ، فإذا ما عرفنا أنّ كال اللب هو كال الإنسان أدركنا محل الذكر والفكر في تزكية النفس ، ولذلك فقد حرص أهل السلوك إلى الله أن يجتمع للسالك في أول سيره ذكر مع فكر ، كأنْ يتفكر في الأشياء وهو يسبّح الله أو يحمده أو يكبره أو يوحّده ، وقد عرض الغزالي في إحيائه صورة لكيفية التفكّر في خلق الله ، فلو أن القارىء يحاول بعد أن يقرأ فقرة من فقرات هذا البحث أن يتأمّل ما ذكر مستصحباً مع الفكر التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل فإنه سيرى آثار ذلك مباشرة على قلبه ، فيدرك آثار التفكر على القلب والنفس .

إن الذكر والفكر يعمقان معرفة الله في القلب وهي البداية لكل زكاة فلذا عرض الغزالي لكيفية التفكر في خلقَ الله وأسهب فيها . قال رحمه الله :]

☆ ☆ ☆

بيان كيفية التفكر في خلق الله تعالى

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعلُ اللهِ وخلقهُ ، وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف ففيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته ، وإحصاء ذلك غير ممكن ؛ لأنه لو كان البحر مداداً لذلك لنفد البحر قبل أن ينفد عشر عشيره .

وقد ورد القرآن بالحث على التفكر في هذه الآيات كما قال الله تعالى : ﴿ **إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب** ﴾ (آل عمران : ١٩٠) وكما قال تعالى : ﴿ **ومن آياته** ﴾ من أول القرآن إلى آخره . فلنذكر كيفية التفكر في بعض الآيات .

(**فمِنْ آياته**) : الإنسانُ المخلوق من النطفة - وأقربُ شيء إليك نَفْسُكَ - وفيكَ من العجائب الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشيرة وأنت غافل عنه . فيا مَنْ هو غافلٌ عن نفسه وجاهلٌ بها كيف تطمع في معرفة غيرك ؟ وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه العزيز فقال : ﴿ **وفي أنفسكم أفلا تبصرون** ﴾ (الذاريات : ٢١) وذكر أنك مخلوق من نطفة قذرة فقال : ﴿ **قُتِلَ الإنسان ما أكفره * من أيِّ شيء خلَقَهُ * من نطفةٍ خلقه فقدَّره * ثم السبيلَ يسَّره * ثم أماته فأقبره * ثم إذا شاء أنشره** ﴾ (عبس : ١٧ - ٢١) وقال تعالى : ﴿ **ومن آياته أنْ خلقكم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ (الروم : ٢٠) وقال تعالى : ﴿ **ألم يَكُ نطفة من مني يمنى * ثم كان علقة فخلق فسوّى** ﴾ (القيامة : ٣٧، ٣٨) وقال تعالى : ﴿ **ألم نخلقكم من ماءٍ مهين * فجعلناه في قرار مكين * إلى قدر معلوم** ﴾ (المرسلات : ٢٠ - ٢٢) وقال : ﴿ **أوَ لَمْ يَرَ الإنسان أنَّا خلقناه من نطفةٍ فإذا هو خصيم مبين** ﴾ (يسٓ : ٧٧) وقال : ﴿ **إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ** ﴾ (الإنسان : ٢) ثم ذكر : كيف جعل النطفة علقة ، والعلقة مضغة ، والمضغة عظاماً ، فقال تعالى : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة ...** ﴾ (المؤمنون : ١٢ - ١٤) .

فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليُسمعَ لفظه ويترك التفكر في معناه ، فانظر

الآن إلى النطفة ـ وهي قطرة من الماء قذرة لو تركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنتنت ـ كيف أخرجها ربُّ الأرباب من الصُلْب والترائب ، وكيف جمع بين الذكر والأنثى ، وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم ، وكيف قادهم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع ، وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع ، وكيف استجلب (البويضة) من أعماق العروق ، ثم كيف خلق المولود من النطفة وسقاه وغذاه حتى نما وربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي بيضاء مشرقة علقة حمراء ، ثم كيف جعلها مضغة ، ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متساوية متشابهة إلى العظام ، والأعصاب والعروق والأوتار واللحم ؟ ثم كيف ركّب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرئة والرحم والمثانة والأمعاء . كل واحد على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ! ثم كيف قسّم كل عضو من هذه الأعضاء بأقسام أُخر ، فركّب العين من طبقات ، لكل طبقة وصف مخصوص ، وهيئة مخصوصة ، لو فقدت طبقة منها أو زالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار ، فلو ذهبنا إلى أن نصف ما في آحاد هذه الأعضاء من العجائب والآيات لانقضت فيه الأعمار .

فانظر الآن إلى العظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها من نطفة سخيفة رقيقة ، ثم جعلها قواماً للبدن وعماداً له ، ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق . ولما كان الإنسان محتاجاً إلى الحركة بجملة بدنه وببعض أعضائه ، مفتقراً للتردد في حاجاته ، لم يجعل عظمه عظماً واحداً بل عظاماً كثيرة بينها مفاصل حتى تتيسر بها الحركة ، وقدَّرَ شكل كل واحدةٍ منها على وفق الحركة المطلوبة بها ، ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أَنْبتَها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم الآخر كالرباط له ، ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه ، وفي الآخر حفراً غائصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتنطبق عليها ، فصار العبد إنْ أراد تحريك جزء من بدنه لم يمتنع عليه ، ولولا المفاصل لتعذر عليه ذلك .

ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركّبها ، وقد ركّبها من خمسة وخمسين عظماً مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس ـ كما تراه ـ فمنها ستة تخص القحف ، وأربعة عشر للّحي الأعلى ، واثنان للّحي الأسفل ، والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن ، وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا .. ثم

جعل الرقبة مركباً للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفاتٍ مستديرات ، فيها تحريفات وزيادات ونقصانات لينطبق بعضها على بعض ـ ويطول ذكر وجه الحكمة فيها .

ثم ركّب الرقبة على الظهر ، وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة ، وركّب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة ، فيتصل به من أسفله عظم العصعص ، وهو أيضاً مؤلف من ثلاثة أجزاء .

ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر ، وعظام الكتف ، وعظام اليدين ، وعظام العانة ، وعظام العجز ، وعظام الفخذين ، والساقين ، وأصابع الرجلين ، فلا نطول بذكر عدد ذلك . ومجموع عدد العظام في بدن الإنسان مائتا عظم وثمانية وأربعون عظماً ، سوى العظام الصغيرة التي حشي بها خلل المفاصل ، فانظر كيف خلق جميع ذلك من نطفة سخيفة رقيقة .

وليس المقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرفَ عددها ، فإن هذا علم قريب يعرفه الأطباء والمشرحون ، إنما الغرض أن ينظر منها في مُدَبِّرها وخَالِقها أنه كيفَ قدَّرها ودبرها وخالف بين أشكالها وأقدارها ، وخصصها بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحداً لكان وبالاً على الإنسان يحتاج إلى قلعة، ولو أنقص منها واحداً لكان نقصاناً يحتاج إلى جبره، فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها، وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها ومصورها ، فشتان بين النظرين .

ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلاتٍ لتحريك العظام وهي العضلات ؛ فخلق في بدن الإنسان خمسمائة عضلة وتسعاً وعشرين عضلة ـ والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأغشية ـ وهي مختلفة المقادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها . فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدقة العين وأجفانها لو نقصت واحدة من جملتها اختل أمر العين . وهكذا لكل عضو عضلات بعددٍ مخصوص وقدر مخصوص . وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله ـ وشرحه يطول ـ فللفكر مجال في آحاد هذه الأجزاء ، ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجزاء البدن ، وعجائب المعاني والصفات التي لا تُدركُ بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الإنسان وباطنه ، وإلى بدنه وصفاته ، فترى به من العجائب والصنعة ما يقضي به العجب ، وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قذرة . فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات

وكواكبها ، وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرّق بعضها واختلاف صورها ؟ فلا تظنن أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وأحكام بل هي أحكم خلقاً وأتقن صنعاً وأجمع للعجائب من بدن الإنسان . بل لا نسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى : ﴿ **أأنتُم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها * رفع سمْكها فسوّاها * وأغطش ليلها وأخرج ضُحاها** ﴾ (النازعات : ٢٧ ـ ٢٩) .

فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وما صارت إليه ثانياً ، وتأمل أنه لو اجتمع الجن والإنس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو يخلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جلداً أو شعراً هل يقدرون على ذلك ؟ بل لو أرادوا أن يعرفوا كُنْهَ حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه ، فالعجب منك لو نظرت إلى صورة إنسان مصوَّر على حائط تأنّق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها : كأنه إنسان ! عظم تعجبك من صنعة النقّاش وحذقه وخفة يده وتمام فطنته ، وعظم في قلبك محله ، مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصبغ والقلم واليد وبالقدرة وبالعلم وبالإرادة . وشيء من ذلك ليس من فعل النقّاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره ، وإنما منتهى فعله الجمع بين الصبغ والحائط على ترتيب مخصوص ، فيكثر تعجبك منه وتستعظمه .

وأنت ترى النطفة القذرة خلقها خالقها في الأصلاب والترائب ، ثم أخرجها منها وشكّلها فأحسن تشكيلها وقدّرها فأحسن تقديرها وتصويرها . وقسّم أجزاءها المتشابهة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها ، وحسّن أشكال أعضائها ، وزيّن ظاهرها وباطنها ، ورتّب عروقها وأعصابها وجعلها مجرى لغذائها ليكون ذلك سبب بقائها ، وجعلها سميعة بصيرة ، عالمة ناطقة ، وخلق لها الظهر أساساً لبدنها ، والبطن حاوياً لآلات غذائها ، والرأس جامعاً لحواسها ، ففتح العين ورتّب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ، ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصقلها وتدفع الأقذاء عنها ، ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها . ثم شقّ أذنيه وأودعها ماء مرّاً ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوّطها بصدفة الأذن لتجمع الصوت فتردّه إلى صماخها ولتحسّ بدبيب الهوامّ إليها ، وجعل فيها تحريفات واعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم

صاحبها إذا قصدها دابة في حال النوم . ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله ، وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطاعمه وأغذيته ، وليستنشق بمنفذ المنخرين روح الهواء غذاءً لقلبه ، وترويحاً لحرارة باطنه . وفتح الفم وأودعه اللسان ناطقاً وترجماناً ومعرباً عما في القلب ، وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسر والقطع فأحكم أصولها وحدّد رؤوسها وبيّض لونها ، ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متناسقة الترتيب كأنها الدر المنظوم ، وخلق الشفتين وحسَّن لونها وشكلها لتنطبقا على الفم فتسدّا منفذه وليتم بها حروف الكلام . وخلق الحنجرة وهيأها لخروج الصوت . وخلق للسان قدرة للحركات والتقطيعات ليقع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكثرتها . ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والخشونة والملاسة وصلابة الجوهر ورخاوته والطول والقصر ، حتى اختلفت بسببها الأصوات ، فلا يتشابه صوتان ، بل يظهر بين كل صوتين فرق حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة . ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ . وزين الوجه باللحية والحاجبين ، وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل . وزين العينين بالأهداب .

ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخّر كل واحد لفعل مخصوص .

فسخر المعدة والكبد والطحال والمرارة والكلية وجعل لكل وظائفه ، ثم خلق اليدين وطوّلها لتمتدا إلى المقاصد ، وعرَّض الكفّ ، وقسم الأصابع الخمس ، وقسم كل إصبع بثلاث أنامل ، ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ، ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستنبطوا بدقيق الفكر وجهاً آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بُعْدِ الإبهام عن الأربع ، وتفاوت الأربع في الطول ، وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه ؛ إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء ، فإن بسطها كانت له طبقاً يضع عليها ما يريد ، ثم خلق الأظفار على رؤوسها زينة للأنامل ، وعماداً لها من ورائها حتى لا تنقطع ، وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل ، وليحك بها بدنه عند الحاجة ، فالظفر الذي هو أخس الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكة لكان أعجز الخلق وأضعفهم ، ولم يقم أحد مقامه في حك بدنه . ثم هدى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والغفلة من غير حاجة إلى طلب ، ولو استعان بغيره لم يعثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل . ثم

خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ، ولو كشف الغطاء والغشاء وامتد إليه البصر لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليه شيئاً فشيئاً ، ولا يرى المصور ولا آلته ! فهل رأيت مصوراً أو فاعلاً لا يمس آلته ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه ؟ فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه .

ثم انظر مع كمال قدرته إلى تمام رحمته ؛ فإنه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبيل حتى تنكس وتحرّك ، وخرج من ذلك المضيق ، وطلب المنفذ كأنه عاقل بصير بما يحتاج إليه .

ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى التقام الثدي ؟ ثم لما كان بدنه سخيفاً لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين الفرث والدم سائغاً خالصاً ، وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن ، وأنبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ، ثم فتح في حلمة الثدي ثقباً ضيقاً جداً حتى لا يخرج اللبن منه إلا بعد المص تدريجياً ، فإن الطفل لا يطيق منه إلا القليل ، ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك المضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ؟

ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخَّر خلقَ الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتغذى إلا باللبن فيستغني عن السن ، وإذا كبر لم يوافقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ، ويحتاج الطعام إلى المضغ والطحن فأنبتَ له الأسنان عند الحاجة لا قبلها ولا بعدها ، فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك اللثات اللينة ! ثم حنّن قلبي الوالدين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزاً عن تدبير نفسه . فلو لم يسلط الله الرحمة على قلبيهما لكان الطفل أعجز الخلق عن تدبير نفسه .

ثم انظر كيف رزقه القدرة والتمييز والعقل والهداية تدريجاً حتى بلغ وتكامل ، فصار مراهقاً ، ثم شاباً ، ثم كهلاً ، ثم شيخاً ، إما كفوراً أو شكوراً ، مطيعاً أو عاصياً ، مؤمناً أو كافراً تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنَّا هديناه السبيلَ إما شاكراً وإما كفوراً** ﴾ (الإنسان : ١ ـ ٣) فانظر إلى اللطف والكرم ، ثم إلى القدرة والحكمة تبهرك عجائب الحضرة الربانية .

والعجب كل العجب ممن يرى خطاً حسناً أو نقشاً حسناً على حائط فيستحسنه ، فيصرف جميع همه إلى التفكر في النقاش والخطاط وأنه كيف نقشه وخَطَّه وكيف اقتدر عليه ! ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول : ما أحذقه وما أكمل صنعته وأحسن قدرته ! ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يغفل عن صانعه ومصوره فلا تدهشه عظمته ولا يحيره جلاله وحكمته ؟.

فهذه نبذة من عجائب بدنك التي لا يمكن استقصاؤها ، فهو أقرب مجال لفكرك ، وأجلى شاهد على عظمة خالقك وأنت غافل عن ذلك ، ولا تعرف من نفسك إلا أن تجوع فتأكل وتشبع فتنام ، وتشتهي فتجامع ، وتغضب فتقاتل . والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك ، وإنما خاصية الإنسان معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض ، وعجائب الآفاق والأنفس ، إذ بها يدخل العبد في زمرة الملائكة المقربين ، ويحشر في زمرة النبيين والصديقين مقرَّباً من حضرة رب العالمين . وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضي من الدنيا بشهوات البهائم ، فإنه شر من البهائم بكثير ، إذ لا قدرة للبهيمة على ذلك ، وأما هو فقد خلق الله له القدرة ، ثم عطّلها وكفر نعمة الله فيها ، فأولّئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وإذا عرفت طريق الفكر في نفسك فتفكر في الأرض التي هي مقرك ، ثم في أنهارها وجبالها ومعادنها ، ثم ارتفع منها إلى ملكوت السماوات . أما الأرض ؛ فمن آياته أن خلق الأرض فراشاً ومهاداً ، وسلك فيها سبلاً فجاجاً ، وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها ، وأرسى فيها الجبال أوتاداً لها تمنعها من أن تميد . قال تعالى : ﴿ **والسماء بنيناها بأيدٍ وإنّا لموسعون * والأرض فرشناها فنعم الماهدون** ﴾ (الذاريات : ٤٧،٤٨) وقال تعالى : ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها** ﴾ (الملك : ١٥) وقال تعالى : ﴿ **الذي جعل لكم الأرض فراشاً** ﴾ (البقرة : ٢٢) وقد أكثر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها ؛ فظهرها مقرٌّ للأحياء، وبطنها مرقد للأموات. قال تعالى: ﴿ **ألم نجعلِ الأرضَ كفاتاً * أحياءً وأمواتاً** ﴾ (المرسلات : ٢٥،٢٦) ، فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت واخضرت وأنبتت عجائب النبات ، وخرجت منها أصناف الحيوانات ، ثم انظر كيف أحْكَم جوانبَ الأرضِ بالجبال الراسيات الشوامخ الصّمّ الصلاب ، وكيف أودع المياه تحتها ففجر العيون وأسال الأنهار تجري على وجهها ، وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقاً عذباً

زلالاً ، وجعل به كل شيء حي ، فأخرج بـه فنون الأشجـار والنبـات من حب وعنب وقصب وزيتون ونخل ورمان ، وفواكـه كثيرة لا تحصى ، مختلفـة الأشكال والألوان والطعـام والصفـات والأراييح ، يفضل بعضها على بعض في الأُكُل ، تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة .

ثم انظر إلى أرض البوادي وفتّش ظاهرها وباطنها فتراها تراباً متشـابهـا ، فـإذا أنزل عليهـا الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ألواناً مختلفة ونباتاً متشـابهـاً وغير متشـابـه ، لكل واحـد طعم وريح ولـون وشكل يخـالف الآخر ، فـانظر إلى كثرتها واختـلاف أصنـافهـا وكثرة أشكالها ، ثم اختلاف طبـائع النبـات وكثرة منـافعـه ، وكيف أودع الله تعـالى العقـاقير المنـافع الغريبة ؟ فهذا النبات يغـذي ، وهـذا يقوي ، وهـذا يحيي ، وهـذا يقتل ، وهـذا يبرد ، وهـذا يسخن ، وهذا إذا حصل في المعدة قمع الصفراء من أعماق العروق ، وهذا يستحيل إلى الصفراء ، وهذا يقمع البلغم والسوداء ، وهذا يستحيل إليها ، وهـذا يصفي الـدم ، وهـذا يستحيل دمـاً ، وهذا يفرّح ، وهذا ينوّم ، وهذا يقوّي وهذا يضعف ! فلم تنبت من الأرض ورقـة ولا نبتـة إلا وفيها منافع لا يقوى البشر على الوقوف على كنهها . وكل واحد من هذا النبـات يحتـاج الفلاح في تربيتـه إلى عمل مخصوص ، فـالنخـل تُؤَبَّر ، والكرم يكسـح ، والـزرع ينقى عنـه الحشيش والدغل ، وبعض ذلك يستنبت ببث البذر في الأرض ، وبعضه بغرس الأغصان وبعضـه يركب في الشجر ، ولو أردنا أن نذكر اختلاف أجنـاس النبـات وأنواعـه ومنـافعـه وأحوالـه وعجـائبـه لانقضت الأيام في وصف ذلك ، فيكفيك من كل جنس نبـذة يسيرة تـدلـك على طريق الفكر فهذه عجائب النبات .

(ومن آيـاتـه) : الجواهر المـودعـة تحت الجبـال ، والمعـادن الحـاصلـة من الأرض . ففي الأرض قطـع متجـاورات مختلفـة ، فـانظر إلى الجبـال كيف يخرج منهـا الجـواهر النفيسـة من الذهب والفضة والفيروزج وغيرها ، بعضها منطبعـة تحت المطـارق كالـذهب والفضـة والنحـاس والرصاص والحديد ، وبعضها لا ينطبع كالفيروزج .

وكيف هـدى الله النـاس إلى استخراجهـا وتنقيتهـا واتخـاذ الأواني والآلات والنقـود والحلي منها . ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها ، وأقلها الملح ولا يحتـاج إليه إلا لتطييب الطعام ، ولو خلت عنه بلدة لتسارع الهلاك إليها ! فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبخة بجوهرهـا بحيث يجتمع فيهـا المـاء الصـافي من المطر ، فيستحيل

ملحاً مالحاً ليكون ذلك تطييباً لطعامك إذا أكلته فيتهنأ عيشك . وما من جمادٍ ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس . ما خلق شيء منها عبثاً ولا لعباً ولا هزلاً ، بل خلق الكل بالحق كما ينبغي وعلى الوجه الذي ينبغي ، وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه . ولذلك قال تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق** ﴾ (الدخان : ٣٨،٣٩) .

(**ومن آياته**) : أصناف الحيوانات : وانقسامها إلى ما يطير وإلى ما يمشي . وانقسام ما يمشي : إلى ما يمشي على رجلين ، وإلى ما يمشي على أربع ، وعلى عشر ، وعلى مائة ، كما يشاهد في بعض الحشرات . ثم انقسامها في المنافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع . فانظر إلى طيور الجو ، وإلى وحوش البر ، والبهائم الأهلية ، ترى فيها من العجائب ، ولا تشك معه في عظمة خالقها وقدرة مقدّرها وحكمة مصوّرها ، وكيف يمكن أن يستقصى ذلك ؟ بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقة أو النملة أو النحلة أو العنكبوت ـ وهي من صغار الحيوانات ـ في بنائها بيتها ، وفي جمعها غذاءها ، وفي إلفها لزوجها ، وفي ادخارها لنفسها ، وفي حذقها في هندسة بيتها ، وفي هدايتها إلى حاجاتها ، لم نقدر على ذلك ؛ فترى العنكبوت يبني بيته على طرف نهر ، فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع فما دونه حتى يمكنه أن يصل بالخيط بين طرفيه ، ثم يبتدىء ويلقي اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليلتصق به ، ثم يغدو إلى الجانب الآخر فيحكم الطرف الآخر من الخيط ، ثم كذلك يتردد ثانياً وثالثاً ويجعل بعد ما بينهما متناسباً تناسباً هندسياً ، حتى إذا أحكم معاقد القمط ورتب الخيوط كالسدى اشتغل باللحمة ، فيضع اللحمة على السدى ويضيف بعضه إلى بعض ، ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ، ويراعي في جميع ذلك تناسب الهندسة ، ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البقّ والذباب ، ويقعد في زاوية مترصداً لوقوع الصيد في الشبكة ، فإذا وقع الصيد بادر إلى أخذه وأكله ، فإن عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط ووصل بين طرفي الزاوية بخيط ، ثم علّق نفسه فيها بخيط آخر ، وبقي منكساً في الهواء ينتظر ذبابة تطير ، فإذا طارت رمى بنفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجليه وأحكمه ثم أكله ، وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى ، أفترى أنه تعلّم هذه الصنعة من نفسه ، أو تكوّن بنفسه ، أو كوّنه آدمي ، أو علّمه ، أو لا هادي له ولا معلم ؟ أفيشكّ ذو بصيرة في أنه مسكين ضعيف عاجز ؟ بل الفيل العظيم شخصه ، الظاهرة قوته ، عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا

الحيوان الضعيف ؟ أفلا يشهد هو بشكله وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعته لفاطره الحكيم وخالقه القادر العليم . فالبصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق المدبر وجلاله وكمال قدرته وحكمته ما تتحير فيه الألباب والعقول فضلاً عن سائر الحيوانات . وهذا الباب أيضاً لا حصر له فإن الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة ، وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنسها بكثرة المشاهدة ، نعم إذا رأى حيواناً غريباً ولو دوداً تجدّد تعجبه وقال : سبحان الله ما أعجبه ! والإنسان أعجب الحيوانات ، وليس يتعجب من نفسه ، بل لو نظر إلى الأنعام التي ألفها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباساً لخلقه ، وأكناناً لهم في ظعنهم وإقامتهم ، وآنية لأشربتهم ، وأوعية لأغذيتهم ، وصوناً لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ، ثم جعل بعضها زينة للركوب ، وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للبوادي والمفازات البعيدة ، لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها ، فإنه ما خلقها إلا بعلم محيط بجميع منافعها سابق على خلقه إياها فسبحان مَن الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكرٍ ومن غير تأملٍ وتدبر ، ومن غير استعانة بوزير أو مشير ؛ فهو العليم الخبير الحكيم القدير . فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب العارفين بتوحيده ، فما للخلق إلا الإذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والإقرار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته . فمن ذا الذي يحصي ثناء عليه ؟ بل هو كما أثنى على نفسه ، وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن معرفته فنسأل الله تعالى أن يكرمنا بهدايته وبمنه ورأفته .

(ومن آياته) : البحار العميقة المكتنفة لأقطار الأرض ، حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال والأرض بالإضافة إلى الماء كجزيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء .

وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها فتأمل الآن عجائب البحر ، فإن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضعاف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض ، كما أن سعته أضعاف سعة الأرض ، ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر ، فتظن أنها جزيرة ، وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحر أمثاله وأضعافه ، وفيه أجناس لا يعهد لها نظير في البر . وقد ذكرت أوصافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه .

ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودرره في صدفه تحت الماء . وانظر كيف أنبت المرجان من صمّ الصخور تحت الماء ، وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبت من الحجر . ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقذفها البحر وتستخرج منه ! ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء ، وسيَّر فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم ، وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ، ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ، ثم عرَّف الملاحين موارد الرياح ومهابها ومواقيتها ولا تستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات . وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر ! وهو كيفية قطره الماء [الذي به] حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات ، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو ملك ذلك ، ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها ! فالعجب من الآدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويغفل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ منها بذل جميع الدنيا فيها ! فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار ففيها متسع للفكر ومجال . وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها ، مفصحة عن جلال بارئها ، معربة عن كال حكمته فيها ، منادية أرباب القلوب بنغماتها قائلة لكل ذي لب : أما تراني وترى صورتي وتركيبي وصفاتي ومنافعي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي ؟ أتظن أني كونتُ نفسي أو خلقني أحد من جنسي ؟ أو ما تستحي أن تنظر في كلمة مرقومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ، ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية المرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط . ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه .

وتقول النطفة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون : توهمني في ظلمة الأحشاء في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي ، فينقش النقّاش حدقتي وأجفاني وجبهتي وخدي وشفتي ، فترى التقويس يظهر شيئاً فشيئاً على التدريج ، ولا ترى داخل النطفة نقشاً ولا خارجها ، ولا داخل الرحم ولا خارجه ، ولا خبر منها للأم ولا للأب ، ولا للنطفة ولا للرحم ! أفما هذا النقّاش بأعجب مما تشاهده ينقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته ، فهل تقدر على أن تتعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي يعم ظاهر النطفة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطفة ومن غير اتصال بها لا

من داخل ولا من خارج ؟ فإن كنت لا تتعجب من هذه العجائب ولا تفهم منها أن الذي صوّر ونقش وقدّر لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور ، كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع ـ فبين الفاعلين من المباينة والتباعد ما بين الفعلين ـ فإن كنت لا تتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فإنه أعجب من كل عجب ؟ فإن الذي أعمى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنعك من التبيّن مع هذا البيان جدير بأن تتعجب منه ، فسبحان من هدى وأضل ، وأغوى وأرشد ، وأشقى وأسعد ، وفتح بصائر أحبابه فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه ، وأعمى قلوب أعدائه ، واحتجب عنهم بعزه وعلائه ، فله الخلق والأمر والامتنان والفضل ، واللطف والقهر لا رادّ لحكمه ولا معقّب لقضائه .

(ومن آياته) : الهواء اللطيف الذي يدرك بحس اللمس عند هبوب الرياح جسمه ، ولا يرى بالعين شخصه ، وجملته مثل البحر الواحد ، والطيور محلّقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها كما تسبح حيوانات البحر في الماء ، فإذا حرك الله الهواء وجعله ريحاً هابة فإن شاء جعله نشراً بين يدي رحمته كما قال سبحانه : ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ (الحجر : ٢٢) ، وإن شاء جعله عذاباً على العصاة من خليقته كما قال تعالى : ﴿ **إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في يوم نحس مستمر * تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر** ﴾ (القمر : ١٩، ٢٠) ثم النظر إلى لطف الهواء ، ثم شدته وقوته مهما ضغط في الماء ، فالزق المنفوخ يتحامل عليه الرجل القوي ليغمسه في الماء فيعجز عنه ، والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه . فانظر كيف ينقبض الهواء من الماء بقوته مع لطافته ؟ وبهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه الماء .

ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من الغيوم والرعود والبروق والأمطار والثلوج والشهب والصواعق ، فهي عجائب ما بين السماء والأرض ، وقد أشار القرآن إلى جملة ذلك في قوله تعالى : ﴿ **وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين** ﴾ (الدخان : ٣٤) وهذا هو الذي بينهما . وأشار إلى تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى : ﴿ **والسحاب المسخر بين السماء والأرض** ﴾ (البقرة : ١٦٤) وحيث تعرض للرعد والبرق والسحاب والمطر ، فإذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بعينك وتسمع الرعد بأذنك فالبهيمة تشاركك في هذه المعرفة ! فارتفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم الملأ الأعلى فقد فتحت عينيك فأدركت

ظاهرها ، فغمّض عينك الظاهرة وانظر ببصيرتك الباطنة لترى عجائب باطنها ، وغرائب أسرارها ، وهذا أيضاً باب يطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه . فتأمّل السحاب الكثيف المظلم كيف تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه ، وكيف يخلقه الله تعالى إذا شاء ومتى شاء ، وهو مع رخاوته حامل للماء الثقيل وممسك له في جو السماء إلى أن يأذن الله في إرسال الماء وتقطيع القطرات ، كل قطرة بالقدر الذي أراده الله تعالى ، وعلى الشكل الذي شاءه ، فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات متفاصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ، ولا تتصل واحدة بأخرى ، بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم لها لا تعدل عنه ، فلا يتقدم المتأخر ولا يتأخر المتقدم ، حتى يصيب الأرض قطرة قطرة ، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يعرفوا عدد ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة لعجز حساب الجن والإنس عن ذلك ، فلا يعلم عددها إلا الذي أوجدها . هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالقطن المندوف من العجائب التي لا تحصى . كل ذلك فضل من الجبار القادر ، وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل ، بل ليس للمؤمنين من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ، يقول الجاهل المغرور : إنما ينزل الماء لأنه ثقيل بطبعه ، وإنما هذا سبب نزوله ، ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ، ولو قيل له : ما معنى الطبع وما الذي خلقه ؟ ومن الذي خلق الماء الذي طبعه الثِقَل ؟ وما الذي رقّى الماء المصبوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقيل بطبعه ؟ فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق ، فيغذي كل جزء من كل ورقة ، ويجري إليها في تجاويف عروق شعرية صغار يروي منه العرق الذي هو أصل الورقة ، ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير الممدود في طول الورقة عروق صغار ـ فكأن الكبير نهر وما انشعب عنه جداول ، ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ، ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة ـ فيصل الماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها ، وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه . فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق ؟ فإن كان ذلك بجذب جاذب فما الذي سخر ذلك الجاذب ؟ وإن كان ينتهي بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر ؟ فنهاية الجاهل بداية العاقل .

(**ومن آياته**) : ملكوت السموات وما فيها من الكواكب ، وهو الأمر كله . ومن أدرك الكلَّ وفاته عجائب السموات فقد فاته الكل تحقيقاً . فالأرض والبحار والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر . ثم انظر كيف عظّم الله أمر السموات والنجوم في كتابه ، وكم من قَسَم في القرآن بها كقوله تعالى : ﴿ **والسماء ذات البروج** ﴾ (البروج : ١) ﴿ **والسماء والطارق** ﴾ (الطارق : ١) ﴿ **والسماء ذات الحبك** ﴾ (الذاريات : ٧) ﴿ **والسماء وما بناها** ﴾ (الشمس : ٥) وكقوله تعالى : ﴿ **والشمس وضحاها * والقمر إذا تلاها** ﴾ (الشمس : ١ ، ٢)وكقوله تعالى :﴿ **فلا أقسم بالخنّس *الجوارِ الكُنّس** ﴾ (التكوير : ١٥ ، ١٦)وقوله تعالى :﴿ **والنجم إذا هوى** ﴾ (النجم :١)﴿ **فلا أقسم بمواقع النجوم * وإنه لقسم لو تعلمون عظيم** ﴾ (الواقعة : ٧٥،٧٦) فقد علمت أن عجائب النطفة القذرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون ـ وما أقسم الله بها ـ فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحال الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى : ﴿ **وفي السماء رزقكم وما توعدون** ﴾ (الذاريات : ٢٢) وأثني على المتفكرين فيه فقال : ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾(آل عمران : ١٩١) وقال رسول الله ﷺ : « ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها »[1] أي تجاوزها من غير فكر . وذم المعرضين عنها فقال : ﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون** ﴾ (الأنبياء : ٣٢) فأي نسبة لجميع البحار والأرض إلى السماء ، وهي شداد محفوظات عن التغيّر إلى أن يبلغ الكتاب أجله ولذلك سماه الله تعالى محفوظاً فقال : ﴿ **وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً** ﴾ وقال سبحانه : ﴿ **وبنينا فوقكم سبعاً شداداً** ﴾ (النبأ : ١٢) وقال : ﴿ **أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها** ﴾ (النازعات : ٢٧،٢٨) فانظر إلى الملكوت لترى عجائب العز والجبروت . ولا تظنن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تمد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم تشركك في هذا النظر . فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿ **وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السموات والأرض** ﴾ (الأنعام : ٧٥) لا بل كان ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة ، وما غاب عن الأبصار فيعبر عنه بالغيب والملكوت ، والله تعالى عالم الغيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو ﴿ **عالم الغيب فلا**

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه .

يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول ﴾ (الجن : ٢٦ ، ٢٧) فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وشمسها وقمرها وتدبر عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها ، فبعضها يميل إلى الحمرة ، وبعضها إلى البياض ، وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة العقرب ، وبعضها على صورة الحمل والثور والأسد والإنسان ، وعجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشير جزء من أجزائها ، وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر ، واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا ولله تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ، ثم في شكله ، ثم في لونه ، ثم في موضعه من السماء ، وقربه من وسط السماء ، وبُعده ، وقربه من الكواكب التي بجنبه وبُعدِه ، وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك ، إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة ، وأمر السماء أعظم ، بل لا نسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لا في كبر جسمه ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت ، فهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لا تنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ، ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاق

فسبحان من عرَّف عباده ما عرّف ثم خاطب جميعهم فقال : ﴿ **وما أوتيم من العلم إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء ٣٥)

فهذا بيان معاقد الجمل التي تجول فيها فكر المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ، ولكن يستفاد من الفكر في الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته ، وكلما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم . وهذا كما أنك تعظم عالماً بسبب معرفتك بعلمه ، فلا تزال تطّلع على غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيراً وتعظيماً واحتراماً ، حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيده محلاً من قلبك يستدعي التعظيم له في نفسك . فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه ، وكل ما في الوجود من خلق الله وتصنيفه والنظر ، والفكر فيه لا يتناهى أبداً وإنما لكل عبد منها بقدر ما رزق فلنقتصر على ما ذكرناه .

وكل ما نظرنا فيه فإن الطبيعي ينظر فيه ، ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته ، والموفّق ينظر فيه فيكون سبب هدايته وسعادته ، وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله

سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته واهتدى به ، ومن نظر فيها قاصراً للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب فقد شقي وتردّى فنعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يجنبنا مزلة أقدام الجهال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

☆ ☆ ☆

الفصل الثامن

في ذكر الموت وقصر الأمل

[إن مما يبطر النفس ويدفعها إلى الصراعات المشؤومة والشهوات المذمومة طول أملها ، ونسيانَها للموت ، ولذلك كان مما تعالج به النفس تذكر الموت الذي هو أثر القهر الإلهي ، وقصر الأمل الذي هو أثر عن تذكر الموت ، وبقدر ما يقصر الأمل ويتذكر الإنسان الموت يكون عكوفه على القيام بحقوق الله أكثر ، ويكون الإخلاص في عمله أتم ، ولا يظنن ظان أن قصر الأمل يحول دون إعمار الدنيا ، فالأمر ليس كذلك بل عمارة الدنيا مع قصر الأمل تكون أقرب إلى العبادة ، إن لم تكن عبادة خالصة ، ففارق بين مَنْ يعمل بالسياسة قياماً بحق الله ، وبين من يعمل فيها من أجل شهوة نفسه .

إن قصر الأمل وتذكر الموت ينقلان الإنسان من الطور الثاني إلى الطور الأول ، ومن ههنا وغيره يأخذ تذكر الموت وقصر الأمل أهميتهما كوسيلتين من وسائل تزكية النفس ، وهاك بعض كلام الغزالي في هذا وذاك] .

☆ ☆ ☆

ذكر الموت

أما بعد : فجدير بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جليسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، والقيامة موعده ، والجنة أو النار مورده ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطلع إلا إليه ، ولا تعريج إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا له ، ولا انتظار وتربص إلا له ، وحقيق بأن يعدّ نفسه من الموتى ويراها في أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال رسول الله ﷺ : « الكَيِّسُ من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت »[١] ولن يتيسر الاستعداد للشيء إلا عند تجدد ذكره على القلب ، ولا يتجدد ذكره إلا عند التذاكر بالإصغاء إلى المذكرات له ، والنظر في المنبهات عليه ، ليكون ذلك مُستحثاً على الاستعداد ، فقد قرب لما بعد الموت الرحيل ، فما بقي من العمر إلا القليل ، والخلق عنه غافلون ﴿ **اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون** ﴾ (الأنبياء : ١) .

في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره

اعلم أن المنهمك في الدنيا المكّبَ على غرورها المحبَّ لشهواتها يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذُكِّر به كرهه ونفر منه ، أولئك هم الذين قال الله فيهم : ﴿ **قلْ إن الموتَ الذي تفرون منه فإنه مُلاقيكم ثم تُردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون** ﴾ (الجمعة : ٨) ثم الناس : إما منهمكٌ ، وإما تائب مبتدىء ، أو عارف منته . أما المنهمك : فلا يذكر الموت ، وإنْ ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته ، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بُعداً . وأما التائب : فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الخوف والخشية فيفي بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يختطفه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد ، وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله ﷺ : « من كره لقاء الله كره الله لقاءه »[٢] فإن هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره ، وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشتغلاً بالاستعداد للقائه على وجهِ

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه .

(٢) متفق عليه .

يرضاه فلا يعدّ كارهاً للقائه . وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لا شغل له سواه وإلا التحق بالمنهمك في الدنيا ، وأما العارف : فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعدُ لقائه لحبيبه ، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب ، وهذا في غالب الأمر يستبطىء مجيء الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دارالعاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين . كما روي عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال: (حبيب جاء على فاقةٍ لا أفلح من نَدِمَ.. اللهم إن كنت تعلمُ أن الفقر أحب إليّ من الغنى ، والسقم أحب إليّ من الصحة ، والموت أحب إليّ من العيش ، فسهّل عليّ الموت حتى ألقاك). فإذن التائب معذور في كراهة الموت، وهذا معذور في حب الموت وتمنيه ، وأعلى منهما من فوّض أمره إلى الله تعالى فصار لا يختار لنفسه موتاً ولا حياة ، بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه ، فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى . وعلى كل حال ففي ذكر الموت ثواب وفضل ، فإن المنهمك أيضاً يستفيد بذكر الموت التجافي عن الدنيا إذْ ينغص عليه نعيمه ويكدّر عليه صفو لذته ، وكل ما يكدّر على الإنسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

بيان فضل ذكر الموت كيفما كان

قال رسول الله ﷺ : « أكثروا من ذكر هازم اللذات »[١] ومعناه : نغّصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى [لأن] ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور ويتقاضى الاستعداد للآخرة ، والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا . وقال ﷺ : « تحفة المؤمن الموت »[٢] وإنما قال هذا لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاضاة نفسه ورياضة شهواته ومدافعة شيطانه ، فالموت إطلاق له من هذا العذاب ، والإطلاق تحفة في حقه . وقال ﷺ : « الموت كفارةٌ لكل مسلم »[٣] وأراد بهذا : المسلم حقاً المؤمن صدقاً الذي يَسْلَمُ المسلمون من لسانه ويده ، ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ، ولم يتدنّس من المعاصي إلا باللمم والصغائر ، فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنابه الكبائر وإقامته الفرائض .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي وابن ماجه .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم مرسلاً بسند حسن .

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج المريدين :

وقال ابن عمر رضي الله عنهما : أتيت النبي ﷺ ـ عاشر عشرة ـ فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله ؟ فقال : « أكثرهم ذكراً للموت وأشدهم استعداداً له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة »[١] .

أما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى : فضح الموتُ الدنيا فلم يترك لذي لبٍ فرحاً . وقال الربيع بن خيثم : ما غائبٌ ينتظره المؤمن خيراً له من الموت . وكان يقول : لا تشعروا بي أحداً ، وسلُّوني إلى ربي سلا . وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخي احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تتمنى فيها الموت فلا تجده . وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي: شيئان قطعا عني لذة الدنيا: ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب : من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف : رأيت فيما يرى النائم كأن قائلا يقول ـ في وسط مسجد البصرة ـ قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما تراهم إلا والهين . وقالت صفية رضي الله عنها : إنّ امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت : أكثري ذكر الموت يرقّ قلبك ، ففعلت فرقّ قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظني ، فقال : لست أوّل خليفة يموت ، قال : زدني ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموتَ وقد جاءت نوبتك ، فبكى عمر لذلك ، وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول : لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه ابن ماجه مختصراً وابن أبي الدنيا بكماله بإسناد جيد .

بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت

فالطريق فيه أن يفرغ العبد قلبه عن كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه ، كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة مخطرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه ، فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه ، وعند ذلك يقل فرحه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه . وأنجع طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله ، فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب . ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم ، كيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم ، وكيف أرملوا نساءهم وأيتموا أولادهم وضيّعوا أموالهم ، وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم ، وانقطعت آثارهم .

قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عز وجل ، تضعونه في صدع من الأرض قد توسد التراب ، وخلّف الأحباب وقطع الأسباب .

فملازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يجدّد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه ، فعند ذلك يوشك أن يستعد ويتجافى عن دار الغرور ، وإلا فالذكر بظاهر القلب وعذبة اللسان قليل الجدوى في التحذير والتنبيه ، ومهما طاب قلبه بشيء من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لابد له من مفارقته . نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال : والله لولا الموت لكنت بك مسروراً ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور لقرت بالدنيا أعيننا ، ثم بكى بكاءً شديداً حتى ارتفع صوته .

قصر الأمل

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما : « إذا أصبحت فلا تحدّث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح ، وخُذْ من حياتك لموتك ، ومن صحتك لسقمك ، فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غداً »[١] .

وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرز عوداً بين يديه ، والآخر إلى جنبه ، وأما الثالث فأبعده ، فقال : « هل تدرون ما هذا ؟ » ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « هذا الإنسان ، وهذا الأجل ، وذاك الأمل ، يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل »[٢] وقال عليه الصلاة والسلام : « مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون منيةً إنْ أخطأته المنايا وقع في الهرم »[٣] قال ابن مسعود : هذا المرء وهذه الحتوف حوله شوارع إليه ، والهرم وراء الحتوف ، والأمل وراء الهرم ، فهو يؤمل ، وهذه الحتوف شوارع إليه ، فأيها أمر به أخذه ، فإن أخطأته الحتوف قتله الهرم وهو ينتظر الأجل .

قال عبد الله : خط لنا رسول الله ﷺ خطاً مربعاً ، وخط وسطه خطاً ، وخط خطوطاً إلى جنب الخط ، وخط خطاً خارجاً وقال : « أتدرون ما هذا ؟ » قلنا الله ورسول أعلم ، قال : « هذا الإنسان ـ للخط الذي في الوسط ـ وهذا الأجل محيط به ، وهذه الأعراض ـ للخطوط التي حوله ـ تنهشه إن أخطأه هذا نهشه هذا ، وذاك الأمل »[٤] ـ يعني الخط الخارجي .

وقال أنس رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان : الحرص والأمل »[٥] .

وفي رواية : « وتشب معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر » .

---

(١) أخرجه ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث : « كن في الدنيا كأنك غريب » .

(٢) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا واللفظ له والرامهرمزي ، وإسناده حسن .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن .

(٤) رواه البخاري .

(٥) رواه مسلم وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

الآثار

قال مطرف بن عبد الله : لو علمت متى أجلي لخشيتُ على ذهاب عقلي ؟ ولكن الله تعالى منَّ على عباده بالغفلة عن الموت ، ولولا الغفلة ما تهنأوا بعيش ، ولا قامت بينهم الأسواق . وقال الحسن : السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولاهما ما مشى المسلمون في الطرق . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه : ثلاث أعجبتني حتى أضحكتني : مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل وليس يغفل عنه ، وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راضٍ ، وثلاث أحزنتني حتى أبكتني : فراقُ الأحبة ـ محمد وحزبه ـ وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يُؤْمَرُ بي أو إلى النار .

وعن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أنه كان يقول في خطبته : أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم ؟ أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصّنوها بالحيطان ؟ أين الذين كانو يعطون الغلبة في مواطن الحرب ؟ قد تضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا !

بيان السبب في طول الأمل وعلاجه

اعلم أن طول الأمل له سببان ، أحدهما : الجهل ، والآخر : حب الدنيا .

أما حب الدنيا : فهو أنه إذا أَنِسَ بها وبشهواتها ولذاتها وعلائقها ثَقُلَ على قلبه مفارقتها ، فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها ، وكل من كره شيئاً دفعه عن نفسه . والإنسان مشغوف بالأماني الباطلة فيمنّي نفسه أبداً بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ويقدّره في نفسه ويقدّر توابع البقاء وما يحتاج إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا ، فيصير قلبه عاكفاً على هذا الفكر موقوفاً عليه ، فيلهو عن ذكر الموت فلا يقدّر قربه ، فإن خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد له سوَّف ووعد نفسه وقال : الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب ، وإذا كبر فيقول : إلى أن تصير شيخاً . فإذا صار شيخاً قال : إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة ، أو ترجع من هذه السفرة ، أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكنٍ له ، أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك . فلا يزال يسوّف ويؤخّر ، ولا يخوض في

شغل إلا ويتعلق بإتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخر ، وهكذا على التدريج يؤخر يوماً بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تختطفه المنية في وقت لا يحتسبه . فتطول عند ذلك حسرته ، والمسوِّفُ المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً ، وإنما يزداد بطول المدة قوّة ورسوخاً ، ويظنّ أنه يتصور أن يكون للخائض في الدنيا والحافظ لها فراغ قط وهيهات ! فما يفرغ منها إلا من طرحها .

فما قضى أحدٌ منها لبانته ... وما انتهى أربٌ إلا إلى أربِ

وأصل هذه الأماني كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة .

وأما الجهل : فهو أن الإنسان قد يعوّل على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب ، وليس يتفكر المسكين أن مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أقل من عُشْرِ رجال البلد ، وإنما قلّوا لأن الموت في الشباب أكثر ، فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدري أنّ ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيداً فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض فإنما يقع فجأة ، وإذا مرض لم يكن الموت بعيداً . ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب وشيب وكهولة ، ومن صيف وشتاء وخريف وربيع ، من ليل ونهار ، لَعَظُمَ استشعاره ، واشتغل بالاستعداد له ، ولكنّ الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل ، وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب .

وإذا عرفت أن سببه الجهل وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه .

(أما الجهل) فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر ، وبسماع الحكمة البالغة من القلوب الطاهرة .

(وأما حب الدنيا) فالعلاج في إخراجه من القلب شديد ، وهو الداء العضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ، ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر ، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ، ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا ، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير ، فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استنكف أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطي ملك الأرض من المشرق إلى المغرب ، وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدّر منغّص ، فكيف يفرح بها أو يترسّخ في قلب حبها مع الإيمان

بالآخرة ؟ ولا علاج في تقرير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يحتسبوا . أما من كان مستعداً فقد فاز فوزاً عظيماً ، وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسراناً مبيناً . فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه ، وليتدبّر أنها كيف تأكلها الديدان لا محالة ؟ وكيف تفتت عظامها ؟ وليتفكر أن الدود يبدأ بحدقته اليمنى أولاً أو اليسرى ؟ فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود ، وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى ، وكذلك يتفكر في عذاب القبر وسؤال منكر ونكير والحشر والنشر ، وأهوال القيامة ، وقرع النداء يوم العرض الأكبر ، فأمثال هذه الأفكار هي التي تجدّد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون ، فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى : ﴿ يَودُّ أحدهم لو يُعَمَّرُ ألفَ سنةٍ ﴾ (البقرة : ٩٦) ، ومنهم من يأمل البقاء إلى الهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله ﷺ : « الشيخ شابٌ في حب طلب الدنيا وإن التفّتْ ترقوتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقليلٌ ما همْ »[١] ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ، ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف ، فإذا جمع ما يكفيه لسنته اشتغل بالعبادة . ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء ، فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف . ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة ، فلا يستعد إلا لنهاره وأما للغد فلا .

ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ : « يا عبد الله إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح »[٢] ومنهم من لا يقدّر البقاء أيضاً ساعة ، ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره ، وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودّع .

---

(١) في الصحيحين من حديث أبي هريرة : « قلب الشيخ شاب على حب اثنتين طول الحياة وحب المال » .
(٢) معناه في البخاري والترمذي .

فهذه مراتب الناس ، ولكل درجات عند الله ، وليس مَنْ أمله مقصورٌ على شهرٍ كن أمله شهر ويوم ، بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله : ﴿ إن الله لا يظلمُ مثقال ذرة ﴾ (النساء : ٤٠) ﴿ ومَنْ يعملْ مثقال ذرةٍ خيراً يره ﴾ (الزلزلة : ٧) ثم يظهر أثر قصر الأمل في المبادرة إلى العمل ، وكل إنسان يدعي أنه قصير الأمل وهو كاذب ، إنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتني بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة ، فيدل ذلك على طول أمله ، وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يغفل عنه ساعة ، فليستعد للموت الذي يرد عليه في الوقت ، فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيّع نهاره بل استوفى منه حظّه وادّخره فيه . فمثل هذا إذا مات سعد وغنم ، وإنْ عاش سُرَّ بحسن الاستعداد ولذة المناجاة ، فالموت له سعادة والحياة له مزيد ، فليكن الموت على بالك يا مسكين فإن السير حاثٌّ بك وأنت غافل عن نفسك ، ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ، ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناماً لكل نَفَسٍ أمهلت فيه .

بيان المبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير

اعلم أن مَنْ له أخَوانِ غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غدٍ وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعدّ للذي يقدم إلى شهر أو سنة ، وإنما يستعدّ للذي ينتظر قدومه غداً ، فالاستعداد نتيجة قرب الانتظار ، كما قال رسول الله ﷺ : « ما ينتظرُ أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغياً ، أو فقراً منسياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرماً مقيداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة ، والساعة أدهى وأمر »[1] وقال ابن عباس : قال النبي ﷺ لرجل وهو يعظه : « اغتنم خمساً قبل خمس : شبابكَ قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك »[2] وقال ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ »[3] أي أنه لا يغتنمها ثم يعرف قدرهما عند زوالهما .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد حسن .

(٣) أخرجه البخاري .

الفصل التاسع

في المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمعَاتبة

[إن النفس والقلب يحتاجان إلى تعاهد يومي ، بل إلى تعاهد بين الآن والآن ، وما لم يتعاهد الإنسان نفسه يومياً أو آنياً يجدها قد شردت كثيراً ، كما يجد القلب قد قسا وغفل ، ومن ههنا اعتمد أهل السير إلى الله المشارطة والمراقبة والمحاسبة والمجاهدة والمعاتبة ، وسائل من وسائلِ تزكية النفس ، وها نحن ننقل لك بعضاً من كلام الغزالي في هذا الموضوع] .

المراقبة والمحاسبة

قال الله تعالى : ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تُظْلَمُ نفس شيئاً وإن كان مثقال حبةٍ من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾ (الأنبياء : ٤٧) ، وقال تعالى : ﴿ **ووضِعَ الكتابُ فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتابِ لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً** ﴾ (الكهف : ٤٩) وقال تعالى : ﴿ **يومَ يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاهُ اللهُ ونسوه والله على كل شيء شهيد** ﴾ (المجادلة : ٦) وقال تعالى : ﴿ **يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم * فمن يعملْ مثقال ذرة خيراً يره * ومَنْ يعملْ مثقال ذرة شرّاً يره** ﴾ (الزلزلة : ٦ ـ ٨) وقال تعالى : ﴿ **ثم تُوفَّى كلُّ نفسٍ ما كسبتْ وهم لا يظلمون** ﴾ (البقرة : ٢٨١) وقال تعالى : ﴿ **يوم تجدُ كل نفسٍ ما عملتْ من خير محضَراً وما عملتْ من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه** ﴾ (آل عمران : ٣٠) وقال تعالى : ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾ (البقرة : ٢٣٥) فعرف أربابُ البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمرصاد ، وأنهم سيناقشون في الحساب ويُطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات ، وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة ، وصدق المراقبة ، ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات ، فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفّ في القيامة حسابه ، وحضر عند السؤال جوابه ، وحَسُنَ منقلبه ومآبه ، ومَنْ لم يحاسب نفسه دامت حسراته ، وطالت في عرصات القيامة وقفاته ، وقادته إلى الخزي والمقت سيئاته ، فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمرابطة فقال عز من قائل : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾ (آل عمران : ٢٠٠) فرابطوا أنفسهم أولاً بالمشارطة ، ثم بالمراقبة ، ثم بالمحاسبة ، ثم بالمعاقبة ، ثم بالمجاهدة ، ثم بالمعاتبة . فكانت لهم في المرابطة ستة مقامات .

المقام الأول من المرابطة : المشارطة

اعلم أن مطالب المتعاملين في التجارات المشتركين في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكما أن التاجر يستعين بشريكه فيسلّم إليه المال حتى يَتَّجِرَ ثم يحاسبه ، فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما مطالبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح مَنْ زكّاها * وقد خابَ من دسّاها** ﴾ (الشمس : ٩-١٠) ، وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة . والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعملها ويستسخرها فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وغلامه الذي يتّجر في ماله ، وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً يجاذبه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويعاقبه أو يعاتبه رابعاً ، فكذلك العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً ؛ فيوظف عليها الوظائف ، ويشرط عليها الشروط ، ويرشدها إلى طريق الفلاح ، ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ، ثم لا يغفل عن مراقبتها لحظة ، فإنه لو أهملها لم يَرَ منها إلا الخيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجو وانفرد بالمال . ثم بعد الفراغ ينبغي أن يحاسبها ويطالبها بالوفاء بما شرط عليها فإن هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى ، وبلوغ سدرة المنتهى مع الأنبياء والشهداء ، فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا ، مع أنها محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ، ثم كيفما كانت فمصيرها إلى التصرم والانقضاء ، ولا خير في خير لا يدوم .

فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه ، والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها ، فإذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح ينبغي أن يفرّغ قلبه ساعة لمشارطة النفس [كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك العامل يفرغ المجلس لمشارطته] فيقول للنفس : مالي بضاعة إلا العمر ومهما فني فقد فني رأس المال ، ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح ، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه ، وأنسأ في أجلي ، وأنعم عليَّ به ، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً ، فاحسبي أنّكِ قد تُوفيتِ ثم قد رددتِ فإياكِ ثم إياك أن تضيّعي هذا اليوم ، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها من نفاستها ، واعلمي يا نفسُ أن اليوم والليلة أربع وعشرون ساعة ، فاجتهدي اليوم في أن تعمري خزانتك ، ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي

هي أسباب ملكك ولا تميلي إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة .

المرابطة الثانية : المراقبة

إذا أوصى الإنسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا المراقبة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكالئة فإنها إنْ تركت طغت وفسدت . ولنذكر فضيلة المراقبة ثم درجاتها .

(أما الفضيلة) فقد سأل جبريل عليه السلام عن الإحسان فقال رسول الله ﷺ : « أنْ تَعبد الله كأنَّكَ تراه »[1] وقال عليه الصلاة والسلام : « اعبد الله كأنك تراه فإنْ لم تكنْ تراه فإنه يراك »[2] وقد قال تعالى : ﴿ **أفَمنْ هو قائمٌ على كلّ نفس بما كسبتْ** ﴾ (الرعد : ٣٣) وقال تعالى : ﴿ **ألمْ يعلمْ بأنَّ الله يرى** ﴾ (العلق : ١٤) وقال الله تعالى : ﴿ **إنَّ الله كان عليكم رقيباً** ﴾ (النساء : ١) وقال تعالى : ﴿ **والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم بشهاداتهم قائمون** ﴾ (المعارج : ٣٢،٣٣) .

وحكي أنه كان لبعض المشايخ تلميذ شاب وكان يكرمه ويقدّمه فقال له بعض أصحابه : كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ ؟ فدعا بعدّة طيور وناول كل واحد منهم طائراً وسكيناً وقال : ليذبحْ كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ، ودفع إلى الشاب مثل ذلك ، وقال له كما قال لهم ، فرجع كل واحد بطائره مذبوحاً ، ورجع الشاب والطائر حي في يده ، فقال : مالك لمْ تذبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال : لم أجدْ موضعاً لا يراني فيه أحد إذ الله مطّلعٌ عليَّ في كل مكان . فاستحسنوا منه هذه المراقبة وقالوا : حَقٌّ لك أن تُكْرم .

وسئل بعضهم عن قوله تعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمنْ خشي ربه** ﴾ (البينة : ٨)فقال معناه : ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزوّد لمعاده ، وسئل ذو النون : بِمَ ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس : استقامة ليس فيها روغان ، واجتهاد

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية وهو حديث حسن .

ليس معه سهو ، ومراقبة الله تعالى في السر والعلانية ، وانتظار الموت بالتأهب له ، ومحاسبة نفسك قبل أن تُحاسب .

[والإنسان لا يخلو في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب ، كان مراقباً . فإن كان قاعداً مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ : « خير المجالس ما استقبل به القبلة »[1] وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب . فكل ذلك داخل في المراقبة بل ولو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالمراقبة .

والعبد لا يخلو إما أن يكون في طاعة ، أو في معصية ، أو في مباح .

فمراقبته في الطاعة بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراستها عن الآفات . وإن كان في معصية فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكر . وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها .

ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لابد له من الصبر عليها ، ونعمة لابد له من الشكر عليها وكل ذلك من المراقبة . بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرته ، أو محظور يلزمه تركه ، أو ندب حثّ عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله ، أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ؛ ولكل واحد من ذلك حدود لابد من مراعاتها بدوام المراقبة ﴿ **ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه** ﴾ (الطلاق : ١) فينبغي أن يتفقد العبد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة ، فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتمس أفضل الأعمال ليشتغل بها ؛ فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغرور ، والأرباح تنال بمزايا الفضائل ، فبذلك يأخذ العبد من دنياه لآخرته كما قال تعالى : ﴿ **ولا تنس نصيبك من الدنيا** ﴾ (القصص : ٧٧)] .

فهذه المرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال ، وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهاج لمن أحكم الأصول .

---

(١) أخرجه الحاكم .

المرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل

ولنذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها :

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولْتَنْظُرْ نفسٌ ما قدَّمتْ لِغدٍ** ﴾ (الحشر : ١٨) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا ، وزنوها قبل أنْ تُوزنوا ، وقال تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ (النور : ٣١) والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه . وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح : « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » وقال تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسَّهمْ طائفٌ من الشيطان تذكروا فإذا هُمْ مُبصرون** ﴾ (الأعراف : ٢٠) وعن عمر رضي الله عنه ، أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جَنَّـهُ الليل ويقولُ لنفسه : ماذا عملتِ اليومَ ؟ وعن ميمون بن مهران أنه قال : لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشدّ من محاسبة شريكه ، والشريكان يتحاسبان بعد العمل . وروي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبا بكر رضوان الله عليه قال لها عند الموت : ما أحد من الناس أحبَّ إليّ من عمر ، ثم قال لها : كيف قلت ؟ فأعادت عليه ما قال فقال : لا أحد أعزَّ عليَّ من عمر . فانظر كيف نظر بعد الفراغ من الكلمة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها ! وحديث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته ـ فتدبر ذلك ـ فجعل حائطه صدقة لله تعالى ، ندماً ورجاء للعوَض مما فاته .

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان في بنيك وغلمانك ما يكفونك هذا ، فقال : أردت أن أجرّب نفسي هل تنكره ؟ وقال الحسن : المؤمن قوّام على نفسه يحاسبها لله ، وإنما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهمْ في الدنيا ، وإنما شقَّ الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة .

وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائطاً فسمعته يقول ـ وبيني وبينه جدار ـ وهو في الحائط ، عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ ! والله لتتقين الله أو ليعذبنك . وقال الحسن في قوله تعالى : ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوّامة** ﴾ (القيامة : ٢) قال : لا يلقى المؤمن إلا يعاتب نفسه ، ماذا أردت بكلمتي ؟ وماذا أردت بأكلتي ؟ وماذا أردت بشربتي ؟ والفاجر يمضي قدماً لا يعاتب نفسه .

بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل :

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق فينبغي أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها ـ كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصاً منهم على الدنيا ، وخوفاً من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخسارة لهم في فواته ! ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياماً قلائل ، فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد ؟ ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك . ومعنى المحاسبة مع الشريك : أن ينظر في رأس المال ، وفي الربح ، والخسران : ليتبين له الزيادة من النقصان ، فإن كل من فضل حاصل استوفاه وشكره ، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلّفه تداركه في المستقبل . فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض ، وربحه النوافل والفضائل ، وخسرانه المعاصي . وموسم هذه التجارة جملة النهار ، ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء ، فيحاسبها على الفرائض أولاً ، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه ، ورغّبها في مثلها ، وإنْ فوتها من أصلها طالبها بالقضاء ، وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل ، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط ـ كما يصنع التاجر بشريكه ـ وكما أنه يفتش في حساب الدنيا عن الحبة والقيراط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغبن في شيء منها فينبغي أن يتقي غبينة النفس ومكرها فإنها خدّاعة ملبسة مكارة ، فليطالبها أولاً بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره ، وليتكفل بنفسه من الحساب ما سيتولاه غيره في صعيد القيامة ، وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه ، حتى عن سكوته أنه لِمَ سكت ؟ وعن سكونه لم سكن ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس . وصحَّ عنده قدر ما أدى الواجب فيه ، كان ذلك القدر محسوباً له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبته عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريدة حسابه .

المرابطة الرابعة : في معاقبة النفس على تقصيرها

مهما حاسب [الإنسان] نفسه فلم تسلم عن مقارفة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها ؛ فإنه إنْ أهملها سهل عليه مقارفة المعاصي ، وأنست بها نفسه ، وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها ، بل ينبغي أن يعاقبها ، فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع ، وإذا نظر إلى غير مَحْرَم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر ، وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته .

قال عبد الله بن قيس : كنا في غَزَاةٍ لنا فحضر العدو ، فَصِيحَ في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح ، وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول : أيْ نفسي ألَمْ أشهدْ مشهد كذا فقلتِ لي : أهلك وعيالك فأطعتك ورجعتُ ! ألَمْ أشهد مشهد كذا وكذا فقلتِ لي : أهلك وعيالك فأطعتك ورجعت ! والله لأعرضنك اليوم على الله أخذكِ أو تركك ! فقلت : لأرمقنه اليوم ، فرمقته فحمل الناس على عدوهم فكان في أوائلهم . ثم إن العدو حمل على الناس فانكشفوا فكان في موضعه ، حتى انكشفوا مرات وهو ثابت يقاتل ، فوالله مازال ذاك دأبه حتى رأيته صريعاً ، فعددتُ به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة . وقد ذكرنا حديث أبي طلحة : لما اشتغل قلبه في الصلاة بطائر في حائط فتصدق بالحائط كفارة لذلك . وإن عمر كان يضرب قدميه بالدرة كل ليلة ويقول : ماذا عملت اليوم ؟

فكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم والعجب أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر ، وتخاف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبغوا عليك ، ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدو لك وأشد طغياناً عليك ، وضررك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك ، فإن غايتهم أن يُشَوِّشوا عليكَ معيشة الدنيا ، ولو عقلت لعلمت أن العيشَ عيشُ الآخرة ، وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ، ونفسك هي التي تنغّص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

المرابطة الخامسة : المجاهدة

وهو أنه إذا حاسب نفسه فرآها قد قارفت معصية فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت ، وإن رآها تتوانى بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتثقيل الأوراد عليها ويلزمها فنوناً من الوظائف جبراً لما فات منه وتداركاً لما فرط ، فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى ، فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرضٍ كانت له قيمتها مائتا ألف درهم ، وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحيا تلك الليلة ، وأخر ليلة صلاة المغرب حتى طلع كوكبان فأعتق رقبتين ، كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذة لها بما فيه نجاتها .

فإن قلت : إن كانت نفسي لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فما سبيل معالجتها ؟ فأقول : سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين[1] . ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صحبة عبدٍ من عباد الله يجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدي به ، وكان بعضهم يقول : كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهاده فعملت على ذلك أسبوعاً .

وقال أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوماً واحداً : الظمأ لله بالهواجر ، والسجود لله في جوف الليل ، ومجالسة أقوام ينتقون أطايب الكلام كما يُنتقى أطايب التمر . وكانت ابنة الربيع بن خثيم تقول له يا أبت ما لي أرى الناس ينامون وأنت لا تنام ؟ فيقول : يا ابنتاه إن أباك يخاف البيات . ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء والسهر نادته يا بني لعلك قتلت قتيلاً ! قال : نعم يا أماه قالت : فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك ؟ فوالله لو يعلمون ما أنت فيه لرحموك وعفوا عنك ، فيقول يا أماه هي نفسي .

وقال رجل من النساك : أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء فقعدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر ، وأذن المؤذن إلى الصلاة ولم يحدث وضوءاً ، فحاك ذلك في صدري فقلت له : رحمك الله قد نمت الليل

---

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أخرجها أبو داود وله وللنسائي وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح : « رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته » .

كله مضطجعاً ثم لم تجدّدْ الوضوء فقال : كنت الليل كله جائلاً في رياض الجنة أحياناً وفي أودية النار أحياناً فهل في ذلك نوم .

ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن قال : صليت خلف علي رضي الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انفتل عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال : والله لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ وما أرى اليوم شيئاً يشبههم كانوا يصبحون شعثاً غبراً صفراً ، قد باتوا لله سجداً وقياماً ، يتلون كتاب الله يراوحون بين أقدامهم وجباههم ، وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح ، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم ، وكأن القوم باتوا غافلين ـ يعني من كان في زمنه ـ .

فهكذا كانت سيرة السلف الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها . فمهما تمرّدت نفسك عليك وامتنعت من المواظبة على العبادة فطالع أحوال هؤلاء فإنه قد عزّ الآن وجود مثلهم ، ولو قدرت على مشاهدة من تقتدي بهم فهو أنجع في القلب وأبعث على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة ، وإذا عجزت عن هذا فلا تغفل عن سماع أحوال هؤلاء ، فإن لم تكن إبل فمعزى ، وخيّر نفسك بين الاقتداء بهم والكون في زمرتهم وغمارهم ـ وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين ـ وبين الاقتداء بالجهلة الغافلين من أهل عصرك ، ولا ترض لها أن تنخرط في سلك الحمقى وتقنع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء . وحكايات المجتهدين غير محصورة ، وإن أردت مزيداً فعليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وبالوقوف عليه يستبين لك بُعدكَ وبعد أهل عصرك من أهل الدين . فإن حدَّثتك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالتْ : إنما تَيَسَّرَ الخيرُ في ذلك الزمان لكثرة الأعوان ، والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنوناً وسخروا بك فوافقهم فيما هم فيه وعليه ، فلا يجري عليك إلا ما يجري عليهم والمصيبة إذا عَمَّتْ طابت ـ فإياك أن تتدلى بحبل غرورها وتنخدع بتزويرها ، وقُلْ لها : أرأيت لو هجم سيل جارف يغرق أهل البلد وثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم ـ لجهلهم بحقيقة الحال ـ وقدرت أنتِ على أن تفارقيهم وتركبي في سفينة تتخلصين بها من الغرق فهل يختلج في نفسك أن المصيبة إذا عمّت طابت ؟ أم تتركين موافقتهم ، وتستجهلينهم في صنيعهم ، وتأخذين حذرك مما دهاك ، فإذا كنتِ تتركين موافقتهم خوفاً من الغرق ، وعذاب الغرق لا يتمادى إلا ساعة ، فكيف لا تهربين من عذاب الأبد وأنت

متعرضة له في كل حال ؟ ومن أين تطييب المصيبة إذا عمت ولأهل النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ؟ ولم يهلك الكفار إلا بموافقة أهل زمانهم حيث قالوا : ﴿ **إنّا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون** ﴾ (الزخرف : ٢٣) فعليك إذا اشتغلت بمعاتبة نفسك وحملها على الاجتهاد فاستعصت أن لا تترك معاتبتها وتوبيخها وتعريفها سوء نظرها لنفسها فعساها تنزجر عن طغيانها .

المرابطة السادسة : في توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وقد خُلِقتْ أمّارة بالسوء ميالة إلى الشر فرارة من الخير ، وأمِرْتَ بتزكيتها وتقويمها وقَوْدها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها ، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها ، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك ، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التي أقسم الله بها ، ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوّة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها ، ولا تشتغلن بوعظ غيرك ما لم تشتغل أولاً بوعظ نفسك .

قال تعالى : ﴿ **وذكر فإنّ الذكرى تنفعُ المؤمنين** ﴾ (الذاريات : ٥٥) وسبيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها ، وأنها أبداً تغترّ بفطنتها وهدايتها ، ويشتدّ أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك ؛ تَدّعينَ الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشدّ الناس غباوة وحمقاً ! أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب ؟ فمالك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطبِ الجسيم ، وعساك اليوم تختطفين أو غداً ، فأراك تَرَيْنَ الموتَ بعيداً ويراه الله قريباً ؟ أما تعلمين أنّ كل ما هو آتٍ قريبٌ وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ، ومن غير مواعدة ومواطأة ، وأنه لا يأتي في شيء دون شيء ولا في شتاء دون صيف ، ولا في صيف دون شتاء ، ولا في نهار دون ليل ، ولا في ليل دون نهار ، ولا يأتي في الصبا دون الشباب ، ولا في الشباب دون الصبا ، بل كل نَفَسٍ من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة ، فإن لم يكن الموتُ فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضي إلى الموت فمالك لا تستعدين للموت وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى : ﴿ **اقتربَ للناس حسابهم**

وهم في غفلةٍمُعرضون * ما يأتيهمْ من ذكرٍ من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهيةً قلوبهم ﴾ (الأنبياء : ١ - ٣) ويْحَكِ يا نفسُ ما أعجبَ نفاقك ودواعيك الباطلة ، فإنك تدَّعين الإيمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ، ألم يقل لكِ سيدكِ ومولاك : ﴿ **وما مَنْ دابةٍ في الأرض إلا على الله رزقها** ﴾ (هود : ٦) وقال في أمر الآخرة : ﴿ **وأنْ ليس للإنسان إلا ما سعى** ﴾ (النجم : ٣٦) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة ، وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك ، وأصبحتِ تتكالبين على طلبها تكالبَ المدهوشِ المستهتر ، ووُكِل أمرُ الآخرة إلى سعيكِ فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ! ما هذا من علامات الإيمان ؟ لو كان الإيمان باللسان فَلِمَ كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟

قال منصور بن عمار : سمعت في بعض الليالي بالكوفة عابداً يناجي ربه وهو يقول : يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ، ولا عصيتك إذْ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ، ولا لعقوبتك متعرض ، ولا لنظرك مستخفّ ، ولكن سوّلت لي نفسي ، وأعانني على ذلك شقوتي ، وغرني سترك المرخيّ عليَّ ، فعصيتك بجهلي ، وخالفتك بفعلي ، فمن عذابك الآن من يستنقذني ؟ أو بحبلِ مَنْ أعتصمُ إن قطعتَ حبلكَ عني ؟ واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمثقلين حُطُّوا أمع المخفين أجوزُ أم مع المثقلين أحطُّ ؟ ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي ، ويلي كلما طال عمري كثرت معاصيّ ، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود ؟ أما آن لي أن أستحي من ربي ! .

فهذه طرق القوم في مناجاة مولاهم وفي معاتبة نفوسهم ، وإنما مطلبهم من المناجاة الاسترضاء ، ومقصدهم من المعاتبة التنبيه والاسترعاء ، فمن أهمل المعاتبة والمناجاة لم يكن لنفسه مراعياً ، ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً والسلام .

☆ ☆ ☆

الفصل العاشر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد

[لاحظ الصلة بين قوله تعالى : ﴿ **قد أفلح من زكّاها** ﴾ (الشمس : ٩) وقوله تعالى : ﴿ **ولتكنْ منكم أمةٌ يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران : ١٠٤) . وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتّقوا الله وابتغوا إليه الوسيلةَ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون** ﴾ (المائدة : ٣٥) .

فالفلاح في الآيتين الأخيرتين تعلّق بالدعوةِ إلى الخير وبالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر وبالتقوى والعمل الصالح وبالجهاد مما يدلّ على أن الفلاح المتعلّق بتزكية النفس يدخل فيه هذا كلّه .

إن الدعوة إلى الخير والمعروف تؤكدهما في النفس وذلك يزكيها ، والنهي عن المنكر يقبّحه في النفس وذلك يزكيها ، والجهاد تحرير للنفس من حب الحياة ومن حب الدنيا وبيع للنفس من ربها ، وذلك أرقى ما تصل إليه النفس المزكاة ، لذلك كانت الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد من وسائل تزكية النفس ، وإن في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) لتفصيلات في هذه الشؤون ، وقد نقلنا هناك كلام الغزالي في الإحياء عن مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيده ونكتفي بالإشارة إليه .

إن تنظيم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير من واجبات العصر ، وإن إطلاق الطاقات المسلمة في طرق الجهاد من واجبات العصر .

وهذان لا يتمان إلا إذا أصبحت هذه المعاني خلقاً للنفس . وبدون أن تكون هذه المعاني خلقاً للنفس يكون بين النفس والزكاة بون شاسع] .

☆ ☆ ☆

الفصل الحادي عشر

في الخدمة والتواضع

[الخدمة والتواضع وسيلتان من وسائل تزكية النفس وهما علامتان على أن النفس مزكاة ، لذلك نَدَبنا الله ورسوله ﷺ إليهما : « ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته » .

وقال الله تعالى : ﴿ **واخفض جناحك للمؤمنين** ﴾ (الحجر : ٨٨) .

والخدمة نوعان : خدمة خاصة وخدمة عامة ، وكلاهما له أثره في تزكية النفس ، فالخدمة العامة تقتضي صبراً وسعة صدرٍ واستعداداً للتلبية في كل حين ، والخدمة الخاصة تقتضي تواضعاً وذلة للمؤمنين وعلى المؤمنين ، ولذلك كانت الخدمة من أعظم وسائل التزكية لمن أدّاها بإخلاص وصبر عليها ، وإذا كانت الخدمة مبناها على التواضع ، والتواضع نفسه من وسائل تزكية النفس لما فيه من إبعادها عن الكبر والعُجْب فقد اخترنا أن ننقل بعض كلام الغزالي فيه] .

قال رحمه الله :

قال رسول الله ﷺ : « ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزّاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله »[١] .

وقال ﷺ : « طوبى لمن تواضع في غير مسكنة ، وأنفق مالاً جمعه في غير معصية ، ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة »[٢] . وقال ﷺ : « الكرمُ التقوى ، والشرفُ التواضعُ ، واليقينُ الغنى »[٣] .

وقال الفضيل وقد سئل عن التواضع ما هو ؟ فقال : أن تخضع للحق وتنقاد له ولو سمعته من صبي قبلته ، ولو سمعته من أجهل الناس قبلته .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه البغوي وابن قانع والطبراني والبزار .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا وأسند الحاكم أوله وقال : صحيح الإسناد .

وقيل لعبد الملك بن مروان : أي الرجال أفضل ؟ قال : من تواضع عن قدرة ، وزهد عن رغبة ، وترك النصرة عن قوة .

وقال زياد النمري : الزاهد بغير تواضع كالشجرة التي لا تثمر . وقال مالك بن دينار : لو أن منادياً ينادي بباب المسجد ليخرج شركم رجلاً والله ما كان أحدٌ يسبقني إلى الباب إلا رجلاً بفضل قوة أو سعي قال : فلما بلغ ابن المبارك قوله قال : بهذا صار مالك مالكاً . وقال الفضيل : من أحب الرياسة لم يفلح أبداً .

وقال أبو يزيد : ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر ، فقيل له : فمتى يكون متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه مقاماً ولا حالاً .

وعن عمر بن شيبة قال : كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان وإذا هم يعنفون الناس ، قال : ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر ، فإذا أنا برجل حافٍ طويل الشعر قال : فجعلتُ أنظر إليه وأتأمله فقال لي : مالك تنظر إليَّ ؟ فقلت له : شبهتك برجل رأيته بمكة ، ووصفت له الصفة ، فقال له : أنا ذلك الرجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال إني ترفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفع الناس . وقال المغيرة كنا نهاب إبرهيم النخعي هيبة الأمير وكان يقول : إن زماناً صرت فيه فقيه الكوفة لزمان سوء .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : وجدنا الكرم في التقوى ، والغنى في اليقين ، والشرف في التواضع . نسأل الله الكريم حسن التوفيق .

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني عشر

في معرفة مداخل الشيطان على النفس وقطع الطرق عليها

[إن للشيطان دخلاً في التأثير على النفوس - إلا من عصمه الله تعالى - والشيطان يأتي النفوس من خلال غرائزها وشهواتها الحسية والمعنوية وهو خبير بنقاط الضعف لدى الإنسان ، لذلك كان من وسائل تحصين النفس ، وبالتالي من وسائل تزكية النفس معرفة مداخل الشيطان على الإنسان ، ولذلك جعلنا هذا الفصل ههنا ، قال الغزالي رحمه الله] :

☆ ☆ ☆

بيان تفصيل مداخل الشيطان إلى القلب

اعلم أنّ مثال القلب مثال حصن والشيطان عدوّ يريد أن يدخل الحصن فيملكه ويستولي عليه ، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدوّ إلا بحراسة الحصن ومداخله ومواضع ثُلَمِهِ ، ولا يقدر على حراسة أبوابه من لا يدري أبوابه ، فحماية القلب عن وسواس الشيطان واجبة ، وهو فرض عين على كل عبد مكلف ، وما لا يُتَوَصَّل إلى الواجب إلا به فهو أيضاً واجب ، ولا يُتَوصَّلُ إلى دفع الشيطان إلا بمعرفة مداخله فصارتْ معرفة مداخله واجبة . ومداخل الشيطان وأبوابه صفات العبد وهي كثيرة ، ولكنا نشير إلى الأبواب العظيمة الجارية مجرى الدروب التي لا تضيق عن كثرة جنود الشيطان .

فمن أبوابه العظيمة : الغضب والشهوة ؛ فإنّ الغضب هو غول العقل ، وإذا ضعف جند العقل هجم جند الشيطان ، ومهما غضب الإنسان لعب الشيطان به كما يلعب الصبي بالكرة .

ومن أبوابه العظيمة : الحسد والحرص ، فمهما كان العبد حريصاً على كل شيء أعماه حرصه وأصمه إذ قال ﷺ : « حبك للشيء يُعمي ويصم »[1] ونور البصيرة هو الذي يعرف مداخل الشيطان ، فإذا غطّاه الحسد والحرص لم يبصر ، فحينئذ يجد الشيطان فرصة فيحسّن عند الحريص كل ما يوصله إلى شهوته وإن كان منكراً وفاحشاً .

ومن أبوابه العظيمة : الشبع من الطعام وإن كان حلالاً صافياً ؛ فإنّ الشبع يقوّي الشهوات ، والشهوات أسلحة الشيطان .

ويقال في كثرة الأكل ست خصال مذمومة ؛ أولها : أن يذهب خوف الله عن قلبه . الثاني : أن يذهب رحمة الخلق من قلبه لأنّه يظن أنهم كلهم شباع . والثالث : أنه يثقل عن الطاعة . والرابع : أنه إذا سمع كلام الحكمة لا يجد له رقة ، والخامس : أنه إذا تكلم بالموعظة والحكمة لا يقع في قلوب الناس . والسادس : أن يهيج فيه الأمراض .

ومن أبوابه : حب التزين من الأثاث والثياب والدار ، فإن الشيطان إذا رأى ذلك غالباً على قلب الإنسان باض فيه وفرخ ، فلا يزال يدعوه إلى عمارة الدار ، وتزيين سقوفها

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن وأخرجه أبو داود من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .

وحيطانها ، وتوسيع أبنيتها ، ويدعوه إلى التزين بالثياب والدواب ، ويستسخره فيها طول عمره ، وإذا أوقعه في ذلك فقد استغنى أن يعود إليه ثانية ، فإن بعض ذلك يجره إلى البعض ، فلا يزال يؤديه من شيء إلى شيء إلى أن يساق إليه أجله فيموت وهو في سبيل الشيطان واتباع الهوى ، ويخشى من ذلك سوء العاقبة بالكفر نعوذ بالله منه .

ومن أبوابه العظيمة : الطمع في الناس ؛ لأنه إذا غلب الطمع على القلب لم يزل الشيطان يحبب إليه التصنع والتزين لمن طمع فيه بأنواع الرياء والتلبيس حتى يعود المطموع فيه كأنه معبوده ، فلا يزال يتفكر في حيلة للتودد والتحبب إليه ، ويدخل كل مدخل للوصول إلى ذلك . وأقل أحواله الثناء عليه بما ليس فيه ، والمداهنة له بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن أبوابه العظيمة : العجلة وترك التثبت في الأمور ، قال ﷺ : « العجلة من الشيطان والتأني من الله تعالى »[1] وقال عز وجل : ﴿ **خلق الإنسان من عجل** ﴾ (الأنبياء : ٣٧) وقال تعالى : ﴿ **وكان الإنسان عجولاً** ﴾ (الإسراء : ١١) وقال لنبيه ﷺ : ﴿ **ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليك وحيه** ﴾ (طه : ١١٤) وهذا لأن الأعمال ينبغي أن تكون بعد التبصرة والمعرفة ، والتبصرة تحتاج إلى تأمل وتمهل ، والعجلة تمنع من ذلك ، وعند الاستعجال يروج الشيطان شره على الإنسان من حيث لا يدري .

ومن أبوابه العظيمة : الدراهم والدنانير وسائر أصناف الأموال من العروض والدواب والعقار ؛ فإن كل ما يزيد على قدر القوت والحاجة فهو مستقر الشيطان ، فإن من معه قوته فهو فارغ القلب . فلو وجد مائة دينار مثلاً على طريق انبعث من قلبه شهوات تحتاج كل شهوة منها إلى مائة دينار أخرى ، فلا يكفيه ما وجد ، بل يحتاج إلى تسعمائة أخرى ، وقد كان قبل وجود المائة مستغنياً ، فالآن لما وجد مائة ظن أنه صار بها غنياً ، وقد صار محتاجاً إلى تسعمائة ليشتري داراً يعمرها ، وليشتري جارية ، وليشتري أثاثاً ، ويشتري الثياب الفاخرة ، وكل شيء من ذلك يستدعي شيئاً آخر يليق به . وذلك لا آخر له فيقع في هاوية آخرها عمق جهنم فلا آخر له سواها .

---

[1] أخرجه الترمذي وقال حسن .

ومن أبوابه العظيمة : البخل وخوف الفقر ، فإن ذلك هو الذي يمنع الإنفاق والتصدق ، ويدعو إلى الادخار والكنز ، والعذاب الأليم وهو الموعود للمكاثرين كما نطق به القرآن العزيز .

وقال سفيان : ليس للشيطان سلاح مثل خوف الفقر ، فإذا قبل ذلك منه أخذ في الباطل ، ومنع من الحق ، وتكلم بالهوى ، وظن بربه ظن السوء .

ومن آفات البخل الحرص على ملازمة الأسواق لجمع المال ، والأسواق هي معشش الشياطين .

ومن أبوابه العظيمة : التعصب للمذاهب والأهواء ، والحقد على الخصوم والنظر إليهم بعين الازدراء والاستحقار ، وذلك مما يهلك العبّاد والفسّاق جميعاً ، فإن الطعن في الناس والاشتغال بذكر نقصهم صفة مجبولة في الطبع من الصفات السبعية ، فإذا خيل إليه الشيطان أن ذلك هو الحق وكان موافقاً لطبعه غلبت حلاوته على قلبه فاشتغل به بكل همته ، وهو بذلك فرحان مسرور يظن أنه يسعى في الدين وهو ساع في اتباع الشياطين ، ثم إن الشيطان يخيل إلى بعض المتعصبين أن من مات محباً لفلان وفلان فالنار لا تحوم حوله ، ويخيل إلى الآخر أنه إذا مات محباً لفلان لم يكن عليه خوف ، وهذا رسول الله ﷺ يقول لفاطمة رضي الله عنها وهي بضعة منه : « اعملي فإني لا أغني عنك من الله شيئاً »[1] وهذا مثال أوردناه من جملة الأهواء . وهذا مدخل عظيم من مداخل الشيطان قد أهلك به أكثر العالم .

ومن أبوابه : حمل العوام الذين لم يمارسوا العلم ولم يتبحروا فيه على التفكر في ذات الله تعالى وصفاته ، وفي أمور لا يبلغها حدّ عقولهم حتى يشككهم في أصل الدين ، أو يخيل إليهم في الله تعالى خيالات يتعالى الله عنها ، يصيرُ أحدهم بها كافراً أو مبتدعاً ، وهو به فرح مسرور مبتهج بما وقع في صدره ، يظن ذلك هو المعرفة والبصيرة ، وأنه انكشف له ذلك بذكائه وزيادة عقله ، فأشدّ الناس حماقةً أقواهم اعتقاداً في عقل نفسه ، وأثبت الناس عقلاً أشدهم اتهاماً لنفسه ، وأكثرهم سؤالاً من العلماء . قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن الشيطان يأتي أحدكم فيقول : من خلقك ؟ فيقول : الله تبارك وتعالى ، فيقول : من خلق الله ؟ فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل : آمنت بالله ورسوله فإن ذلك يذهب عنه »[2] .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أحمد والبزار وأبو يعلى في مسانيدهم ورجالة ثقات وهو متفق عليه من حديث أبي هريرة .

ومن أبوابه : سوء الظن بالمسلمين قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنَّ بعضَ الظن إثم** ﴾ (الحجرات : ١٢) .

روي عن علي بن حسين أن صفية بنت حُيي بن أخطب أخبرته أن النبي ﷺ كان معتكفاً في المسجد قالت : فأتيته فتحدثت عنده ، فلما أمسيت انصرفت فقام يمشي معي ، فمر به رجلان من الأنصار فسلما ثم انصرفا فناداهما وقال : « إنها صفية بنت حيي » فقالا يا رسول الله ما نظن بك إلا خيراً، فقال: «إن الشيطان يجري من ابن آدمَ مجرى الدم من الجسد ، وإني خشيت أن يدخل عليكما »[1] فانظر كيف أشفق ﷺ على دينهما فحرسهما ؟ وكيف أشفق على أمته فعلّمهم طريق الاحتراز من التهمة ، حتى لا يتساهل العالِم الورع المعروف بالدين في أحواله فيقول : مثلي لا يُظَنُّ به إلا الخير إعجاباً منه بنفسه . فإن أورع الناس وأتقاهم وأعلمهم لا ينظر الناس كلهم إليه بعين واحدة ، بل بعين الرضا بعضهم ، وبعين السخط بعضهم ولذلك قال الشاعر :

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكنَّ عينَ السخطِ تُبدي المساويا

فيجب الاحتراز عن ظن السوء ، وعن تهمة الأشرار فإن الأشرار لا يظنون بالناس كلهم إلا الشر . فمهما رأيت إنساناً يسيء الظن بالناس طالباً للعيوب فاعلم أنه خبيث الباطن ، وأن ذلك خبثه يترشح منه ، وإنما رأى غيره من حيث هو ، فإن المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العيوب ، والمؤمن سليم الصدر في حقّ كافة الخلق . فهذه بعض مداخل الشيطان إلى القلب ، ولو أردت استقصاء جميعها لم أقدر عليه ، وفي هذا القدر ما ينبه على غيره ، فليس في الآدمي صفة مذمومة إلا وهي سلاح الشيطان ، ومدخل من مداخله .

فإن قلت : فما العلاج في دفع الشيطان ؟ وهل يكفي في ذلك ذكر الله تعالى وقول الإنسان لا حول ولا قوة إلا بالله ؟ فاعلم أن علاج القلب في ذلك سد هذه المداخل بتطهير القلب من هذه الصفات المذمومة وذلك مما يطول ذكره .

نعم إذا قطعت من القلب أصول هذه الصفات كان للشيطان بالقلب اجتيازات وخطرات ، ولم يكن له استقرار ، ويمنعه من الاجتياز ذكر الله تعالى ؛ لأن حقيقة الذكر لا تتمكن من

---

(١) متفق عليه .

القلب إلا بعد عمارة القلب بالتقوى ، وتطهيره من الصفات المذمومة ، وإلا فيكون الذكر حديث نفس لا سلطان له على القلب فلا يدفع سلطان الشيطان . ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسّهمْ طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هُمْ مُبصرون** ﴾ (الأعراف : ٢٠) خُصص بذلك المتقي فَمَثَلُ الشيطان كمثل كلب جائع يقرب منك ، فإن لم يكن بين يديك خبز أو لحم فإنه ينزجر بأن تقول له : اخسأ ، فمجرد الصوت يدفعه . فإن كان بين يديك لحم وهو جائع فإنه يهجم على اللحم ولا يندفع بمجرد الكلام ، فالقلب الخالي عن قوت الشيطان ينزجر عنه بمجرد الذكر ، فأما الشهوة إذا غلبت على القلب دفعت حقيقة الذكر إلى حواشي القلب فلم يتمكن من سويدائه فيستقر الشيطان في سويداء القلب . وأما قلوب المتقين الخالية من الهوى والصفات المذمومة فإنه يطرقها الشيطان لا للشهوات بل لخلوّها بالغفلة عن الذكر ، فإذا عاد إلى الذكر خَنَسَ الشيطان ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ **فاستعذْ بالله من الشيطان الرجيم** ﴾ (النحل : ٩٨) وسائر الأخبار والآيات الواردة في الذكر .

وكان محمد بن واسع يقول كل يوم بعد صلاة الصبح : اللهم إنك سلطت علينا عدوّاً بصيراً بعيوبنا يرانا هو وقبيله من حيثُ لا نراهم ، اللهم فآيسه منّا كما آيسته من رحمتك ، وقَنِّطْهُ منا كما قنّطته من عفوك ، وباعدْ بيننا وبينه كما باعدتَ بينه وبين رحمتك ، إنك على كل شيء قدير .

وقال ﷺ : « ما سلك عمر فجاً إلا سلك الشيطان فجاً غير الذي سلكه عمر »[1] وهذا لأن القلوب كانت مطهرة عن مرعى الشيطان وقوته وهي الشهوات ، فمهما طمعت في أن يندفع الشيطان عنك بمجرد الذكر كما اندفع عن عمر رضي الله عنه ، كنت كمن يطمع أن يشرب دواء قبل الاحتماء والمعدة مشغولة بغليظ الأطعمة ، ويطمع أن ينفعه كما نفع الذي شربه بعد الاحتماء وتخلية المعدة ، والذكر الدواء ، والتقوى احتماء وهي تخلي القلب عن الشهوات . فإذا نزل الذكر قلباً فارغاً عن غير الذكر اندفع الشيطان كما تندفع العلة بنزول الدواء في المعدة الخالية عن الأطعمة . قال الله تعالى : ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾ (ق : ٣٧) وقال تعالى : ﴿ **كتِبَ عليه أنه من تولاهُ فأنه يُضِلُّه ويهديه إلى عذاب السعير** ﴾ (الحج : ٤) ومن ساعد الشيطان بعمله فهو مواليه وإن ذكر الله بلسانه . وإن كنت تقول الحديث قد ورد

---

(١) متفق عليه .

مطلقاً بأن الذكر يطرد الشيطان ، ولم تفهم أن أكثر عمومات الشرع مخصوصة بشروط نقلها علماء الدين فانظر إلى نفسك ، فليس الخبر كالعيان ، وتأمل أن منتهى ذكرك وعبادتك الصلاة ؛ فراقب قلبك إذا كنت في صلاتك كيف يجاذبه الشيطان إلى الأسواق ، وحساب العالمين ، وجواب المعاندين ، وكيف يمرّ بك في أودية الدنيا ومهالكها ، حتى إنك لا تذكر ما قد نسيته من فضول الدنيا إلا في صلاتك ، ولا يزدحم الشيطان على قلبك إلا إذا صليت ؟ فالصلاة محك القلوب فبها يظهر محاسنها ومساويها ؛ فالصلاة لا تقبل من القلوب المشحونة بشهوات الدنيا ، فلا جرم لا ينطرد عنك الشيطان بل ربما يزيد عليك الوسواس .

قيل لإبراهيم بن أدهم : ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا وقد قال تعالى : ﴿ **ادعوني استجبْ لكم** ﴾ ؟ (غافر : ٦٠) قال : لأن قلوبكم ميتة ، قيل وما الذي أماتها ؟ قال : ثماني خصال : عرفتم حقّ الله ولم تقوموا بحقه ، وقرأتمُ القرآنَ ولم تعملوا بحدوده ، وقلتم : نحبُّ رسول الله ﷺ ولم تعملوا بسنتهِ ، وقلتم : نخشى الموتَ ولم تستعدوا له ، وقال تعالى : ﴿ **إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً** ﴾ (فاطر : ٦) فواطأتموه على المعاصي ، وقلتم : نخاف النار وأرهقتم أبدانكم فيها ، وقلتم : نحب الجنة ولم تعملوا لها ، وإذا قمتمْ من فُرُشكمْ رميتم عيوبكم وراء ظهوركم وافترشتم عيوب الناس أمامكم فأسخطتم ربكم ، فكيف يستجيبُ لكم ؟

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث عشر

في معرفة أمراض القلوب وصحتها
وكيفية الخلاص من المرض والتحقق بالصحة

[تزكية النفس تتألف من شقين : تخلية ، أو تقول : هي تخلُّقٌ وتحقُّقٌ وتطهيرٌ ، وعلى هذا فمعرفة زكاة النفس وسيلة من وسائل تزكيتها لأنه بلا معرفة لا تتم التزكية ، فالعلم يسبق العمل عادة ، ونحن سنفصّل في ماهية التزكية في الباب الثالث ، ولكنْ أحببنا أن نمهّد لموضوعاته بذكر هذا الفصل ليعرف أنّ ما سيأتي معنا في الباب اللاحق هو كذلك من جملة الوسائل وإنْ كان هو غاية في حد ذاته ، فكثيراً ما تكون الوسائل غايات ، والغايات وسائل ، من خلال نوعٍ من النظر ، ومن ههنا اخترنا من كلام الغزالي في علامات أمراض القلوب وصحتها ما سنذكره لك ، بعد أن عرّفناك على حكمة ذكره هنا . قال رحمه الله] :

☆ ☆ ☆

بيان علامات أمراض القلوب وعلامات عودها إلى الصحة

اعلم أنّ كل عضو من أعضاء البدن خُلق لفعلٍ خاص به ، وإنما مرضه أن يتعذر عليه فعله الذي خُلقَ له حتى لا يصدر منه أصلاً ، أو يصدر منه مع نوعٍ من الاضطراب . فرض اليد أن يتعذر عليها البطشُ . ومرض العين أن يتعذر عليها الإبصار . وكذلك مرض القلب أن يتعذر عليه فعله الخاص به الذي خُلق لأجله ؛ وهو العلم والحكمة والمعرفة وحب الله تعالى وعبادته والتلذذ بذكره، وإيثاره ذلك على كل شهوة سواه ، والاستعانة بجميع الشهوات والأعضاء عليه . قال الله تعالى : ﴿ **وما خلقتُ الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدون** ﴾ (الذاريات : ٥٦) ففي كل عضو فائدة ، وفائدة القلب : الحكمة والمعرفة . وهي خاصية النفس التي للآدمي ، وبها يتميز عن البهائم ، فإنه لم يتميز عنها بالقوة على الأكل والوقاع والإبصار أو غيرها ؛ بل بمعرفة الأشياء على ما هي عليه . وأصلُ الأشياء ومُوجِدُها ومخترعها هو الله عز وجل الذي جعلها أشياء . فلو عرف كل شيء ولم يعرف الله عز وجل فكأنه لم يعرف شيئاً . وعلامة المعرفة : المحبة ، فمن عرف الله تعالى أحبه ، وعلامة المحبة أن لا يؤثر عليه الدنيا ولا غيرها من المحبوبات كما قال الله تعالى :﴿ **قُلْ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **أحبَّ إليكم من الله ورسولهِ وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي اللهُ بأمره** ﴾ (التوبة : ٢٤) فمن عنده شيءٌ أحب إليه من الله فقلبه مريض ، كما أنّ كل معدة صار الطينُ أحب إليها من الخبز والماء أو سقطت شهوتها عن الخبز والماء فهي مريضة . فهذه علامات المرض وبهذا يعرف أنّ القلوب كلها مريضة إلا ما شاء الله .

وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعالجها ، فإن كان يعالج داء البخل فهو المهلك المبعد عن الله عز وجل وإنما علاجه ببذل المال وإنفاقه ، ولكنه قد يبذل المال إلى حدّ يصير به مبذراً ، فيكون التبذير أيضاً داء ، فكانَ كمْنْ يعالج البرودة بالحرارة حتى تغلب الحرارة فهو أيضاً داء ، بل المطلوب الاعتدال بين الحرارة والبرودة . وكذلك المطلوب الاعتدال بين التبذير والتقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية من البعد عن الطرفين ، فإن أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلُق المحذور ، فإن كان

أسهل عليك وألذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الموجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه ألذّ عندك وأيسر عليك من بذله لمستحقه ، فاعلم أن الغالب عليك خلُق البخل فزد في المواظبة على البذل ، فإن صار البذل على غير المستحق ألذ عندك وأخف من الإمساك بالحق فقد غلب عليك التبذير فارجع إلى المواظبة على الإمساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلُقك بتيسير الأفعال وتعسيرها حتى تنقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال ، فلا تميل إلى بذله ولا إلى إمساكه ، بل يصير عندك كالماء فلا تطلب فيه إلا إمساكه لحاجة محتاج أو بذله لحاجة محتاج ، ولا يترجح عندك البذل على الإمساك ، فكل قلب صار كذلك فقد أتى الله سليماً عن هذا المقام خاصة . ويجب أن يكون سليماً عن سائر الأخلاق حتى لا يكون له علاقة بشيء مما يتعلق بالدنيا ، حتى ترتحل النفس عن الدنيا منقطعة العلائق منها غير ملتفتة إليها ولا متشوقة إلى أسبابها ، فعند ذلك ترجع إلى ربها رجوع النفس المطمئنة راضية مرضية ، داخلة في زمرة عباد الله المقربين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

ولما كان الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية الغموض ، بل هو أدق من الشعر وأحدّ من السيف ، فلا جرم أن من استوى على هذا الصراط المستقيم في الدنيا ، جاز على الصراط في الآخرة ، وقلّما ينفكّ العبد عن ميل عن الصراط المستقيم ـ أعني الوسط ـ حتى لا يميل إلى أحد الجانبين فيكون قلبه معلقاً بالجانب الذي مال إليه ، ولذلك لا ينفك عن عذابٍ ما ، واجتيازٍ على النار ، وإن كان مثل البرق قال الله تعالى : ﴿ **وإنْ منكم إلا واردها كانَ على ربك حتماً مقضياً * ثم نُنجي الذين اتقوا** ﴾ (مريم : ٧١، ٧٢) أي الذين كان قربهم إلى الصراط المستقيم أكثر من بعدهم عنه . ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعو الله تعالى في كل يوم سبع عشرة مرة في قوله : ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم** ﴾ إذ وجب قراءة الفاتحة في كل ركعة .

روي أنّ بعضهم رأى رسول الله ﷺ في المنام فقال : قد قلتَ يا رسول الله شيبتني هود ، فَلِمَ قلتَ ذلك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى : ﴿ **فاستقم كما أُمرت** ﴾ (هود : ١١٢) فالاستقامة على سواء السبيل في غاية الغموض ، ولكن ينبغي أن يجتهد الإنسان في القرب من الاستقامة إن لم يقدر على حقيقتها . فكل من أراد النجاة فلا نجاة له إلا بالعمل الصالح ، ولا

تصدر الأعمال الصالحة إلا عن الأخلاق الحسنة ، فليتفقد كل عبد صفاته وأخلاقه ، وليعددها وليشتغل بعلاج واحد واحد فيها على الترتيب . فنسأل الله الكريم أن يجعلنا من المتقين .

بيان الطريق الذي يعرف به الإنسان عيوب نفسه

اعلم أنّ الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصَّره بعيوبِ نفسه ، فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه ، فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى في عينِ أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

الأول : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلعٍ على خفايا الآفات فيعرفه أستاذه وشيخه عيوبَ نفسه ، ويعرفه طريق علاجه . وهذا قد عزّ في الزمان وجوده .

الثاني : أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً فينصبه رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة ينبهه عليه . فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين .

كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله امرءاً أهدى إليَّ عيوبي . وكان يسأل سلمان عن عيوبه فلما قدم عليه قال له : ما الذي بلغك عني مما تكرهه ؟ فاستعفى ، فألحَّ عليه فقال : بلغني أنك جمعت بين إدامين على مائدة ، وأن لك حلتين حلة بالنهار وحلة بالليل ، قال : وهل بلغكَ غيرُ هذا ؟ قال : لا ، قال : أما هذان فقد كُفيتهما . وكان يسأل حذيفة ويقول له : أنت صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين ، فهل ترى عليَّ شيئاً من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلوّ منصبه هكذا كانتْ تهمته لنفسه رضي الله عنه !

فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقلَّ إعجاباً وأعظمَ اتهاماً لنفسه ، إلا أن هذا أيضاً قد عزَّ ، فقلَّ في الأصدقاء من يترك المداهنة فَيُخْبِرُ بالعيب ، أو يترك الحسد ، فلا يزيد على قدر الواجب .

الطريق الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ؛ فإن عين السخط تبدي المساويا . ولعل انتفاع الإنسان بعدوٍ مشاحن يذكّرهُ عيوبه أكثر من انتفاعه بصديقٍ

مداهنٍ يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدوّ وحملِ ما يقولهُ على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه فإن مساويه لابدّ وأن تنتشر على ألسنتهم .

الطريق الرابع : أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيا بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤن مرآة المؤمن ، فيرى من عيوبِ غيره عيوبَ نفسه ، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتفقد نفسه ويطهرها من كل ما يذمه من غيره وناهيك بهذا تأديباً ، فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب .

☆ ☆ ☆

خاتمة الباب الثاني

[لقد كان التسلسل الطبيعي لأبحاث هذا الكتاب أن نذكر ماهية التزكية ثم وسائلها ثم ثمراتها التي من جملتها أدب العالم والمتعلم ، وأدب العلاقات ، ولكنّ حرْصنا على أن يغلب على هذا الكتاب الجانب العملي التطبيقي جَعَلنا نبدأ بذكر آداب العالم والمتعلم ، ثم بوسائل التزكية كأعمال توصل إلى الغايات لنصل في النهاية إلى الحديث عن ماهية التزكية وما يدخل فيها ، وسيرى القارىء أثناء الحديث عن ماهية التزكية أن هناك بعض الوسائل الخاصة ، ولكن يبقى ما ذكرناه في هذا الباب هو الأساس ، فهذه هي الوسائل التي لابدّ منها ، فهي التي تفتّح الآفاق ، وتؤكّد التحقق بالمقامات ، وتعمّق الاتصاف بالصفات العليا ، وتطهّر ممّا يجب التطهّر منه ، فليكن ذلك على ذكر منّا ونحن ندلف إلى الباب الثالث] .

☆ ☆ ☆

الباب الثالث

ماهية زكاة النفس

تقديم

[تزكية النفس تعني باختصار تطهيرها من الشرك وما يتفرع عنه ، وتحقيقها بالتوحيد وما يتفرع عنه ، وتخلقها بأسماء الله الحسنى ، مع العبودية الكاملة لله بالتحرر من دعوى الربوبية ، وكل ذلك من خلال الاقتداء برسول الله ﷺ .

ولذلك فسندخل في هذا الباب ثلاثة فصول رئيسة :

الفصل الأول : في التطهّر .

الفصل الثاني : في التحقق بأمهات المقامات القلبية .

الفصل الثالث : في التخلق والاقتداء .

ولن نستقصي في ذلك لصعوبة الاستقصاء وإنما سنذكر في كل فصل أمهاتٍ من المعاني فيه .

وفيما بين يديْ ذلك نقول :

قال تعالى : **﴿ ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكمْ من أحدٍ أبداً ولكنّ الله يُزكّي من يشاء والله سميع عليم ﴾** (النور : ٢١) جاءت هذه الآية بعد قصة الإفك ، وبعد الآيات التي نهت عن إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وبعد النهي عن اتباع خطوات الشيطان ، وجاءت قبل قوله تعالى :

﴿ ولا يأْتَلِ أولوا الفضلِ منكم والسعة أنْ يُؤْتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليَعفوا وليصفحوا ألا تُحبون أنْ يغفرَ الله لكم ﴾ (النور : ٢٢) .

و ذلك يؤكّد ما يلي :

١ ـ أن موانع التزكية من القوة بحيث تستحيل معها التزكية لولا فضل الله ، وهذا يقتضي شيئين : بذل جهد في التزكية ، وسؤال الله إياها والاعتماد عليه فيها ، وفي الحديث : « اللهم آتِ

نفسي تقواها وزكّها أنتَ خيرُ من زكّاها أنت وليُّها ومولاها »[١] .

٢ ـ أن من تزكية النفس العفو والصفح عمن أساء إلينا لأن الأمر جاء بمناسبة الحديث عن مسطح بن أثاثة الذي كان ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه ، والذي خاض في الإفك ، فمنع عنه أبو بكر رفده ، فجاءت الآية واعظة ، وفَاءَ أبو بكرٍ إلى سيرته ، وما أرقاه من مقام !! وما أعلى ما يراد بكلمة التزكية !!.

٣ ـ أن من تزكية النفس عدم اتباع خطوات الشيطان لأنه يأمر بالفحشاء والمنكر ، وإذن فالتزكية تعني : تجنب الفحشاء والمنكر ، وتجنب خطوات الشيطان ، وأولى خطواته الحسد والكبر ، فقد حسدَ آدم وتكبر عن السجود له .

٤ ـ عدم محبة إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا ، وعدم السير في طريق ذلك بشكل مباشر أو غير مباشر .

٥ ـ إمساك اللسان عن الأعراض ، وترك المشاركة في كل ما يؤذيها إلا إذا توافرت شروط شهادة وتعيَّنتْ .

هذه القضايا الخمس لها صلةٌ بالتزكية نأخذها من موضع واحد من القرآن ، فالتزكية باب واسع ، ولقد تحدثنا عن بعض ما يدخل فيها في أول الباب الثاني ، وذكرنا أن هناك تداخلاً في موضوعات التزكية بين الوسائل والغايات والآثار فكلها تزكية ، ويشهد لذلك هذه الآيات ، وإنما قسّمنا هذا التقسيم لسهولة العرض ، وههنا فلنفصّل قليلاً :

أولاً : هناك نجاسات قلبية ونفسية سببها الشرك وما يتفرع عنه قال تعالى : ﴿ **إنما المشركون نجس** ﴾ (التوبة : ٢٨) وقال : ﴿ **ومثل كلمة خبيثة كشجرةٍ خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار** ﴾ (إبراهيم : ٢٦) فشجرة الشرك تتفرع عنها أغصان كثيرة من العبودية لغير الله ، إلى الانحرافات في الطرق الضالة ، إلى الأخلاق الفاسدة من عجب وكبر وحسد وطاعة للطواغيت فأول ما يدخل في التزكية تطهير القلب من الشرك وما يتفرّع عنه .

ثانياً : يمكن أن يدخل القلب والنفس في ظلمات شتى : ظلمات النفاق والكفر والفسوق

---

(١) أخرجه مسلم والنسائي .

والبدعة ، ظلمات الحيرة والاضطراب ، ظلمات المعاصي والذنوب والآثام ، فمما يدخل في التزكية أن يتنور القلب من الظلمات فيكون في نور الهداية الربانية ويرى الأشياء على ضوء ذلك :

﴿ هو الذي يُصلي عليكم وملائكتهُ ليُخرجكم من الظلماتِ إلى النورِ ﴾ (الأحزاب : ٤٣) .

﴿ الله وليُّ الذين آمنوا يُخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ (البقرة : ٢٥٧) .

﴿ قدْ جاءكم بصائرُ من ربكم ﴾ (الأنعام : ١٠٤) .

وقد وصف الله المنافقين بقوله : **﴿ ذهبَ الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون * صمٌّ بكمٌ عميٌ فهم لا يرجعون ﴾** (البقرة : ١٧ ، ١٨) .

ووصف الله الكافرين بقوله : **﴿ أو كظلماتٍ في بحرٍ لجيٍ يغشاه موجٌ من فوقه موج من فوقه سحاب ظلماتٌ بعضها فوق بعضٍ إذا أخرجَ يده لم يَكَدْ يراها ومَنْ لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾** (النور : ٤٠) .

فالصمم عن سماع الحق وعدم قبوله ، والعمى عن رؤية الطريق إلى الله وعدم وُلُوجِهِ ، والصمت عن نصرة الحق وإعلانُ قبوله هي مظاهر ظلمة القلب والنفس ، فمما يدخل في تزكية النفس الخروج من الظلمات .

ثالثاً : للنفس شهواتها ، وهذه الشهوات كثيرة منها الحسي ، ومنها المعنوي ، فمن شهواتها الحسية حبُّ الطعام والشراب ، ومن شهواتها المعنوية حب الانتقام ، والرغبة في الانتصار ، وحب الجاه والظهور ، والرغبة في التفرد ، وبعض شهوات النفس مباحة إذا سلك الإنسان لقضائها طريقاً مشروعاً كالزواج لقضاء الشهوة الجنسية ، وبعضها محرمٌ في أصله ، أو إذا سلك الإنسان له طريقاً غير مباح ، فمما يدخل في تزكية النفس تطهيرها من شهواتها المحرمة ، أو تطهيرها من السلوك المحرم لقضاء الشهوات .

رابعاً : والنفس والقلب يمرضان كما تمرض الأجساد ، فتصاب النفس بأمراض العجب والكبر والغرور والحسد والحقد والغلّ ، فمما يدخل في تزكية النفس تطهيرها من هذه الأمراض وأمثالها .

خامساً : والنفس تتأثّر بالبيئة وبالتلقين وبالهواجس والوساوس ، وكأثرٍ عن ذلك قد تُتابعُ الشيطان ، وقد تأخذ النّحلَ الضّالة ، فمما يدخل في تزكية الأنفس عدم متابعتها الشيطان ، وأئمة الضلال : ﴿ **ولا تتبعوا خطوات الشيطان** ﴾ (البقرة : ١٦٨) ﴿ **اهدنا الصراط المستقيم * صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوبِ عليهم ولا الضالين** ﴾ (الفاتحة : ٦ ، ٧) .

إن من عرف هذه الأمور الخمسة عرف ضرورة تطهير النفس ، وعرف أن تطهير النفس يدخل في باب تزكيتها، ولذلك كان الفصل الأول في هذا الباب في هذا الموضوع، موضوع التطهير ، وذكرنا فيه أحد عشر مرضاً يجب التطهر منها ، ومما يدخل في التطهير تطهير النفس عمّا ينافي الفطرة ، وأصل الفطرة العبودية لله تعالى ، ﴿ **وإذْ أخذَ ربكَ من بني آدمَ من ظهورهم ذرِّيَّتهُمْ وأشْهَدَهُمْ على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى** ﴾ (الأعراف : ١٧٢) .

فهذه هي الفطرة : العبودية لله التي مظهرها الرئيسي قبول هداية الله عز وجل ، التي بعث بها الرسل عليهم الصلاة والسلام ، وعلى هذا فالفطرة : تَحَقُّقُ النفس بالعبودية لله التي هي أثر عن معرفة الله عز وجل ، والتي تستتبع الخوف من الله والرجاء له وتقواه ، وشكره ، وعبادته ، والإخلاص له ، والصدق معه والصبر على بلواه وتكاليفه ، والمحبة له والزهد فيما يشغل عنه ، ومن ههنا يوجد ما يسمى بمقامات الإيمان واليقين ممّا يجب أن تتحقق به النفس ، وهذا الذي يشكّل الركن الثاني من أركان تزكية النفس وهو التحقق ، ولذلك جعلنا الفصل الثاني في هذا الباب (في التحقق) وذكرنا فيه اثنى عشر مقاماً .

وبعد التحقق عقدنا فصلاً عن التخلق وجعلناه في فقرتين : فقرة في التخلّق بأسماء الله ، وفقرة في الاقتداء برسول الله ﷺ ، واعتبرنا الكلام عن هاتين النقطتين ضرورياً لفهم زكاة النفس ، فذلك هو الركن الثالث في التزكية ، وللتعرّف السريع على هذا الموضوع نقول باختصار :

لله تعالى المثل الأعلى وله الأسماء الحسنى ، وقد خلق الإنسانَ ونفخ فيه من روحه ، أي نفخ فيه روحاً مخلوقة نسبها إلى ذاته تعالى تشريفاً لها ، وبهذه النفخة وُجِدَ عند الإنسان استعدادٌ للتخلق بأسماء الله ، ومن ثم كان عنده استعداد للرحمة والانتقام والكبرياء والعلو وغير ذلك من معاني أسماء الله تعالى ، والإنسان في هذا المقام مكلف بشيئين ، الشيء الأول : أن

يجاهد نفسه فلا تقرب من الأسماء التي تقتضيها الربوبية ، فالعظمة والكبرياء مثلاً لا يصحُّ أن يقربها العبد المؤمن .

قال عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي على لسان الله تعالى :

« الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني فيهما قصمته ولا أبالي »[١] .

الشيء الثاني : أن يضبط نفسه في الأسماء التي يجوز التخلُّق بها ، أو يجب على مقتضى العبودية والتكليف ، فالرحمة والكرم والجود والرأفة والحلم والانتقام والعزّة ، كل ذلك يجب أن يكون الإنسان فيه على مقتضى التكليف ، والسائر إلى الله يتحقق بمثل هذه المعاني ، ويتخلق بها ما ذَكَرَ وعَلِمَ ، فهذا أول معنى نريده بكلمة التخلّق .

والتزكية في بدايتها ونهايتها لا تخرج عن مقام العبودية ، وكل ما يقال فيها يدور حول هذا المعنى ، وأعلى الخلق في مقام العبودية هم رسل الله عليهم الصلاة والسلام وعلى رأسهم سيدهم وخاتمهم محمد ﷺ ، فالعبودية الكاملة هي الاقتداء به ﷺ فهذه هي التزكية في النهاية ، وراثة رسول الله ﷺ بأن نأخذ الكتاب والسنة بقوّة فهماً وعملاً ، وبأن نتحقق بالحال الذي كان له ﷺ من خشوع وتوكّل وغير ذلك ، فهذا هو المعنى الثاني الذي يدخل في كلمة التخلّق .

وكما قلنا فموضوعات التزكية متداخلة ببعضها ، وإنما ألجأنا إلى التقسيم ضرورة التفهيم .

ولعل القارىء أدرك فحوى الباب الثالث وأخذ تصوراً عاماً عن فحوى فصوله الثلاثة .

وقبل أن ندخل في موضوعات هذه الفصول نحب أن نذكِّر أنّه قد ضلّ ناسٌ بسبب فهم خاطىء لقضية التزكية ، فقد ضلّ بعض مثقفي عصرنا إذْ قالوا : مادام الهدف من العبادات هو تزكية النفس ، وهم يرون أنفسهم مهذبين لَبِقِينَ ، وإذنْ فهمْ في غنى عن العبادات ، وهؤلاء من أجهل الناس ، فتزكية النفس عملية مستمرة ، ولذلك فهي تحتاج إلى تغذية مستمرة بالوسائل التي كلّف الله عز وجل بها عباده ، وهو الأعلمُ بالنفس ، فمتى قصَّرَ الإنسان في العبادات وغيرها من وسائل التزكية سقطت النفسُ مباشرةً وقد رأينا قوله تعالى : ﴿ **ولولا فضلُ الله عليكم**

---

(١) أخرجه مسلم .

ورحمته ما زكىٰ منكم من أحدٍ أبداً ولكنّ الله يزكّي من يشاء ﴾ (النور : ٢١) وقد سأل مرة أستاذ من أساتذة الجيل أحد السياسيين هل يصلّي ؟ فأجابه بأنه لا يرى حاجة للصلاة لأن نفسه مزكّاة ، فقال له : ما شاء الله أنت خير من محمد وأصحابه إذن فهؤلاء ماتوا وهم يصلّون ، فأنت سبقتهم ؟، وكان لك ما لم يكن لغيرك ، فتراجع الرجل وقد حسن حاله بعد ذلك ونرجو أن يكون قد توفي على الإيمان .

وقد ضلَّ بعض الأدعياء ممن يزعمون أنفسهم من المتصوفة ؛ إذْ زعموا أنّه متى وصل الإنسان إلى المعرفة القلبية بالله فقد ارتفع عنه التكليف ، ولما ذُكِرَ أمثال هؤلاء للجنيد ، وأنهم يتركون القيام بالتكاليف ، لأنهم يزعمون أنهم وصلوا إلى الله قال : وصلوا ولكنْ إلى سقر . وقد زعم هؤلاء أن لهم دليلاً هو قوله تعالى : ﴿ **واعبد ربَّكَ حتّى يأتيك اليقينُ** ﴾(الحجر : ٩٩) وما درى هؤلاء أن رسول الله ﷺ هو أول المخاطبين بهذه الآية وقد عبد ربَّهُ حتّى لقيه ، فالموتُ هو اليقين .

وهؤلاء لو عقلوا لعرفوا أن معرفة الله القلبية هي البداية الحقيقية للقيام بالتكليف حق القيام ، فكيف يجعلون البداية نهاية ، عليهم لعنة الله .

ولقد ضلّت طوائف الباطنية ؛ إذ أوّلوا العبادات وغيرها من أصناف التكاليف فرفضوها ، وزعمو لأنفسهم أنّهم خلاصة البشرية ، وأنّى لهم ذلك وقد تركوا وسائل التزكية المشروعة ، وأوّلوا النصوص تأويلاً لا تحتمله لغةٌ ولا عقل ولا فهم صحيح فضلّوا وكفروا .

وبعد فهذا أوان الشروع في الفصل الأول من حقيقة التزكية] .

☆ ☆ ☆

الفصل الأول

في تطهير النفس

ويدخل فيه التطهر من :

الفقرة الأولى : الكفر والنفاق والفسوق والبدعة .

الفقرة الثانية : الشرك والرياء .

الفقرة الثالثة : حب الجاه والرئاسة .

الفقرة الرابعة : الحسد .

الفقرة الخامسة : العجب .

الفقرة السادسة : الكبر .

الفقرة السابعة : الشح .

الفقرة الثامنة : الغرور .

الفقرة التاسعة : الغضب الظالم .

الفقرة العاشرة : حبك الدنيا .

الفقرة الحادية عشرة : اتباع الهوى .

تقديم

[أمراض النفوس نوعان : نوع ينافي مقامات القلوب التي سنراها ، فالرياء والشرك ينافيان التوحيد والعبودية ، وحب الرئاسة والجاه وحب الدنيا ينافيان الزهد ، ونوع ينافي التخلق بأسماء الله والاقتداء برسول الله ﷺ ، فالغضب في غير محله ينافي الحلم . وقد بدأنا بذكر أمراض القلوب والنفوس لأن جوانب من التخلية عند السائرين إلى الله تتقدم جوانب من التحلية ، وإنما قلنا : (جوانب) لأن تحلية القلب والجوارح بالتوحيد هي المقدمة لكل تخلية وتحلية .

واقتصرنا على أمهات من الأمراض لأن أمراض النفوس والقلوب كثيرة ، فالحديث عنها يطول ، ولذلك ذكرنا المشهورات التي لا تغيب عن عام وخاص ، والتي تترك آثارها الخطيرة على الحياة البشرية كلها ، وهذه الأمراض يُفترض على المسلم أن يتحررّ منها ، ولذلك كان العلم فيها ومحاولة التخلص منها فرائض عينية على كل مسلم . ولنبدأ الحديث عنها ، مقدّمين في الذكر الكلام عن الكفر والنفاق والعصيان والبدعة ، مع أنّ الكفرَ ليس مرضاً فحسبْ بل هو موتٌ للقلبِ ، وقد شبّه الله عز وجل الكفّار بالموتى في أكثر من مقام : ﴿ **إنكَ لا تُسْمِعُ الموتى ولا تسمع الصمَّ الدعاء** ﴾ (النمل : ٨٠) لأننا رأينا أن منبع الرذائل وأصل الأمراض لابدّ من التذكير به] .

الفقرة الأولى : الكفر والنفاق والفسوق والعصيان والبدعة

[أول ما يجب أن ينصب عليه جهد الإنسان في تطهير نفسه أن يطهر نفسه من الكفر بالله ورسوله ، وما يعتبر عَلَماً على الكفر بالله ورسوله من إنكار للمعلومات من الدين بالضرورة ، أو من إتيان ناقضٍ من نواقض الشهادتين ، لأن الكفر ظلمات ولأنه لا ينفع معه عمل .

ثم يطهر نفسه من النفاق ، سواء كان نفاقاً نظرياً أو عملياً ، والنفاق النظري : أن يكون اعتقاده في حقيقة الإسلام يخالف ما أعلنه من إيمان بالإسلام ، والنفاق العملي : أن تكون له أخلاق المنافقين في موالاة الكافرين أو في مودتهم أو في ربط المصير معهم ، أو إخلاف الوعد ،

أو في اعتياد الكذب ، أو في الخيانة والغدر . ثم يطهر نفسه من الفسوق عن أمر الله ومن مواقعة العصيان ، فلا يقارب المنهيات ، ولا يخالف المأمورات ، ويبتعد عن الفواحش ظاهرها وباطنها .

ثم يطهر نفسه من بدع الاعتقاد وبدع العمل ، فيتبرأ إلى الله من عقائد الفرق الضالة ، ومن كل عقيدة تخالف ما عليه أهل السنة والجماعة ، ويتبرأ إلى الله من بدع العمل ، وضابط البدعة هذه : أن يكون على عمل لا يجيزه أئمة الاجتهاد ، فمن كان على فتوى إمام مجتهد من أئمة أهل السنة والجماعة فليس بمبتدع ، ومن عمل عملاً ليس عليه أمر رسول الله ﷺ وأصحابه مما لا تجيزه فتوى إمام مجتهد فذلك ابتداع العمل الذي يجب أن يتوب منه الإنسان .

وأخطر الأشياء على الإطلاق الكفر ، ولذلك يجب أن يفتش الإنسان دائماً عمّا إذا كان عنده شيء منه ، كأنْ يعتقد اعتقاداً كافراً ، أو يأتي ناقضاً من نواقض الشهادتين ذاكراً أو غافلاً ، فكثيراً ما يحدث في عصرنا أن يكون عند الإنسان مكفّر ولا يشعر ، وكثيراً ما يخرج على لسانه ناقضٌ من نواقض الشهادتين ولا يشعر ، أحياناً في لهوه ومزاحه ، وأحياناً في جدّه وتشقيقات لسانه .

وعليه أن يفتّش قلبه ما إذا كان فيه نفاق ، فإن وجد في قلبه شكوك واضطرابات عقدية ، وبالتالي عدم طمأنينة إيمانية فعليه أن يفزع إلى الذكر وتلاوة القرآن ، وأن يذاكر أهل الإيمان ، فاضطرابات القلب يخرج منها الإنسان صدّيقاً أو زنديقاً ، فبإقباله على الله ، ومذاكرته لأهل الإيمان واجتماعه بهم ، يخرج منها صدّيقاً ، وبصحبته لأهل الشر والفساد يخرج زنديقاً ، كما أن عليه أن يفتّش دائماً في سلوكياته وعواطفه عن أخلاق المنافقين ، فإذا وجد مودّته للكافرين أو ولاءه لهم أو انخراطه معهم فيما همْ فيه من كفرٍ أو سلوك ، أو وجد الكذب والغدر والخيانة في سلوكه فليتدبّر أمره وليخلّص نفسه .

وعليه أن يتفطّن للمعاصي الظاهرة والباطنة كبيرها وصغيرها ، فكثيراً ما تجر الطاعة إلى طاعة والمعصية إلى معصية ، ومن أهم ما ينبغي أن ينتبه إليه المعاصي غير المحسّة ، كمعاصي القلب واللسان ، فكثيراً ما يكون الإنسان حاسداً أو معجباً بنفسه أو متكبّراً وهو لا يشعر ، كما أنّه كثيراً ما يقع في الغيبة والنمية وهو غافل .

وهناك فارق بين المعصية والبدعة ، فالعاصي يعرف أنّه في معصية ، أمّا المبتدع فيعتقد أنّه في بدعته على الحق ، وأنّه أقربُ إلى الله ممن ليس على بدعته .

وأخطر أنواع البدع بدع الاعتقاد ، وبدع الأعمال المجمع على بدعيتها عند أئمة الاجتهاد ، أمّا ما اختلف فيه أئمة الاجتهاد فالأمر فيه واسع ، وعلى العبد أن يحتاط لدينه ؛ فيدور مع الدليل حيث دار إنْ كانَ أهلاً لمعرفة الدليل .

وبدع الاعتقاد كثيرة ، وبسببها انشقّ من انشقّ عن أهل السنّة والجماعة ، وكثير من بدع الاعتقاد لا يخفى على مَنْ له دراية بالكتاب والسنّة ، أو يعيش في بيئات أهل السنّة والجماعة ، وتبقى بدع الفرق التي ظهرت في الصدر الأول أكثر البدع اشتباهاً .

فلقد وجد في الصدر الأول الإرجاء ، والتشيّع ، والخارجية ، والاعتزال ، فالإرجاء قام على فكرة أنّه لا تضرّ مع الإيمان معصية ، والتشيّع قام على الغلوّ في آل البيت ، والخارجية قامت على الورع الجاهل ، والغلو في دين الله ممّا انبثق عنه المسارعة إلى التكفير ، وسفاهة العقول ، والخروج على أهل الحق بالباطل ، والتمسّك بعمومات النصوص والمتشابهات منها دون العودة إلى المحكمات والمخصّصات ، وأمّا الاعتزال فقام على التوسّع في التأويل وتحكيم القواعد الظنية بالنصوص ، ولا نزال نرى مظاهر لهذه الأنواع الأربعة من الابتداع بشكل من الأشكال ، ولا يعصم من هذا وأمثاله سوى الرسوخ في العلم ، والتمسك بفهم الأئمة الراسخين في العلم .

فعليك أيها السالك إلى الله أن تتخلّص من كل أنواع الابتداع فذلك مع تجنّبك الكفر والنفاق والعصيان هو الذي يفتح أمامك باب الهداية والزيادة . قال تعالى : ﴿ **والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم** ﴾(محمد : ١٧) .

[فإذا ما طهّر الإنسان نفسه من أدران الكفر والنفاق والعصيان والابتداع ، فعليه أن يتابع تطهير نفسه من بقايا الشرك الظاهر والخفي وذلك مضمون الفقرة الثانية] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية : في الشرك والرياء

[أفظع أنواع الأمراض التي تبتلى بها الحياة البشرية الشركُ ، لأنه إعطاء الربوبية لغير مستحقها ، وتقديم أنواعٍ من العبودية لمن لا يستأهلها ، ثم هو تمزيقٌ وتشتيت للقلب البشري ، فلا يتوجّه بعد ذلك إلى جهة واحدة في العبودية والتلقّي ، ولا ينطلق في الحياة عن مشكاةٍ واحدة ولا بصيرة شاملة ، فتراه يتعبَّد لحجر أو شجر أو كونٍ أو إنسان أو مجتمع ثم تتتابع حلقات الانحراف .

والمسلم الذي اعتنق التوحيد تخلّص من هذا كلّه ، لكنّه يصيبه مرض الشرك الخفي الذي هو الرياء ، فتراه يتصرّف عمليّاً وكأنّه يتعبّد لفرد أو لمجتمع ، ومن ههنا يقع في مرض الرياء الخطير الذي آثاره على صاحبه وعلى الأمّة خطيرة ، لأنّه خداع للنفس وللأمّة ، وإهلاك للنفس في الدنيا والآخرة .

إنّ من أعظم ما يحرص عليه المؤمن نجاة نفسه عند الله ، وقد جاءت النصوص الصحيحة في هلاك المرائي الذي لا يقصد بعمله وجه الله ، ومن ذلك الحديث الصحيح الذي ذكر الثلاثة الذين هم أوّل من تُسعّر بهم جهنّم من عصاة هذه الأمة وهم المرائي بجهاده ، والمرائي بعلمه ، والمرائي بكرمه ، فكيف يصحّ في منطق الإيمان أن يُوبِقَ الإنسان نفسه بأَنْ يعمل لغير وجه الله .

هذا النوع من الناس الذي يعمل لغير وجه الله لا تستقيم به الحياة البشرية ، لأنه لا يعملُ إلا إذا رُؤِيَ أو عُرِفَ عملهُ ، وكثيرٌ من أعمال الخير لا تقوم بذلك ، ثم إن الإسلام نفسه لا يقوم بذلك ، لأن الدعوة إلى الإسلام تحتاج أحياناً إلى مواجهة الرأي العام الكافر والظالم ، والمرائي يأبى هذه المواجهة ، لهذا وغيرهِ كان الرياء خطيراً على صاحبه وعلى الأمّة ، وقد أسهب الغزالي في وصفه ومعالجته ، وهذه مختارات من كلامه] .

☆ ☆ ☆

بيان درجات الرياء

اعلم أن بعض أبواب الريـاء أشـد وأغلـظ من بعض ، واختلافـه بـاختلاف أركانـه وتفـاوت الدرجات فيه . وأركانه ثلاثة : المراءى به ، والمراءى لأجله ، ونفس قَصْدِ الرياء .

الركن الأول : نفس قصد الرياء وذلك لا يخلو إما أن يكون مجرداً دون إرادة عبـادة الله تعـالى والثواب ، وإمـا أن يكون مع إرادة الثواب ، فـإن كان كـذلـك فلا يخلو إمـا أن تكون إرادة الثواب أقوى وأغلب أو أضعف أو مساوية لإرادة العبادة فتكون الدرجات أربعاً :

(**الأولى**) وهي أغلظها أن لا يكون مراده الثواب أصلاً ، كالذي يصلي بين أظهر الناس ، ولو انفرد لكان لا يصلي ، بل ربما يصلي من غير طهارة مع الناس ، فهذا جرَّد قصده إلى الرياء فهو الممقوت عند الله تعالى . وكذلك من يخرج الصدقة خوفاً من مـذمـةِ النـاس وهو لا يقصـد الثواب ، ولو خلا بنفسه لما أداها ، فهذه الدرجة العليا من الرياء .

(**الثانية**) أن يكون له قصد الثواب أيضاً ولكن قصـداً ضعيفـاً ، بحيث لو كان في الخلوة لكان لا يفعلـه ، ولا يحملـه ذلـك القصـد على العمل ، ولو لم يكن قصـد الثـواب لكان الريـاء يحمله على العمل ، فهذا قريب مما قبله ومـا فيـه من شـائبـة قصـد ثواب لا يستقل بحملـه على العمل لا ينفي عنه المقت والإثم .

(**الثالثة**) أن يكون له قصد الثواب وقصد الريـاء متسـاويين ، بحيث لو كان كل واحـد منهما خالياً عن الآخر لم يبعثه على العمل فلما اجتمعا انبعثت الرغبة ، أو كان كل واحد منهما لو انفرد لاستقل بحمله على العمل ، فهذا قد أفسد مثل ما أصلح فنرجو أن يسلم رأسـاً برأس لا لـه ولا عليه ، أو يكون له من الثواب مثل ما عليه من العقاب وظواهر الأخبـار تـدل على أنـه لا يسلم .

(**الرابعة**) أن يكون اطلاع الناس مرجحاً ومقوياً لنشـاطـه ، ولو لم يكن لكان لا يترك العبادة ، ولو كان قصد الرياء وحده لما أقـدم عليـه ، فـالـذي نظنـه ـ والعلم عنـد الله ـ أنـه لا يُحبط أصل الثواب ، ولكنه يُنقص منه أو يعاقب على مقدار قصد الرياء ، ويُثابُ على مقـدار

قصد الثواب ، وأما قوله ﷺ : « يقول الله تعالى أنا أغنى الأغنياء عن الشرك »[1] ، فهو محمول على ما إذا تساوى القصدان أو كان قصد الرياء أرجح . .

الركن الثاني : المراءى به وهو الطاعات وذلك ينقسم إلى الرياء بأصول العبادات ، وإلى الرياء بأوصافها .

القسم الأول : وهو الأغلظ وهو الرياء بالأصول ، وهو على ثلاث درجات :

(الأولى) الرياء بأصل الإيمان وهذا أغلظ أبواب الرياء ، وصاحبه مخلد في النار ، وهو الذي يُظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب ، ولكنه يرائي بظاهر الإسلام ، وهو الذي ذكره الله تعالى في كتابه في مواضع شتى كقوله عز وجل : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهدُ إنك لرسولُ الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون** ﴾ (المنافقون : ١) أي في دلالتهم بقولهم على ضمائرهم ، وقال تعالى : ﴿ **ومن الناس من يُعجبك قوله في الحياة الدنيا ويُشْهِدُ الله على ما في قلبه وهو ألَدُّ الخصام * وإذا تولى سعى في الأرض لِيُفْسِدَ فيها...** ﴾ الآية (البقرة: ٢٠٤، ٢٠٥) . وقال تعالى : ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضُّوا عليكم الأناملَ من الغيظ** ﴾ (آل عمران: ١١٩)، وقال تعالى: ﴿ **يراءون الناسَ ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذبذبين بين ذلك** ﴾ (النساء : ١٤٣) والآيات فيهم كثيرة . وكان النفاق يكثر في ابتداء الإسلام ممن يدخل في ظاهر الإسلام ابتداء لغرض ، وذلك مما يقل في زماننا ، ولكن يكثر نفاق من ينسل عن الدين باطناً فيجحد الجنة والنار والدار الآخرة ميلاً إلى قول الملاحدة ، أو يعتقد طيّ بساط الشرع والأحكام ميلاً إلى أهل الإباحة ، أو يعتقد كفراً أو بدعة مكفرة وهو يظهر خلافه ، فهؤلاء من المنافقين والمرائين المخلدين في النار ، وليس وراء هذا الرياء رياء ، وحال هؤلاء أشدّ حالاً من الكفار المجاهرين ، فإنهم جمعوا بين كفر الباطن ونفاق الظاهر .

(الثانية) الرياء بأصول العبادات مع التصديق بأصل الدين ، وهذا أيضاً عظيم عند الله ولكنه دون الأولى بكثير . ومثاله : أن يكون مال الرجل في يد غيره فيأمره بإخراج الزكاة خوفاً من ذمّه ، والله يعلم منه أنه لو كان في يده لما أخرجها ، أو يدخل وقت الصلاة وهو في

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن خزيمة في صحيحه ورواة ابن ماجة ثقات .

جمع وعادته ترك الصلاة في الخلوة ، وكذلك يصوم رمضان وهو يشتهي خلوة من الخلق ليفطر ، وكذلك يحضر الجمعة ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها ، أو يَصِلُ رَحِمَهُ أو يبر والديه لا عَنْ رغبةٍ ولكن خوفاً من الناس ، أو يغزو أو يحج كذلك . فهذا مراء ـ معه أصل الإيمان بالله ـ عند اطلاع الناس فتكون منزلته عند الخلق أحب إليه من منزلته عند الخالق ، وخوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله ، ورغبته في مَحمدَتِهِمْ أشدّ من رغبته في ثواب الله ، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت وإن كان غير منسل عن أصل الإيمان من حيث الاعتقاد .

(**الثالثة**) أن لا يرائي بالإيمان ولا بالفرائض ، ولكنه يرائي بالنوافل والسنن التي لو تركها لا يعصي ، ولكنه يكسل عنها بالخلوة لفتور رغبته في ثوابها ، ولإيثار لذة الكسل على ما يرجى من الثواب ، ثم يبعثه الرياء على فعلها ، وذلك كحضور الجماعة في الصلاة وعيادة المريض ، واتباع الجنازة ، وغسل الميت ، وكالتهجد بالليل ، وصيام يوم عرفة وعاشوراء ويوم الاثنين والخميس . فقد يفعل المرائي جملة ذلك خوفاً من المذمة أو طلباً للمحمدة ، ويعلم الله تعالى منه أنه لو خلا بنفسه لما زاد على أداء الفرائض . فهذا أيضاً عظيم ولكنه دون ما قبله ، فإن الذي قبله آثرَ حمد الخلق على حمد الخالق . وأما هذا فلم يفعل ذلك لأنه لم يخف عقاباً على ترك النافلة لو تركها ، وكأنه على شطر من الأوّل وعقابه نصف عقابه . فهذا هو الرياء بأصول العبادات .

القسم الثاني : الرياء بأوصاف العبادات لا بأصولها ، وهو أيضاً على ثلاث درجات :

(**الأولى**) أن يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوعَ والسجود ولا يطوّلَ القراءة ، فإذا رآهُ الناسُ أحسنَ الركوع والسجود وترك الالتفات وتمم القعود بين السجدتين ، وقد قال ابن مسعود : من فعل ذلك فهو استهانة يستهين بها ربه عز وجل ؛ أي أنه ليس يبالي باطلاع الله عليه في الخلوة ، فإذا اطلع عليه آدميٌ أحسن الصلاة ، ومن جلس بين يدي إنسان متربعاً أو متكئاً فدخل غلامه فاستوى وأحسن الجلسة كان ذلك منه تقديماً للغلام على السيد ، واستهانة بالسيد لا محالة ، وهذا هو حال المرائي بتحسين الصلاة في الملأ دون الخلوة . وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيّد خوفاً من مذمته ، وكذلك الصائم يصون صومه عن

الغيبـة والرفث لأجل الخلق لا إكالاً لعبـادة الصوم خوفـاً من المـذمـة ، فهـذا أيضـاً من الريـاء المحظور لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق ، ولكنه دون الرياء بأصول التطوّعات .

(الدرجة الثانيـة) أن يرائي بفعل مـا لانقصـان في تركـه ولكنَّ فعلـه في حكم التكملـة والتتمـة لعبادته ، كالتطويل في الركوع والسجود ، ومدّ القيام وتحسين الهيئة ، ورفع اليدين ، والمبـادرة إلى التكبيرة الأولى ، وتحسين الاعتدال ، والزيادة في القراءة على السور المعتادة ، وكذلـك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت ، وكاختيار الأجود على الجيـد في الزكاة ، وإعتـاق الرقبـة الغالية في الكفارة . وكل ذلك مما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه .

(الدرجة الثالثة) أن يرائي بزيادات خارجة عن نفس النوافل أيضاً كحضوره الجماعة قبل القوم ، وقصده للصف الأول ، وتوجهه إلى يمين الإمام ، وما يجري مجراه . وكل ذلـك ممـا يعلم الله منـه أنه لو خلا بنفسه لكان لا يبالي أين وقف ومتى يُحْرِمُ بالصلاة ؟ فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى من يراءى به وبعضه أشدّ من بعض . والكل مذموم .

الركن الثالث : المراءى لأجله ، فإن للمرائي مقصوداً لا محالة ، وإنما يرائي لإدراك مـالٍ أو جاهٍ أو غرضٍ من الأغراض لا محالة ، وله أيضاً ثلاث درجات :

(الأولى) وهو أشـدهـا وأعظمهـا أن يكـون مقصـوده التمكن من معصيـة ، كالـذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع بكثرة النوافل ، والامتناع عن أكل الشبهات ؛ وغرضه أن يُعْرَفَ بالأمانة ؛ فيولّى القضاء أو الأوقاف أو الوصايات ، أو مـالَ الأيتـام فيـأخـذهـا ، أو يسلم إليـه تفرقةُ الزكاة أو الصدقات ليستأثر بما قدر عليه منها ، أو يودع الودائع فيأخذها ويجحدهـا ، أو تسلم إليه الأموال التي تنفق في طريق الحج فيختزل بعضها أو كلها ، أو يتوصل بها إلى استتبـاع الحجيج ويتوصل بقوتهم إلى مقاصـده الفـاسـدة في المعـاصي . وقـد يُظهر بعضهم زي التصوّف ، وهيئة الخشوع ، وكلام الحكـة على سبيل الوعـظ والتـذكير ، وإنمـا قصـده التحبب إلى امرأة أو غلام لأجل الفجور ، وقد يحضرون مجالسَ العلم والتـذكير ، وحِلَقَ القرآن ؛ يُظهرون الرغبـة في سماع العلم والقرآن وغرضهم ملاحظة النسـاء والصبيـان ، أو يخرج إلى الحج ومقصوده الظفر بمن في الرفقة من امرأة أو غلام . وهؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى ؛ لأنهم جعلوا طاعة ربهم سلمـاً إلى معصيتـه ، واتخـذوهـا آلـة ومتجراً وبضـاعـة لهم في فسقهم ، ويقرب من هـؤلاء ـ وإنْ كان

دونهم ـ من هو مقترفٌ جريمة اتهم بها وهو مصرٌّ عليها ، ويريد أن ينفي التهمة عن نفسه ، فَيُظهر التقوى لنفي التهمة ، كالذي جحد وديعة واتهمه الناس بها فيتصدق بالمال ليقال : إنه يتصدق بمال نفسه ، فكيف يستحلُّ مالَ غيره ، وكذلك مَنْ يُنسبُ إلى فجورٍ بامرأة أو غلام فيدفع التهمةَ عن نفسه بالخشوع وإظهار التقوى .

(**الثانية**) أن يكون غرضه نيل حظ مباح من حظوظ الدنيا من مالٍ أو نكاح امرأةٍ جميلة أو شريفة ، كالذي يُظْهِرُ الحزنَ والبكاء ، ويشتغل بالوعظ والتذكير لتُبذلَ له الأموال ، ويرغب في نكاحه النساء ، فيقصد إما امرأة بعينها لينكحها ، أو امرأة شريفة على الجملة ، وكالذي يرغب أن يتزوج بنت عالم عابد فيظهر له العلم والعبادة ليرغب في تزويجه ابنته . فهذا رياء محظور لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول ، فإن المطلوب بهذا مباح في نفسه .

(**الثالثة**) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح ، ولكن يُظهر عبادته خوفاً من أن يُنْظَرَ إليه بعين النقص ، ولا يعدَّ من الخاصة والزهاد ، ويُعتقد أنه من جملة العامة ، كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي ويترك العجلة كيلا يقال إنه من أهل اللهو والسهو لا من أهل الوقار ، وكذلك إن سبق إلى الضحك أو بدا منه المزاح فيخاف أن يُنظر إليه بعين الاحتقار فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء وإظهار الحزن ، ويقول : ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه ، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة لما كان يثقل عليه ذلك ، وإنما يخاف أن يُنظر إليه بعين الاحتقار لا بعين التوقير ، وكالذي يرى جماعة يصلون التراويح أو يتهجدون أو يصومون الخميس والاثنين أو يتصدّقون فيوافقهم خيفة أن يُنسب إلى الكسل ويلحق بالعوام ، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك ، وكالذي يعطش يوم عرفة أو عاشوراء أو في الأشهر الحرم فلا يشرب خوفاً من أن يَعلم الناس أنه غير صائم ، فإذا ظنوا به الصوم امتنع عن الأكل لأجله ، أو يدعى إلى طعام فيمتنع لِيُظَنَّ أنه صائم وقد لا يصرح بأني صائم ولكن يقول : لي عذر ، وهو جمع بين خبيثين ، فإنه يُرى أنه صائم ، ثم يُرى أنه مخلص ليس بمراءٍ ، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس فيكون مرائياً فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته ، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر عن أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض يقتضي فرط العطش ويمنع من الصوم ، أو يقول : أفطرت تطييباً لقلب فلان ،

ثم قد لا يذكر ذلك متصلاً بشربه كي لا يظن به أنه يعتذر رياء ، ولكنه يصبر ثم يذكر عذره في معرض حكاية عرضاً ؛ مثل أن يقول : إن فلاناً محب للإخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه وقد ألح عليَّ اليوم ولم أجد بداً من تطييب قلبه . ومثل أن يقول : إنَّ أمي ضعيفة القلب مشفقة عليَّ تظن أني لو صمت يوماً مرضت فلا تَدَعُني أصومُ ، فهذا وما يجري مجراه من آفات الرياء ، فلا يسبق إلى اللسان إلا لرسوخ عرق الرياء في الباطن . أما المخلص فإنه لا يبالي كيف نظرَ الخلقُ إليه ؟ فإن لم يكن له رغبة في الصوم وقد علم الله ذلك منه فلا يريد أن يعتقدَ غيره ما يخالفُ علمَ الله فيكون مُلَبِّساً ، وإن كان له رغبة في الصوم لله قنع بعلم الله تعالى ولم يُشرِكْ فيه غيره ، وقد يخطر له أنّ في إظهاره اقتداء غيره به وتحريك رغبة الناس فيه وفيه مكيدة وغرور .

فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين وجميعهم تحت مقت الله وغضبه ، وهو من أشد المهلكات وإن من شدّته أن فيه شوائب هي أخفى من دبيب النمل كما ورد به الخبر ، يزل فيه فحول العلماء فضلاً عن العباد الجهلاء بآفات النفوس وغوائل القلوب والله أعلم .

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

قد عرفت مما سبق أن الرياء محبط للأعمال ، وسبب للمقت عند الله تعالى ، وأنه من كبائر المهلكات ، وما هذا وصْفُهُ فجديرٌ بالتشمير عن ساق الجدّ في إزالته ولو بالمجاهدة وتحمل المشاق ، فلا شفاء إلا في شرب الأدوية المرّة البشعة ، وهذه مجاهدة يضطر إليها العباد كلهم ، إذ الصبي يُخْلَقُ ضعيفَ العقل والتمييز ، ممتدّ العين إلى الخلق ، كثير الطمع فيهم ؛ فيرى الناسَ يتصنعُ بعضهم لبعض فيغلبُ عليه حب التصنع بالضرورة ، ويرسخ ذلك في نفسه ، وإنما يشعر بكونه مُهلكاً بعد كمال عقله وقد انغرس الرياء في قلبه ، وترسّخ فيه فلا يقدر على قمعه إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوة الشهوات . فلا ينفك أحدٌ عن الحاجة إلى هذه المجاهدة ، ولكنها تشق أولاً وتخف آخراً وفي علاجه مقامات (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه (والثاني) دفع ما يخطر منه في الحال .

(المقام الأول) في قلع عروقه واستئصال أصوله . وأصله حب المنزلة والجاه ، وإذا فصّل رجع إلى ثلاثة أصول وهي : لذةالمحمدة ، والفرار من ألم الذم ، والطمع فيما في أيدي الناس .

ويشهد للرياء بهذه الأسباب وأنها الباعثة للمرائي ما روى أبو موسى أن أعرابياً سأل النبي ﷺ فقال : يا رسول الله الرجلُ يقاتل حميةً ـ ومعناه : أنه يأنف أن يقهر أو يذم بأنه مقهور مغلوب ـ وقال : والرجل يقاتل ليرى مكانهُ ـ وهذا هو طلب لذة الجاه والقدر في القلوب ـ والرجل يُقاتل للذكر ـ وهذا هو الحمد باللسان ـ فقال النبي ﷺ : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[١] ، وقال ﷺ : « من غزا لا يبغي إلا عقالاً فله ما نوى »[٢] ، فهذا إشارة إلى الطمع ، وقد لا يشتهي الحمدَ ولا يطمع فيه ولكن يحذر من ألم الذم كالبخيل بين الأسخياء وهم يتصدقون بالمال الكثير فإنه يتصدق بالقليل كي لا يبخل ، وهو ليس يطمع في الحمد وقد سبقه غيره ، وكالجبان بين الشجعان لا يفرّ من الزحف خوفاً من الذم وهو لا يطمع في الحمد وقد هجم غيره على صف القتال . ولكن إذا أيس من الحمد كره الذم ، وكالرجل بين قوم يصلون جميع الليل فيصلي ركعات معدودة حتى لا يذم بالكسل ، وهو لا يطمع في الحمد . وقد يقدر الإنسان على الصبر عن لذة الحمد ولا يقدر على الصبر على ألم الذم ، ولذلك قد يترك السؤال عن علم هو محتاج إليه خيفة من أن يُذم بالجهل ، ويفتي بغير علم ويدعي العلم بالحديث وهو به جاهل ، كل ذلك حذراً من الذم . فهذه الأمور الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء .

وليس يخفى أن الإنسان إنما يقصد الشيء ويرغب فيه لظنه أنه خير له ونافع ولذيذ ، إما في الحال وإما في المآل ، فإنْ علم أنه لذيذ في الحال ولكنه ضار في المآل سهل عليه قطع الرغبة عنه ، كما يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن به سماً أعرض عنه ؛ فكذلك طريق قطع هذه الرغبة أن يعلم ما فيه من المضرة . ومهما عرف العبد مضرة الرياء ، وما يفوته من صلاح قلبه ، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله وما يتعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر . فمن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله استحقر ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات ، واجتمع همه وانصرفَ إلى اللهِ قلبهُ وتخلص من مذلّةِ الرياء ومقاساة قلوب الخلق ، وانعطف من إخلاصه أنوارٌ على قلبه ينشرح بها صدره وينفتح بها له من لطائف المكاشفات ما يزيد به أُنسَهُ

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه النسائي .

بالله ووحشته من الخلق واستحقاره للدنيا واستعظامُهُ للآخرة ، وسقطَ محل الخلقِ من قلبه وانحل عنه داعية الرياء وتذللَ له منهجُ الإخلاص . فهذا وما قدّمنا هي الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء .

وأما الدواء العملي : فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها ، كما تغلق الأبواب دون الفواحش ، حتى يقنع قلبه بعلم الله أو اطلاعه على عباداته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به . فلا دواء للرياء مثل الإخفاء ، وذلك يشق في بداية المجاهدة ، وإذا صبر عليه مدّة بالتكلف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل ألطاف الله وما يمدُّ به عباده من حسن التوفيق والتأييد والتسديد و : ﴿ **إنّ الله لا يغيرُ ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** ﴾ (الرعد : ١٢) فمنَ العبدِ المجاهدةُ ومن الله الهداية ، ومن العبد قرعُ الباب ومن الله فتح الباب : ﴿ **والله لا يضيعُ أجرَ المحسنين** ﴾ (التوبة : ١٢٠) ﴿ **وإنْ تَكُ حسنةً يضاعفها ويؤتِ من لدنه أجراً عظيماً** ﴾ (النساء : ٤٠) .

(**المقام الثاني**) في دفع العارض منه في أثناء العبادة وذلك لابد من تعلمه أيضاً ، فإن من جاهد نفسه وقلع مغارس الرياء من قلبه بالقناعة وقَطْعِ الطمع ، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم فالشيطان لا يتركه في أثناء العبادات ، بل يعارضه بخطرات الرياء ، ولا تنقطع عنه نزعاته وهوى النفس وميلها لا ينمحي بالكلية ، فلابد وأن يتشمر لدفع ما يعرض من خاطر الرياء . وخواطر الرياء ثلاثة ـ قد تخطر دفعة واحدة كالخاطر الواحد ، وقد تترادف على التدريج ـ فالأول : العلم باطّلاع الخلق ورجاء اطلاعهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة من النفس في حمدهم وحصول المنزلة عندهم . ثم يتلوه هيجان الرغبة في قبول النفس له والركون إليه وعقد الضمير على تحقيقه . فالأول : معرفة . والثاني : حالةٌ تسمى الشهوة والرغبة . والثالث : فعلٌ يسمّى العزم وتصميم العقد . وإنما كال القوّة في دفع الخاطر الأول وردّه قبل أن يتلوه الثاني ، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق أو رجاء اطلاعهم دفعَ ذلك بأنْ قال : مالكَ وللخلقِ علموا أو لم يعلموا والله عالم بحالك فأي فائدة في علم غيره ؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد يذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء ، وتعرّضه للمقت عند الله في القيامة وخيبته في أحوج أوقاته إلى أعماله ، فكما أنّ معرفة اطلاع الناس تثيرُ شهوةً ورغبة في الرياء ، فمعرفة آفة الرياء تثير كراهة له تقابل تلك الشهوة ، إذ يتفكر في تعرضه لمقت الله وعقابه الأليم ، والشهوة تدعوه إلى القبول ، والكراهة تدعوهإلى الإباء ، والنفس تطاوع لا محالة أقواهما وأغلبهما .

الفقرة الثالثة : في حبّ الجاه والرئاسة

[عندما يندفع الإنسان في العمل انطلاقاً من حبّ الجاه والرئاسة ، فإن عمله سينغمس كنتيجة لذلك في الأخطاء ، فمقتضيات الجاه والرئاسة تستدعي تصرّفات غير مشروعة أحياناً .

ثم إن اندفاع الإنسان في مثل هذا يجعله يقصّر في الخير إذا لم يحقّق له ما يريد . وقد يؤدي التنافس على الجاه والرئاسة إلى أنواع من الشرور والخصومات عدا عن كونه يؤثر في أصل النيّة فيحبط العمل .

لذلك كان المرض خطيراً وعلاجه ضرورياً . وقد كتب الغزالي في ذلك وهذه مختارات من كلامه] .

بيان ما يحمد من حب الجاه وما يذم

مهما عرفت أنّ معنى الجاه ملكُ القلوبِ والقدرةُ عليها فحكمهُ حكم ملكِ الأموالِ فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت كالمال ، والدنيا مزرعة الآخرة ، فكل ما خُلق في الدنيا فيمكن أن يتزوّد منه للآخرة ، وكما أنه لابد من أدنى مال لضرورة المطعم والمشرب والملبس ، فلابدّ من أدنى جاهٍ لضرورة المعيشة مع الخلق ، والإنسان كما لا يستغني عن طعام يتناوله فيجوز أن يحب الطعام أو المال الذي يبتاع به الطعام ، فكذلك لا يخلو عن الحاجة إلى خادم يخدمه ، ورفيق يعينه ، وأستاذ يرشده ، وسلطان يحرسه ويدفع عنه ظلم الأشرار ، فحبه لأنْ يكونَ له في قلب خادمه من المحل ما يدعوه إلى الخدمة ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له في قلب رفيقه من المحل ما يحسن به مرافقته ومعاونته ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له في قلب أستاذه من المحل ما يحسن به إرشاده وتعليمه والعناية به ليس بمذموم ، وحبه لأن يكون له من المحل في قلب سلطانه ما يحثه ذلك على دفع الشر عنه ليس بمذموم ، فإن الجاه وسيلة إلى الأغراض كالمال ، فلا فرق بينهما إلا أنّ التحقيق في هذا يفضي إلى أن لا يكون المال والجاه بأعيانهما محبوبين له .

فحب المال والجاه لأجل التوصل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانهما فيما

يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ، ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإنّ التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين وهو حرام ، وإليه يرجع معنى الرياء المحظور .

بيان علاج حب الجاه

اعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يعظّم منزلته عندهم وذلك بذر النفاق وأصلُ الفساد ، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها ، وإلى اقتحام المحظورات للتوصل إلى اقتناص القلوب ، ولذلك شبه رسول الله ﷺ حب الشرف والمال وإفسادهما للدين بذئبين ضاريين ، [وحب الجاه] ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل إذ النفاق هو مخالفة الظاهر للباطن بالقول أو الفعل ، وكل من طلب المنزلة في قلوب الناس فيضطر إلى النفاق معهم وإلى التظاهر بخصال حميدة هو خال عنها ، وذلك هو عين النفاق .

فحب الجاه إذن من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلب فإنه طَبْعٌ جُبِلَ عليه القلب كما جبل على حب المال .

قال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى** ﴾ (الأعلى : ١٦ ، ١٧) وقال عز وجل : ﴿ **كلا بل تحبون العاجلة * وتذرون الآخرة** ﴾ (القيامة : ٢٠ ، ٢١) فمن هذا حدّه فينبغي أن يعالج قلبه من حب الجاه بالعلم بالآفات العاجلة ، وهو أن يتفكر في الأخطار التي يستهدف لها أرباب الجاه في الدنيا ، فإن كل ذي جاه محسود ، ومقصود بالإيذاء وخائف على الدوام على جاهه ومحترز من أن تتغير منزلته في القلوب ، والقلوب أشدّ تغيراً من القِدْر في غليانها وهي مترددة بين الإقبال والإعراض ، فكل ما يبنى على قلوب الخلق يضاهي ما يبنى على أمواج البحر فإنه لاثبات له .

أما من حيث العمل : فإسقاط الجاه عن قلوب الخلق بمباشرة أفعال يلام عليها حتى يسقط من أعين الخلق وتفارقه لذة القبول ويأنس بالخمول وردّ الخلق ويقنع بالقبول من الخالق . وهذا غير جائز لمن يُقتدى به فإنه يوهن الدين في قلوب المسلمين ، وأما الذي لا يقتدى به فلا يجوز له أن يقدِم على محظور لأجل ذلك ، بل له أن يفعل من المباحات ما يسقط قدره عند

الناس ؛ كما روي أن بعض الملوك قصد بعض الزهاد ، فلما علم بقربه منه استدعى طعاماً وبقلاً وأخذ يأكل بشره ويعظم اللقمة ، فلما نظر إليه الملك سقط من عينه وانصرف ، فقال الزاهد : الحمد لله الذي صرفك عني .

وأقوى الطرق في قطع الجاه الاعتزال عن الناس والهجرة إلى موضع الخمول ، فإنّ المعتزل في بيته في البلد الذي هو به مشهور لا يخلو من حب المنزلة الذي ترسخ له في القلوب بسبب عزلته ، فإنه ربما يظن أنه ليس محباً لذلك الجاه وهو مغرور ، وإنما سكنت نفسه لأنها قد ظفرت بمقصودها ولو تغير الناس عما اعتقدوه فيه فذموه أو نسبوه إلى أمر غير لائق به جزعت نفسه وتألمت ، وربما توصلت إلى الاعتذار عن ذلك وإماطة ذلك الغبار عن قلوبهم ، وربما يحتاج في إزالة ذلك عن قلوبهم إلى كذب وتلبيس ولا يبالي به ، وبه يتبين بعد أنه محب للجاه والمنزلة . ومن أحب الجاه والمنزلة فهو كمن أحب المال بل هو شر منه فإنّ فتنة الجاه أعظم ، ولا يمكنه أن لا يحب المنزلة في قلوب الناس ما دام يطمع في الناس ، ولا يقطع الطمع عن الناس إلا بالقناعة ، فمن قنع استغنى عن الناس وإذا استغنى لم يشتغل قلبه بالناس ولم يكن لقيام منزلته في القلوب عنده وزن ، ولا يتم ترك الجاه إلا بالقناعة وقطع الطمع .

[ولننتقل إلى مرض نفسي آخر .]

الفقرة الرابعة : في الحسد

[الحسد : هو تمنّي زوال النعمة عن المحسود ، وهذه في بعض حالاتها كبيرة من الكبائر .

دعونا نتصوّر أنّ مرض الحسد قد عمّ ، وبدأ كلّ حاسد يكيد لكل ذي نعمة عندئذ يعمّ الكيد ولا يسلم من شروره أحد ، لأنّ كل إنسان كائد ومكيد ، تصوّروا الحياة البشرية كيف تكون عندئذ .

لقد قامت النظرية الماركسية على الحسد ، فأحدثت صراع الطبقات ، ولولا سلطان الدولة في البلدان الماركسية ، وقوّة أجهزة المخابرات ، لحدثت متوالية هندسية من الصراع بسبب مرض الحسد ، ومن ههنا كان الحسد مدمّراً للحياة البشرية ، لأنّها لا تقوم به ، وكما أن الحياة البشرية معرّضة للزوال بسبب الحسد فإن أيّ مجموعة وأي جماعة معرّضة للتفكك بسبب مرض الحسد ، وهذا الذي أهلك أهل الأديان من قبل ، وهذا الذي يمكن أن يهلك هذه الأمّة .

قال عليه الصلاة والسلام : « دبَّ بينكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء ، هي الحالقة ، لا أقول : الحالقة التي تحلق الشعر ،وإنّما الحالقة التي تحلق الدين »[1] ، وقال تعالى : ﴿ **وما تفرّقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم** ﴾ (الشورى : ١٤) أي حسداً وظلماً ، وقد استوعب الغزالي الكلام في الحسد وطرق معالجته ، وهذه مختارات من كلامه . قال رحمه الله] .

القول في بيان ذم الحسد وفي حقيقته وأسبابه ومعالجته وغاية الواجب في إزالته

بيان ذم الحسد

اعلم أن الحسد من نتائج الحقد ، والحقد من نتائج الغضب فهو فرعُ فرعهِ والغضبُ أصله ، ثم إن للحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى . وقد ورد في ذم الحسد خاصة أخبار كثيرة . قال رسول الله ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كا تأكل النار الحطب »[2] وقال ﷺ في النهي عن الحسد وأسبابه وثمراته : « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً »[3] ، وقال أنس : كنا يوماً جلوساً عند رسول الله ﷺ فقال : « يطلع عليكم الآن من هذا الفج رجل من أهل الجنة » قال : فطلع علينا رجل من الأنصار ينفض لحيته من وضوئه قد علّق نعليه في يده الشمال فسلّم ، فلما كان الغد قال ﷺ مثل ذلك فطلع ذلك الرجل ، وقاله في اليوم الثالث فطلع ذلك الرجل ، فلما قام النبي ﷺ تبعه عبد الله بن عمرو ابن العاص فقال له : إني لاحيتُ أبي فأقسمتُ أن لا أدخلَ عليه ثلاثاً فإن رأيتَ أن تؤويني إليك حتى تمضي الثلاث فعلت ، فقال : (نعم) فبات عنده ثلاث ليال فلم يره يقوم من الليل شيئاً غير أنه إذا انقلب عن فراشه ذكر الله تعالى ، ولم يقم إلا لصلاة الفجر ، قال : غير أني ما سمعته يقول إلا خيراً فلما مضت الثلاث وكدت أن أحتقر عمله قلت : يا عبد الله لم يكن بيني وبين والدي غضب ولا هجرة ، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا فأردت أن أعرف

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة وأخرجه ابن ماجه من حديث أنس .

(٣) متفق عليه .

عملك فلم أرك تعمل عملاً كثيراً فما الذي بلغ بك ذاك ؟ فقال : ما هو إلا ما رأيت ، فلما وليت دعاني فقال : ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد على أحدٍ من المسلمين في نفسي غشاً ولا حسداً على خير أعطاه الله إياه ، قال عبد الله : فقلت له هي التي بلغت بكَ وهي التي لا نُطيق[١] .

وقال ﷺ : « ثلاث لا ينجو منهن أحد : الظن والطيرة والحسد ، وسأحدثكم بالمخرج من ذلك : إذا ظننت فلا تحقق ؛ وإذا تطيرت فامض ، وإذا حسدت فلا تبغ »[٢] وفي رواية « ثلاث لا ينجو منهن أحد وقلٌ من ينجو منهن » فأثبت في هذه الرواية إمكان النجاة . وقال ﷺ : « دب إليكم داء الأمم قبلكم الحسد والبغضاء . والبغضة هي الحالقة لا أقول حالقة الشعر ولكن حالقة الدين ، والذي نفس محمد بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولن تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم أفشوا السلام بينكم »[٣] .

وقال ﷺ : « لا تُظهر الشماتَة بأخيك فيعافيه الله ويبتليك »[٤] .

وقال ﷺ : « أخوف ما أخافُ على أمتي أن يكثر فيهم المال فيتحاسدون ويقتتلون »[٥] .

الآثار ، قال بعض السلف : أول خطيئة هي الحسد ، حسدَ إبليسُ آدمَ عليه السلام على رتبته فأبى أن يسجد له . وحكي أن عون بن عبد الله دخل على الفضل بن المهلب وكان يومئذ على واسط فقال : إني أريد أن أعظك بشيء فقال : وما هو ؟ قال : إياك والكبر فإنه أول ذنب عصي الله به ، ثم قرأ : ﴿ **وإذْ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس** ﴾ (البقرة : ٣٤) الآية ، وإياك والحرص فإنه أخرج آدم من الجنة أمكنه الله سبحانه من جنة عرضها السموات والأرض يأكل منها إلا شجرة واحدة نهاه الله عنها فأكل منها فأخرجه الله تعالى منها ، ثم قرأ : ﴿ **اهبطوا منها** ﴾ إلى آخر الآية (البقرة : ٣٨) وإياك والحسد فإنما قتل ابن آدم

---

(١) رواه أحمد بإسناد صحيح على شرط الشيخين ورواه البزار .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا وللطبراني نحوه .

(٣) أخرجه الترمذي .

(٤) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب وفي رواية ابن أبي الدنيا « فيرحمه الله » .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا وفي الصحيحين من حديث أبي سعيد « إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولأحمد والبزار من حديث عمر « لا تفتح الدنيا على أحد إلا ألقى الله بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » .

أخاه حين حسده ثم قرأ : ﴿ **واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق** ﴾ الآيات (المائدة : ٢٧ ـ ٣١) ، وإذا ذُكر أصحاب رسول الله ﷺ فأمسك ، وإذا ذُكر القدر فاسكت ، وإذا ذُكرت النجوم فاسكت .

وقال أبو الدرداء : ما أكثر عبد ذكر الموت إلا قلّ فرحه وقلّ حسده ! وقال معاوية : كل الناس أقدر على رضاه إلا حاسد نعمة فإنه لا يرضيه إلا زوالها ولذلك قيل :

كل العداوات قد ترجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد

وقال أعرابي : ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسد ، إنه يرى النعمة عليك نقمة عليه .

بيان حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه ومراتبه

اعلم أنه لا حسد إلا على نعمة ، فإذا أنعم الله على أخيك بنعمة فلك فيها حالتان :

إحداهما : أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها ، وهذه الحالة تسمى حسداً . فالحسد حدُّه : كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعم عليه .

الحالة الثانية : أن لا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها ولكن تشتهي لنفسك مثلها . وهذه تسمى غبطة ، وقد تختص باسم المنافسة .

وقد تسمى المنافسة حسداً والحسد منافسة ويوضع أحد اللفظين موضع الآخر ، ولا حجر في الأسامي بعد فهم المعاني .

فأما الأوّل فهو حرام بكل حال ، إلا نعمة أصابها فاجر أو كافر وهو يستعين بها على تهييج الفتنة وإفساد ذات البين وإيذاء الخلق . فلا يضرك كراهتك لها ومحبتك لزوالها ، فإنك لا تحب زوالها من حيث هي نعمة بل من حيث هي آلة الفساد ، ولو أمنت فساده لم يغمّك بنعمه ، ويدل على تحريم الحسد الأخبار التي نقلناها وأن هذه الكراهة للنعمة على الغير تسخّط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة ، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم من غير أن يكون لك منه مضرة ؟ وإلى هذا أشار القرآن بقوله : ﴿ **إنْ تَمْسَسْكُمْ حسنةٌ تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها** ﴾ (آل عمران : ١٢٠) وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى : ﴿ **ودّ كثير من أهل الكتاب**

لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم ﴾ (البقرة : ١٠٩) فأخبر تعالى أن حبهم زوال نعمة الإيمان حسد . وقال عز وجل : **﴿ ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء ﴾** (النساء : ٨٩) وذكر الله تعالى حسد إخوة يوسف عليه السلام وعبّر عما في قلوبهم بقوله تعالى : **﴿ إذْ قالوا ليوسف وأخوهُ أحبُّ إلى أبينا منا ونحنُ عصبة إنّ أبانا لفي ضلال مبين * اقتلوا يوسفَ أو اطرحوه أرضاً يخلُ لكم وجهُ أبيكم ﴾** (يوسف : ٨ ، ٩) فلما كرهوا حب أبيهم له وساءهم ذلك وأحبوا زواله عنه غيبوه عنه ، وقال تعالى : **﴿ وما تفرقوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ﴾** (الشورى : ١٤) أنزل الله العلم ليجمعهم ويؤلف بينهم على طاعته ، وأمرهم أن يتآلفوا بالعلم فتحاسدوا واختلفوا إذ أراد كل واحد منهم أن ينفرد بالرياسة وقبول القول فرد بعضهم على بعض . فهذا حكم الحسد في التحريم .

وأما المنافسة : فليست بحرام بل هي إما واجبة ، وإما مندوبة ، وإما مباحة ، وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد ، قال الفضل بن العباس ، والمطلب بن ربيعة عندما أتيا النبي صلى الله عليه وآله وسلم ليسألاه أن يؤمّرهما على الصدقة ـ قالا لعلي حين قال لهما : لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمّركما عليها ـ فقالا له : ما هذا منك إلا نفاسة والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك[1] أي هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك فاطمة .

والمنافسة في اللغة مشتقة من النفاسة . والذي يدل على إباحة المنافسة قوله تعالى : **﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾** (المطففين : ٢٦) وقال تعالى : **﴿ سابقوا إلى مغفرة من ربكم ﴾** (الحديد : ٢١) وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدين يتسابقان إلى خدمة مولاهما ؛ إذ يجزع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها ، فكيف وقد صرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بذلك فقال : « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله تعالى علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس »[2] ثم فسّر ذلك في حديث أبي كبشة الأنماري فقال : « مثل هذه الأمة مثل

---

(١) رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

أربعة : رجل آتاه الله مالاً وعلماً فهو يعمل بعلمه في ماله ، ورجل آتاه الله علماً ولم يؤته مالاً فيقول : رب لو أن لي مالاً مثل مال فلان لكنت أعمل فيه بمثل عمله فهما في الأجر سواء ـ وهذا منه حب لأن يكون له مثل ما له فيعمل ما يعمل من غير حب زوال النعمة عنه قال ـ ورجل آتاه مالاً ولم يؤته علماً فهو ينفقه في معاصي الله ، ورجل لم يؤته علماً ولم يؤته مالاً فيقول : لو أن لي مثل مال فلان لكنت أنفقه في مثل ما أنفقه فيه من المعاصى فهما في الوزر سواء »[1] فذمه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ما له . فإذاً لا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها مهما لم يحب زوالها عنه ولم يكره دوامها له .

فهذه هي حقيقة الحسد وأحكامه .

وأما مراتبه فأربع (الأولى) أن يحب زوال النعمة عنه وإن كان ذلك لا ينتقل إليه وهذا غاية الخبث . (الثانية) أن يحب زوال النعمة إليه لرغبته في تلك النعمة ، مثل رغبته في دار حسنة أو امرأة جميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره وهو يحب أن تكون له ، ومطلوبهُ تلكَ النعمةَ لا زوالها عنه ، ومكروهه فقد النعمة لا تنعم غيره بها . (الثالثة) أن لا يشتهي عينها لنفسه بل يشتهي مثلها ، فإن عجز عن مثلها أحب زوالها كيلا يظهر التفاوت بينهما . (الرابعة) أن يشتهي لنفسه مثلها فإن لم تحصل فلا يحب زوالها عنه .

وهذا الأخير هو المعفو عنه إن كان في الدنيا ، والمندوب إليه إن كان في الدين ، والثالثة فيها مذموم وغير مذموم والثانية أخف من الثالثة ، والأولى مذموم محض . وتسمية الرابعة حسداً فيه تجوز وتوسع ، ولكنه مذموم لقوله تعالى : ﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض** ﴾ (النساء : ٣٢) فتمنّيه لمثلِ ذلك غير مذموم ، وأما تمنّيه عين ذلك فهو مذموم .

☆ ☆ ☆

(١) رواه ابن ماجه والترمذي وقال حسن صحيح .

بيان أسباب الحسد والمنافسة

السبب الأول : العداوة والبغضاء ، وهذا أشدّ أسباب الحسد ، فإن من آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه أبغضه قلبه وغضب عليه ورسخ في نفسه الحقد . والحقد يقتضي التشفي والانتقام ، فإن عجز المبغض عن أن يتشفى بنفسه أحب أن يتشفى منه الزمان ، وربما يحيل ذلك على كرامة نفسه عند الله تعالى فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله ، ومهما أصابته نعمة ساءه ذلك لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أنه لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقها ، وإنما غاية التقيّ أن لا يبغي وأن يكره ذلك من نفسه ، فأما أن يبغض إنساناً ثم يستوي عنده مسرته ومساءته ، فهذا غير ممكن ، وهذا مما وصف الله تعالى الكفار به أعني الحسد بالعداوة إذ قال الله تعالى : ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خَلَوْا عضوا عليكم الأناملَ من الغيظ قُلْ موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور * إن تمسسكم حسنةٌ تسؤهم** ﴾ **الآية** (آل عمران : ١١٩ ، ١٢٠) وكذلك قال : ﴿ **ودُّوا ما عنتمْ قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر** ﴾ (آل عمران : ١١٨) والحسد بسبب البغض ربما يفضي إلى التنازع والتقاتل واستغراق العمر في إزالة النعمة بالحيل والسعاية وهتك الستر وما يجري مجراه .

السبب الثاني : التعزز ؛ وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره . فإذا أصاب بعض أمثاله ولايةً أو علماً أو مالاً خافَ أن يتكبر عليه وهو لا يطيق تكبره ، ولا تسمح نفسه باحتمال صلفه وتفاخره عليه ، وليس من غرضه أن يتكبر بل غرضه أن يدفع كبره ، فإنه قد رضي بمساواته مثلاً ، ولكن لا يرضى بالترفع عليه .

السبب الثالث : الكبر ؛ وهو أن يكون في طبعه أن يتكبر عليه ويستصغره ويستخدمه ويتوقع منه الانقياد له والمتابعة في أغراضه ، فإذا نال نعمة خاف أن لا يحتمل تكبره ويترفع عن متابعته ، بل لربّما يتشوّق إلى مساواته أو إلى أن يترفع عليه فيعود مكتبراً بعد أن كان متكبراً عليه . ومن التكبر والتعزز كان حسد أكثر الكفار لرسول الله ﷺ إذ قالوا : كيف بتقدم علينا غلام يتيم وكيف نطأطىء رؤوسنا له ؟ فقالوا : ﴿ **لولا نُزِّلَ هذا القرآنُ على**

رجل من القريتين عظيم ﴾ (الزخرف : ٣١) أي كان لا يثقل علينا أن نتواضع لـه ونتبعـه إذا كان عظيمـاً وقـال تعـالى يصف قـول قريش : **﴿ أهـؤلاء منّ الله عليهم من بيننـا ﴾** (الأنعام : ٥٣) كاستحقارهم والأنفة منهم .

السبب الرابع : التعجب ، كما أخبر الله تعالى عن الأمم السالفة إذ قـالوا : **﴿ ما أنتمْ إلا بشرٌ مثلنـا ﴾** (يسٓ : ١٥) ، **﴿ وقـالوا أنؤمنُ لبشرين مِثلنـا ﴾** (المؤمنون : ٤٧) ، **﴿ ولئنْ أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون ﴾** (المؤمنون : ٣٤) فتعجبوا من أن يفوز برتبـة الرسـالـة والوحي والقرب من الله تعالى بشر مثلهم فحسدوهم ، وأحبوا زوال النبوّة عنهم جزعاً أن يفضل عليهم مَنْ هو مثلهم في الخلقة ، لا عن قصد تكبر وطلب رياسة وتقدّم عداوة أو سبب آخر من سـائر الأسبـاب ، وقـالـوا متعجبين : **﴿ أبَعثَ الله بشراً رسـولا ﴾** (الإسراء : ٩٤) وقـالـوا : **﴿ لولا أُنزلَ علينا الملائكـة ﴾** (الفرقان : ٢١) وقـال تعـالى : **﴿ أوَعجبتمْ أنْ جاءكم ذكرٌ من ربكم على رجل منكم ﴾** (الأعراف : ٦٩) الآية .

السبب الخامس : الخوف من فوت المقاصد ، وذلـك يختص بمتزاحمين على مقصود واحـد ، فإن كلّ واحد يحسـد صاحبه في كل نعمة تكون عوناً لـه في الانفراد بمقصوده ، ومن هـذا الجنس تحاسد الضرات في التزاحم على مقاصد الزوجية ، وتحـاسـد الإخوة في التزاحم على نيل المنزلـة في قلب الأبوين للتوصل به إلى مقاصد الكرامة والمال ، وكذلك تحاسد التلميذين لأستاذ واحد على نيل المرتبة من قلب الأستاذ ، وتحاسد ندماء الملك وخواصه في نيل المنزلة من قِبلـه للتوصل بـه إلى المال والجاه ، وكذلك تحاسـد الواعظين المتزاحمين على أهل بلـدة واحـدة إذا كان غرضهما نيل المال بالقبول عندهم ، وكذلك تحاسد العـالمين المتزاحمين على طـائفـة من المتفقهـة محصورين ، إذ يطلب كل واحد منزلة في قلوبهم للتوصل بهم إلى أغراض له .

السبب السادس : حب الرياسة وطلب الجـاه لنفسـه من غير توصل إلى مقصود . وذلـك كالرجل الذي يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون إذا غلب عليه حب الثناء واستفزه الفرح بما يُمدح به من أنه واحد الدهر وفريد العصر في فنه ، وأنـه لا نظير لـه ، فـإنـه لو سمع بنظيـر لـه فـي أقصى العـالم لسـاءه ذلـك وأحب موتـه ، أو زوال النعمـة عنـه التـي بـهـا يشاركه المنزلة من شجاعة أو علم أو عبادة أو صناعة أو جمال أو ثروة أو غير ذلك ممـا يتفرد هو بـه ويفرح بسبب تفرّده ، وليس السـبب في هـذا عـداوة ولا تعـزز ولا تكبر على المحسـود ولا

خوف من فوات مقصود سوى محض الرياسة بدعوى الانفراد .

وقد كان علماء اليهود ينكرون معرفة رسول الله ﷺ ولا يؤمنون به خيفة من أن تبطل رياستهم واستتباعهم مهما نسخ علمهم .

السبب السابع : خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله تعالى ، فإن هناك من لا يشتغل برئاسة وتكبر ولا طلب مال إذا وصف عنده حسن حال عبد من عباد الله تعالى فيما أنعم الله به عليه يشق ذلك عليه ، وإذا وصف له اضطراب أمور الناس وإدبارهم وفوات مقاصدهم وتنغص عيشهم فرح به ، فهو أبداً يحب الإدبار لغيره ويبخل بنعمة الله على عباده كأنهم يأخذون ذلك من ملكه وخزانته . ويقال : البخيل من يبخل بمال نفسه والشحيح هو الذي يبخل بمال غيره ، فهذا يبخل بنعمة الله تعالى على عباده الذين ليس بينه وبينهم عداوة ولا رابطة ، هذا ليس له سبب ظاهر إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع عليه وقعت الجبلة ، ومعالجته شديدة لأن الحسد الثابت بسائر الأسباب أسبابه عارضة يتصوّر زوالها فيطمع في إزالتها ، وهذا خبث في الجبلة لا عن سبب عارض فتعسر إزالته . فهذه هي أسباب الحسد وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوّة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل يهتك حجاب المجاملة ويظهر العداوة بالمكاشفة . وأكثر الحاسدات تجتمع فيها جملة من هذه الأسباب ، وقلما يتجرّد سبب واحد منها .

بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب

اعلم أنّ الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل ، والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ولم تكن عدوّ نفسك وصديق عدوّك فارقت الحسد لا محالة . أما كونه ضرراً عليك في الدين فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته . وهذه جناية على حدقة التوحيد وقذى في عين الإيمان ، وناهيك بها جناية على الدين . وقد انضاف إلى ذلك أنك غششت رجلاً من المؤمنين وتركت نصيحته ، وفارقت أولياء الله وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت

إبليس وسائر الكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . هذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ، وتمحوها كما يمحو الليل النهار . وأما كونه ضرراً عليك في الدنيا فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال في كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً محروماً متشعب القلب ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزت في الحال محنتك وغمّك نقداً ، ومع هذا فلا تزول النعمة عن المحسود بحسدك ، ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب لكان مقتضى الفطنة - إن كنت عاقلاً - أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته مع عدم النفع ، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة ؟ فما أعجب من العاقل كيف يتعرّض لسخط الله تعالى من غير نفع يناله بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة ؟ وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه فواضح لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك ، بل ما قدره الله تعالى من إقبال ونعمة فلابدّ أن يدوم إلى أجل غير معلوم قدّره الله سبحانه فلا حيلة في دفعه ، بل كل شيء عنده بمقدار ، ولكل أجل كتاب .

وأما العمل النافع فيه فهو أن يَحْكُم الحسد فكل ما يتقاضاه الحسد من قول وفعل فينبغي أن يكلف نفسه نقيضه ، فإن حمله الحسد على القدح في محسوده كلف لسانه المدح له والثناء عليه ، وإن حمله على التكبر عليه ألزم نفسه التواضع له والاعتذار إليه ، وإن بعثه على كف الإنعام عليه ألزم نفسه الزيادة في الإنعام عليه ، فمها فعل ذلك عن تكلف وعرفه المحسود طاب قلبه وأحبه ، ومهما ظهر حبه عاد الحاسد فأحبه ، وتولد من ذلك الموافقة التي تقطع مادة الحسد ، لأن التواضع والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة يستجلب قلب المنعم عليه ويسترقه ويستعطفه ويحمله على مقابلة ذلك بالإحسان ، ثم ذلك الإحسان يعود إلى الأول فيطيب قلبه ويصير ما تكلفه أولاً طبعاً آخراً ، ولا يصدّنه عن ذلك قول الشيطان له : لو تواضعت وأثنيت عليه حملك العدو على العجز أو على النفاق أو الخوف وأن ذلك مذلة ومهانة ، وذلك من خداع الشيطان ومكايده بل المجاملة - تكلفاً كانت أو طبعاً - تكسر سورة العداوة من الجانبين وتقل مرغوبها وتعوّد القلوب التآلف ، والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض .

فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً ، إلا أنها مُرّة على القلوب جدا ، ولكن النفع في الدواء المرّ . فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء . وإنما تهون مرارة هذا الدواء ، أعني التواضع للأعداء والتقرّب إليهم بالمدح والثناء ، بقوة العلم بالمعاني التي ذكرناها وقوّة الرغبة في ثواب الرضا بقضاء الله تعالى وحب ما أحبه . وعزة النفس وترفعها عن أن يكون في العالم شيء على خلاف مرادها جهل ، وعند ذلك يريد ما لا يكون ، إذ لا مطمع في أن يكون ما يريد وفوات المراد ذل وخسة ، ولا طريق إلى الخلاص من هذا الذل إلا بأحد أمرين : إما بأن يكون ما تريد أو بأن تريد ما يكون ، والأول ليس إليك ولا مدخل للتكلف والمجاهدة فيه . وأما الثاني فللمجاهدة فيه مدخل ، وتحصيله بالرياضة ممكن ، فيجب تحصيله على كل عاقل . هذا هو الدواء الكلي .

فأما الدواء المفصّل : فهو تتبع أسباب الحسد من الكبر وغيره وعزة النفس وشدّة الحرص على ما لا يغني فإنها مواد هذا المرض ولا ينقمع المرض إلا بقمع المادة ، فإن لم تقمع لم يحصل بما ذكرناه إلا تسكين وتطفئة ، ولا يزال يعود مرة بعد أخرى ويطول الجهد في تسكينه مع بقاء مواده ، فإنه مادام محباً للجاه فلابد وأن يحسد من استأثر بالجاه والمنزلة في قلوب الناس دونه ، ويغمه لا محالة ، وإنما غايته أن يهوّن الغم على نفسه ولا يظهر بلسانه ويده ، فأما الخلو عنه رأساً فلا يمكنه والله الموفق .

بيان القدر الواجب في نفي الحسد عن القلب

اعلم أن المؤذي ممقوت بالطبع ، ومن آذاك فلا يمكنك أن لا تبغضه غالباً ، فإذا تيسرت له نعمة فلا يمكنك أن لا تكرهها له حتى يستوي عندك حسن حال عدوك وسوء حاله ، بل لا تزال تدرك في النفس بينهما تفرقة ، ولا يزال الشيطان ينازعك إلى الحسد له ، ولكن إن قوي ذلك فيك حتى بعثك على إظهار الحسد بقول أو فعل بحيث يعرف ذلك من ظاهرك بأفعالك الاختيارية فأنت حسود عاص بحسدك ، وإن كففت ظاهرك بالكلية إلا أنك بباطنك تحب زوال النعمة وليس في نفسك كراهة لهذه الحالة فأنت أيضاً حسود عاص ، لأن الحسد صفة القلب لا صفة الفعل ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ (الحشر : ٩) وقال عز وجل : ﴿ **ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء** ﴾

(النساء : ٨٩) وقال : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم** ﴾ (آل عمران : ١٢٠) أما الفعل فهو غيبة وكذب وهو عمل صادر عن الحسد وليس هو عين الحسد ، بل محل الحسد القلب دون الجوارح . نعم هذا الحسد ليس مظلمة يجب الاستحلال منها بل هو معصية بينك وبين الله تعالى ، وإنما يجب الاستحلال من الأسباب الظاهرة على الجوارح ، فأما إذا كففت ظاهرك وألزمت مع ذلك قلبك كراهة ما يترشح منه بالطبع من حب زوال النعمة حتى كأنك تمقت نفسك على ما في طبعها فتكون تلك الكراهة من جهة العقل في مقابلة الميل من جهة الطبع ، فقد أديت الواجب عليك ، ولا يدخل تحت اختيارك في أغلب الأحوال أكثر من هذا ، فأما تغيير الطبع ليستوي عنده المؤذي والمحسن ويكون فرحه أو غمه بما تيسر لهما من نعمة أو تنصب عليهما من بلية سواء، فهذا مما لا يطاوع الطبع عليه مادام ملتفتاً إلى حظوظ الدنيا ، إلا أن يصير مستغرقاً بحب الله تعالى مثل السكران الواله ، فقد ينتهي أمره إلى أن لا يلتفت قلبه إلى تفاصيل أحوال العباد ، بل ينظر إلى الكل بعين واحدة وهي عين الرحمة ، ويرى الكل عباد الله ، وأفعالهم أفعالاً لله ، ويراهم مسخّرين وذلك إن كان فهو كالبرق الخاطف لا يدوم ، ثم يرجع القلب بعد ذلك إلى طبعه ويعود العدوّ إلى منازعته ـ أعني الشيطان ـ فإنه ينازع بالوسوسة . فمها قابل ذلك بكراهته وألزم قلبه هذه الحالة فقد أدى ما كلفه . وقد ذهب ذاهبون إلى أنّه لا يأثم إذا لم يظهر الحسد على جوارحه لما روي عن الحسن أنه سئل عن الحسد فقال : « غُمّةٌ فإنه لا يضرك ما لم تُبده » فمخرجه من الحسد أن لا يبغي ، والأولى أن يحمل هذا على ما ذكرناه من أن يكون فيه كراهة من جهة الدين والعقل في مقابلة حب الطبع لزوال نعمة العدو ، وتلك الكراهة تمنعه من البغي والإيذاء ، فإنّ جميع ما ورد من الأخبار في ذم الحسد يدل ظاهره على أن كل حاسد آثم ، ثم الحسد عبارة عن صفة القلب لا عن الأفعال . فكل من يحب إساءة مسلم فهو حاسد . فإذن كونه آثماً بمجرد حسد القلب من غير فعل هو في محل الاجتهاد ، والأظهر ما ذكرناه من حيث ظواهر الآيات والأخبار ومن حيث المعنى ، إذ يبعد أن يعفى عن العبد في إرادته إساءة مسلم واشتماله بالقلب على ذلك من غير كراهة .

وقد عرفت من هذا أن لك في أعدائك ثلاثة أحوال :

أحدها : أن تحب مساءتهم بطبعك ، وتكره حبك لذلك وميل قلبك إليه بعقلك ، وتمقت نفسك عليه ، وتود لو كانت لك حيلة في إزالة ذلك الميل منك ، وهذا معفو عنه قطعاً لأنه لا

يدخل تحت الاختيار أكثر منه .

الثاني : أن تحب ذلك وتظهر الفرح بمساءته إما بلسانك أو بجوارحك ، فهذا هو الحسد المحظور قطعاً .

الثالث : وهو بين الطرفين أن تحسد بالقلب من غير مقت لنفسك على حسدك ، ومن غير إنكار منك على قلبك ، ولكن تحفظ جوارحك عن طاعة الحسد في مقتضاه ، وهذا في محل الخلاف . والظاهر أنه لا يخلو عن إثم بقدر قوة ذلك الحسد وضعفه .

الفقرة الخامسة : في العُجْب

[قال عليه الصلاة والسلام :

« إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متّبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجابَ كل ذي رأيٍ برأيه فعليك نفسك » أخرجه الترمذي وحسنه . هذه أمراض متى وجدت تعذّرت الحياة الجماعية والعمل المشترك ، ولذلك أفتى رسول الله ﷺ من يجد ذلك بالعزلة ، مع أنّه عليه الصلاة والسلام حضّ كثيراً على الجماعة والألفة والتعاون في الخير ، ومن ههنا ندرك خطورة العجب والشُّحّ وحب الدنيا واتباع الهوى على الحياة البشرية عموماً وعلى الحياة الإسلامية خصوصاً .

إنه مع العجب يوجد الرضا عن النفس ، والرضا عن النفس يتفرّع عنه الكثير من التقصير ، والكثير من الأمراض ، كالغرور وازدراء الآخرين ودعوى المقامات وغير ذلك حتّى إن ابن عطاء الله السكندري اعتبر الرضا عن النفس أصل كل بلاء . قال : (أصل كل معصية وغفلة وشهوة الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعفّة عدم الرضا منك عنها ، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه ، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه ، وأي جهلٍ لجاهل لا يرضى عن نفسه) . ومن ههنا نعلم خطورة أمراض النفس على الحياة البشرية عموماً وعلى الحياة الإسلامية خصوصاً ، وعلى أي عمل جماعي .

وإذا كان خطر العجب والشح وحبّ الدنيا واتباع الهوى على الحياة الجماعية منصوصاً عليه فإنّه يتوجّب على كل مسلم أن يحسن خلاص نفسه من مثل هذه الأمور ، وهذا يؤكّد ضرورة أمثال هذه الدراسات .

إن الإعجاب بالرأي يعالَج بالخضوع للشورى ، واتباع الهوى يعالج بالوقوف عند النصوص ، والشح المطاع يعالج بالكرم ، وحبّ الدنيا يعالج بتذكّر الآخرة والعمل لها .

وفي الصفحات القادمة تفصيلات في العجب والبخل وحب الدنيا ، تعالِج هذه الأمراض المتأصلة ، كما أن فيها تفصيلات عن أمراض تتفرع عن هذه الأمراض أو هي مستقلة عنها ولكنّها في الدرجة نفسها من الخطورة .

وهذه الفقرة مخصصة للحديث عن العجب ، وهو المرض الذي بسببه لا يستطيع صاحبه أن يتعامل مع الآخرين تعاملاً عادياً فطرياً ، فلا هو يرضى أن يتابع الآخرين ، والآخرون لا يستطيعون أن يتابعوا صاحب ذلك ، لأن متابعته تؤدي إلى الدمار . وهذه مختارات من كلام الغزالي حول العجب ، قال رحمه الله :] .

بيان ذم العجب

اعلم أن العجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ . قال الله تعالى : ﴿ **ويومَ حنينٍ إذْ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً** ﴾ (التوبة : ٢٥) ذكر ذلك في معرض الإنكار وقال عز وجل : ﴿ **وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا** ﴾ (الحشر : ٢) فرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم وقال تعالى : ﴿ **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ (الكهف : ١٠٤) ، وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل . وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه . وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متّبع ، وإعجاب المرء بنفسه »[١] ، وقال لأبي ثعلبة ـ حين ذكر آخر هذه الأمة ـ فقال « إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك نفسك »[٢] . وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين : القنوط والعجب . وإنما جمع بينهما لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير ، والقانط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجب يعتقد أنه قد سعد وقد ظفر بمراده فلا يسعى . فالموجود لا يُطلب ، والمحال لا يُطلب ، والسعادة موجودة في اعتقاد المعجب حاصلة له ، ومستحيلة في اعتقاد القانط ، فمن

---

(١) حسن لغيره ، وهو عند الطبراني في الأوسط عن أنس وابن عمر .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه .

ههنـا جمع بينهما . وقـد قـال تعـالى : ﴿ **فلا تزكوا أنفسكم** ﴾ (النجم : ٣٢) قـال ابن جريج : معناه إذا عملت خيراً فلا تقل عملت . وقال زيد بن أسلم . لا تبروها ، أي لا تعتقدوا أنها بـارة وهو معنى العجب .

وكان بشر بن منصـور من الـذين إذا رُءوا ذكر الله تعـالى والـدار الآخرة ؛ لمواظبتـه على العبادة ، فأطال الصلاة يوماً ورجل خلفه ينظر ففطن لـه بشر ، فلمـا انصرف عن الصلاة قـال له : لا يعجبنك ما رأيت مني ، فإن إبليس لعنه الله قد عبد الله تعالى مع الملائكة مدّة طويلة ثم صار إلى ما صار إليه . وقيل لعائشة رضي الله عنهـا : متى يكون الرجل مسيئـاً ؟ قـالت : إذا ظن أنه محسن ، وقد قال تعالى : ﴿ **لا تبطلوا صدقـاتكم بـالمنّ والأذى** ﴾ (البقرة : ٢٦٤) والمن نتيجة استعظام الصـدقـة ، واستعظـام العمل هو العجب . فظهر بهـذا أن العجب مـذموم جداً .

بيان آفة العجب

اعلم أنّ آفات العجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر لأنه أحـد أسبـابـه ، فيتولـد من العجب الكبر ، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفى ، هـذا مع العبـاد ، وأمـا مع الله تعـالى فالعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرهـا ولا يتفقـدهـا لظنـه أنـه مستغن عن تفقدها فينسـاها ، وما يتذكره منها فيستصغره ولا يستعظمه فلا يجتهد في تـداركـه وتلافيه بل يظن أنه يغفر له . وأما العبادات والأعمال فإنـه يستعظمهـا ويتبجح بهـا ويمن على الله بفعلها ، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها ، ثم إذا أعجب بهـا عمي عن آفـاتهـا . ومن لم يتفقد آفات الأعمال كان أكثر سعيه ضائعاً ، فـإنّ الأعمـال الظـاهرة إذا لم تكن خـالصـة نقيـة عن الشـوائب قلّما تنفـع ، وإنمـا يتفقـد من يغلب عليـه الإشفـاق والخـوف دون العجب ، والمعجب يعتز بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله بمكان ، وأنّ لـه عنـد الله منة وحقاً بأعمالـه التي هي نعمـة وعطيـة من عطـايـاه ، ويخرجـه العجب إلى أن يثني على نفسـه ويحمـدهـا ويـزكيهـا ، وإن أعجب برأيـه وعملـه وعقلـه منـع ذلـك من الاستفـادة ومن الاستشارة والسؤال فيستبدّ بنفسه ورأيه ، ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأي الخطأ الذي خطر لـه فيفرح بكونـه من خواطره ، ولا يفرح بخواطر غيره ، فيصرّ عليـه ولا يسمـع نصح نـاصـح ، ولا وعـظ واعـظ ، بـل ينظر إلى غيره بعين الاستجهـال ويصر على

خطئـه ، فـإن كان رأيـه في أمر دنيـوي فيخفـق فيـه ، وإن كان في أمر ديني لاسيا فيا يتعلـق بأصول العقائد فيهلك بـه ، ولو اتهم نفسـه ، ولم يثق برأيـه ، واستضـاء بنور القرآن ، واستعـان بعلماء الدين ، وواظب على مدارسـة العلم ، وتـابع سؤال أهل البصيرة ، لكان ذلـك يوصلـه إلى الحق . فهذا وأمثاله من آفات العجب فلذلـك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفـاتـه أن يفتر في السعي لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى ، وهو الهلاك الصريح الذي لا شبهة فيـه . نسـأل الله تعالى العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان حقيقة العجب والإدلال وحدّهما

اعلم أنّ العجب إنما يكون بوصف هو كال لا محالة ، وللعالم بكمال نفسـه في علم وعمل وحـال وغيره حالتان (**إحداهما**) أن يكون خائفاً على زواله ومشفقاً على تكـدّره أو سلبـه من أصلـه فهـذا ليس بمعجب . (**والأخرى**) أن لا يكون خـائفـاً من زوالـه لكن يكـون فرحـاً بـه من حيث إنه نعمة من الله تعالى لا من حيث إضافته إلى نفسـه وهـذا أيضـاً ليـس بمعجب . (**ولـه حالة ثالثـة**) وهي العجب : وهي أن يكون غير خـائف عليـه بل يكون فرحـاً بـه مطمئنـاً إليه ، ويكون فرحه به من حيث إنه كال ونعمة وخير ورفعـة لا من حيث إنـه عطيـة من الله تعالى ونعمة منه ، فيكون فرحه من حيث إنه صفته ومنسوب إليه بأنـه لـه ، لا من حيث إنـه منسوب إلى الله تعالى بأنه منه ، فمها غلب على قلبه أنه نعمة من الله مهما شـاء سلبهـا عنـه زال العجب بذلك عن نفسـه . فإذن العجب : هو استعظام النعمة والركون إليها مع نسيان إضافتهـا إلى المنعم ، فإن انضاف إلى ذلك أن غلب على نفسـه أن له عند الله حقاً ، وأنـه منـه بمكان حتى يتوقع بعمله كرامة في الدنيا ، واستبعد أن يجري عليه مكروه استبعاداً يزيد على استبعـاده مـا يجري على الفساق سمي هذا إدلالاً بالعمل ، فإنه يرى لنفسه على الله دالة . وكذلك قـد يعطي غيره شيئاً فيستعظمه ويمن عليه فيكون معجباً ، فإن استخـدمـه أو اقترح عليـه الاقتراحـات أو استبعد تخلفه عن قضاء حقوقه كان مدلاً عليه .

وقال قتادة في قوله تعالى : ﴿ **ولا تمنن تستكثر** ﴾ (المدثر : ٦) أي لا تدلّ بعملك .

والإدلال وراء العجب ، فلا مدّل إلا وهو معجب ورب معجب لا يـدل ، إذ العجب يحصل بـاستعظـام ونسيـان النعمـة دون توقع جزاء عليـه ، والإدلال لا يتم إلا مع توقـع جـزاء ، فـإن

توقع إجابة دعوته واستنكر ردّها بباطنه وتعجب منه كان مدلاً بعمله ، لأنه لا يتعجب من رد دعاء الفاسق ويتعجب من رد دعاء نفسه لذلك . فهذا هو العجب والإدلال وهو من مقدّمات الكبر وأسبابه ، والله تعالى أعلم .

بيان علاج العجب على الجملة

اعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضدّه ، وعلة العجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل فقط ، فلنفرض العجب بفعل داخل تحت اختيار العبد كالعبادة والصدقة والغزو وسياسة الخلق وإصلاحهم ؛ فإن العجب بهذا أغلب من العجب بالجمال والقوّة والنسب وما لا يدخل تحت اختياره ولا يراه من نفسه .

فنقول : الورع والتقوى والعبادة والعمل الذي به يعجب إنما يعجب به من حيث إنه فيه فهو محله ومجراه ، أو من حيث إنه منه وبسببه وبقدرته وقوته ؛ فإن كان يعجب به من حيث إنه فيه وهو محله ومجراه فيه وعليه من جهة غيره فهذا جهل ، لأن المحلّ مسخّر ومجرى لا مدخل له في الإيجاد والتحصيل ، فكيف يعجب بما ليس إليه ؟ وإن كان يعجب به من حيث إنه هو منه وإليه وباختياره حصل وبقدرته تمّ ، فينبغي أن يتأمل في قدرته وإرادته وأعضائه وسائر الأسباب التي بها يتم عمله من أنها من أين كانت له ؟ فإن كان جميع ذلك نعمة من الله عليه من غير حق سبق له ومن غير وسيلة يدلي بها فينبغي أن يكون إعجابه بجود الله وكرمه وفضله ، إذ أفاض عليه ما لا يستحق وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة .

فإنك إن أعجبت بعبادتك وقلت : وفقني للعبادة لحبي له ، فيقال : ومن خلق الحب في قلبك ؟ فتقول : هو . فيقال : فالحبّ والعبادة نعمتان من عنده ابتدأك بهما من غير استحقاق من جهتك إذ لا وسيلة لك ولا علاقة ، فيكون الإعجاب بجوده إذ أنعم بوجودك ووجود صفاتك وبوجود أعمالك وأسباب أعمالك ! فإذاً لا معنى لعجب العابد بعبادته وعجب العالم بعلمه وعجب الجميل بجماله وعجب الغني بغناه ! لأن كل ذلك من فضل الله وإنما هو محل لفيضان فضل الله تعالى وجوده ، والمحل أيضاً من فضله وجوده .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد أبداً** ﴾ (النور : ٢١) وقال النبي ﷺ لأصحابه وهم خير الناس : « ما منكم من أحد ينجيه

عمله » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »[1] ولقد كان أصحابه من بعده يتمنون أن يكونوا تراباً وتبناً وطيراً مع صفاء أعمالهم وقلوبهم ، فكيف يكون لذي بصيرة أن يعجب بعمله أو يُدِلّ به ولا يخاف على نفسه ؟ فإذن هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من القلب ومهما غلب ذلك على القلب شغله خوف سلب هذه النعمة عن الإعجاب بها ، فكم من مؤمن قد ارتدّ ومطيع قد فسق وختم له بسوء ! وهذا لا يبقى معه عجب بحال ، والله تعالى أعلم .

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

اعلم أنّ العجب بالأسباب التي بها يتكبر وقد يعجب بما لا يتكبر به كعجبه بالرأي الخطأ الذي يُزيّن له بجهله . فما به العجب ثمانية أقسام :

(**الأوّل**) أن يعجب ببدنه في جماله وهيئته وقوّته وتناسب أشكاله وحسن صورته وحسن صوته ، وبالجملة تفصيل خلقته ، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى وهو بعرضة الزوال في كل حال ، وعلاج هذا النوع من العجب هو التفكر في أقذار باطنه وفي أوّل أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة أنها كيف تمزقت في التراب وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع .

(**الثاني**) البطش والقوّة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم : ﴿ **من أشدّ منا قوة** ﴾ (فصلت : ١٥) وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما روي عن سليمان عليه السلام ، أنه قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ! ولم يقل إن شاء الله تعالى ، فحرم ما أراد من الولد[2] . ويورث العجب بالقوة الهجوم في الحروب وإلقاء النفس في التهلكة والمبادرة إلى الضرب والقتل لكل من قصده بالسوء ، وعلاجه هو أن يعلم أنّ حمّى يوم تضعف قوته ! وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليه .

(**الثالث**) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ،

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه البخاري .

وثمرته الاستبداد بالرأي وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه ، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستغناء بالرأي والعقل واستحقاراً لهم وإهانة ، وعلاجه أن يشكر الله تعالى على ما رزقه من العقل ، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه كيف يوسوس ويجن بحيث يضحك منه ! فلا يأمن أن يسلب عقله إن أعجب به ولم يقم بشكره ، وليستقصر عقله وعلمه ، وليعلم أنه ما أوتي من العلم إلا قليلاً وإن اتسع علمه ، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ؟ وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ؟ فيحذر أن يكون منهم وهو لا يدري . فإن القاصر العقل قط لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ، ومن أعدائه لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً .

(**الرابع**) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنّه ينجو بشرف نسبه ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، ويتخيل بعضهم أن جميع الخلق له موال وعبيد ، وعلاجه أن يعلم أنه مهما خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فما كان من أخلاقهم العجب بل الخوف والازدراء على النفس ، ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب ، فليتشرف بما شرفوا به ، وقد ساواهم في النسب وشاركهم في القبائل من لم يؤمن بالله واليوم والآخر ، وكانوا عند الله شراً من الكلاب وأخس من الخنازير ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى** ﴾ (الحجرات : ١٣) أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد ، ثم ذكر فائدة النسب فقال : ﴿ **وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا** ﴾ (الحجرات : ١٣) ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ (الحجرات : ١٣) ولما قيل لرسول الله ﷺ : من أكرم الناس ؟ من أكيس الناس ؟ لم يقل : من ينتمي إلى نسبي ولكن قال : « أكرمهم أكثرهم للموت ذكراً وأشدهم له استعداداً »[١] وإنما نزلت هذه الآية حين أذّن بلال يوم الفتح على الكعبة فقال الحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وخالد بن أسيد : هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة ؟ فقال تعالى : ﴿ **إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ وقال النبي ﷺ : « إن الله قد أذهب عنكم عُبّيّةَ الجاهلية ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب »[٢] ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾

---

(١) أخرجه ابن ماجه دون قوله « وأكرم الناس » وهو بهذه الزيادة عند ابن أبي الدنيا .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه .

(الشعراء : ٢١٤) ناداهم بطناً بعد بطن . حتى قال : « يا فاطمة بنت محمد يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً »[١] فمن عرف هذه الأمور وعلم أن شرفه بقدر تقواه وقد كان من عادة آبائه التواضع اقتدى بهم في التقوى والتواضع ، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه ـ بلسان حاله ـ مهما انتمى إليهم ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

(**الخامس**) العجب بنسب السلاطين الظلمة وأعوانهم دون نسب الدين والعلم . وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في مخازيهم وما جرى لهم من الظلم على عباد الله ، والفساد في دين الله ، وأنهم المقوتون عند الله تعالى ، فحق أولاد الظلمة إن عصمهم الله من ظلمهم أن يشكروا الله على سلامة دينهم ويستغفروا لآبائهم إن كانوا مسلمين ! فأما العجب فجهل محض .

(**السادس**) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأقارب والأنصار والأتباع كما قال الكفار : ﴿ **نحن أكثر أموالاً وأولاداً** ﴾ (سبأ : ٣٥) وكما قال المؤمنون يوم حنين : لا نغلب اليوم من قلة . وعلاجه هو أن يتفكر في ضعفه وضعفهم وأن كلهم عبيد عجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله** ﴾ (البقرة : ٢٤٩) ثم كيف يعجب بهم وأنهم سيفترقون عنه إذا مات فيدفن في قبره ذليلاً مهيناً وحده لا يرافقه أهل ولا ولد ولا قريب ولا حميم ولا عشير ، وكذلك يهربون منه يوم القيامة ﴿ **يوم يفر المرء من أخيه * وأمه وأبيه * وصاحبته وبنيه** ﴾ الآيات (عبس : ٣٤ ـ ٣٦) فأي خير فيمن يفارقك في أشدّ أحوالك ويهرب منك ؟ وكيف تعجب به ولا ينفعك في القبر والقيامة وعلى الصراط إلا عملك وفضل الله تعالى ؟ فكيف تتكل على من لا ينفعك ، وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك وموتك وحياتك ؟ .

(**السابع**) العجب بالمال كما قال تعالى إخباراً عن صاحب الجنتين إذ قال : ﴿ **أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً** ﴾ (الكهف : ٣٤) ورأى رسول الله ﷺ رجلاً غنياً جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال عليه الصلاة والسلام : « أخشيت أن يعدو إليك فقره »[٢] وذلك للعجب بالغنى ، وعلاجه أن يتفكر في آفات المال وكثرة حقوقه وعظيم غوائله ، وينظر إلى

(١) متفق عليه .
(٢) رواه أحمد في الزهد .

فضيلة الفقراء وسبقهم إلى الجنة في يوم القيامة[١] قال أبو ذرّ ، كنت مع رسول الله ﷺ فدخل المسجد فقال لي : « يا أبا ذرّ ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب جياد ثم قال : « ارفع رأسك » فرفعت رأسي فإذا رجل عليه ثياب خلقة فقال لي : « يا أبا ذرّ : هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا »[٢] فكيف يتصوّر من المؤمن أن يعجب بثروته ؟ بل لا يخلو المؤمن عن خوف من تقصيره في القيام بحقوق المال في أخذه من حله ووضعه في حقه ، ومن لا يفعل ذلك فمصيره إلى الخزي والبوار فكيف يعجب بماله ؟

(**الثامن**) العجب بالرأي الخطأ . قال الله تعالى : ﴿ **أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً** ﴾ (غافر : ٨) وقال تعالى : ﴿ **وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً** ﴾ (الكهف : ١٠٤) وقد أخبر رسول الله ﷺ : « أن ذلك يغلب على آخر هذه الأمة »[٣] وبذلك هلكت الأمم السالفة إذ افترقت فرقاً فكل معجب برأيه ﴿ **كل حزب بما لديهم فرحون** ﴾ (المؤمنون : ٥٣) وجميع أهل البدع والضلال إنما أصروا عليها لعجبهم بآرائهم والعجب بالبدعة هو استحسان ما يسوق إليه الهوى والشهوة مع ظنّ كونه حقاً ، وعلاج هذا العجب أشدّ من علاج غيره لأن صاحب الرأي الخطأ جاهل بخطئه ولو عرفه لتركه ، ولا يعالج الداء الذي لا يعرف ، والجهل داء لا يعرف فتعسر مداواته جداً . لأن العارف يقدر على أن يبين للجاهل جهله ويزيله عنه ، إلا إذا كان معجباً برأيه وجهله فإنه لا يصغي إلى العارف ويتهمه ، فقد سلط الله عليه بلية تهلكه وهو يظنها نعمة فكيف يمكن علاجه وكيف يطلب الهرب مما هو سبب سعادته في اعتقاده ؟ وإنما علاجه على الجملة أن يكون متهماً لرأيه أبداً لا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة أو دليل عقلي صحيح جامع لشروط الأدلة ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلط في فهمها إلا بقريحة تامة وعقل ثاقب وجدّ وتشمير في الطلب وممارسة للكتاب والسنة ومجالسة لأهل العلم طول العمر ومدارسة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الغلط في بعض الأمور ، فنسأل الله تعالى السلامة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه .

(٣) هو عند أبي داود والترمذي .

الفقرة السادسة : في الكبر

[الكبر هو ابن العجب ، ولذلك جعلناه بعده ، لأن الكبر ـ كما عرّفه رسول الله ﷺ ـ هو « غمط الناس وبطر الحق » وذلك جذره العميق هو العجب .

دعونا نتصوّر خطورة الكبر على الحياة البشرية من خلال تصوّرنا أنّ هذا المرض قد عمّ كل الناس فكيف يكون الحال :

تصوّروا أنّ كل إنسان قد ازدرى كلّ الناس فماذا يكون ؟ لا يبقى في هذه الحالة احترام لأحد ولا هيبة لأحد ولا حرمة لأحد ولا أدب مع أحد ، وتصوّروا حياة بشرية ليس فيها احترام ولا هيبة ولا حرمة ولا أدب ، وهذا كلّه فرع الشق الأول من الكبر .

ثم تصوّروا أنّ كل إنسان في هذا العالم إذا عرض عليه الحق رفضه ، فكيف يكون أمر هذا العالم ؟ عندئذ لا يستطيع اثنان أن يتفاهما على شيء إلا بالقهر على الباطل ، فما لم يجتمع الناس على حق ، لا يجتمعون على باطل ، وعندئذ فالقويّ هو الذي ينفذ أمره . ويتوضّع حول هذا : الظلم ، والغضب ، والإرهاب ، والإرهاق ، والعدوان ، وإهدار الكرامات والحقوق .

هذا مرض نفسي واحد يترتّب عليه ما يترتّب ، فكيف ببقيّة أمراض النفوس . ومن تأمّل مثل هذا عرف بعض معاني قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين** ﴾ (الأنبياء : ١٠٧) وعرف رحمة الله في أنّه أرسل للناس رسلاً يزكون أنفسهم ، وعرف أهمية التزكية في الحياة البشرية عموماً وفي الحياة الإسلامية خصوصاً ، وأدرك كم يجب على الدعاة إلى الله أن يمتلكوا ناصية علم التزكية كطريق لابدّ منه لإيجاد جماعة صالحة ومجتمع صالح ، فذلك هو المقدّمة الأقوى لكل شيء ، وبدونه لا نحقّق هدفاً دنيوياً أو أخروياً .

وهذه مختارات من كلام الغزالي عن الكبر] .

☆ ☆ ☆

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أنّ الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر ، فالباطن هو خلق في النفس ، والظاهر هو أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق . وخلق الكبر موجب للأعمال ، ولذلك إذا ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال في نفسه كبر . فالأصل هو الخلق الذي في النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس على المتكبر عليه ، فإن الكبر يستدعي متكبراً عليه ومتكبراً به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب . فإنّ العجب لا يستدعي غير المعجب بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده تصوّر أن يكون معجباً ، ولا يتصوّر أن يكون متكبراً إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال ، فعند ذلك يكون متكبراً ، فيحصل في قلبه اعتداد وهزة وفرح وركون إلى ما اعتقده وعز في نفسه بسبب ذلك،فتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة [في النفس] هو خلق الكبر. فكأن الإنسان مهما رأى نفسه بهذه العين ـ وهو الاستعظام ـ كبر وانتفخ وتعزّز . فالكبر عبارة عن الحالة الحاصلة في النفس من هذه الاعتقادات ، وتسمى أيضاً عزة وتعظماً ، ولذلك قال ابن عباس في قوله تعالى : ﴿ **إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه** ﴾ (غافر : ٥٦) قال عظمة لم يبلغوها ، ففسر الكبر بتلك العظمة . ثم هذه العزة تقتضي أعمالاً في الظاهر والباطن هي ثمرات ويسمى ذلك تكبراً ، فإنه مهما عظم عنده قدره بالإضافة إلى غيره حقر مَنْ دونه وازدراه وأقصاه عن نفسه وأبعده وترفع عن مجالسته ومؤاكلته ، ورأى أن حقه أن يقوم ماثلاً بين يديه إن اشتدّ كبره ، فإن كان أشدّ من ذلك استنكف عن استخدامه ولم يجعله أهلاً للقيام بين يديه ولا بخدمة عتبته ، فإن كان دون ذلك أنف من مساواته وتقدّم عليه في مضايق الطرق وارتفع عليه في المحافل وانتظر أن يبدأه بالسلام واستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتعجب منه ، وإن حاجّ أو ناظر أنف أن يردّ عليه وإن وُعِظ استنكف من القبول ، وإن وَعَظَ عنّف في النصح ، وإن رُدّ عليه شيء من قوله غضب وإن علّم لم يرفق بالمتعلمين واستذلّهم وانتهرهم وامتنّ عليهم واستخدمهم ، وينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً لهم واستحقاراً . والأعمال الصادرة عن خلق الكبر كثيرة وهي أكثر من أن تحصى فلا حاجة إلى تعدادها فإنها مشهورة . فهذا هو الكبر وآفته عظيمة وغائلته هائلة ، وفيه يهلك الخواص من الخلق ، وقلما ينفك عنه العباد والزهاد والعلماء فضلاً عن عوام الخلق ، وكيف لا تعظم آفته وقد قال ﷺ في الحديث

الصحيح : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كبر » ؟ وإنما صار حجاباً دون الجنة لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها ، وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة ، والكبر وعزة النفس يغلق تلك الأبواب كلها ، لأنه لا يقدر على أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه وفيه شيء من العز ، ولا يقدر على التواضع وهو رأس أخلاق المتقين وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحقد وفيه العز ، ولا يقدر أن يدوم على الصدق وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الغضب وفيه العز ، ولا يقدر على كظم الغيظ وفيه العز ، ولا يقدر على ترك الحسد وفيه العز ، ولا يقدر على النصح اللطيف وفيه العز ، ولا يقدر على قبول النصح وفيه العز ، ولا يسلم من الازدراء بالناس ومن اغتيابهم وفيه العز ، ولا معنى للتطويل فما من خلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ عزه في زعمه ، وما من خلق محمود إلا وهو عاجز عنه خوفاً من أن يفوته عزه ، فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه . والأخلاق الذمية متلازمة والبعض منها داع إلى البعض لا محالة . وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق والانقياد له وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين قال الله تعالى : ﴿ **والملائكة باسطوا أيديهم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وكنتم عن آياته تستكبرون** ﴾ (الأنعام : ٩٣) ثم قال : ﴿ **ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين** ﴾ (الزمر : ٧٢) ثم أخبر أن أشدّ أهل النار عذاباً أشدّهم عتيّاً على الله تعالى فقال : ﴿ **ثم لننزعن من كل شيعة أيهم أشد على الرحمن عِتِياً** ﴾ (مريم : ٦٩) وقال تعالى : ﴿ **فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون** ﴾ (النحل : ٢٢) وقال عز وجل : ﴿ **يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين** ﴾ (سبأ : ٣١) وقال تعالى : ﴿ **إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ (غافر : ٦٠) وقال تعالى : ﴿ **سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق** ﴾ (الأعراف : ١٤٦) قيل في التفسير : سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم ، وفي بعض التفاسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت . وقال ابن جريج : سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا بها .

ولذلك ذكر رسول الله ﷺ جحود الحق في حد الكبر والكشف عن حقيقته وقال : « من سفه الحق وغمص الناس »[١] .

---

(١) حديث الكبر « بطر الحق وغمط الناس » أخرجه مسلم ، ورواه الترمذي وقال : حسن صحيح ، ورواه أحمد من حديث عقبة بن عامر بلفظ المصنف ورواه البيهقي .

بيان المتكبر عليه ودرجات الكبر وأقسامه

اعلم أنّ المتكبر عليه هو الله تعالى أو رسله أو سائر خلقه ، وقد خلق الإنسان ظلوماً جهولاً ، فتارة يتكبر على الخلق وتارة يتكبر على الخالق ، فإذن التكبر باعتبار المتكبر عليه ثلاثة أقسام :

الأوّل : التكبر على الله ؛ وذلك هو أفحش أنواع الكبر ، ولا مثار له إلا الجهل المحض والطغيان مثل ما كان من نمرود ، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة . بل ما يحكى عن كل من ادعى الربوبية مثل فرعون وغيره ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى ، إذ استنكف أن يكون عبداً لله ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **إنّ الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ (فاطر : ٦٠) وقال تعالى : ﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون** ﴾ (النساء : ١٧٠) الآية ، وقال تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً** ﴾ (الفرقان : ٦٠) .

القسم الثاني : التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ؛ وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد وهو ظانّ أنه محق فيه ،وتارة يمتنع مع المعرفة ولكن لا تطاوعه نفسه للانقياد للحق والتواضع للرسل ، كما حكى الله قولهم : ﴿ **أنؤمن لبشرين مثلنا** ﴾ (المؤمنون : ٤٧) وقولهم : ﴿ **إن أنتم إلا بشر مثلنا** ﴾ (يس : ١٥) ﴿ **ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذاً لخاسرون** ﴾ (المؤمنون : ٣٤) ﴿ **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً** ﴾ (الفرقان : ٢١) ﴿ **وقالوا لولا أنزل عليه ملك** ﴾ (الأنعام : ٨) وقال فرعون فيما أخبر الله عنه : ﴿ **أو جاء معه الملائكة مقترنين** ﴾ (الزخرف : ٥٣) وقال الله تعالى : ﴿ **واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق** ﴾ (القصص : ٣٩) فتكبر فرعون على الله وعلى رسله جميعاً .

وقالت قريش فيما أخبر الله تعالى عنهم : ﴿ **لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم** ﴾ (الزخرف : ٣١) قال قتادة : عظيما القريتين هما الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفي ، طلبوا من هو أعظم رياسة من النبي ﷺ إذ قالوا : غلام يتيم كيف بعثه الله إلينا ؟

فقال تعالى : ﴿ **أهم يقسمون رحمة ربك** ﴾ (الزخرف : ٣٢) وقال الله تعالى : ﴿ **ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا** ﴾ (الأنعام : ٥٣) أي استحقاراً لهم واستبعاداً لتقدمهم . وقالت قريش لرسول الله ﷺ : كيف نجلس إليك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين فازدروهم بأعينهم لفقرهم ، وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ما عليك من حسابهم** ﴾ (الأنعام : ٥٢) وقال تعالى : ﴿ **واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا** ﴾ (الكهف : ٢٨) ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا : ﴿ **ما لنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار** ﴾ (صٓ : ٦٢) قيل يعنون عماراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رضي الله عنهم ، ثم كان منهم من منعه الكبر عن الفكر والمعرفة فجهل كونه ﷺ محقاً ، ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف قال الله تعالى مخبراً عنهم : ﴿ **فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به** ﴾ (البقرة : ٨٩) وقال : ﴿ **وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوّاً** ﴾ (النمل : ١٤) وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه ، ولكنه تكبر على قبول أمر الله والتواضع لرسوله ﷺ .

القسم الثالث : التكبر على العباد ؛ وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه عن الانقياد لهم وتدعوه إلى الترفع عليهم فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف عن مساواتهم ، وهذا وإن كان دون الأول والثاني فهو أيضاً عظيم من وجهين ؛ أحدهما : أن الكبر والعز والعظمة والعلاء لا يليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء فمن أين يليق بحاله الكبر ؟ فمها تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله ، وإلى هذا المعنى الإشارة بقوله تعالى في الحديث القدسي الصحيح : « العظمة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني فيهما قصمته » أي إنه خاص صفتي ولا يليق إلا بي ، والمنازع فيه منازع في صفة من صفاتي ، فالخلق كلهم عباد الله وله العظمة والكبرياء عليهم ، فمن تكبر على عبد من عباد الله فقد نازع الله في حقه . نعم الفرق بين هذه المنازعة وبين منازعة نمروذ وفرعون هو الفرق بين منازعة الملك في استصغار بعض عبيده واستخدامهم وبين منزاعته في أصل الملك .

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه ، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال . وجماع ذلك يرجع إلى كمال ديني أو دنيوي ، فالديني هو العلم والعمل ، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار . فهذه سبعة أسباب .

الأوّل : العلم ؛ وما أسرع الكبر إلى العلماء فلا يلبث العالم أن يتعزز بعزة العلم يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس .

ويستجهلهم ويتوقع أن يبدءوه بالسلام ، فإن بدأ واحداً منهم بالسلام أو ردّ عليه ببشر أو قام له أو أجاب له دعوة رأى ذلك صنيعة عنده ويداً عليه يلزمه شكرها ، واعتقد أنه أكرمهم وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله ، وأنه ينبغي أن يرقوا له ويخدموه شكراً له على صنيعه ، بل الغالب أنهم يبرونه فلا يبرهم ويزورونه فلا يزورهم ويعودونه فلا يعودهم ويستخدم من خالطه منهم ويسخّره في حوائجه ، فإن قصر فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه ، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم ومعروف لديهم واستحقاق حق عليهم ، هذا فيما يتعلق بالدنيا . أما في أمر الآخرة فتكبره عليهم بأن يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم ، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم ، وهذا بأن يسمى جاهلاً أولى من أن يسمى عالماً ، بل العلم الحقيقي هو الذي يعرف الإنسان به نفسه وربه وخطر الخاتمة وحجة الله على العلماء وعظم خطر العلم فيه .

فإن قلت : فما بال بعض الناس يزداد بالعلم كبراً وأمناً ؟

فاعلم أن لذلك سببين : (**أحدهما**) أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً وليس علماً حقيقياً ، وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه ، وخطر أمره في لقاء الله والحجاب منه ، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر والأمن . قال الله تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (فاطر : ٢٨) .

(**السبب الثاني**) أن يخوض العبد في العلم وهو خبيث الدخيلة رديء النفس سيء

الأخلاق ، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات ولم يرض نفسه في عبادة ربه فبقي خبيث الجوهر ، فإذا خاض في العلم ـ أي علم كان ـ صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره .

وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً ، وإذا كان الرجل خائفاً مع جهله فازداد علماً علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً وإشفاقاً وذلاً وتواضعاً . فالعلم من أعظم ما يتكبر به ؛ ولذلك قال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام : ﴿ **واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين** ﴾ (الشعراء : ٢١٥) وقال عز وجل : ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ووصف أولياءه فقال : ﴿ **أذلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين** ﴾ (المائدة : ٥٤) .

الثاني : العمل والعبادة ، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلب الناس الزهاد والعباد ويترشح الكبر منهم في الدين والدنيا .

(أما في الدنيا) فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منهم بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حوائجهم وتوقيرهم والتوسع لهم في المجالس وذكرهم بالورع والتقوى وتقديمهم على سائر الناس في الحظوظ ـ إلى جميع ما ذكرناه في حق العلماء ـ وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق .

(وأما في الدين) فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً وهو الهالك تحقيقاً ـ مهما رأى ذلك ـ قال ﷺ : « إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس هو أهلكهم »[١] وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله مغترّ بالله آمن من مكره غير خائف من سطوته ، وكيف لا يخاف ؟ ويكفيه شراً احتقاره لغيره . قال ﷺ : « كفى بالمرء شراً أن يحقر أخاه المسلم »[٢] وكم من الفرق بينه وبين من يحبه لله ويعظمه لعبادته ويستعظمه ويرجو له ما لا يرجوه نفسه ، فالخلق يدركون النجاة بتعظيمهم إياه لله ، فهم يتقربون إلى الله تعالى بالدنو منه وهو يتمقت إلى الله بالتنزه والتباعد منهم ، كأنه مترفع عن مجالستهم ، فما أجدرهم إذا

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

أحبوه لصلاحه أن ينقلهم الله إلى درجته في العمل ! وما أجدره إذا ازدراهم بعينه أن ينقله الله إلى حد الإهمال .

الثالث : التكبر بالحسب والنسب ، فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس له ذلك النسب وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً ، وقد يتكبر بعضهم فيرى أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم ، وثمرته على اللسان التفاخر به وذلك عرق دفين في النفس لا ينفك عنه نسيب وإن كان صالحاً وعاقلاً ، إلا أنه قد لا يترشح منه ذلك عند اعتدال الأحوال ، فإن غلبه غضب أطفأ ذلك نور بصيرته وترشح منه كما روي عن أبي ذر أنه قال : قاولت رجلاً عند النبي ﷺ فقلت له : يا ابن السوداء ! فقال النبي ﷺ : « يا أبا ذر طف الصاع طف الصاع ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل »[١] فقال أبو ذر رحمه الله : فاضطجعت وقلت للرجل قم فطأ على خدي . فانظر كيف نبهه رسول الله ﷺ أنه رأى لنفسه فضلاً بكونه ابن بيضاء وأن ذلك خطأ وجهل ؟ وانظر كيف تاب وقلع من نفسه شجرة الكبر بأخمص قدم من تكبر عليه إذ عرف أن العز لا يقمعه إلا الذل ؟ ومن ذلك ما روي أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ فقال أحدهما للآخر : أنا فلان بن فلان فمن أنت لا أم لك ؟ فقال النبي ﷺ : « افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما : أنا فلان بن فلان حتى عد تسعة فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام قل للذي افتخر بل التسعة من أهل النار وأنت عاشرهم »[٢] وقال رسول الله ﷺ : « ليدعن قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحماً في جهنم أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التي تذدرف بآنافها القذر »[٣] .

الرابع : التفاخر بالجمال وذلك أكثر ما يجري بين النساء يدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس ومن ذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها في حديث صحيح أنها قالت : دخلت امرأة على النبي ﷺ فقلت بيدي هكذا أي أنها قصيرة فقال النبي ﷺ : « قد اغتبتها » وهذا منشؤه خفاء الكبر لأنها لو كانت أيضاً قصيرة لما ذكرتها بالقصر ، فكأنها أعجبت

---

(١) أخرجه ابن المبارك ولأحمد من حديث أن النبي ﷺ قال له : « انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى » .

(٢) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند بإسناد صحيح ورواه أحمد موقوفاً على معاذ بقصة موسى فقط .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن حبان .

بقامتها واستقصرت المرأة في جنب نفسها فقالت ما قالت .

الخامس : الكبر بالمال ، وذلك يجري بين الملوك في خزائنهم وبين التجار في بضائعهم وبين الدهاقين في أراضيهم وبين المتجملين في لباسهم وخيولهم ومراكبهم ، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه ويقول له : أنت مكد ومسكين وأنا لو أردت لاشتريت مثلك واستخدمت من هو فوقك ، ومن أنت ؟ وما معك وأثاث بيتي يساوي أكثر من جميع مالك ؟ وأنا أنفق في اليوم ما لا تأكله في سنة ، وكل ذلك لاستعظامه للغنى واستحقاره للفقر ، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغنى ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً** ﴾ (الكهف : ٣٤) حتى أجابه فقال : ﴿ **إن ترني أنا أقل منك مالا وولداً * فعسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقا * أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً** ﴾ (الكهف : ٣٩ ـ ٤١) وكان ذلك منه تكبراً بالمال والولد ، ثم بين الله عاقبة أمره بقوله : ﴿ **يا ليتني لم أشرك بربي أحداً** ﴾ (الكهف : ٤٢) ومن ذلك تكبر قارون إذ قال تعالى إخباراً عن تكبره : ﴿ **فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم** ﴾ (القصص : ٧٩) .

السادس : الكبر بالقوة وشدة البطش والتكبر به على أهل الضعف .

السابع : التكبر بالأتباع والأنصار والتلامذة والغلمان وبالعشيرة والأقارب والبنين ، ويجري ذلك بين الملوك في المكاثرة بالجنود ، وبين العلماء في المكاثرة بالمستفيدين .

وبالجملة فكل ما هو نعمة وأمكن أن يعتقد كمالا وإن لم يكن في نفسه كمالا أمكن أن يتكبر به ، حتى إن المخنث ليتكبر على أقرانه بزيادة معرفته وقدرته في صنعة المخنثين ، لأنه يرى ذلك كمالا فيفتخر به وإن لم يكن فعله إلا نكالاً وكذلك الفاسق قد يفتخر بكثرة الشرب وكثرة الفجور بالنسوان والغلمان ويتكبر به لظنه أن ذلك كمال وإن كان مخطئاً فيه . فهذه مجامع ما يتكبر به العباد بعضهم على بعض ، فيتكبر من يدلي بشيء منه على من لا يدلي به ، أو على من يدلي بما هو دونه في اعتقاده . وربما كان مثله أو فوقه عند الله تعالى ، كالعالم الذي يتكبر بعلمه على من هو أعلم منه لظنه أنه هو الأعلم ولحسن اعتقاده في نفسه . فنسأل الله العون بلطفه ورحمته إنه على كل شيء قدير .

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن التكبر يظهر في شمائل الرجل ، كصعر في وجهه أو شزر في نظره أو إطراقه رأسه وجلوسه متربعاً أو متكئاً وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد ، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته ، وفي تعاطيه لأفعاله وفي سائر تقلباته في أحواله وأقواله وأعماله . فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض .

فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه . وقد قال عليّ كرم الله وجهه : من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى رجل قاعد وبين يديه قوم قيام . وقال أنس : لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله ﷺ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له لما يعلمون من كراهته لذلك[1] .

ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره ويمشي خلفه . قال أبو الدرداء : لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما مشي خلفه ، وكان عبد الرحمن بن عوف لا يُعرف من عبيده ، إذ كان لا يتميّز عنهم في صورة ظاهرة . ومشى قوم خلف الحسن البصري فمنعهم وقال : ما يبقي هذا من قلب العبد ؟

ومنها أن لا يزور غيره وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضدّ التواضع . روي أن سفيان الثوري قدم الرملة فبعث إليه إبراهيم بن أدهم : أن تعال فحدثنا ، فجاء سفيان فقيل له : يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا ؟ فقال : أردت أن أنظر كيف تواضعه ؟

ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه . قال ابن وهب : جلست إلى عبد العزيز بن أبي روّاد فمسّ فخذي فخذه فنحيت نفسي عنه فأخذ ثيابي فجرني إلى نفسه وقال لي : لم تفعلون بي ما تفعلون بالجبابرة وإني لا أعرف رجلاً منكم شراً مني ؟

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه .

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما لا يحبس عن طعامه مجذوماً ولا أبرص ولا مبتلى إلا أقعدهم على مائدته .

ومنها أن لا يتعاطى بيده شغلاً في بيته ، والتواضع خلافه ؛ روي أن عمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف وكان يكتب فكاد السراج يطفأ ، فقال الضيف : أقوم إلى المصباح فأصلحه ؟ فقال : ليس من كرم الرجل أن يستخدم ضيفه ، قال : أفأنبه الغلام ؟ فقال : هي أوّل نومة نامها ، فقام وأخذ البطة وملأ المصباح زيتاً فقال الضيف : قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ذهبت وأنا عمر ورجعت وأنا عمر ما نقص مني شيء ! وخير الناس من كان عند الله متواضعاً .

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته ، وهو خلاف عادة المتواضعين ، كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك[١] وقال عليّ كرم الله وجهه : لا ينقص الرجل الكامل من كاله ما حمل من شيء إلى عياله . وكان أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير يحمل سطلاً له من خشب إلى الحمام . وقال ثابت بن أبي مالك : رأيت أبا هريرة أقبل من السوق يحمل حزمة حطب وهو يومئذ خليفة لمروان ، فقال : أوسع الطريق للأمير يا ابن أبي مالك ! وعن الأصبغ بن نباتة قال : كأني أنظر إلى عمر رضي الله عنه معلقاً لحماً في يده اليسرى وفي يده اليمنى الدرة ، يدور في الأسواق حتى دخل رحله . وقال بعضهم : رأيت علياً رضي الله عنه قد اشترى لحماً بدرهم فحمله في ملحفته ، فقلت له : أحمل عنك يا أمير المؤمنين ! فقال : لا ، أبو العيال أحق أن يحمل .

ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر والتواضع وقد قال النبي ﷺ : « البذاذة من الإيمان »[٢] فقال هٰرون : سألت معناً عن البذاذة فقال : هو الدون من اللباس . وقال زيد بن وهب : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى السوق وبيده الدرة وعليه إزار فيه أربع عشرة رقعة بعضها من أدم ، وعوتب عليّ كرم الله وجهه في إزار مرقوع فقال : يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب . ويروى أنّ عمر بن عبد العزيز رحمه الله كان قبل أن يستخلف تشترى له الحلة بألف دينار فيقول : ما أجودها لولا خشونة فيها ؛ فلما استخلف كان يشترى له الثوب

---

(١) أخرجه أبو يعلى .

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه .

بخمسة دراهم فيقول ما أجوده لولا لينه ! فقيل له : أين لباسك ومركبك وعطرك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : إن لي نفساً ذوّاقة وإنها لم تذق من الدنيا طبقة إلا تاقت إلى الطبقة التي فوقها ، حتى إذا ذاقت الخلافة وهي أرفع الطبقات تاقت إلى ما عند الله عز وجل . وقال سعيد بن سويد : صلى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثم جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين إن الله قد أعطاك فلو لبست ؟ فنكس رأسه ملياً ثم رفع رأسه فقال : إن أفضل القصد عند الجدة وإن أفضل العفو عند القدرة .

وسئل نبينا ﷺ عن الجمال في الثياب هل هو من الكبر فقال : « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[1] فكيف طريق الجمع بينهما ؟ فاعلم أنّ الثوب الجديد ليس من ضرورته أن يكون من التكبر في حق كل أحد في كل حال ، وهو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ وهو الذي عرفه رسول الله ﷺ من حال ثابت بن قيس إذ قال : إني امرؤ حبب إليّ من الجمال ما ترى[2] فعرف أنّ ميله إلى النظافة وجودة الثياب لا ليتكبر على غيره ، فإنه ليس من ضرورته أن يكون من الكبر ، وقد يكون ذلك من الكبر كما أنّ الرضا بالثوب الدون قد يكون من التواضع . وعلامة المتكبر أن يطلب التجمل إذا رآه الناس ولا يبالي إذا انفرد بنفسه كيف كان . وعلامة طالب الجمال أن يحبّ الجمال في كل شيء ولو في خلوته وحتى في ستور داره ، فذلك ليس من التكبر .

وقول نبينا ﷺ : « إنه ليس من الكبر » يعني أنّ الكبر لا يوجبه ، ويجوز أن لا يوجبه الكبر ثم يكون هو مورّثاً للكبر . وبالجملة فالأحوال تختلف في مثل هذا والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة . وقد قال ﷺ : « كلوا واشربوا والبسوا وتصدّقوا في غير سرف ولا مخيلة »[3] . « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده »[4] .

ومن التواضع أن يتواضع بالاحتمال إذا سب وأوذي وأخذ حقه ، فذلك هو الأصل . وبالجملة

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) صحيح . وهو في الحديث السابق .

(٣) أخرجه النسائي وابن ماجه .

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه .

فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي ﷺ . فبه ينبغي أن يقتدى ومنه ينبغي أن يتعلم .

بيان الطرق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم أن الكبر من المهلكات ولا يخلو أحد من الخلق عن شيء منه ، وإزالته فرض عين ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة واستعمال الأدوية القامعة له . وفي معالجته مقامان (**أحدهما**) استئصال أصله من سنخه وقلع شجرته من مغرسها في القلب . (**الثاني**) دفع العارض منه بالأسباب الخاصة التي بها يتكبر الإنسان على غيره .

(**المقام الأول**) في استئصال أصله ، وعلاجه علمي وعملي ، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعهما :

أما العلمي : فهو أن يعرف نفسه ويعرف ربه تعالى ويكفيه ذلك في إزالة الكبر ، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة علم أنه أذل من كل ذليل وأقل من كل قليل ، وأنه لا يليق به إلا التواضع والذلة والمهانة ، وإذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا لله .

وأما العلاج العملي : فهو التواضع لله بالفعل ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين ، من أحوال الصالحين ومن أحوال رسول الله ﷺ حتى إنه كان يأكل على الأرض ويقول : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد » وقيل لسلمان: لم لا تلبس ثوباً جديداً؟ فقال: إنما أنا عبد فإذا أعتقت يوماً لبست جديداً أشار به إلى العتق في الآخرة . ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل ، ولذلك أمر العرب الذين تكبروا على الله ورسوله بالإيمان وبالصلاة جميعاً ، وقيل الصلاة عماد الدين ، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً ، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً وبالركوع والسجود ، إلا أن النفس قد تضمر التواضع وتدّعي البراءة من الكبر وهي كاذبة ، فعلى هذا ينبغي أن تكمّل بالعمل وتجرّب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر في النفس .

وبيانه أن يمتحن النفس بخمس امتحانات هي أدلة على استخراج ما في الباطن وإن كانت الامتحانات كثيرة :

الامتحان الأوّل : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه فإن ظهر شيء من الحق على

لسان صاحبه فثقل عليه قبوله والانقياد له والاعتراف به والشكر له على تنبيهه وتعريفه وإخراجه الحق ، فذلك يدل على أن فيه كبراً دفيناً فليتق الله فيه ويشتغل بعلاجه ؛ أما من حيث العلم فبأن يذكّر نفسه خسة نفسه وخطر عاقبته وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى . وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ويشكره على الاستفادة ويقول : ما أحسن ما فطنت له وقد كنت غافلاً عنه فجزاك الله خيراً كما نبهتني له ! فالحكمة ضالة المؤمن فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دلّه عليها . فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه وطاب له قبوله ومهما ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ففيه كبر ، فإن كان ذلك لا يثقل عليه في الخلوة ويثقل عليه في الملأ فليس فيه كبر وإنما فيه رياء ، وإن ثقل عليه في الخلوة والملأ جميعاً ففيه الكبر والرياء جميعاً ، ولا ينفعه الخلاص من أحدهما ما لم يتخلص من الثاني . فليعالج كلا الداءين فإنهما جميعاً مهلكان .

الامتحان الثاني : أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ويقدمهم على نفسه ويمشي خلفهم ويجلس في الصدور تحتهم ، فإن ثقل عليه ذلك فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله فبذلك يزايله الكبر وههنا للشيطان مكيدة وهو أن يجلس في صف النعال أو يجعل بينه وبين الأقران بعض الأرذال فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على صدور المتكبرين إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بينهم بجنبهم ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن .

الامتحان الثالث : أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ليس إلا لخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر .

الامتحان الرابع : أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء ، فإن كان يثقل ذلك عليه مع خلوّ الطريق فهو كبر ، وإن كان لا يثقل عليه إلا مع مشاهدة الناس فهو رياء ، وكل ذلك من أمراض القلب وعلله

المهلكة له إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تدرك السعادة إلا بسلامتها إذ قال تعالى : ﴿ **إلا من أتى الله بقلب سليم** ﴾ (الشعراء : ٨٩) ويروى عن عبد الله بن سلام أنه حمل حزمة حطب فقيل له : يا أبا يوسف قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفيك ! قال : أجل ولكن أردت أن أجرب نفسي هل تنكر ذلك ؟ فلم يقنع منها بما أعطته من العزم على ترك الأنفة حتى جرّبها أهي صادقة أم كاذبة ؟

الامتحان الخامس : أن يلبس ثياباً بذلة ، فإن نفور النفس عن ذلك في الملأ رياء وفي الخلوة كبر . وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه له مسح يلبسه بالليل ، وروي أنّ أبا موسى الأشعري قيل له : إنّ أقواماً يتخلفون عن الجمعة بسبب ثيابهم ، فلبس عباءة فصلى فيها بالناس . وهذه مواضع يجتمع فيها الرياء والكبر فما يختص بالملأ فهو الرياء ، وما يكون في الخلوة فهو الكبر ، فاعرف فإن من لا يعرف الشر لا يتقيه ، ومن لا يدرك المرض لا يداويه .

الفقرة السابعة : في الشحّ

[مرّ معنا من قبل أنّ الشحّ من الأمراض التي تستحيل معها الألفة والحياة الجماعية والتعاون فتستساغ بسببها العزلة ، أرأيت لو أنّ كل إنسان ضنّ بوقته وماله وما يمتلك فإلى أيّ حد تبقى معاني التعاون والإيثار والبذل والتضحية والأريحيّات والمروءات والعطف والمودّة والمحبّة والحنان ، وإلى أي حدّ يغاث مستغيث ، أو يفرّج كرب عن مكروب ، أو يتجاوب مع ملهوف ، وأي حيوية للعلاقات تبقى بين أخ وأخ وبين جار وجار وبين قريب وقريب .

ثم إذا جفّ الخير من القلوب وعمّ الشح فمن يجرؤ على الإقدام على مشروع خيري أو مشروع من مشاريع الخدمة .

ثم إذا عمّ الشح فكيف يقوم جهاد أو تكون مواساة أو تقوم دولة . وكم من الناس وقتذاك سيموتون جوعاً وعطشاً وكمداً ، فالعاجز من يقوم بأوده ؟ والصغير من يعوله ؟ والكبير من يعطف عليه ؟ إنه عندما يعمّ البخل تتردّد المرأة في القيام بواجبات الأمومة ويتردّد الرجل في القيام بواجبات الزوجية .

وتصوّر كيف تكون الحياة البشرية بعد ذلك . إنه كلما استطاع إنسان أن يتغلب على

شحّه توجد في الحياة البشرية دائرة من الخير ، وكلّما عمّت هذه الظاهرة كثر الخير وعمّ ، ولذلك كثر في الكتاب والسنّة الحض على الإنفاق الخالص ، حتى إنّ القرآن في أكثر من مقام ربط بين الإنفاق وزكاة النفس . قال تعالى : ﴿ **الذي يؤتي ماله يتزكّى** ﴾ (الليل : ١٨) وقال : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحد أبداً ولكنّ الله يزكّي من يشاء** ﴾ (النور : ٢١) كانت هذه الآية مقدمة لقوله تعالى : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسّعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبّون أن يغفر الله لكم** ﴾ (النور : ٢٢) .

ومعالجة أمر الشح ليست سهلة فالله عز وجل جعل الشح ملازماً للنفس ، امتحاناً للإنسان ، وتأمّل هذا التعبير المعجز : ﴿ **وأحضرت الأنفس الشح** ﴾ (النساء : ١٢٨) فالشح ملازم للنفس حاضر دائماً وأبداً يحاول أن يحول بينها وبين البذل ، فإذا ما أرادت أن تتصدّق بأدنى شيء دافع الشح صاحبه وإذا أرادت أن تبذل أي شيء دافع الشح صاحبه .

لذلك نجد آيات الإنفاق في القرآن تسبق أو تلحق أو تتخلّل بمعان مُعينة عليه وأحياناً يجتمع ذلك كلّه لتندفع هذه النفس نحو البذل متحررة من الشح ، وقد أوضحنا في التفسير مثل هذه المعاني ، وإذ كان أظهر ما يظهر فيه الشحّ المال ، فسيكون هو محل الكلام في هذا البحث .

وهذه مختارات من كلام الغزالي وهو يحاول علاج هذا الداء الخطير . قال رحمه الله] :

بيان ذم البخل

قال الله تعالى : ﴿ **ومن يوق شح نفسه فأولٰئك هم المفلحون** ﴾ (الحشر : ٩) وقال تعالى : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة** ﴾ (آل عمران : ١٨٠) وقال تعالى : ﴿ **الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله** ﴾ (النساء : ٣٧) وقال ﷺ : « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم »[1] وقال ﷺ : « إياكم والشح فإنه دعا من كان قبلكم فسفكوا دماءهم ودعاهم فاستحلوا

---

(١) أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو « إياكم والشح فإنما =

محارمهم ودعاهم فقطّعوا أرحامهم »[١] وقال ﷺ : « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيء الملكة »[٢] وفي رواية « ولا جبار » وفي رواية « ولا منان » وقال ﷺ : « ثلاث مهلكات : شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه » وقال ﷺ : « مثل المنفق والبخيل كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من لدن ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق شيئاً إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفي بنانه ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا قلصت ولزمت كل حلقة مكانها حتى أخذت بتراقيه فهو يوسعها ولا تتسع »[٣] وقال ﷺ : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق »[٤] وقال ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أردّ إلى أرذل العمر »[٥] وقال ﷺ : « إياكم والظلم فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة ، وإياكم والفحش إن الله لا يحب الفاحش ولا المتفحش ، وإياكم والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح أمرهم بالكذب فكذبوا وأمرهم بالظلم فظلموا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا »[٦] وقال ﷺ : « شر ما في الرجل شح هالع وجبن خالع »[٧] .

وقال جبير بن مطعم : بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ ومعه الناس مقفلة من خيبر إذ علقت برسول الله ﷺ الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف ﷺ فقال : « أعطوني ردائي فوالذي نفسي بيده لو كان لي عدد هذه العضاه نعما لقسمته بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً »[٨] وقال عمر رضي الله عنه : قسم رسول الله ﷺ قسما فقلت غير هؤلاء كان أحق به منهم ؟ فقال : « إنهم يخيروني بين أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ولست بباخل »[٩] وقال أبو سعيد الخدري : دخل رجلان على رسول الله ﷺ فسألاه

= هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا » .

(١) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وحسنه .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه الترمذي .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) أخرجه الحاكم وأبو داود ولمسلم من حديث جابر « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح » .

(٧) أخرجه أبو داود من حديث جابر بسند جيد .

(٨) أخرجه البخاري .

(٩) أخرجه مسلم .

ثمن بعير فأعطاهما دينارين ؛ فخرجا من عنده فلقيهما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فأثنيا وقالا معروفاً وشكراً ما صنع بهما ، فدخل عمر على رسول الله ﷺ فأخبره بما قالا . فقال ﷺ : « لكن فلان أعطيته ما بين عشرة إلى مائة ولم يقل ذلك . إن أحدكم ليسألني فينطلق في مسألته متأبطها وهي نار » فقال عمر : فلم تعطهم ما هو نار ؟ فقال : « يأبون إلا أن يسألوني ويأبى الله لي البخل »[١] .

وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ لوفد بني لحيان : « من سيدكم يا بني لحيان ؟ » قالوا : سيدنا جدّ بن قيس إلا أنه رجل فيه بخل ، فقال ﷺ : « وأي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو بن الجموح »[٢] وفي رواية أنهم قالوا : سيدنا جدّ بن قيس ، فقال : « بم تسودونه ؟ » قالوا : إنه أكثر مالاً وإنّا على ذلك لنرى منه البخل ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وأي داء أدوأ من البخل ليس ذلك سيدكم » قالوا : فمن سيدنا يا رسول الله ؟ قال : « سيدكم بشر بن البراء » .

وقال أيضاً : « خصلتان لا تجتمعان في مؤمن البخل وسوء الخلق »[٣] .

قالت أم البنين أخت عمر بن عبد العزيز : أف للبخيل لو كان البخيل قميصاً ما لبسته ولو كان طريقاً ما سلكته . وقال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه : إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء لكننا نتصبر .

وقال عبد الله بن عمرو : الشح أشد من البخل لأن الشحيح هو الذي يشح على ما في يد غيره حتى يأخذه ويشح بما في يده فيحبسه ، والبخيل هو الذي يبخل بما في يده .

وقال الأصمعي : سمعت أعرابياً وقد وصف رجلاً فقال : لقد صغر فلان في عيني لعظم الدنيا في عينه ، وكأنما يرى السائل ملك الموت إذا أتاه . وقال أبو حنيفة رحمه الله : لا أرى أن أُعدّل بخيلاً لأن البخل يحمله على الاستقصاء فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن ، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة . وقال عليّ كرم الله وجهه : والله ما استقصى كريم قط حقه .

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى والبزار وأسانيدهم ثقات .

(٢) أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط مسلم بلفظ « يا بني سلمة » وقال سيدكم « بشر بن البراء » وأما الرواية التي قال فيها : « سيدكم عمرو بن الجموح » فرواها الطبراني في الصغير من حديث كعب بن مالك بإسناد حسن .

(٣) أخرجه الترمذي .

قال الله تعالى : ﴿ **عرّف بعضه وأعرض عن بعض** ﴾ (التحريم : ٣) .

وقال يحي بن معاذ : ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاراً ، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بماله أجودهم بعرضه .

بيان الإيثار وفضله

اعلم أن السخاء والبخل كل منهما ينقسم إلى درجات . فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة.وإنما السخاء عبارة عن بذل ما لا يحتاج إليه أو لغير محتاج، والبذل مع الحاجة أشدّ . وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يمسك المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن ؛ ولو وجدها مجاناً لأكلها . فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ، وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه . فانظر ما بين الرجلين ؟ فإن الأخلاق عطايا يضعها الله حيث يشاء وليس بعد الإيثار درجة في السخاء وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم فقال : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾ (الحشر : ٩) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا كنا نؤثر على أنفسنا »[١] ونزل برسول الله ﷺ ضيف فلم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمدّ يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل ، حتى أكل الضيف ، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ : « لقد عجب الله من صنيعكم الليلة إلى ضيفكم » ونزلت : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[٢] والإيثار أعلى درجات السخاء . وكان ذلك من أدب رسول الله ﷺ حتى سماه الله تعالى عظيماً فقال تعالى : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (القلم : ٤) .

---

(١) أخرجه البيهقي في الشعب بلفظ : ولكنه كان يؤثر على نفسه ، وأول الحديث عند مسلم بلفظ ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعاً من خبز ، حتى مضى لسبيله . وللشيخين : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة ثلاثة أيام تباعاً حتى قبض .

(٢) متفق عليه .

خرج عبد الله بن جعفر إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم وفيه غلام أسود يعمل فيه ؛ إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكلها،وعبد الله ينظر إليه فقال : ياغلام كم قوتك كل يوم ؟ قال : ما رأيت ! فلم آثرت به هذا الكلب ؟ قال : ما هي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً فكرهت أن أشبع وهو جائع قال : فما أنت صانع اليوم ؟ قال : أطوي يومي هذا فقال عبد الله بن جعفر : ألام على السخاء ! إن هذا الغلام لأسخى مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الآلات فأعتق الغلام ووهبه منه .

وعن أبي الحسن الأنطاكي : أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون نفساً ـ وكانوا في قرية بقرب الريّ ـ ولهم أرغفة معدودة لم تشبع جميعهم فكسروا الرغفان وأطفؤا السراج وجلسوا للطعام ، فلما رفع فإذا الطعام بحاله ولم يأكل أحد منه شيئاً إيثاراً لصاحبه على نفسه .

وقال عباس بن دهقان : ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها ولم يأكل منها إلا بشر بن الحرث فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة فنزع قميصه وأعطاه إياه ، واستعار ثوباً فمات فيه .

بيان حدّ السخاء والبخل وحقيقتهما

لعلك تقول : قد عرف بشواهد الشرع أن البخل من المهلكات ، ولكن ما حدّ البخل وبماذا يصير الإنسان بخيلاً ؟ وما من إنسان إلا وهو يرى نفسه سخياً وربما يراه غيره بخيلاً ، وقد يصدر فعل من إنسان فيختلف فيه الناس فيقول قوم : هذا بخل ويقول آخرون : ليس هذا من البخل . وما من إنسان إلا ويجد من نفسه حباً للمال ولأجله يحفظ المال ويمسكه ، فإن كان يصير بإمساك المال بخيلاً فإذاً لا ينفك أحد عن البخل . وإذا كان الإمساك مطلقاً لا يوجب البخل ، ولا معنى للبخل إلا الإمساك فما البخل الذي يوجب الهلاك ؟ وما حدّ السخاء الذي يستحق به العبد صفة السخاوة وثوابها ؟ فنقول : قد قال قائلون : حدّ البخل منع الواجب ، فكل من أدى ما يجب عليه فليس ببخيل ، وهذا غير كاف ؛ فإن من يرد اللحم مثلا إلى القصاب والخبز إلى الخباز بنقصان حبة أو نصف حبة فإنه يعدّ بخيلاً بالاتفاق . وكذلك من يسلّم إلى عياله القدر الذي يفرضه القاضي ثم يضايقهم في لقمة ازدادوها عليه أو تمرة أكلوها من

ماله يعدّ بخيلاً . ومن كان بين يديه رغيف فحضر من يظن أنه يـأكل معـه فـأخفـاه عنـه عـدّ بخيلاً .

أقول : إن الواجب قسمان : واجب بالشرع وواجب بالمروءة والعادة . والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة ، فـإن منـع واحـداً منهما فهـو بخيـل ، ولكن الـذي يمنـع واجب الشرع أبخل كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عيالـه وأهلـه النفقـة ، أو يؤديهـا ولكنـه يشق عليه ، فإنه بخيل بالطبع ، وإنما يتسخّى بالتكلف ، أو الذي يتيمّم الخبيث من مالـه ولا يطيب قلبه أن يعطي من أطيب ماله ، أو من وسطه ، فهذا كله بخل .

وأمـا واجب المروءة : فهو ترك المضـايقـة والاستقصـاء في المحقرات ، فـإن ذلـك مستقبـح ، واستقباح ذلك يختلف بـالأحوال والأشخـاص . فمن كثر مـالـه استقبح منـه مـا لا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة من أهله وأقاربه ومماليكه ما لا يستقبح من الأجانب ، ويستقبح من الجار ما لا يستقبح من البعيد ، ويستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يستقبح في المعاملة ، فيختلف ذلك بما فيه من المضايقة في ضيافة أو معاملة وبما به المضايقـة من طعام أو ثوب ، إذ يستقبح في الأطعمة ما لا يستقبح في غيرهـا ، ويستقبح في شراء الكفن مثلا أو شراء الأضحية أو شراء خبز الصدقة ما لا يستقبح في غيره من المضـايقـة . وكـذلـك بمن معه المضايقة من صديق أو أخ أو قريب أو زوجة أو ولـد أو أجنبي ، وبمن منـه المضـايقـة من صبي أو امرأة أو شيخ أو شاب أو عالم أو جاهل أو موسر أو فقير . فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع إمـا بحكم الشرع وإمـا بحكم المروءة ، وذلـك لا يمكن التنصيص على مقـداره . فمن أدى واجب الشرع وواجب المروءة اللائقـة بـه فقـد تبرأ من البخـل . نعم لا يتصف بصفـة الجود والسخاء ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فـإذا اتسعت نفسـه لبذل المال حيث لا يوجبه الشرع ولا تتوجه إليه الملامة في العادة فهو جواد بقدر مـا تتسـع لـه نفسه من قليل أو كثير . ودرجـات ذلـك لا تحصر وبعض النـاس أجود من بعض ، فـاصطنـاع المعروف وراء ما توجبـه العـادة والمرءوة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثنـاء فـإن من طمع في الشكر والثنـاء فهو بياع وليس بجواد ، فإنه يشتري المدح بماله والمدح لذيذ وهو مقصود في نفسه ، والجود هو بـذل الشيء من غير عوض . هذا هو الحقيقة ولا يتصوّر ذلـك إلا من الله تعـالى ، أمـا الآدمي فـاسم

الجود عليه مجاز إذ لا يبذل الشيء إلا لغرض ، ولكنه إذا لم يكن غرضه إلا الثواب في الآخرة أو اكتساب فضيلة الجود وتطهير النفس عن رذالة البخل فيسمى جواداً ، فإن كان الباعث عليه الخوف من الهجاء مثلاً أو من ملامة الخلق أو ما يتوقعه من نفع يناله من المنعم عليه فكل ذلك ليس من الجود ، لأنه مضطر إليه بهذه البواعث ، وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد ، وقالت بعض المتعبدات : أتحسبون أن السخاء في الدرهم والدينار فقط ؟ قيل ففيم ؟ قالت : السخاء عندي في المهج . وقال المحاسبي : السخاء في الدين أن تسخو بنفسك تتلفها لله عز وجل ويسخو قلبك ببذل مهجتك وإهراق دمك لله تعالى بسماحة من غير إكراه .

بيان علاج البخل

اعلم أن البخل سببه حب المال . ولحبّ المال سببان، **أحدهما**:حب الشهوات التي لاوصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن الإنسان لو علم أنه يموت بعد يوم ربما أنه كان لا يبخل بماله ، إذ القدر الذي يحتاج إليه في يوم أو في شهر أو في سنة قريب ، وإن كان قصير الأمل ولكن كان له أولاد أقام الولد مقام طول الأمل ، فإنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه فيمسك لأجلهم . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « الولد مبخلة مجبنة مجهلة »[1] فإذا انضاف إلى ذلك خوف الفقر وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة .

السبب الثاني : أن يحب عين المال ؛ فمن الناس من معه ما يكفيه لبقية عمره إذا اقتصر على ما جرت به عادته بنفقته وتفضل آلاف وهو شيخ بلا ولد ومعه أموال كثيرة ولا تسمح نفسه بإخراج الزكاة ولا بمداواة نفسه عند المرض بل صار محباً للدنانير عاشقاً لها يتلذذ بوجودها في يده وبقدرته عليها ، فيكنزها تحت الأرض وهو يعلم أنه يموت فتضيع أو يأخذها أعداؤه ، ومع هذا فلا تسمح نفسه بأن يأكل أو يتصدق منها بحبة واحدة ، وهذا مرض للقلب عظيم عسير العلاج لا سيما في كبر السن ، وهو مرض مزمن لا يرجى علاجه ، وهو غاية الضلال ، بل من رأى بينه وبين الحجر فرقاً فهو جاهل إلا من حيث قضاء حاجته به ، فالفاضل عن قدر حاجته والحجر بمثابة واحدة . فهذه أسباب حب المال . وإنما علاج كل علة بمضادة سببها ،

---

(١) ابن ماجه من حديث يعلى بن مرة دون قوله « محزنة » ورواه بهذه الزيادة أبو يعلى والبزار من حديث أبي سعيد ، والحاكم من حديث الأسود بن خلف وإسناده صحيح .

فتعالج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، وتعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ، ويعالج التفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله أحسن ممن ورث ؟ وبأن يعلم أن يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير وينقلب هو إلى شر ، وأن ولده إن كان تقياً صالحاً فالله كافيه ، وإن كان فاسقاً فيستعين بماله على المعصية وترجع مضرته إليه . ويعالج أيضاً قلبه بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم . ومن الأدوية النافعة : كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم واستقباحهم له ، فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ، ويستثقل كل بخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستثقل ومستقذر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج أيضاً قلبه بأن يتفكر في مقاصد المال ، وأنه لماذا خلق ؟ ولا يحفظ من المال إلا بقدر حاجته إليه والباقي يدخره لنفسه في الآخرة بأن يحصل له ثواب بذله . فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً ، فإن تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه ويصده عنه .

فإن علاج البخل بعلم وعمل ، فالعلم يرجع إلى معرفة آفة البخل وفائدة الجود ، والعمل يرجع إلى الجود والبذل على سبيل التكلف ، ولكن قد يقوى البخل بحيث يعمي ويصم فيمنع تحقق المعرفة فيه ، وإذا لم تتحقق المعرفة لم تتحرك الرغبة فلم يتيسر العمل فتبقى العلة مزمنة ، كالمرض الذي يمنع معرفة الدواء وإمكان استعماله فإنه لا حيلة فيه إلا الصبر إلى الموت .

بيان مجموع الوظائف التي على العبد في ماله

اعلم أن المال كما وصفناه خير من وجه وشر من وجه . ومثاله مثال حية يأخذها الراقي ويستخرج منها الترياق ، ويأخذها الغافل فيقتله سمها من حيث لا يدري ولا يخلو أحد من سم المال إلا بالمحافظة على خمس وظائف :

الأولى : أن يعرف مقصود المال وأنه لماذا خلق ولا يعطيه مِنْ همته فوق ما يستحقه .

الثانية : أن يراعي جهة دخل المال فيجتنب الحرام المحض ، وما الغالب عليه الحرام ، ويجتنب الجهات المكروهة القادحة في المروءة كالهدايا التي فيها شوائب الرشوة ، وكالسؤال الذي فيه الذلة وهتك المروءة وما يجري مجراه .

الثالثة : في المقدار الذي يكتسبه فلا يستكثر منه ولا يستقل ، بل القدر الواجب ومعياره الحاجة ، والحاجة ملبس ومسكن ومطعم . ولكل واحد ثلاث درجات : أدنى ، وأوسط ، وأعلى . ومادام مائلاً إلى جانب القلة ومتقرباً من حدّ الضرورة كان مخفاً ويجيء من جملة المخفين إلا إذا كانت له نية .

الرابعة : أن يراعي جهة المخرج ويقتصد في الإنفاق غير مبذر ولا مقتر كما ذكرناه ، فيضع ما اكتسبه من حله في حقه ولا يضعه في غير حقه ، فإن الإثم في الأخذ من غير حقه والوضع في غير حقه سواء .

الخامسة : أن يصلح نيته في الأخذ والترك والإنفاق والإمساك ، فيأخذ ما يأخذ ليستعين به على العبادة ، ويترك ما يترك زهداً فيه واستحقاراً له إذا فعل ذلك لم يضره وجود المال ، ولذلك قال عليّ رضي الله عنه : لو أنّ رجلاً أخذ جميع ما في الأرض وأراد به وجه الله تعالى فهو زاهد ، ولو أنه ترك الجميع ولم يرد به وجه الله تعالى فليس بزاهد . فلتكن جميع حركاتك وسكناتك لله مقصورة على عبادة أو ما يعين على العبادة ، فإن أبعد الحركات عن العبادة الأكل وقضاء الحاجة وهما معينان على العبادة ، فإذا كان ذلك قصدك بها صار ذلك عبادة في حقك . وكذلك ينبغي أن تكون نيتك في كل ما يحفظك من قميص وإزار وفراش وآنية ، لأن كل ذلك مما يحتاج إليه في الدين ، وما فضل من الحاجة ينبغي أن يقصد به أن ينتفع به عبد من عباد الله ولا يمنعه منه عند حاجته ، فمن فعل ذلك فهو الذي أخذ من حيّة المال جوهرها وترياقها واتقى سمها فلا تضره كثرة المال ، ولكن لا يتأتى ذلك إلا لمن رسخ في الدين قدمه وعظم فيه علمه .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثامنة : في الغرور

[أول آثار الغرور السير وراء الأوهام ، وقضاء العمر فيها ، ولأن أكثر الناس مبتلون بذلك فإنهم كثيراً ما يسيرون وراء السّراب ولا يشعرون ، قال ابن عطاء : (ما قادك شيء مثل الوهم) وما ذلك إلا أثر عن الغرور ، فقد يكون طريق أقرب من طريق إلى هدف ، وقد يكون طريق أهدى من طريق ، ولكن الغرور يجعل صاحبه بمنأى عن ذلك كلّه .

ومن آثار الغرور أن يرفض المغرور النصيحة وأن يبقى حيث هو في سلّم الغلط أو في سلّم الحياة لا ارتقاء ولا نهوض مع التلبّس بالغلط .

ولنتصوّر حياة بشرية عمّ فيها داء الغرور كيف تكون :

مجتمع هذا شأنه لا يستطيع أن يتعايش ولا أن يرتقي ، وهذا بعض ما في الأمر . ولكون الغرور داءاً متأصّلاً في النفس فقد حاول الغزالي أن يتحدّث عن كل أصناف الناس ، وأن يبيّن أنّ كلّ نوع منهم مبتلى بنوع من الغرور ، ولقد اخترنا بعض كلامه ، ولم نر حاجة لذكر كلّ الأصناف والفرق التي ذكرها ، وهذا ما اخترناه من كلامه] .

قال رحمه الله :

بيان ذم الغرور وحقيقته وأمثلته

اعلم أن قوله تعالى : ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾ (لقمان : ٣٣) وقوله تعالى : ﴿ **ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني** ﴾ (الحديد : ١٤) كاف في ذم الغرور ، وكل ما ورد في فضل العلم وذمّ الجهل فهو دليل على ذم الغرور ، لأن الغرور عبارة عن بعض أنواع الجهل ، إذ الجهل هو : أن يعتقد الشيء ويراه على خلاف ما هو به ، والغرور هو : جهل إلا أن كل جهل ليس بغرور ، بل يستدعي الغرور مغروراً فيه مخصوصاً ومغروراً به وهو الذي يغره . فمها كان الجهل المعتقد شيئاً يوافق الهوى وكان السبب الموجب للجهل شبهة ومخيلة فاسدة يظن أنها دليل ولا تكون دليلاً سمي الجهل الحاصل به غروراً . فالغرور هو : سكون النفس إلى ما يوافق الهوى ، ويميل إليه بالطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان فمن اعتقد أنه على خير إما في العاجل أو في الآجل

عن شبهة فاسدة فهو مغرور ، وأكثر الناس يظنون بأنفسهم الخير وهم مخطئون فيه ، فأكثر الناس إذن مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم واختلفت درجاتهم ، حتى كان غرور بعضهم أظهر وأشد من بعض ، وأظهرها وأشدها غرور الكفار وغرور العصاة والفساق .

[أنواع المغترين وبعض فرقهم]

(ففرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية وتعمقوا فيها واشتغلوا بها وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي وإلزامها الطاعات ، واغتروا بعلمهم وظنوا أنهم عند الله بمكان وأنهم قد بلغوا من العلم مبلغاً لا يعذب الله مثلهم ، بل يقبل في الخلق شفاعتهم ، وأنه لا يطالبهم بذنوبهم وخطاياهم لكرامتهم على الله وهم مغرورون ، فإنهم لو نظروا بعين البصيرة علموا أنّ العلم علمان : علم معاملة ، وعلم بالله وبصفاته ، المسمى بالعادة : علم المعرفة . فأما العلم بالمعاملة : كمعرفة الحلال والحرام ، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها ، فهي علوم لا تراد إلا للعمل ولولا الحاجة إلى العمل لم يكن لهذه العلوم قيمة ، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل .

وأما الذي يدّعي علم المعرفة : كالعلم بالله وبصفاته وأسمائه وهو مع ذلك يهمل العمل ويضيع أمر الله وحدوده فغروره أشدّ ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (غافر : ٢٨) .

قال ابن مسعود : كفى بخشية الله علماً وكفى بالاغترار بالله جهلاً . واستفتي الحسن عن مسألة فأجاب فقيل له : إن فقهاءنا لا يقولون ذلك ، فقال : وهل رأيت فقيهاً قط ؟ الفقيه القائم ليله الصائم نهاره الزاهد في الدنيا . وقال مرة : الفقيه لا يداري ولا يماري ينشر حكمة الله فإن قبلت منه حمد الله وإن ردت عليه حمد الله . فإذن الفقيه من فقه عن الله أمره ونهيه وعلم ما أحبه وما كرهه وهو العالم « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين » وإذا لم يكن بهذه الصفة فهو من المغرورين .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم والعمل فواظبوا على الطاعات الظاهرة وتركوا المعاصي ، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم ليمحوا الصفات المذمومة عند الله من الكبر والحسد والرياء وطلب الرياسة والعلاء وإرادة السوء للأقران والنظراء وطلب الشهرة في البلاد والعباد ، وربما لم يعرف بعضهم

أن ذلك مذموم فهو مكبّ عليها غير متحرز عنها .

فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم ونسوا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم »[1] . فتعهدوا الأعمال وما تعهدوا القلوب ـ والقلب هو الأصل ـ إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم .

(وفرقة أخرى) علموا أنّ هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع ، إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم بذلك ، وإنما يبتلي به العوام دون من بلغ مبلغهم في العلم ، فأما هم فأعظم عند الله من أن يبتليهم ، ثم إذا ظهر عليهم مخايل الكبر والرياسة وطلب العلم والشرف قالوا : ما هذا كبر وإنما هو طلب عز الدين وإظهار شرف العلم ونصرة دين الله وإرغام أنف المخالفين من المبتدعين أو إني لو لبست الدون من الثياب وجلست في الدون من المجالس لشمت بي أعداء الدين وفرحوا بذلك ، وكان ذلي ذلا على الإسلام ونسي المغرور أن عدوّه الذي حذّره منه مولاه هو الشيطان ، وأنه يفرح بما يفعله ويسخر به ، وينسى أنّ النبي بماذا نصر الدين وبماذا أرغم الكافرين ؟ ونسي ما روي عن الصحابة من التواضع والتبذل والقناعة بالفقر والمسكنة ، حتى عوتب عمر رضي الله في بذاذة زيه عند قدومه إلى الشام فقال : إنا قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلب العز في غيره .

(وفرقة أخرى) أحكموا العلم وطهّروا الجوارح وزيّنوها بالطاعات واجتنبوا ظواهر المعاصي ، وتفقدوا أخلاق النفس وصفات القلب من الرياء والحسد والحقد والكبر وطلب العلو ، وجاهدوا أنفسهم في التبري منها وقلعوا من القلوب منابتها الجليلة القوية ، ولكنهم بعد مغرورون ؛ إذ بقيت في زوايا القلب من خفايا مكايد الشيطان وخبايا خداع النفس ما دقّ وغمض مدركه فلم يفطنوا لها وأهملوها ، وإنما مثاله من يريد تنقية الزرع من الحشيش ، فدار عليه وفتش عن كل حشيش رآه فقلعه ، إلا أنه لم يفتش على ما لم يخرج رأسه بعد من تحت التراب فأهملها وهو يظن أنه قد اقتلعها ، فإذا هو بها في غفلته وقد نبتت وقويت وأفسدت أصول الزرع من حيث لا يدري فكذلك العالم قد يفعل جميع ذلك ويذهل عن المراقبة للخفايا والتفقد للدفائن .

---

(١) رواه مسلم .

(وفرقــة أخرى) اشتغلوا بعلم الكـلام والجــادلــة في الأهـواء والرد على المخــالفين وتتبــع منـاقضـاتهم ، واستكثروا من معرفـة المقـالات المختلفـة واشتغلوا بتعلم الطرق في منـاظرة أولئـك وإفحامهم ، وافترقوا في ذلك فرقاً كثيرة ، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد عمل إلا بإيمـان ولا يصح إيمان إلا بأن يتعلم جدلهم وما سموه أدلـة عقـائـدهم ، وظنوا أنـه لا أحـد أعرف بـالله وبصفـاتـه منهم ، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم ولم يتعلم علمهم ، ودعت كل فرقة منهم إلى نفسها .

ثم هم فرقتان : ضالة ومحقة ؛ فالضالة هي التي تدعو إلى غير السنة ، والمحقة هي التي تـدعو إلى السنة والغرور شامل لجميعهم . أما الضالة : فلغفلتها عن ضلالها وظنها بنفسها النجـاة ، وهم فرق كثيرة يكفر بعضهم بعضـاً ، وإنمـا أتيت من حيث إنهـا لم تتهم رأيهـا ولم تحكم أوّلاً شروط الأدلة ومنهاجها ، فرأى أحدهم الشبهة دليلاً والدليل شبهة . وأما الفرقة المحقـة : فـإنمـا اغترارهـا من حيث إنها ظنت بالجدل أنه أهم الأمور وأفضل القربات في دين الله وزعمت أنه لا يتم لأحد دينـه مـا لم يفحص ويبحث ، وأنّ من صـدق الله ورسـولـه من غير بحث وتحرير دليـل فليس بمؤمن أو ليس كامل الإيمان ولا مقرّباً عند الله .

فلهذا الظن الفاسد قطعت أعمارها في تعلم الجدل والبحث عن المقالات وهذيانات المبتدعـة ومناقضاتهم ، وأهملوا أنفسهم وقلوبهم حتى عميت عليهم ذنوبهم وخطاياهم الظاهرة والباطنة .

(وفرقـة أخرى) اشتغلوا بـالـوعـظ والتـذكير ، وأعـلاهم رتبـة من يتكلم في أخـلاق النفس وصفات القلب من الخوف والرجاء والصبر والشكر والتوكل والزهد واليقين والإخلاص والصـدق ونظائره ، وهم مغرورون يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهـذه الصفـات ودعوا الخلق إليهـا فقـد صاروا موصوفين بهذه الصفات وهم منفكون عنها عند الله إلا عن قدر يسير لا ينفك عنـه عوام المسلمين ، وغرور هؤلاء أشد الغرور لأنهم يعجبون بأنفسهم غاية الإعجاب .

(وفرقة أخرى منهم) عدلوا عن المنهاج الواجب في الوعـظ فـاشتغلوا بـالطـامـات والشطح وتلفيق كلمـات خـارجـة عن قـانون الشرع والعقل طلبـاً للإغراب . وطـائفـة شغفـوا بـالنكت وتسجيع الألفاظ وتلفيقها فأكثر همهم الأسجاع والاستشهاد بـأشعـار الوصـال والفراق ، وغرضهم أن تكثر في مجالسهم الزعقات والتواجـد ولو على أغراض فـاسـدة ، فهؤلاء شيـاطين الإنس ضلوا وأضلوا عن سـواء السبيـل ، فـإنّ الأوّلين وإن لم يصلحـوا أنفسهم فقـد أصلحـوا غيرهم وصححـوا

كلامهم ووعظهم . وأما هؤلاء فإنهم يصدّون عن سبيل الله ويجرون الخلق إلى الغرور بالله بلفظ الرجاء فيزيدهم كلامهم جراءة على المعاصي ورغبة في الدنيا .

(وفرقة أخرى) قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات على وجهها ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها فبعضهم يفعل ذلك على المنابر ، وبعضهم في المحاريب ، وبعضهم في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه تميز بهذا القدر عن السوقة والجندية ، إذ حفظ كلام الزهاد وأهل الدين دونهم ويظنّ أن حفظه لكلام أهل الدين يكفيه . وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بعلم النحو واللغة والشعر وغريب اللغة واغتروا به وزعموا أنهم قد غفر لهم وأنهم من علماء الأمة ، إذ قوام الدين بالكتاب والسنة ، وقوام الكتاب والسنة بعلم اللغة والنحو فأفنى هؤلاء أعمارهم في دقائق النحو وفي صناعة الشعر وفي غريب اللغة ، والقانعون بهذه الدرجات كلهم مغترون إلا من اتخذ هذه الدرجات منازل فتجاوز إلى ما وراء ذلك حتى وصل إلى لباب العمل فطالب بحقيقته قلبه وجوارحه وقضى عمره في حمل النفس عليه وتصحيح الأعمال وتصفيتها عن الشوائب والآفات فهذا هو المقصود المخدوم من جملة علوم الشرع وسائر العلوم خدم له ووسائل إليه ومنازل بالإضافة إليه ، وكل من لم يبلغ المقصد فقد خاب سواء كان في المنزل القريب أو في المنزل البعيد .

(وفرقة) أهملوا الفرائض واشتغلوا بالفضائل والنوافل وربما تعمقوا في الفضائل حتى خرجوا إلى العدوان والسرف ، كالذي تغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه ولا يرضى الماء المحكوم بطهارته في فتوى الشرع ، ويقدّر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة ، وقد يطول الأمر حتى يضيع الصلاة ويخرجها عن وقتها ، وإن لم يخرجها أيضاً عن وقتها فهو مغرور لما فاته من فضيلة أول الوقت ، وإن لم يفته فهو مغرور لإسرافه في الماء ، وإن لم يسرف فهو مغرور لتضييعه العمر الذي هو أعز الأشياء . فيما له مندوحة عنه ، ألا إنّ الشيطان يصدّ الخلق عن الله بطرق شتى ، ولا يقدر على صدّ العباد إلا بما يخيل إليهم أنه عبادة فيبعدهم عن الله بمثل ذلك .

(وفرقة أخرى) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية

صحيحة بل يشوّش عليه حتى تفوته الجماعة ويخرج الصلاة عن الوقت ، وإن تم تكبيره فيكون في قلبه بعد تردد في صحة نيته ، وقد يوسوسون في التكبير حتى قد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه ، يفعلون ذلك في أوّل الصلاة ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم ، ويغترون بذلك ويظنون أنهم إذا أتعبوا أنفسهم في تصحيح النية في أول الصلاة وتميزوا عن العامة بهذا الجهد والاحتياط فهم على خير عند ربهم .

(وفرقة أخرى) تغلب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من مخارجها فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح مخارج الحروف في جميع صلاته ، لا يهمه غيره ولا يتفكر فيما سواه ذاهلاً عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره . وهذا من أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق مخارج الحروف إلا بما جرت به عادتهم في الكلام .

(وفرقة أخرى) اغتروا بقراءة القرآن فيهذونه هَذّاً وربما يختمونه في اليوم والليل مرة . ولسان أحدهم يجري به وقلبه يتردد في أودية الأماني إذ لا يتفكر في معاني القرآن لينزجر بزواجره ويتعظ بمواعظه ويقف عند أوامره ونواهيه ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه إلى غير ذلك مما ذكرناه في كتاب تلاوة القرآن من مقاصد التلاوة ـ فهو مغرور يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به مع الغفلة عنه .

وقد يكون له صوت طيب فهو يقرؤه ويلتذ به ويغتر باستلذاذه ويظن أن ذلك لذة مناجاة الله تعالى وسماع كلامه وإنما هي لذته في صوته ، ولو ردد ألحانه بشعر أو كلام آخر لالتذ به ذلك الالتذاذ ، فهو مغرور إذ لم يتفقد قلبه فيعرف أن لذته بكلام الله تعالى من حيث حسن نظمه ومعانيه أو بصوته .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالصوم وربما صاموا الدهر أو صاموا الأيام الشريفة وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة وخواطرهم عن الرياء وبطونهم عن الحرام عند الإفطار وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار ، وهو مع ذلك يظن بنفسه الخير فيهمل الفرائض ويطلب النفل ثم لا يقوم بحقه وذلك غاية الغرور .

(وفرقة أخرى) اغتروا بالحج فيخرجون إلى الحج من غير خروج عن المظالم وقضاء الديون

واسترضاء الوالدين وطلب الزاد الحلال ، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض ويعجزون عن طهارة الثوب والبدن ويتعرضون لمكس الظلمة حتى يؤخذ منهم ، ولا يحذرون في الطريق من الرفث والخصام ، وربما جمع بعضهم الحرام وأنفقه على الرفقاء في الطريق وهو يطلب به السمعة والرياء فيعصي الله تعالى في كسب الحرام أوّلاً وفي إنفاقه بالرياء ثانياً فلا هو أخذه من حله ولا هو وضعه في حقه ، ثم يحضر البيت بقلب ملوث برذائل الأخلاق وذميم الصفات لم يقدّم تطهيره على حضوره وهو مع ذلك يظن أنه على خير من ربه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) أخذت في طريق الحسبة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينكر على الناس ويأمرهم بالخير وينسى نفسه ، وإذا أمرهم بالخير عنف وطلب الرياسة والعزة وإذا باشر منكراً ورُدّ عليه غضب وقال : أنا المحتسب فكيف تنكر عليّ ؟ وقد يجمع الناس إلى مسجده ومن تأخر عنه أغلظ القول عليه . وإنما غرضه الرياء والرياسة ، ولو قام بتعهد المسجد غيره لحرد عليه ، بل منهم من يؤذن ويظن أنه يؤذن لله ولو جاء غيره وأذن في وقت غيبته قامت عليه القيامة وقال : لم آخذ حقي وزوحمت على مرتبتي ، وكذلك قد يتقلد إمامة مسجد ويظن أنه على خير وإنما غرضه أن يقال إنه إمام مسجد فلو تقدّم غيره وإن كان أورع وأعلم منه ثقل عليه .

(وفرقة أخرى) حرصت على النوافل ولم يعظم اعتدادها بالفرائض ، ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل ولا يجد للفريضة لذة ولا يشتدّ حرصه على المبادرة بها في أوّل الوقت ، وينسى قوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما يرويه عن ربه : « ما تقرّب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم »[1] وترك الترتيب بين الخيرات من جملة الشرور . بل قد يتعين في الإنسان فرضان : أحدهما يفوت والآخر لا يفوت ، أو فضلان أحدهما يضيق وقته والآخر يتسع وقته . فإن لم يحفظ الترتيب فيه كان مغروراً . ونظائر ذلك أكثر من أن تحصى ، فإن المعصية ظاهرة والطاعة ظاهرة وإنما الغامض تقديم بعض الطاعات على بعض ، كتقديم الفرائض كلها على النوافل ، وتقديم فروض الأعيان على فروض الكفاية ، وتقديم فرض كفاية لا قائم به على ما قام به غيره ، وتقديم الأهم من فروض الأعيان على مـ

---

(١) أخرجه البخاري .

دونه وتقديم ما يفوت على ما لا يفوت ، وهذا كما يجب تقديم حاجة الوالدة على حاجة الوالد إذ سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقيل له : من أبر يا رسول الله ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أمك » قال : ثم من ؟ قال : « أباك » قال : ثم من ؟ قال : « أدناك فأدناك »[1] فينبغي أن يبدأ في الصلة بالأقرب ، فإن استويا فبالأتقى والأورع . وكذلك من لا يفي ماله بنفقة الوالدين والحج فربما يحج وهو مغرور بل ينبغي أن يقدّم حقهما على الحج ، وهذا من تقديم فرض أهم على فرض هو دونه . وكذلك إذا كان للعبد ميعاد ودخل وقت الجمعة فالجمعة تفوت والاشتغال بالوفاء بالوعد معصية وإن كان هو الطاعة في نفسه . وكذلك قد تصيب ثوبه النجاسة فيغلظ القول على أبويه وأهله بسبب ذلك فالنجاسة محذورة وإيذاؤهما محذور ، والحذر من الإيذاء أهم من الحذر من النجاسة . وأمثلة تقابل المحذورات والطاعات لا تنحصر . ومن ترك الترتيب في جميع ذلك فهو مغرور . وهذا غرور في غاية الغموض لأنّ المغرور فيه في طاعة إلا أنه لا يفطن لصيرورة الطاعة معصية حيث ترك بها طاعة واجبة هي أهم منها .

(وفرقة أخرى) ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب ، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ لأنه تلقف من ألفاظ الطامات كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين ، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام ، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار ، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء ، فيقول في العباد : إنهم أجراء متعبون ، ويقول في العلماء : إنهم بالحديث عن الله محجوبون ؛ ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق وأنه من المقربين ، وهو عند الله من الفجار المنافقين ، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين لم يحكم قط علماً ولم يهذب خلقاً ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه .

(وفرقة أخرى) وقعت في الإباحة وطووا بساط الشرع ، ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام فبعضهم يزعم أن الله مستغن عن عملي فلم أتعب نفسي ، وبعضهم يقول : الأعمال

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وصححه .

بالجوارح لا وزن لها ، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله وواصلة إلى معرفة الله وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب ، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوّتهم فيها ، ويرفعون درجة أنفسهم على درجة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

(وفرقة أخرى) جاوزت حدّ هؤلاء واجتنبت الأعمال وطلقت الحلال واشتغلت بتفقد القلب وصار أحدهم يدّعي المقامات من الزهد والتوكل والرضا والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها . فمنهم من يدّعي الوجد والحب لله تعالى ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر فيدّعي حب الله قبل معرفته ، ثم إنه لا يخلو عن مقارفة ما يكره الله عز وجل وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ، ولو خلا لما تركه حياء من الله تعالى . وليس يدري أن كل ذلك يناقض الحب .

(وفرقة أخرى) ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومسكنه وأخذ يتعمق في غير ذلك ، وليس يدري المسكين أن الله تعالى لم يرض من عبد بطلب الحلال فقط ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال ، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي . فمن ظن أن بعض هذه الأمور يكفيه وينجيه فهو مغرور .

(وفرقة أخرى) اشتغلوا بالمجاهدة وتهذيب الأخلاق وتطهير النفس من عيوبها وصاروا يتعمقون فيها فاتخذوا البحث عن عيوب النفس ومعرفة خدعها علماً وحرفة ، فهم في جميع أحوالهم مشغولون بالفحص عن عيوب النفس واستنباط دقيق الكلام في آفاتها ، فيقولون هذا في النفس عيب والغفلة عن كونه عيباً عيب ، والالتفات إلى كونه عيباً عيب ، ويشغفون فيه بكلمات مسلسلة تضيع الأوقات في تلفيقها ومن جعل طول عمره في التفتيش عن عيوب النفس وتحرير علم علاجها كان كمن اشتغل بالتفتيش عن عوائق الحج وآفاته ولم يسلك طريق الحج فذلك لا يغنيه .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هذه الرتبة وابتدءوا سلوك الطريق وانفتح لهم أبواب المعرفة ، فكلما تشمموا من مبادىء المعرفة رائحة تعجبوا منها وفرحوا بها وأعجبتهم غرابتها فتقيدت قلوبهم بالالتفات إليها والتفكر فيها ، وفي كيفية انفتاح بابها عليهم وانسداده على غيرهم ، وكل ذلك غرور لأن عجائب طريق الله ليس لها نهاية ، فلو وقف مع كل أعجوبة وتقيد بها قصرت خطاه وحرم الوصول إلى المقصد وكان مثاله مثال من قصد ملكاً فرأى على باب ميدانه روضة فيها أزهار وأنوار لم يكن قد رأى مثلها ، فوقف ينظر إليها ويتعجب حتى فاته الوقت الذي يمكن فيه لقاء الملك .

(وفرقة أخرى) جاوزوا هؤلاء ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما تيسر لهم من العطايا الجزيلة ولم يعرجوا على الفرح بها والالتفات إليها جادين في السير حتى قاربوا فوصلوا إلى حدّ القربة إلى الله تعالى ، فظنوا أنهم قد وصلوا إلى الله فوقفوا وغلطوا .

فإن قلت : فما ذكرته من مداخل الغرور أمر لا يتخلص منه أحد ولا يمكن الاحتراز منه ، وهذا يوجب اليأس إذ لا يقوى أحد من البشر على الحذر من خفايا هذه الآفات ؟ فأقول : الإنسان إذا افترقت همته في شيء أظهر اليأس منه واستعظم الأمر واستوعر الطريق ، وإذا صح منه الهوى اهتدى إلى الحيل واستنبط بدقيق النظر خفايا الطرق في الوصول إلى الغرض ، حتى إن الإنسان إذا أراد أن يستنزل الطير المحلق في جو السماء مع بعده منه استنزله وإذا أراد أن يخرج الحوت من أعماق البحار استخرجه ، وإذا أراد أن يستخرج الذهب أو الفضة من تحت الجبال استخرجه ، وإذا أراد أن يقنص الوحوش المطلقة في البراري والصحاري اقتنصها ، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها وإذا أراد أن يأخذ الحيات والأفاعي ويعبث بها أخذها واستخرج الترياق من أجوافها ، وإذا أراد أن يتخذ الديباج الملون المنقش من ورق التوت اتخذه ، وإذا أراد أن يعرف مقادير الكواكب وطولها وعرضها استخرج بدقيق الهندسة ذلك وهو مستقر على الأرض ، وكل ذلك باستنباط الحيل وإعداد الآلات ، فسخر الفرس للركوب والكلب للصيد وسخر البازي لاقتناص الطيور وهيأ الشبكة لاصطياد السمك ، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي . كل ذلك لأن همه أمر دنياه وذلك معين له على دنياه ، فلو أهمّه أمر آخرته فليس عليه إلا شغل واحد وهو تقويم قلبه فإذا عجز عن تقويم قلبه وتخاذل ، وقال هذا محال ومن الذي يقدر عليه ؟ قلنا ليس ذلك بمحال لو أصبح وهمه هذا الهم

الواحد بل هو كما يقال : « لو صح منك الهوى أرشدت للحيل » فهذا شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون ومن اتبعهم بإحسان . فلا يعجز عنه أيضاً من صدقت إرادته وقويت همته ، بل لا يحتاج إلى عشر تعب الخلق في استنباط حيل الدنيا ونظم أسبابها .

فإن قلت قد قرّبت الأمر فيه مع أنك أكثرت في ذكر مداخل الغرور فبم ينجو العبد من الغرور ؟ فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور : بالعقل والعلم والمعرفة . فهذه ثلاثة أمور لابد منها .

أما العقل : فأعني به الفطرة الغريزية والنور الأصلي الذي به يدرك الإنسان حقائق الأشياء فالفطنة والكيس فطرة ، والحمق والبلادة فطرة والبليد لا يقدر على التحفظ عن الغرور ، فصفاء العقل وذكاء الفهم لابد منه في أصل الفطرة ، فهذا إن لم يفطر عليه الإنسان فاكتسابه غير ممكن . نعم إذا حصّل أصله أمكن تقويته بالممارسة فأساس السعادات كلها العقل والكياسة .

الثاني : المعرفة : وأعني بالمعرفة أن يعرف أربعة أمور : يعرف نفسه ، ويعرف ربه ، ويعرف الدنيا ، ويعرف الآخرة . فيعرف نفسه بالعبودية والذل وبكونه غريباً في هذا العالم وأجنبياً من هذه الشهوات البهيمية . فإذا عرف نفسه وربه وعرف الدنيا والآخرة ثار من قلبه بمعرفة الله حب الله ، وبمعرفة الآخرة شدة الرغبة فيها ، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها ويصير أهم أموره ما يوصله إلى الله تعالى وينفعه في الآخرة ، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه صحت نيته في الأمور كلها ، فإن أكل مثلاً أو اشتغل بقضاء الحاجة كان قصده منه الاستعانة على سلوك طريق الآخرة ، وصحت نيته واندفع عنه كل غرور منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال فإن ذلك هو المفسد للنية . ومادامت الدنيا أحب إليه من الآخرة وهوى نفسه أحب إليه من رضا الله تعالى فلا يمكنه الخلاص من الغرور . فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى :

المعنى الثالث وهو العلم : أعني العلم بمعرفة كيفية سلوك الطريق إلى الله ، والعلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه ، والعلم بآفات الطريق وعقباته وغوائله ، فإذا أحاط بجميع ذلك أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور وأصل ذلك كله أن يغلب حب الله على القلب ويسقط حب الدنيا منه حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية ، ولا يحصل ذلك إلا

بالمعرفة التي ذكرناها . فإن قلت : فمتى يصح له أن يشتغل بنصح الناس ؟ فأقول : إذا لم يكن له قصد إلا هدايتهم لله تعالى وكان يودّ لو وجد من يعينه ، أو لو اهتدوا بأنفسهم وانقطع بالكلية طمعه عن ثنائهم وعن أموالهم ، فاستوى عنده حمدهم وذمهم فلم يبال بذمهم إذا كان الله يحمده ولم يفرح بحمدهم إذا لم يقترن به حمد الله تعالى .

فإن قلت : فإن علم المريد فاشتغل بنفسه وترك النصح أو نصح وراعى شرط الصدق والإخلاص فيه فما الذي يخاف عليه وما الذي بقي بين يديه من الأخطار وحبائل الاغترار ؟ فاعلم أنه بقي عليه أعظمه وهو أنّ الشيطان يقول له : قد أعجزتني وأفلت مني بذكائك وكمال عقلك وقد قدرت على جملة من الأولياء والكبراء وما قدرت عليك فما أصبرك ! وما أعظم عند الله قدرك ومحلك إذ قواك على قهري ومكنك من التفطن لجميع مداخل غروري ! فيصغي إليه ويصدّقه ويعجب بنفسه في فراره من الغرور كله ، فيكون إعجابه بنفسه غاية الغرور وهو المهلك الأكبر ، فإن قلت : فلو لم يعجب بنفسه إذ علم أنّ ذلك من الله تعالى لا منه وأنّ مثله لا يقوى على دفع الشيطان إلا بتوفيق الله ومعونته ، ومن عرف ضعف نفسه وعجزه عن أقل القليل فإذا قدر على مثل هذا الأمر العظيم علم أنه لم يقو عليه بنفسه بل بالله تعالى فما الذي يخاف عليه بعد نفي العجب ؟ فأقول : يخاف عليه الغرور بكرم الله والأمن من مكره حتى يظن أنه يبقى على هذه الوتيرة في المستقبل ولا يخاف من الفترة والانقلاب ، فيكون حاله الاتكال على فضل الله فقط دون أن يقارنه الخوف من مكره ، ومن أمن مكر الله فهو خاسر جداً ، بل سبيله أن يكون مشاهداً جملة ذلك من فضل الله خائفاً على نفسه أن يكون قد سدّت عليه صفة من صفات قلبه من حب دنيا ورياء وسوء خلق والتفات إلى عز وهو غافل عنه ، ويكون خائفاً أن يسلب حاله في كل طرفة عين غير آمن من مكر الله ولا غافل عن خطر الخاتمة . وهذا خطر لا محيص عنه وخوف لا نجاة منه إلا بعد مجاوزة الصراط . ولذلك قيل : الناس كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم . فإن المغرور هالك والمخلص الفارّ من الغرور على خطر فلذلك لا يفارق الخوف والحذر قلوب أولياء الله أبداً .

فنسأل الله تعالى العون والتوفيق وحسن الخاتمة ، فإن الأمور بخواتيمها .

[أقول : لقد استقرىء الغزالي أصناف المغترين في عصره وتحدّث عنهم ، ويكاد الغرور

يتلخّص في كلمتين هما التوهم والاعتداد فمن عرف هاتين الكلمتين يستطيع أن يرى كلّ أنواع الغرور بما في ذلك أنواع من الغرور تراها في عصرنا وخاصة في العمل السياسي أو العسكري أو العمل العام والخدمة العامّة .

فكثيراً ما يتوهّم الإنسان أنه مستشرف لساحة العمل الذي يعمل فيه ، ويكون استشرافه ناقصاً ، ثم يتصور أنّه أقدر من غيره على النجاح ، وهو في الحالتين متوهم فهو مغرور ، طبّق هذه المسألة على فروع كثيرة فإنّك تجدها شاملة ومن خلال ذلك تستطيع العثور على أصناف جديدة من المغترين] .

الفقرة التاسعة : في الغضب الظالم

[لا يخلو إنسان عن غضب ، والله عز وجل يغضب ، ورسول الله ﷺ كان يغضب ، فأصل الغضب لا يعتبر عيباً ، ولا يعتبر وجوده مرضاً ، ولكن هناك غضب في الباطل لا يصح ، وهناك غضب ظالم فهذا الذي لا يصح ، وهناك تسرّع في الغضب وبطء في الفيء فذلك لا يصح ، وهناك تصرّفات أثناء الغضب لا يقرّها شرع أو عقل فهذا لا يصح ،.ومن ههنا كان الكلام في الغضب يحتاج إلى تفصيل ، فمن المعلوم أنّه لا يستحق السيادة إلا حليم ، وأنّ الغضب في غير محلّه لا تستقيم معه حياة اجتماعية ، ولا علاقات صحيحة ، ولا يحتاج الإنسان إلى تفكير كثير حتّى يدرك مثل هذه الأمور ، فغضبة واحدة قد تفسد علاقة بين جار وجار وزوج وزوجة وبين شريك وشريك ، وأخ وأخ .

غضبة واحدة قد تفسد جماعة بأسرها فتصدّع صفّها ، أو تعرقل أعمالها أو تشلّ نموّها .

غضبة واحدة قد تفسد علاقة بين دولة ودولة ، وقد تؤدي إلى حرب . وإذا أصبح الغضب جزءاً من حياة الإنسان فعندئذ يكون ما يخرّبه أكثر ممّا يعمّره ، وقد يخرّب ولا يعمّر ، لذلك كان لابدّ من السيطرة على الغضب من أجل الدنيا والآخرة ، فقد يدخل الغضب صاحبه النار ، وقد يفسد عليه أمر دنياه .

ونموذج الكمال في الرضا والغضب هو رسول الله ﷺ ، وكان من أخلاقه أنّه لا يغضب لنفسه ، وكان من وصفه أنّه لا تزيده شدّة الجهل عليه إلا حلماً ، وهذا مقام لا يطمع فيه فكل الخلق يحلمون ضمن حدود .

وكان ﷺ يغضب إذا انتهكت حرمات الله فلا يقوم لغضبه شيء وهذا الذي يطالب به كل الخلق للقضاء على المنكر .

هذان المعلمان نذكّر بهما بين يدي ما اخترناه من كلام الغزالي عن الغضب ليبقيا في الذاكرة] .

قال رحمه الله :

روى أبو هريرة أن رجلاً قال : يا رسول الله مرني بعمل وأقلل ، قال : « لا تغضب » ثم أعاد عليه فقال : « لا تغضب »[١] وقال ابن عمر : قلت لرسول الله ﷺ : قل لي قولاً وأقلله لعلي أعقله ، فقال : « لا تغضب » فأعدت عليه مرتين كل ذلك يرجع إلى « لا تغضب »[٢] وعن عبد الله بن عمرو : أنه سأل رسول الله ﷺ ماذا ينقذني من غضب الله ؟ قال : « لا تغضب »[٣] وقال ابن مسعود : قال النبي ﷺ : « ما تعدون الصرعة فيكم ؟ » قلنا : الذي لا تصرعه الرجال . قال : « ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب »[٤] وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[٥] . وعن عكرمة في قوله تعالى : ﴿ وسيداً وحصوراً ﴾ (آل عمران : ٣٩) قال : السيد الذي لا يغلبه الغضب وقال أبو الدرداء : قلت يا رسول الله دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : « لا تغضب »[٦] .

الآثار : قال الحسن : يا ابن آدم كلما غضبت وثبت ويوشك أن تثب فتقع في النار .

وقال جعفر بن محمد : الغضب مفتاح كل شر . وقال بعض الأنصار : رأس الحمق الحدّة ، وقائده الغضب ، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم ، والحلم زين ومنفعة ، والجهل شين

---

(١) رواه البخاري .

(٢) أخرج نحوه أبو يعلى بإسناد حسن .

(٣) أخرجه الطبراني في مكارم الأخلاق وابن عبد البر في التمهيد بإسناد حسن ، وهو عند أحمد : وأن عبد الله بن عمرو هو السائل .

(٤) رواه مسلم .

(٥) متفق عليه .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا والطبراني في الكبير والأوسط بإسناد حسن .

ومضرة ، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه . وقيل لحكيم : ما أملك فلاناً لنفسه ! قال : إذاً لا تذله الشهوة ، ولا يصرعه الهوى ، ولا يغلبه الغضب . وقال بعضهم : إياك والغضب ، فإنه يصيِّرك إلى ذلة الاعتذار . وقيل : اتقوا الغضب فإنه يفسد الإيمان كما يفسد الصبر العسل . وقال عبد الله بن مسعود : انظروا إلى حلم الرجل عند غضبه ، وأمانته عند طمعه ، وما علمك بحلمه إذا لم يغضب ، وما علمك بأمانته إذا لم يطمع ؟ وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عامله : أن لا تعاقب عند غضبك وإذا غضبت على رجل فاحبسه ، فإذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً . وقال عليّ بن زيد : أغلظ رجل من قريش لعمر بن عبد العزيز القول فأطرق عمر زماناً طويلاً ثم قال : أردتَ أن يستفزني الشيطان بعز السلطان فأنال منك اليوم ما تناله مني غداً ؟ وقال بعضهم لابنه : يا بني لا يثبت العقل عند الغضب كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة ، فأقل الناس غضباً أعقلهم ، فإن كان للدنيا كان دهاء ومكراً ، وإن كان للآخرة كان حلماً وعلماً ، فقد قيل : الغضب عدوّ العقل والغضب غول العقل . وكان عمر رضي الله عنه إذا خطب قال في خطبته : أفلح منكم من حُفظ من الطمع والهوى والغضب . وقال بعضهم : من أطاع شهوته وغضبه قاداه إلى النار . وقال الحسن : من علامات المسلم قوة في دين ، وحزم في لين ، وإيمان في يقين ، وعلم في حلم ، وكيس في رفق ، وإعطاء في حق ، وقصد في غنى ، وتجمُّل في فاقة ، وإحسان في قدرة ، وتحمّل في رفاقة ، وصبر في شدّة ، لا يغلبه الغضب ، ولا تجمح به الحمية ، ولا تغلبه شهوة ، ولا تفضحه بطنه ، ولا يستخفه حرصه ، ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ولا يبذر ، ولا يسرف ولا يقتر ، يغفر إذا ظُلِم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء والناس منه في رخاء . وقيل لعبد الله بن المبارك : أجمل لنا حسن الخلق في كلمة . فقال : اترك الغضب . وقال وهب بن منبه : للكفر أربعة أركان : الغضب ، والشهوة ، والخرق ، والطمع .

☆ ☆ ☆

بيان حقيقة الغضب

اعلم أن الله تعالى لما خلق الحيوان معرّضاً للفساد والموتان ، بأسباب في داخل بدنه ، وأسباب خارجة عنه ، أنعم عليه بما يحميه من الفساد ، ويدفع عنه الهلاك إلى أجل معلوم سماه في كتابه .

أما السبب الداخلي : فهو أنه ركّبه فخلق الله الغذاء الموافق لبدن الحيوان ، وخلق في الحيوان شهوة تبعثه على تناول الغذاء ؛ كالموكل به في جبر ما انكسر ، وسد ما انثلم ؛ ليكون ذلك حافظاً له من الهلاك بهذا السبب .

وأما الأسباب الخارجة التي يتعرّض لها الإنسان : فكالسيف والسنان وسائر المهلكات التي يقصد بها ، فافتقر إلى قوة وحمية تثور منه فتدفع المهلكات عنه ، فخلق الله طبيعة الغضب ، وغرزها في الإنسان وعجنها بطينته . فمهما صدّ عن غرض من أغراضه ومقصود من مقاصده اشتعلت نار الغضب وثارت ثوراناً يغلي به دم القلب ، وينتشر في العروق ، ويرتفع إلى أعمال البدن ، كما ترتفع النار ، وكما يرتفع الماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لون ما وراءها من حمرة الدم ، كما تحكي الزجاجة لون ما فيها . وإنما ينبسط الدم إذا غضب على من دونه ، واستشعر القدرة عليه ، فإن صدر الغضب على من فوقه وكان معه يأس من الانتقام ، تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلى جوف القلب وصار حزناً ، ولذلك يصفرّ اللون ، وإن كان الغضب على نظير يشك فيه تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمرّ ويصفرّ ويضطرب .

وبالجملة : فقوة الغضب محلها القلب ومعناها : غليان دم القلب بطلب الانتقام وإنما تتوجه هذه القوة عند ثورانها إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، وإلى التشفي والانتقام بعد وقوعها . والانتقام قوت هذه القوة وشهوتها وفيه لذتها ، ولا تسكن إلا به ، ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث من التفريط والإفراط والاعتدال .

أما التفريط : فبفقد هذه القوة أو ضعفها وذلك مذموم ، وهو الذي يقال فيه إنه لا حمية له . ولذلك قال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار . فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً فهو ناقص جداً . وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي ﷺ بالشدة والحمية

فقال : ﴿ **أشدّاء على الكفار رحماء بينهم** ﴾ (الفتح : ٢٩) وقال لنبيه ﷺ : ﴿ **جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ (التوبة : ٧٣) وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية وهو الغضب .

وأما الإفراط : فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ولا يبقى للمرء معها بصيرة ونظر وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطر . وسبب غلبته أمور غريزية وأمور اعتيادية : فرب إنسان هو بالفطرة مستعد لسرعة الغضب حتى كأن صورته في الفطرة صورة غضبان ، ويعين على ذلك حرارة مزاج القلب ؛ لأن الغضب من النار[1] كما قال ﷺ : « وإنما برودة المزاج تطفئه وتكسر سورته » .

وأما الأسباب الاعتيادية : فهو أن يخالط قوماً يتبجحون بتشفي الغيظ وطاعة الغضب ويسمون ذلك شجاعة ورجولية ، فيقول الواحد منهم : أنا الذي لا أصبر على المكر والمحال ولا أحتمل من أحد أمراً ! ومعناه : لا عقل فيّ ولا حلم . ثم يذكره في معرض الفخر بجهله . فمن سمعه رسخ في نفسه حسن الغضب وحب التشبه بالقوم فيقوى به الغضب . ومهما اشتدت نار الغضب وقوي اضطرامها أعمت صاحبها وأصمته عن كل موعظة ، فإذا وُعِظَ لم يسمع بل زاده غضباً ، وإذا استضاء بنور عقله وراجع نفسه لم يقدر إذ ينطفىء نور العقل وينمحي في الحال بدخان الغضب ، وربما يتعدّى إلى معادن الحس فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه ، وتَسْوَدُّ عليه الدنيا بأسرها ، ويكون دماغه على مثال كهف اضطرمت فيه نار . فاسودَّ جوّه وحمي مستقره ، وامتلأ بالدخان جوانبه ، وكان فيه سراج ضعيف فانمحى أو انطفأ نوره فلا تثبت فيه قدم ، ولا يسمع فيه كلام ، ولا ترى فيه صورة ، ولا يقدر على إطفائه لا من داخل ولا من خارج ، بل ينبغي أن يصبر إلى أن يحترق جميع ما يقبل الاحتراق . فكذلك يفعل الغضب بالقلب والدماغ . وربما تقوى نار الغضب فيموت صاحبه غيظاً كما تقوى النار في الكهف فينشق وتنهدّ أعاليه على أسفله ، وذلك لإبطال النار ما في جوانبه من القوة الممسكة الجامعة لأجزائه ، فهكذا حال القلب عند الغضب وبالحقيقة فالسفينة في ملتطم الأمواج عند اضطراب الرياح في لجة البحر أحسن حالاً وأرجى سلامة من النفس المضطربة غيظاً ، إذ في السفينة من يحتال

---

(١) أخرجه الترمذي ولأبي داود من حديث عطية السعدي « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار » .

لتسكينها وتدبيرها وينظر لها ويسوسها ، وأما القلب فهو صاحب السفينة وقد سقطت حيلته إذ أعماه الغضب وأصمه . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان في حالة غضبه قبح صورته لسكن غضبه حياء من قبح صورته واستحالة خلقته ، وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً ، فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن فقس الثمرة بالمثمرة فهذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان : فانطلاقه بالشتم والفحش من الكلام الذي يستحي منه ذو العقل ، ويستحي منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

وأما أثره على الأعضاء : فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن من غير مبالاة ، فإن هرب منه المغضوب عليه يعدو عدو الواله السكران والمدهوش المتحير ، وربما يسقط سريعاً لا يطيق العدو والنهوض بسبب شدة الغضب ويعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات فيضرب القصعة مثلاً على الأرض ، وقد يكسر المائدة إذا غضب عليها . ويتعاطى أفعال المجانين فيشتم البهيمة والجمادات ويخاطبها ويقول : إلى متى منك هذا يا كيت وكيت ؟ كأنه يخاطب عاقلاً ، حتى ربما رفسته دابة فيرفس الدابة ويقابلها بذلك .

وأما أثره في القلب مع المغضوب عليه : فالحقد والحسد وإضمار السوء والشماتة بالمساءات والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر وهتك الستر والاستهزاء وغير ذلك من القبائح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة : فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة والأمة واحتمال الذل من الأخساء ، وصغر النفس والقماءه وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو خنوثة قال ﷺ : « إن سعداً لغيور ، وأنا أغير من سعد ، وإن الله أغير مني »[1] وإنما خلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب . ولذلك قيل : كل أُمّة وضعت الغيرة في رجالها وضعت الصيانة في نسائها . ومن ضعف الغضب

---

(١) أخرجه مسلم وهو متفق عليه من حديث المغيرة بنحوه .

الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات .

قال الله تعالى : ﴿ **ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله** ﴾ (النور : ٢) بل من فقد الغضب عجز عن رياضة نفسه ، إذ لا تتم الرياضة إلا بتسليط الغضب على الشهوة ، حتى يغضب على نفسه عند الميل إلى الشهوات الخسيسة . ففقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده ، وهو الوسط الذي وصف رسول الله ﷺ حيث قال : « خير الأمور أوساطها »[1] فمن مال غضبه إلى الفتور حتى أحسّ من نفسه بضعف الغيرة وخسة النفس في احتمال الذل والضيم في غير محله فينبغي أن يعالج نفسه حتى يقوى غضبه . ومن مال غضبه إلى الإفراط حتى جرّه إلى التهوّر واقتحام الفواحش فينبغي أن يعالج نفسه لينقص من سورة الغضب ، ويقف على الوسط الحق بين الطرفين ؛ فهو الصراط المستقيم وهو أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف ؛ فإن عجز عنه فليطلب القرب منه ، قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة** ﴾ (النساء : ١٢٩) فليس كل من عجز عن الإتيان بالخير كله ينبغي أن يأتي بالشر كله ؛ ولكن بعض الشر أهون من بعض ، وبعض الخير أرفع من بعض . فهذه حقيقة الغضب ودرجاته نسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه إنه على ما يشاء قدير .

بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة حسم مادتها ، وإزالة أسبابها ؛ فلابدّ من معرفة أسباب الغضب .

والأسباب المهيّجة للغضب هي : الزهو والعجب والمزاح والهزل والهزء والتعيير والمماراة والمضادّة والغدر وشدة الحرص على فضول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلابد من إزالة هذه الأسباب بأضدادها ؛ فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع . وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ، وتزيل الفخر بالتذكر للأصل الأول ؛ إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ؛ وإنما اختلفوا في الفضل

---

(١) البيهقي في الشعب مرسلاً .

أشتاتاً ، فبنو آدم جنس واحد وإنما الفخر بالفضائل ؛ والفخر والعجب والكبر أكبر الرذائل وهي أصلها ورأسها ، فإذا لم تخل عنها فلا فضل لك على غيرك .

وأما المزاح : فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر ، وتفضل عنه إذا عرفت ذلك . وأما الهزل : فتزيله بالجد في طلب الفضائل ، والأخلاق الحسنة ، والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الآخرة . وأما الهزء : فتزيله بالتكرم عن إيذاء الناس ، وبصيانة النفس عن أن يستهزأ بك . وأما التعيير : فالحذر عن القول القبيح وصيانة النفس عن مر الجواب . وأما شدة الحرص على مزايا العيش : فتزال بالقناعة بقدر الضرورة طلباً لعز الاستغناء وترفعاً عن ذلّ الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات يفتقر في علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة ، وحاصل رياضتها يرجع إلى معرفة غوائلها لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ؛ حتى تصير بالعادة مألوفة هينة على النفس ، فإذا انمحت عن النفس فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً عن الغضب الذي يتولد منها . ومن أشدّ البواعث على الغضب عند أكثر الجهال تسميتهم الغضب شجاعة ورجولية وعزة نفس وكبر همة ، وتلقيبه بالألقاب المحمودة غباوة وجهلاً حتى تميل النفس إليه وتستحسنه . وقد يتأكد ذلك بحكاية شدة الغضب عن الأكابر في معرض المدح بالشجاعة ، والنفوس مائلة إلى التشبه بالأكابر ، فيهيج الغضب إلى القلب بسببه ، وتسمية هذا عزة نفس وشجاعة جهل بل هو مرض قلب ، ونقصان عقل ، وهو لضعف النفس ونقصانها ، وآية أنه لضعف النفس ؛ أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والمرأة أسرع غضباً من الرجل ، والصبي أسرع غضباً من الرجل الكبير ، والشيخ ، أسرع غضباً من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة أسرع غضباً من صاحب الفضائل . فالرذل يغضب لشهوته إذا فاتته اللقمة ، ولبخله إذا فاتته الحبة ، حتى أنه يغضب على أهله وولده وأصحابه . بل القوي من يملك نفسه عند الغضب كما قال رسول الله ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[1] بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو وما

---

(١) متفق عليه .

استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكماء والعلماء وأكابر الملوك الفضلاء .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما ذكرناه هو حسم لمواد الغضب وقطع لأسبابه حتى لا يهيج ، فإذا جرى سبب هيجه فعنده يجب التثبت حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل .

أما العلم فهو ستة أمور :

الأول : أن يتفكر في الأخبار في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، فتمنعه شدة الحرص على ثواب الكظم عن التشفي والانتقام ، وينطفىء عنه غيظه ، قال مالك بن أوس بن الحدثان : غضب عمر على رجل وأمر بضربه فقلت : يا أمير المؤمنين : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) فكان عمر يقول : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ فكان يتأمل في الآية وكان وقّافاً عند كتاب الله مهما تلي عليه ، كثير التدبر فيه فتدبر فيه وخلّى الرجل . وأمر عمر بن عبد العزيز بضرب رجل ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ (آل عمران : ١٣٤) فقال لغلامه : خل عنه .

الثاني : أن يخوّف نفسه بعقاب الله وهو أن يقول : قدرة الله عليّ أعظم من قدرتي على هذا الإنسان ، فلو أمضيت غضبي عليه لم آمن أن يمضي الله غضبه عليّ يوم القيامة أحوج ما أكون إلى العفو .

الثالث : أن يحذّر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمر العدوّ لمقابلته ، والسعي في هدم أغراضه ، والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلو من المصائب فيخوّف نفسه بعواقب الغضب في الدنيا إن كان لا يخاف من الآخرة . وهذا يرجع إلى تسليط شهوة على غضب وليس هذا من أعمال الآخرة ولا ثواب عليه ، لأنه متردد على حظوظه العاجلة يقدم بعضها على بعض ، إلا أن يكون محذوره أن تتشوش عليه في الدنيا فراغته للعلم والعمل ، وما يعينه على الآخرة فيكون مثاباً عليه .

الرابع : أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ، ومشابهة صاحبه للكلب الضاري والسبع العادي ، ومشابهة الحليم الهادىء التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء ، ويخيّر نفسه بين أن يتشبّه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبّه بالعلماء والأنبياء في عادتهم لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان قد بقي معه مسكة من عقل .

الخامس : أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ، ولابد وأن يكون له سبب مثل قول الشيطان له : إن هذا يحمل منك على العجز وصغر النفس والذلة والمهانة وتصير حقيراً في أعين الناس ! فيقول لنفسه : ما أعجبك ! تأنفين من الاحتمال الآن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة والافتضاح إذا أخذ هذا بيدك وانتقم منك ؟ وتحذرين من أن تصغري في أعين الناس ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين ؟ فمهما كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله ، فما له وللناس ؟ وذلّ من ظلمه يوم القيامة أشدّ من ذله لو انتقم الآن ، أفلا يحبّ أن يكون هو القائم إذا نودي يوم القيامة : ليقم من أجره على الله ، فلا يقوم إلا من عفا ؟ فهذا وأمثاله من معارف الإيمان ينبغي أن يكرره على قلبه .

السادس : أن يعلم أن غضبه من تعجبه من جريان الشيء على وفق مراد الله لا على وفق مراده ، فكيف يقول : مرادي أولى من مراد الله ؟ ويوشك أن يكون غضب الله عليه أعظم من غضبه .

وأما العمل : فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغيظ[١] وكان رسول الله ﷺ إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال : « يا عويش قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن »[٢] فيستحب أن تقول ذلك ، فإن لم يزل بذلك فاجلس إن كنت قائماً ، واضطجع إن كنت جالساً ، واقرب من الأرض التي منها خلقت لتعرف بذلك ذلّ نفسك ، واطلب بالجلوس

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه ابن السني في اليوم والليلة .

والاضطجاع السكون ؛ فإن سبب الغضب الحرارة ، وسبب الحرارة الحركة . فقد قال رسول الله ﷺ : « إن الغضب جمرة توقد في القلب »[١] ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه ، فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فلينم ، فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء . فقد قال ﷺ : « إذا غضب أحدكم فليتوضأ بالماء فإنما الغضب من النار »[٢] وفي رواية : « إن الغضب من الشيطان وإن الشيطان خلق من النار وإنما تطفأ النار بالماء فإذا غضب أحدكم فليتوضأ » وقال ابن عباس : قال رسول الله ﷺ : « وإذا غضبت فاسكت »[٣] وقال أبو هريرة : « كان رسول الله ﷺ إذا غضب وهو قائم جلس وإذا غضب وهو جالس اضطجع فيذهب غضبه »[٤] وقال أبو سعيد الخدري : قال النبي ﷺ : « ألا إن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، ألا ترون إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ، فمن وجد من ذلك شيئاً فليلصق خده بالأرض »[٥] وكأنّ هذا إشارة إلى السجود ، وتمكين أعز الأعضاء من أذل المواضع وهو التراب لتستشعر به النفس الذل وتزايل به العزة والزهو الذي هو سبب الغضب .

وروي أن عمر غضب يوماً فدعا بماء فاستنشق وقال : إن الغضب من الشيطان وهذا يذهب الغضب . وقال عروة بن محمد : لما استعملت على اليمن قال لي أبي : أوليت ؟ قلت : نعم ، قال : فإذا غضبت فانظر إلى السماء فوقك ، وإلى الأرض تحتك ثم عظم خالقهما . وروي أن أبا ذرّ قال لرجل : يا ابن الحمراء ـ في خصومة بينهما ـ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا ذرّ إنك اليوم عيّرت أخاك بأمه ؟ » فقال : نعم ، فانطلق أبو ذرّ ليرضي صاحبه فسبقه الرجل فسلم عليه فذكر لرسول الله ﷺ فقال : « يا أبا ذرّ ارفع رأسك فانظر ثم اعلم أنك لست بأفضل من أحمر فيها ولا أسود إلا أن تفضله بعمل » ثم قال : « إذا غضبت فإن كنت قائماً فاقعدْ وإن كنت قاعداً فاتكىء وإن كنت متكئاً فاضطجع »[٦] .

---

(١) أخرجه الترمذي دون قوله « توقد » ورواه بهذا اللفظ البيهقي في الشعب .

(٢) أخرجه أبو داود .

(٣) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا والطبراني واللفظ لهما والبيهقي في شعب الإيمان .

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا وفيه من لم يسم ولأحمد بإسناد جيد بنحوه .

(٥) أخرجه الترمذي وقال حسن .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح والقصة في الصحيحين وعند أحمد .

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ (آل عمران : ١٣٤) وذكر ذلك في معرض المدح .

وقال ﷺ : « أشدّكم من غلب نفسه عند الغضب وأحلمكم من عفا عند القدرة »[١] وقال ﷺ : « من كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه لأمضاه ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا » وفي رواية « ملأ الله قلبه أمناً وإيماناً »[٢] وقال عبد الله بن عمر : قال رسول الله ﷺ : « ما جرع جرعة أعظم أجراً من جرعة غيظ كظمها ابتغاء وجه الله تعالى »[٣] .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : من اتقى الله لم يشف غيظه ، ومن خاف الله لم يفعل ما يشاء ، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون .

وقال أيوب : حلم ساعة يدفع شراً كثيراً . واجتمع سفيان الثوري وأبو خزيمة اليربوعي والفضيل بن عياض فتذاكروا الزهد ، فأجمعوا على أن أفضل الأعمال الحلم عند الغضب ، والصبر عند الجزع . وقال رجل لعمر رضي الله عنه : والله ما تقضي بالعدل ولا تعطي الجزل ، فغضب عمر حتى عرف ذلك في وجهه . فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألا تسمع إلى الله تعالى يقول : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) فهذا من الجاهلين ، فقال عمر : صدقت ، فكأنما كانت ناراً فأطفئت .

وجاء رجل إلى سلمان فقال : يا عبد الله أوصني ، قال : لا تغضب ، قال : لا أقدر ، قال : فإن غضبت فأمسك لسانك ويدك .

* * *

---

(١) البيهقي في الشعب بالشطر الأول مرسلاً بإسناد جيد .

(٢) أخرجه أبو داود وابن أبي الدنيا وابن حبان .

(٣) أخرجه ابن ماجه .

بيان فضيلة الحلم

اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتياداً فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً .

وقال ﷺ : « خمس من سنن المرسلين : الحياء والحلم والحجامة والسواك والتعطر »[١] .

وقال أبو هريرة : إن رجلاً قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، ويجهلون عليّ وأحلم عنهم ، قال : « إن كان كما تقول فكأنما تسفهم الملّ ، ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك »[٢] ، الملّ : يعني به الرمل .

وقيل في قوله تعالى : ﴿ ربانيين ﴾ (آل عمران : ٧٩) أي حلماء علماء . وعن الحسن في قوله تعالى : ﴿ وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ (الفرقان : ٦٣) قال : حلماء إن جهل عليهم ولم يجهلوا وقال عطاء بن أبي رباح : ﴿ يمشون على الأرض هوناً ﴾ (الفرقان : ٦٣) أي : حلماء . وقال مجاهد : ﴿ وإذا مروا باللغو مروا كراماً ﴾ (الفرقان : ٦٣) أي : إذا أوذوا صفحوا .

وقال ﷺ : « ليليني منكم ذوو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وإياكم وهيشات الأسواق »[٣] وروي أنه وفد على النبي ﷺ الأشج فأناخ راحلته ثم عقلها ، وطرح عنه ثوبين كانا عليه ، وأخرج من العيبة ثوبين حسنين فلبسهما ، وذلك بعين رسول الله ﷺ يرى ما يصنع ، ثم أقبل يمشي إلى رسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « إن فيك يا أشج خلقين يحبهما الله ورسوله » قال : ما هما بأبي أنت وأمي يا

---

(١) أخرجه أبو بكر بن أبي عاصم والترمذي الحكيم في نوادر الأصول والترمذي وحسنه من حديث أبي أيوب بلفظ « أربع » فأسقط « الحلم والحجامة » وزاد « النكاح » .

(٢) رواه مسلم .

(٣) أخرجه مسلم .

رسول الله ؟ قال : « الحلم والأناة » فقال : خلتان تخلقتهما أو خلقان جبلت عليهما ؟ فقال : « بل خلقان جبلك الله عليهما » فقال : الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما الله ورسوله [١] .

الآثار : قال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وقال عليّ رضي الله عنه : ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت استغفرت الله تعالى . وقال الحسن : اطلبوا العلم وزينوه بالوقار والحلم . وقال أكثم بن صيفي : دعامة العقل الحلم وجماع الأمر الصبر . وقال أبو الدرداء : أدركت الناس ورقاً لا شوك فيه فأصبحوا شوكاً لا ورق فيه ، إن عرفتهم نقدوك ، وإن تركتهم لم يتركوك ، قالوا : كيف نصنع ؟ قال : تقرضهم من عرضك ليوم فقرك . وقال عليّ رضي الله عنه : إن أوّل ما عوّض الحليم من حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل . وقال معاوية رحمه الله تعالى : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم ، وقال معاوية لعمرو بن الأهتم : أي الرجال أشجع ؟ قال : من رد جهله بحلمه قال : أي الرجال أسخى ؟ قال : من بذل دنياه لصلاح دينه . وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ **فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **عظيم** ﴾ (فصلت : ٣٤ ، ٣٥) هو الرجل يشتمه أخوه فيقول : إن كنت كاذباً فغفر الله لك ، وإن كنت صادقاً فغفر الله لي . وقال بعضهم : شتمت فلاناً من أهل البصرة فحلم عليّ فاستعبدني بها زماناً . وقال معاوية لعرابة بن أوس : بم سدت قومك يا عرابة ؟ قال : يا أمير المؤمنين كنت أحلم عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ، وأسعى في حوائجهم . فمن فعل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصّر عني فأنا خير منه . وسب رجل ابن عباس رضي الله عنهما فلما فرغ قال : يا عكرمة هل للرجل حاجة فنقضيها ؟ فنكّس الرجل رأسه واستحيا . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : أشهد أنك من الفاسقين ، فقال : ليس تقبل شهادتك . وعن عليّ بن الحسين بن عليّ رضي الله عنهم أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يبعد من الله عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ،

---

(١) أخرجه مسلم .

ورجوعه إلى مدح بعد الذم اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسير . وقال رجل لجعفر بن محمد : إنه قد وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإني أريد أن أتركه فأخشى أن يقال لي : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال الخليل بن أحمد : كان يقال : من أساء فأحسن إليه فقد جعل له حاجز من قلبه يردعه عن مثل إساءته وقال الأحنف بن قيس : لست بحليم ولكنني أتحلم . وقال وهب بن منبه : من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ، ومن يجهل يغلب ، ومن يعجل يخطىء ، ومن يحرص على الشر لا يسلم ، ومن لا يدع المراء يشتم ، ومن لا يكره الشر يأثم ، ومن يكره الشر يعصم ، ومن يتبع وصية الله يحفظ ، ومن يحذر الله يأمن ، ومن يتول الله يمنع ، ومن لا يسأل الله يفتقر ، ومن يأمن مكر الله يخذل ، ومن يستعن بالله يظفر . وقال رجل لمالك بن دينار : بلغني أنك ذكرتني بسوء ، قال : أنت إذن أكرم عليّ من نفسي ؛ إني إذا فعلت ذلك أهديت لك حسناتي . وقال بعض العلماء : الحلم أرفع من العقل لأن الله تعالى تسمى به . وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك ، فقال : معك يدخل لا معي .

وقال لقمان : ثلاثة لا يعرفون إلا عند ثلاثة : لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا أخ إلا عند الحاجة إليه . ودخل على بعض الحكماء صديق له فقدم إليه طعاماً فخرجت امرأة الحكيم ـ وكانت سيئة الخلق ـ فرفعت المائدة وأقبلت على شتم الحكيم ، فخرج الصديق مغضباً فتبعه الحكيم وقال له : تذكر يوم كنا في منزلك نطعم فسقطت دجاجة على المائدة فأفسدت ما عليها فلم يغضب أحد منا ؟ قال : نعم ، قال فاحسب أن هذه مثل تلك الدجاجة ؛ فسرّى عن الرجل غضبه وانصرف وقال صديق الحكيم : الحلم شفاء من كل ألم .

بيان القدر الذي يجوز الانتصار والتشفي به من الكلام

اعلم أن كل ظلم صدر من شخص فلا يجوز مقابلته بمثله ، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي . وإنما القصاص والغرامة على قدر ما ورد الشرع به .

وأما السب فلا يقال بمثله إذ قال رسول الله ﷺ : « إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما

فيه »[١] وقال : « المستبَّان ما قالا فهو على البادىء ما لم يعتـد المظلوم »[٢] وشتم رجل أبـا بكر الصديق رضي الله عنه وهو ساكت فلما ابتـدأ ينتصر منـه قـام رسول الله ﷺ فقـال أبو بكر : إنك كنت ساكتاً لما شتمني فلما تكلمت قمت قـال : « لأن الملـك كان يجيب عنـك فلمـا تكلمت ذهب الملـك وجـاء الشيطـان فلم أكن لأجلس في مجلس فيـه الشيطـان »[٣] وقـال قوم : تجـوز المقـابلـة بمـا لا كـذب فيـه ، وإنمـا نهى رسول الله ﷺ عن مقـابلـة التعيير بمثلـه نهي تنزيـه ، والأفضل تركه ولكنـه لا يعصي بـه . والـذي يرخص فيـه أن تقول : من أنت ؟ وهل أنت إلا من بني فلان ؟ كما قال سعـد لابن مسعود : وهل أنت إلا من بني هـذيل ؟ وقـال ابن مسعود : وهل أنت إلا من بني أمية ؟ ومثل قوله : يـا أحمق ، قـال مطرف : كل النـاس أحمق فيما بينـه وبين ربه ، إلا أن بعض الناس أقل حماقة من بعض ، وكذلـك قولـه : يـا جـاهل ، إذ مـا من أحد إلا وفيه جهل ؛ فقد آذاه بمـا ليس بكـذب . وكـذلـك قولـه : يـا سيء الخلق ، يـا صفيق الوجه يا ثلاباً للأعراض ، وكان ذلك فيه . وكذلك قوله : لو كان فيك حياء لما تكلمت ، ومـا أحقرك في عيني بما فعلت ، وأخزاك الله وانتقم منك .

فأما النميمة والغيبة والكذب وسب الوالدين فحرام بالاتفاق ، لما روي أنه كان بين خالـد بن الوليد وسعد كلام ، فذكر رجل خالداً عند سعد ، فقال سعد : مه إن ما بيننا لم يبلغ ديننـا . يعني : أن يأثم بعضنا في بعض ، فلم يسمع السوء فكيف يجوز له أن يقوله ؟

والدليل على جواز ما ليس بكذب ولا حرام كالنسبة إلى الزنا والفحش والسب ، فـذلـك لا يجوز لما روت عائشة رضي الله عنها أن أزواج النبي ﷺ أرسلن إليه فاطمة ، فجاءت فقـالت : يا رسول الله أرسلني إليك أزواجـك يسـألنـك العـدل في ابنـة أبي قحـافـة ، والنبي ﷺ نـائم ، فقـال : « يـا بنيـة أتحبين مـا أحب ؟ » قـالت نعم ، قـال : « فـأحبي هـذه » فرجعت إليهن فأخبرتهن بذلك فقلن : ما أغنيت عنا شيئاً . فـأرسلن زينب بنت جحش ، قـالت : وهي التي كانت تساميني في الحب فجاءت فقالت : بنت أبي بكر ، فما زالت تذكرني وأنا سـاكتة أنتظر أن يـأذن لي رسـول الله ﷺ في الجـواب فـأذن لي ، فسببتهـا حتى جف لسـاني فقـال النبي ﷺ :

---

(١) أخرجه أحمد .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه أبو داود متصلاً ومرسلاً قال البخاري المرسل أصح .

« كلا إنها ابنة أبي بكر »[١] يعني أنك لا تقاومينها في الكلام قط وقولها : سببتها ، ليس المراد به الفحش بل هو الجواب عن كلامها بالحق ومقابلتها بالصدق . وقال النبي ﷺ : « المستبّان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم »[٢] فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي : فهذا القدر هو الذي أباحه هؤلاء ، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إيذائه السابق . ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ولكن الأفضل تركه فإنه يجره إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حدّ الشرع فيه ، ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ، ولكن يعود سريعاً ، ومنهم من يكف نفسه في الابتداء ولكن يحقد على الدوام . والناس في الغضب أربعة : فبعضهم كالحلْفاء سريع الوقود سريع الخمود ، وبعضهم كالغضا بطيء الوقود بطيء الخمود ، وبعضهم بطيء الوقود سريع الخمود وهو الأحمد ما لم ينته إلى فتور الحمية والغيرة ، وبعضهم سريع الوقود بطيء الخمود وهذا هو شرهم . وفي الخبر « المؤمن سريع الغضب سريع الرضى فهذه بتلك » وقال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان . وقد قال أبو سعيد الخدري في الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ : « ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى : فمنهم بطيء الغضب سريع الفيء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفيء ، فتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطيء الفيء ، ألا وأن خيرهم البطيء الغضب السريع الفيء ، وشرهم السريع الغضب البطيء الفيء » . ولما كان الغضب يهيّج ويؤثّر في كل إنسان وجب على السلطان أن لا يعاقب أحداً في حال غضبه ، لأنه ربما يتعدى الواجب ، ولأنه ربما يكون متغيظاً عليه فيكون متشفيا لغيظه ومريحاً نفسه من ألم الغيظ ، فيكون صاحبه حظ نفسه ، فينبغي أن يكون انتقامه وانتصاره لله تعالى لا لنفسه .

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم .

القول في معنى الحقد ونتائجه وفضيلة العفو والرفق

اعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال رجع إلى الباطن واحتقن فيه فصار حقداً ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله ، والبغضة له ، والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى ، فالحقد ثمرة الغضب .

والحقد يثمر ثمانية أمور :

(**الأول**) الحسد : وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه ؛ فتغتمّ بنعمة إن أصابها ، وتسر بمصيبة إن نزلت به ، وهذا من فعل المنافقين .

(**الثاني**) أن تزيد على إضمار الحسد في الباطن ، فتشمت بما أصابه من البلاء .

(**الثالث**) أن تهجره وتصارمه وتنقطع عنه وإن طلبك وأقبل عليك .

(**الرابع**) وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له .

(**الخامس**) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب وغيبة وإفشاء سر وهتك ستر وغيره .

(**السادس**) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه .

(**السابع**) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه .

(**الثامن**) أن تمنعه حقه من قضاء دين أو صلة رحم أو ردّ مظلمة . وكل ذلك حرام .

وأقل درجات الحقد أن تحترز من الآفات الثمانية المذكورة ولا تخرج بسبب الحقد إلى ما تعصي الله به كأن تستثقله في الباطن ولا تنهى قلبك عن بغضه ، حتى تمتنع عما كنت تطوّع به من البشاشة والرفق والعناية والقيام بحاجاته والمجالسة معه على ذكر الله تعالى والمعاونة على المنفعة له ، أو بترك الدعاء له والثناء عليه أو التحريض على بره ومواساته . فهذا كله مما ينقص درجتك في الدين ويحول بينك وبين فضل عظيم وثواب جزيل وإن كان لا يعرّضك لعقاب الله .

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح ـ وكان قريبه ـ لكونه تكلم في واقعة الإفك ، نزل قوله تعالى : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **ألا**

تحبـون أن يغفر الله لكم ﴾ (النور : ٢٢) فقـال أبـو بكر : نعم نحب ذلـك وعـاد إلى الإنفـاق عليه[١] .

والأولى أن يبقى على مـا كان عليـه ، فـإن أمكنـه أن يزيـد في الإحسـان مجـاهـدة للنفس وإرغاماً للشيطان فذلـك مقـام الصـدّيقين ، وهو من فضـائل أعمـال المقرّبين . فللمحقُود ثلاثـة أحوال عند القدرة : (**أحدهـا**) أن يستوفي حقه الذي يستحقه من غير زيادة أو نقصـان وهو العدل . (**الثاني**) أن يحسن إليه بالعفو والصلة وذلك هو الفضل . (**الثالث**) أن يظلمـه بمـا لا يستحقه وذلك هو الجور ، وهو اختيار الأراذل ، والثاني : وهو اختيار الصـدّيقين ، والأول : وهو منتهى درجات الصالحين .

الفقرة العاشرة : في حبّ الدنيا

[قال تعالى :

﴿ **إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والـذين هم عن آيـاتنـا غـافلون أولئـك مـأواهم النـار بمـا كانوا يكسبـون** ﴾ (يونس : ٧) فحب الـدنيـا والاطمئنان لها ونسيان الآخرة يترتّب عليه كسب يستحق بـه صـاحبـه دخول النـار ، وبـأدنى تأمّل يستطيع الإنسان أن يعرف كسب أهل الدنيا الذي يستحقّون به النار ، إنّ طالب الدنيـا لا يهمّـه إلا قضـاء شهواتـه ولـذّاتـه والوصول إلى أطماعـه دون قيود ولا ضوابـط فهـو وراء المرأة والخمرة والكسب الحرام واللعب واللهو والزينة والفخر والجاه وكل ما يعتبره لذيـذاً أو مبهجـاً أو نافعاً أو رافعاً .

وتصوّر حـال البشريـة إذا أصبح همّ كل فرد من أفرادهـا ذلـك ؟ فعنـدئـذ لا تطلّع إلا إلى الأرض فلا تحقيق حق ولا إقامة عدل ولا انصراف لعبادة أو لعمل نبيل .

وقد عرّف الله عز وجل الدنيا في أكثر من مكان في كتـابـه ولم يحرمهـا كلّهـا لأن الكثير ممّـا يدخل في الدنيا لابدّ منه لإقامة الحياة البشرية ولكنّ الموقف من الدنيا عـامّـة ، ومن كل مفرد من مفرداتها يجب أن يكون منضبطاً بضوابـط الشرع ، ومن ههنـا يجب معرفـة حقيقـة الـدنيـا

---

(١) متفق عليه .

والمواقف منها ومن مفرداتها . قال تعالى :

﴿ **اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد** ﴾ (الحديد : ٢٠) وقال تعالى : ﴿ **زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ (آل عمران : ١٤) . والإنسان بطبيعته يميل إلى الدنيا وإلى مفرادتها . قال تعالى : ﴿ **بل تؤثرون الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى** ﴾ (الأعلى : ١٦ ، ١٧) .

والله عز وجل إنّما طالب العبد أن تكون الآخرة همّه وأن يقف من الدنيا على حذر ، وألا يكون كل همّه الدنيا وشهواتها ، وأن يضبط موقفه من كل مفرد من مفرداتها على ضوء التكليف . قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوفّ إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون * أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ (هود : ١٥ ، ١٦) .

﴿ **من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً** ﴾ (الإسراء : ١٨) .

﴿ **ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون** ﴾ (الأحقاف : ٢٠) فالاستكبار في الأرض والفسوق عن أمر الله كل ذلك أثر من آثار كون الدنيا هي الهدف الوحيد للإنسان ، ولذلك كان ضبط النفس على أمر الله في شأن الدنيا ، ومعالجة النفس من أهم ما يطالب به الإنسان ، ولعلّ هذه النقطة بالذات من أهم الفوارق بين أهل الكفر وأهل الإيمان .

إن فلسفة الغرب الرأسمالي والشرق الشيوعي وكثيرين من أبناء هذا العالم تقوم على أن الدنيا هي الهدف الوحيد ، ومن استهدف الآخرة من أبناء الأديان الأخرى من غير المسلمين يضلّون الطريق إلى الآخرة ، فلا جنة إلا بالإسلام .

ولذلك كان استهداف الآخرة من أهمّ ما ينبغي التذكير به والتربية عليه والدعوة له ،

للمسلمين وغير المسلمين ، وإنّما ينصبّ الكلام في هذا الكتاب على مخاطبة المسلم وقد اخترنا لك من كلام الغزالي ما تمس الضرورة إلى تذكّرة] .

بيان ذم الدنيا

الآيات الواردة في ذم الدنيا وأمثلتها كثيرة . وأكثر القرآن مشتمل على ذم الدنيا وصرف الخلق عنها ودعوتهم إلى الآخرة . بل هو مقصود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولم يبعثوا إلا لذلك ، فلا حاجة إلى الاستشهاد بآيات القرآن لظهورها ، وإنما نورد بعض الأخبار الواردة فيها . فقد روي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مرّ على شاة ميتة فقال : « أترون هذه الشاة هينة على أهلها ؟ » قالوا : من هوانها ألقوها . قال : « والذي نفسي بيده الدنيا أهون على الله من هذه الشاة على أهلها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء »[١] وقال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »[٢] وقال رسول الله ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها »[٣] وقال أبو موسى الأشعري : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى »[٤] وقال صلى الله عليه تعالى وآله وسلم : « حب الدنيا رأس كل خطيئة »[٥] وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب فأتي بماء وعسل ، فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه وسكتوا وما سكت : ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لا يقدرون على مسألته قال : ثم مسح عينيه فقالوا : يا خليفة رسول الله ما أبكاك ؟ قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أر معه أحداً ؛ فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك ؟ قال : هذه الدنيا مثّلت لي فقلت لها : إليك عني ثم رجعت فقالت : إنك إن أفلت مني لم يفلت مني من بعدك »[٦] وقال ﷺ : « إن

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصحح إسناده وآخره عند الترمذي وقال حسن صحيح ، وآخره لمسلم نحوه من حديث جابر .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وزاد « إلا ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم » .

(٤) أخرجه أحمد والبزار والطبراني وابن حبان والحاكم وصححه .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا والبيهقي في شعب الإيمان من رواية الحسن مرسلاً .

(٦) أخرجه البزار والحاكم وصحح إسناده .

الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب »[١] وقال ﷺ : « ألهاكم التكاثر يقول ابن آدم : مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأبقيت ؟ »[٢] وقال ﷺ : « إن الدنيا دار من لا دار له ، ومال من لا مال له ، ولها يجمع من لا عقل له ، وعليها يعادي من لا علم له ، وعليها يحسد من لا فقه له ، ولها يسعى من لا يقين له »[٣] وروي أن رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح فجاء بمال من البحرين ؛ فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلما صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرضوا له ، فتبسّم رسول الله ﷺ حين رآهم ثم قال : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء » قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : « فأبشروا وأمّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم »[٤] وقال أنس : كانت ناقة رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم العضباء لا تسبق فجاء أعرابي بناقة له فسبقها ، فشق ذلك على المسلمين فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : « إنه حق على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه »[٥] .

وقال أبو الدرداء : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولهانت عليكم الدنيا ولآثرتم الآخرة »[٦] .

الآثار : قال علي رضي الله عنه : من جمع فيه ست خصال لم يدع للجنة مطلباً ولا عن النار مهرباً ؛ أولها : من عرف الله وأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحق فاتبعه ، وعرف الباطل فاتقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها . وقال الحسن : رحم الله أقواماً كانت الدنيا عندهم وديعة فأدّوها إلى من ائتمنهم عليها ، ثم راحوا خفافاً . وقال رجل

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والشطر الأول متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه أحمد وزاد ابن أبي الدنيا والبيهقي في الشعب من طريقه « ومال من لا مال له » وإسناده جيد .

(٤) متفق عليه .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) أخرجه الطبراني والترمذي وابن ماجه وأول الحديث متفق عليه .

لأبي حازم : أشكو إليك حب الدنيا وليست لي بدار ، فقال : انظر ما آتاكه الله عز وجل منها فلا تأخذه إلا من حله ولا تضعه إلى في حقه . ولا يضرك حب الدنيا . وقال الفضيل : لو كانت الدنيا من ذهب يفنى والآخرة من خزف يبقى ؛ لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى . فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى ؟ وقال أبو سليمان الداراني : إن كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها ، فإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة لأن الآخرة كريمة والدنيا لئيمة . وهذا تشديد عظيم ونرجو أن يكون ما ذكره سيار بن الحكم أصح ، إذ قال : الدنيا والآخرة يجتمعان في القلب فأيها غلب كان الآخر تبعاً له . وقال مالك بن دينار : بقدر ما تحزن للدنيا يخرج هَمُّ الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج غمّ الدنيا من قلبك . وهذا اقتباس مما قاله عليّ كرم الله وجهه حيث قال : الدنيا والآخرة ضرتان ، فبقدر ما ترضي إحداهما تسخط الأخرى . وقال الحسن : والله لقد أدركت أقواماً كانت الدنيا أهون عليهم من التراب الذي تمشون عليه ، ما يبالون أشرقت الدنيا أم غربت ذهبت إلى ذا أو ذهبت إلى ذا ؟ وقال عمرو بن العاص على المنبر : والله ما رأيت قوماً قط أرغب فيما كان رسول الله ﷺ يزهد فيه منكم ، والله ما مر برسول الله ﷺ ثلاث إلا والذي عليه أكثر من الذي له[1] .

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها في حق العبد

اعلم أنّ معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي ؟ وما الذي ينبغي أن يجتنب منها وما الذي لا يجتنب ؟ فلابد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله ما هي ؟ فنقول : دنياك وآخرتك عبارة عن حالتين ، فالقريب الداني منها يسمى دنيا وهو كل ما قبل الموت ، والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهو ما بعد الموت ، فكل ما لك فيه حظ ونصيب وغرض وشهوة ولذة عاجل الحال قبل الوفاة فهي الدنيا في حقك إلا أنّ جميع ما لك إليه ميل وفيه نصيب وحظ فليس بمذموم بل هو ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل : ما يصحبك في الآخرة وتبقى معك ثمرته بعد الموت وهو شيئان : العلم والعمل فقط ؛ وأعني بالعلم : العلم بالله وصفاته وأفعاله وملائكته وكتبه ورسله وملكوت أرضه

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه ورواه أحمد وابن حبان بنحوه .

وسمائه والعلم بشريعة نبيه . وأعني بالعمل : العبادة الخالصة لوجه الله تعالى ، وقد يأنس العالم بالعلم حتى يصير ذلك ألذ الأشياء عنده فيهجر النوم والمطعم والمنكح في لذته لأنه أشهى عنده من جميع ذلك فقد صار حظاً عاجلاً في الدنيا . ولكنا إذا ذكرنا الدنيا المذمومة لم نعد هذا من الدنيا أصلاً بل قلنا إنه من الآخرة ، وكذلك العابد قد يأنس بعبادته فيستلذها بحيث لو منع عنها لكان ذلك أعظم العقوبات عليه ، حتى قال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل ، وكان آخر يقول : اللهم ارزقني قوّة الصلاة والركوع والسجود في القبر . فهذا قد صارت الصلاة عنده من حظوظه العاجلة ، وكل حظ عاجل فاسم الدنيا ينطلق عليه من حيث الاشتقاق من الدنوّ ، ولكنا لسنا نعني بالدنيا المذمومة ذلك ، وقد قال ﷺ : « حُبِّبَ إليّ من دنياكم : النساء والطيب وجعلت قرّة عيني في الصلاة »[١] فجعل الصلاة من جملة ملاذ الدنيا . وكذلك كل ما يدخل في الحس والمشاهدة فهو من عالم الشهادة وهو من الدنيا ، والتلذذ بتحريك الجوارح بالركوع والسجود إنما يكون في الدنيا ، فلذلك أضافها إلى الدنيا ، إلا أنا لسنا في هذا الكتاب نتعرض إلا للدنيا المذمومة ، فنقول هذه ليست من الدنيا .

القسم الثاني : وهو المقابل له على الطرف الأقصى كل ما فيه حظ عاجل ولا ثمرة له في الآخرة أصلاً كالتلذذ بالمعاصي كلها ، والتنعم بالمباحات الزائدة على قدر الحاجات ، والضرورات الداخلة في جملة الرفاهية والرعونات ، كالتنعم بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ، والغلمان والجواري والخيول والمواشي والقصور والدور ورفيع الثياب ولذائذ الأطعمة ، فحظ العبد من هذا كله هي الدنيا المذمومة ، وفيما يعدّ فضولاً أو في محل الحاجة نظر طويل .

القسم الثالث : وهو متوسط بين الطرفين كل حظ في العاجل معين على أعمال الآخرة كقدر القوت من الطعام والقميص الواحد الخشن . وكل ما لابد منه ليتأتى للإنسان البقاء والصحة التي بها يتوصل إلى العلم والعمل . وهذا ليس من الدنيا كالقسم الأول ، لأنه معين على القسم الأول ووسيلة إليه . فمها تناوله العبد على قصد الاستعانة به على العلم والعمل لم يكن به متناولاً للدنيا ولم يصر به من أبناء الدنيا ، وإن كان باعثه الحظ العاجل دون الاستعانة على

---

(١) أخرجه النسائي والحاكم .

التقوى التحق بالقسم الثاني ، وصار من جملة الدنيا . ولا يبقى مع العبد عند الموت إلا ثلاث صفات : صفاء القلب ، أعني طهارته عن الأدناس ، وأنسه بذكر الله تعالى ، وحبه لله عز وجل . وصفاء القلب وطهارته لا يحصلان إلا بالكف عن شهوات الدنيا ، والأُنس لا يحصل إلا بكثرة ذكر الله تعالى والمواظبة عليه ، والحب لا يحصل إلا بالمعرفة . ولا تحصل معرفة الله إلا بدوام الفكر وهذه الصفات الثلاث هي المنجيات المسعدات بعد الموت .

بيان حقيقة الدنيا في نفسها وأشغالها التي استغرقت هِمَمَ الخلق حتى أنستهم أنفسهم وخالقهم ومصدرهم وموردهم

اعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان فيها حظ وله في إصلاحها شغل . فهذه ثلاثة أمور قد يظن أن الدنيا عبارة عن آحادها وليس كذلك ، أما الأعيان الموجودة التي الدنيا عبارة عنها فهي الأرض وما عليها . قال الله تعالى : ﴿ **إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً** ﴾ (الكهف : ٧) فالأرض فراش للآدميين ومهاد ومسكن ومستقر ، وما عليها لهم ملبس ومطعم ومشرب ومنكح .

ويجمع ما على الأرض ثلاثة أقسام : المعادن والنبات والحيوان . أما النبات : فيطلبه الآدمي للاقتيات والتداوي ، وأما المعادن : فيطلبها للآلات والأواني ، كالنحاس والرصاص ، وللنقد ، كالذهب والفضة ، ولغير ذلك من المقاصد . وأما الحيوان : فينقسم إلى الإنسان والبهائم . أما البهائم : فيطلب منها لحومها للمآكل ، وظهورها للمركب والزينة . وأما الإنسان : فقد يطلب الآدمي أن يملك أبدان الناس ليستخدمهم ويستسخرهم كالغلمان ؛ أو ليتمتع بهم كالجواري والنسوان ؛ ويطلب قلوب الناس ليملكها بأن يغرس فيها التعظيم والإكرام وهو الذي يعبر عنه بالجاه ؛ إذ معنى الجاه ملك قلوب الآدميين . فهذه هي الأعيان التي يعبر عنها بالدنيا وقد جمعها الله تعالى في قوله : ﴿ **زُيِّن للناس حب الشهوات من النساء والبنين** ﴾ وهذا من الإنس ﴿ **والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة** ﴾ وهذا من الجواهر والمعادن ؛ وفيه تنبيه على غيرها من اللآلىء واليواقيت وغيرها ﴿ **والخيل المسوَّمة والأنعام** ﴾ وهي البهائم والحيوانات ﴿ **والحرث** ﴾ (آل عمران : ١٤) وهو النبات والزرع .

فهذه هي أعيان الدنيا ، إلا أن لها مع العبد علاقتين :

علاقة مع القلب وهو حبه لها وحظه منها وانصراف هَمِّه إليها ، حتى يصير قلبه كالعبد أوالمحب المستهتر بالدنيا ، ويدخل في هذه العلاقة جميع صفات القلب المعلقة بالدنيا كالكبر والغل والحسد والرياء والسمعة وسوء الظن والمداهنة وحب الثناء وحب التكاثر والتفاخر وهذه هي الدنيا الباطنة . وأما الظاهرة فهي الأعيان التي ذكرناها .

العلاقة الثانية مع البدن : وهو اشتغاله بإصلاح هذه الأعيان لتصلح لحظوظه وحظوظ غيره ، وهي جملة الصناعات والحرف التي الخلق مشغولون بها ، والخلق إنما نسوا أنفسهم ومآبهم ومنقلبهم بالدنيا لهاتين العلاقتين علاقة القلب بالحب وعلاقة البدن بالشغل ، ولو عرف نفسه وعرف ربه وعرف حكمة الدنيا وسرها علم أن هذه الأعيان التي سميناها دنيا لم تخلق إلا لعلف الدابة التي يسير بها إلى الله تعالى ، وأعني بالدابّة البدن ، فإنه لا يبقى إلا بمطعم ومشرب وملبس ومسكن كما لا يبقى الجمل في طريق الحج إلا بعلف وماء وجلال .

فأشغال الخلق وأعمالهم التي أكبوا عليها ، وجرهم إليها الحاجة إلى القوت والكسوة ولكنهم نسوا في أثناء ذلك أنفسهم ومقصودهم ومنقلبهم ومآبهم فتاهوا وضلوا ، وسبق إلى عقولهم الضعيفة بعد أن كدَّرتها زحمة الاشتغالات بالدنيا خيالات فاسدة ، فانقسمت مذاهبهم واختلفت آراؤهم على عدة أوجه :

فطائفة غلبهم الجهل والغفلة ، فلم تنفتح أعينهم للنظر إلى عاقبة أمورهم فقالوا : المقصود أن نعيش أياماً في الدنيا فنجهد حتى نكسب القوت ، ثم نأكل حتى نقوى على الكسب ، ثم نكسب حتى نأكل ، فيأكلون ليكسبوا ، ثم يكسبون ليأكلوا ، وهذا مذهب من ليس له تنعم في الدنيا ، ولا قدم في الدين ، فإنه يتعب نهاراً ليأكل ليلاً ، ويأكل ليلاً ليتعب نهاراً ، وذلك كسير السواني فهو سفر لا ينقطع إلا بالموت .

وطائفة أخرى زعموا أنهم تفطنوا للأمر : وهو أنه ليس المقصود أن يشقى الإنسان بالعمل ولا يتنعم في الدنيا ، بل السعادة في أن يقضي وطره من شهوة الدنيا وهي شهوة البطن والفرج ، فهؤلاء نسوا أنفسهم وصرفوا هممهم إلى اتباع النسوان ، وجمع لذائذ الأطعمة ، يأكلون كما تأكل الأنعام ويظنون أنهم إذا نالوا ذلك فقد أدركوا غاية السعادة ؛ فشغلهم ذلك عن الله تعالى وعن اليوم الآخر .

وطائفة ظنوا أنّ السعادة في كثرة المال والاستغناء بكثرة الكنوز ، فأسهروا ليلهم وأتعبوا نهارهم في الجمع ، فهم يتعبون في الأسفار طول الليل والنهار ، ويترددون في الأعمال الشاقة ، ويكتسبون ويجمعون ولا يأكلون إلا قدر الضرورة شحاً وبخلاً عليها أن تنقص ، وهذه لذتهم وفي ذلك دأبهم وحركتهم إلى أن يدركهم الموت ، فيبقى تحت الأرض أو يظفر به من يأكله في الشهوات واللذات ، فيكون للجامع تعبه ووباله وللآكل لذته . ثم الذين يجمعون ينظرون إلى أمثال ذلك ولا يعتبرون .

وطائفة ظنوا أن السعادة في حسن الاسم وانطلاق الألسنة بالثناء والمدح بالتجمل والمروءة ، فهؤلاء يتعبون في كسب المعاش ويضيّقون على أنفسهم في المطعم والمشرب ويصرفون جميع ما لهم إلى الملابس الحسنة والدواب النفيسة ، ويزخرفون أبواب الدور وما يقع عليها أبصار الناس حتى يقال إنه غني ، وإنه ذو ثروة ، ويظنون أن ذلك هو السعادة ، فهمتهم في نهارهم وليلهم في تعهد موقع نظر الناس .

وطائفة أخرى ظنوا أن السعادة في الجاه والكرامة بين الناس وانقياد الخلق بالتواضع والتوقير ، فصرفوا هممهم إلى استجرار الناس إلى الطاعة لطلب الولايات وتقلد الأعمال السلطانية لينفذ أمرهم بها على طائفة من الناس ، ويرون أنهم إذا اتسعت ولايتهم ، وانقادت لهم رعاياهم ، فقد سعدوا سعادة عظيمة ، وأن ذلك غاية المطلب . وهذا أغلب الشهوات على قلوب الغافلين من الناس ، فهؤلاء شغلهم حب تواضع الناس لهم عن التواضع لله وعن عبادته ، وعن التفكر في آخرتهم ومعادهم .

ووراء هؤلاء طوائف يطول حصرها تزيد على نيف وسبعين فرقة ، كلهم قد ضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ، وإنما جرّهم إلى جميع ذلك حاجة المطعم والملبس والمسكن ، ونسوا ما تراد له هذه الأمور الثلاثة ، والقدر الذي يكفي منها . وانجرّت بهم أوائل أسبابها إلى أواخرها ، وتداعى بهم ذلك إلى مهاو لم يمكنهم الرقيّ منها ، فمن عرف وجه الحاجة إلى هذه الأسباب والأشغال ، وعرف غاية المقصود منها ، فلا يخوض في شغل وحرفة وعمل إلا وهو عالم بمقصوده وعالم بحظه ونصيبه منه ، وأن غاية مقصوده تعهد بدنه بالقوت والكسوة حتى لا يهلك ، وذلك إن سلك فيه سبيل التقليل اندفعت الأشغال عنه وفرغ القلب وغلب عليه ذكر الآخرة ، وانصرفت الهمة إلى الاستعداد له ، وإن تعدّى به قدر الضرورة كثرت الأشغال وتداعى البعض

إلى البعض وتسلسل إلى غير نهاية ، فتتشعب به الهموم ومن تشعبت به الهموم في أودية الدنيا فلا يبالي الله في أي واد أهلكه منها . فهذا شأن المنهمكين في أشغال الدنيا . وتنبه لذلك طائفة فأعرضوا عن الدنيا فحسدهم الشيطان ولم يتركهم ، وأضلهم في الإعراض أيضاً حتى انقسموا إلى طوائف :

فظنت طائفة أن الدنيا دار بلاء ومحنة ، والآخرة دار سعادة لكل من وصل إليها ، سواء تعبّد في الدنيا أو لم يتعبّد ، فرأوا أن الصواب في أن يقتلوا أنفسهم للخلاص من محنة الدنيا ، وإليه ذهب طوائف من أهل الهند فهم يتهجمون على النار ، ويقتلون أنفسهم بالإحراق ، ويظنون أن ذلك خلاص لهم من محن الدنيا .

وظنت طائفة أخرى أن القتل لا يخلص بل لابد أولاً من إماتة الصفات البشرية وقطعها عن النفس بالكلية ، وأن السعادة في قطع الشهوة والغضب ، ثم أقبلوا على المجاهدة وشددوا على أنفسهم ، حتى هلك بعضهم بشدّة الرياضة ، وبعضهم فسد عقله وجن . وبعضهم مرض وانسد عليه الطريق في العبادة . وبعضهم عجز عن قمع الصفات بالكلية ؛ فظن أن ما كلفه الشرع محال ، وأن الشرع تلبيس لا أصل له فوقع في الإلحاد . وظهر لبعضهم أن هذا التعب كله لله ، وأن الله تعالى مستغن عن عبادة العباد لا ينقصه عصيان عاص ولا تزيده عبادة متعبد ، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة ، وطووا بساط الشرع والأحكام ، وزعموا أن ذلك من صفاء توحيدهم حيث اعتقدوا أن الله مستغن عن عبادة العباد .

وظن طائفة أن المقصود من العبادات المجاهدة حتى يصل العبد بها إلى معرفة الله تعالى ، فإذا حصلت المعرفة فقد وصل ، وبعد الوصول يستغني عن الوسيلة والحيلة ، فتركوا السعي والعبادة وزعموا أنه ارتفع محلهم في معرفة الله سبحانه عن أن يمتهنوا بالتكاليف ، وإنما التكليف على عوام الخلق .

ووراء هذا مذاهب باطلة وضلالات هائلة يطول إحصاؤها إلى ما يبلغ نيفاً وسبعين فرقة ، وإنما الناجي منها فرقة واحدة ؛ وهي السالكة ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وهو أن لا يترك الدنيا بالكلية ولا يقمع الشهوات بالكلية . أما الدنيا فيأخذ منها قدر الزاد . وأما الشهوات فيقمع منها ما يخرج عن طاعة الشرع والعقل . ولا يتبع كل شهوة ولا يترك كل شهوة ، بل يتبع العدل ولا يترك كل شيء من الدنيا ، ولا يطلب كل شيء من

الدنيا بل يعلم مقصود كل ما خلق من الدنيا ويحفظه على حد مقصوده ، فيأخذ من القوت ما يقوى به البدن على العبادة ومن المسكن ما يحفظ عن اللصوص والحر والبرد ، ومن الكسوة كذلك ، حتى إذا فرغ القلب من شغل البدن أقبل على الله تعالى بكنه همته واشتغل بالذكر والفكر طول العمر ، وبقي ملازماً لسياسة الشهوات ومراقباً لها حتى لا يجاوز حدود الورع والتقوى ، ولا يعلم تفصيل ذلك إلا بالاقتداء بالفرقة الناجية وهم الصحابة فإنه عليه الصلاة والسلام لما قال : « الناجي منها واحدة » قالوا : يا رسول الله ومن هم ؟ قال : « أهل السنة والجماعة » فقيل : ومن أهل السنة والجماعة ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابي »[١] وقد كانوا على النهج القصد وعلى السبيل الواضح الذي فصّلناه من قبل ، فإنهم ما كانوا يأخذون الدنيا للدنيا بل للدين ، وما كانوا يترهبون ويهجرون الدنيا بالكلية ، وما كان لهم في الأمور تفريط ولا إفراط ، بل كان أمرهم بين ذلك قواماً ، وذلك هو العدل والوسط بين الطرفين وهو أحب الأمور إلى الله تعالى ـ كما سبق ذكره في مواضع ـ والله أعلم .

[أقول : إذا تعيّن مسلم لفرض كفاية ، أصبح ذلك في حقه فرض عين فإذا قام به وصحت نيته فيه فذلك من أعمال الآخرة ، وإن كان ظاهره من الدنيا ، كالرئاسة والسياسة والتجارة الدولية ، وإقامة المؤسسات وإيجاد صناعات ولو ملك المليارات ما قام بحق الله وكانت نيته لله] .

الفقرة الحادية عشرة : في اتباع الهوى

[إذا تأمّلت أمراض الحياة البشرية كلها : الكبر والعجب والحسد وحب الجاه والدنيا والزنا والفواحش والغيبة والنميمة ، وكل ما يخطر على بالك من أمراض فإنّك تجد وراءه شيئاً واحداً هو اتّباع الهوى ، فالهوى في الأصل : هو ميل النفس الخاطىء ولخطورة اتّباع الهوى قال تعالى : ﴿ **ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض** ﴾ (المؤمنون : ٧١) .

ولأن الدافع لاتّباع الهوى هو النفس درج على ألسنة السالكين (أعدى عدوّك نفسك التي بين جنبيك) بل أعدى عدو للحياة البشرية كلّها هو متابعة كل إنسان هواه . وإذ كانت النجاة من هذا هو تزكية النفس على مقتضى الكتاب والسنّة ، وحمل النفس على متابعة

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه . ولأبي داود وابن ماجه « وهي الجماعة » وأسانيدها جياد .

الكتاب والسنّة ، إذا كانت النجاة في ذلك ، فكم هي جريمة الإنسان في حق نفسه وفي حقّ هذا العالم إذ يرفض وحي الله أو يحاربه أو يحول بينه وبين التطبيق ، وإذ كان كل ما في هذا الكتاب يخدم في معالجة اتباع الهوى ، وإذ كان كل ما كتب في الإسلام وعن الإسلام هو نوع معالجة لاتباع الهوى ، وإذ كان الكتاب والسنّة جاءا لضبط أهواء البشر فإنّنا نكتفي بهذه الإشارة ههنا لتذكير المسلم بضرورة ضبط الهوى .

﴿ فأما من طغى * وآثر الحياة الدنيا * فإنّ الجحيم هي المأوى ﴾
(النازعات : ٣٧ ـ ٣٩) .

﴿ وأمّا من خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى* فإن الجنّة هي المأوى ﴾
(النازعات : ٤٠ ، ٤١) .

وبعد : فهذه إحدى عشرة فقرة في أخطر الأمراض التي يجب أن تتطهّر منها النفس البشرية ، وكنّا قلنا من قبل : إن تزكية النفس تدور على ثلاثة معان : تطهّر وتحقّق وتخلّق ، تطهّر من أخلاق وتحقّق بمقامات وتخلّق بأسماء وصفات ، وقد كان الفصل الأول في التطهّر ، وها نحن مقبلون على الفصل الثاني وهو في تحقّق النفس في مقامات الإيمان واليقين وسنذكر أمّهات هذه المقاماتِ في اثنتي عشرة فقرة فإلى الفصل الثاني من هذا الباب الذي يتحدث عن ماهية زكاة النفس] .

☆ ☆ ☆

الفصل الثاني
في التحقق

ويدخل فيه :

الفقرة الأولى : التوحيد والعبودية والعبادة .
الفقرة الثانية : الإخلاص .
الفقرة الثالثة : الصدق مع الله .
الفقرة الرابعة : الزهد .
الفقرة الخامسة : التوكل .
الفقرة السادسة : محبة الله .
الفقرة السابعة : الخوف والرجاء .
الفقرة الثامنة : التقوى والورع .
الفقرة التاسعة : الشكر .
الفقرة العاشرة : الصبر والتسليم والرضا .
الفقرة الحادية عشرة : المراقبة والمشاهدة (الإحسان) .
الفقرة الثانية عشرة : التوبة المستمرة .

تقديم

[إنّ المقام الأرقى للإنسان والذي تنبثق عنه بعد ذلك المقامات الراقية كلّها هو مقام العبودية القائم على التوحيد ، فمن هذا المقام ينبثق الإخلاص والصدق والشكر والزهد والتوكّل والخوف والرجاء والمحبّة والتقوى ، ولذلك جعلنا الفقرة الأولى في هذا الفصل في التوحيد والعبودية ثم ذكرنا بعد ذلك بقية مقامات القلوب هذه . وتحقّق القلب بهذه المقامات من الفرائض الربانية على الإنسان ، ولذلك كان لابدّ من بذل الجهد فيه والسير في الطريق الذي يحقّق ذلك] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى : في التوحيد والعبودية

[بُعِثَ الرسل عليهم الصلاة والسلام جميعاً بالتوحيد والعبودية :

﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنّه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (الأنبياء : ٢٥) .

﴿ **ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنّه لا إله إلا أنا فاتّقون** ﴾ (النحل : ٢) .

وتوالي إرسال الرسل من أجل هذا الهدف الأرقى يدلّ على أهميته الكبرى كما يدلّ على أنّ الانحراف عنه مستمر عند الإنسان فاقتضى ذلك تجديده بين الفينة والأخرى .

حتى إذا بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه كتاب التوحيد المعجز الخالد فلم تعد البشرية تحتاج إلى بعثة جديدة ، ولكنّ واجب الأمة الإسلامية أن تبلّغ ، وواجب كل مسلم أن يعمّق في قلبه معاني التوحيد والعبودية .

إن التوحيد والعبودية هي البداية والنهاية والوسط في حق كل إنسان وفي حق كل تصرّف ولذلك فهما كالماء للأحياء وكالهواء للإنسان وكالروح للحي تتغلغل في الأجزاء والأعضاء وفي المقاصد والأعمال ، ومن ههنا فإنّ الربانيين يعتبرون التركيز على معاني العبودية والتوحيد هو المهم الأوّل لهم ، والمهم الأعلى عندهم .

إن العبودية عندهم هي أرقى المقامات على الإطلاق ، ألا ترى إلى وصف رسول الله ﷺ بذلك حيث المقامات العالية الرفيعة :

﴿ **سبحان الذي أسرى بعبده** ﴾ (الإسراء : ١) .

﴿ **الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ....** ﴾ (الكهف : ١) .

فإذا وصف رسول الله ﷺ بمناسبة الإسراء والمعراج وبمناسبة نعمة إنزال الكتاب بالعبودية فذلك تذكير بأصل الوضع الصحيح للإنسان مع الله :

﴿ **لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقرّبون** ﴾ (النساء : ١٧٢) .

والعبودية معرفة بالله وعبادة له ، وسلوك على مقتضى هديه ، والمسلم أبداً في ترقّ دائم في هذه الأشياء الثلاثة .

* * *

وقد اتفق أهل السلوك إلى الله على أنّ التوحيد هو البداية والنهاية فما من ترقٍّ إلا وهو أثر عن التوحيد ويصبّ في التوحيد ، واعتمدوا لتعميق التوحيد نوعاً من التدرّج في السير يزن به الإنسان قرب نفسه أو بعدها من كمالات التوحيد .

فعندهم كي يتحقّق الإنسان بكمالات التوحيد : لابدّ أن يمرّ بما يسمّونه فناء في الأفعال ، ثم الفناء في الصفات ، ثم الفناء في الأحكام ، ثم الفناء في الالتزام والعمل ، وكل ذلك ليكون موحّداً خالصاً .

ومعاني هذه الاصطلاحات موجودة في الكتاب والسنّة وإنّما ضلّ من ضل لجهل أو لعدم وضع الأمور في مواضعها .

إن انتقال الإنسان من التوحيد العقلي إلى التوحيد الذوقي هو مضمون السير إلى الله ، فأن يحسّ قلبك أن كل شيء هو فعل الله وخلقه ﴿ الله خالق كل شيء ﴾ (الزمر : ٦٢) فهذا هو الفناء في الأفعال ، وأن تحسّ في ذاتك أنّه لا حول لك إلا بالله وأنّه لا قوّة لك إلا بالله ، وأن تتخلّق بما يجب التخلّق به من أسماء الله الحسنى على مقتضى العبودية فذلك هو الفناء في الصفات ، وأن يتذوّق قلبك التسليم لأحكام الله وشريعته ، والتسليم لله في حكمه فيك فذلك الفناء في الأحكام ، وأن تبذل منتهى الجهد في القيام بالتكليف كلّه عبودية لله صلاة وجهاداً وكسباً وغير ذلك ، فذلك هو الفناء في الالتزام والعمل ، وذلك كلّه توحيد .

والذكر بمفهومه الواسع هو وسيلة السير ، والمراد بالذكر ههنا : الصلاة والصوم والحج وتلاوة القرآن والتسبيح والتحميد والتكبير والاستغفار والصلاة على رسول الله ﷺ والدعوات فكل ذلك ذكر .

والمذاكرة مع أهل الصلاح والاجتماع مع أهل الخير والانتماء لأهل الحق ، والانخراط في البيئات الصالحة كل ذلك وسائل تعمّق تذوّق التوحيد .

ولقد كتبنا هذه الإشارات هنا ليتكامل عرضنا لموضوع التزكية .

وهـا نحن ننتقل بـك إلى ثمرة من ثمرات التوحيـد وهو الإخلاص ، مختـارين لـك من كلام الغزالي ما تمسّ الحاجة إليه] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية : في الإخلاص

قال الغزالي : بيان حقيقة الإخلاص

اعلم أنّ كل شيء يتصوّر أن يشوبه غيره ، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصاً ، ويسمى الفعل المصفى المخلص : إخلاصاً . قال الله تعالى : ﴿ **من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين** ﴾ (النحل : ٦٦) فإنما خلوص اللبن أن لا يكون فيه شوب من الدم والفرث ، ومن كل ما يمكن أن يمتزج به ، والإخلاص يضاده الإشراك ، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك ، إلا أن الشرك درجات ، فالإخلاص وضدّه يتواردان على القلب ، فمحله القلب وإنما يكون ذلك في القصود والنيات . وقد ذكر حقيقة النية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث ، فمهما كان الباعث واحداً على التجرد سمى الفعل الصادر عنه إخلاصاً بالإضافة إلى المنوي ، فمن تصدّق وغرضه محض الرياء فهو مخلص ، ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص . ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب ، كما أن الإلحاد عبارة عن الميل ولكن خصصته العادة بالميل عن الحق ، ومن كان باعثه مجرد الرياء فهو معرض للهلاك .

وإنما نتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث الآخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس . ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب . أو يعتق عبداً ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه ، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر ، أو يتخلص من شر يعرض له في بلده ، أو ليهرب عن عدوّ له في منزله ، أو يتبرم بأهله وولده ، أو بشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياماً . أو ليغزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيئة العساكر وجرها . أو يصلي بالليل وله غرض في دفع النعاس عن نفسه به وليراقب أهله أو رحله . أو يتعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيزاً بين العشيرة ، أو ليكون عقاره أو ماله محروساً بعز العلم عن الأطماع . أو اشتغل بالدرس والوعظ ليتخلص عن كرب الصمت ويتفرج بلذة الحديث . أو تكفل بخدمة العلماء لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس ، أو لينال به رفقاً في الدنيا . أو كتب مصحفاً ليجوّد بالمواظبة

على الكتابة خطة . أو حجّ ماشياً ليخفف عن نفسه الكراء . أو توضأ ليتنظف أو يتبرد . أو اغتسل لتطيب رائحته . أو روى الحديث ليعرف بعلوّ الإسناد أو اعتكف في المسجد ليخفف كراء المسكن . أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبخ الطعام أو ليتفرّغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها . أو تصدّق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه . أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض . أو يشيع جنازة لتشيّع جنائز أهله أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير يذكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار ، فمها كان باعثه هو التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات ، حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور ، فقد خرج عمله عن حدّ الإخلاص ، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك . [إلا إذا كان له في مراده الآخر نية صالحة فعندئذ يرجى أن يكون مأجوراً على الفعل الأول والثاني ، بل كان بعضهم يحاول أن يجعل له في الفعل الواحد نيات كثيرة ليزداد أجره ، لكن الناس تغلب عليهم الغفلة فتشوب أعمالهم شوائب تنقص أجورهم ، أو تحبط أعمالهم ، لذلك فإن على سلاّك طريق الآخرة أن يدققوا في أعمالهم وأن يجددوا نياتهم ، وليس كل مراد في عمل يحبط العمل ، فمن صام قاصداً التقرب إلى الله تعالى والصحة لا حرج عليه ، وهو إذا نوى في الصحة التقويّ على أعمال الخير يزداد أجره أما إذا أراد الصحة لحظ نفسي ، فإن أجر التجرد لله أكثر ، ودقائق هذه الأمور تحتاج إلى علم وملاحظة للنيات] .

وبالجملة ، كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويميل إليه القلب ـ قلّ أم كثر ـ إذا تطرق إلى العمل تكدّر به صفوه ، والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهواته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس . فلذلك قيل : من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا . وذلك لعزة الإخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب ، بل الخالص هو الذي لا باعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى . وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يخفى شدّة الأمر على صاحبه فيها ، وإنما نظرنا فيما إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ، ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة الموافقة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة وبالجملة ، فإما أن يكون الباعث النفسي مثل الباعث الديني أو أقوى منه أو أضعف ، ولكل واحد حكم .

[فإذا كان الباعث الثاني مباحاً فله حكم ، وإذا كان مطلوباً فله حكم ، وإذا كان حراماً فله حكم] .

فمعرفة حقيقة الإخلاص والعمل به بحر عميق يغرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والفرد الفذ وهو المستثنى في قوله تعالى : ﴿ **إلا عبادك منهم المُخْلَصين** ﴾ (الحجر : ٤٠) فليكن العبد شديد التفقد والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق بأتباع الشياطين وهو لا يشعر .

[وإذ كان من ثمرات التوحيد الصدق مع الله . فليكن ذلك موضوع الفقرة الثالثة] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة : في الصدق مع الله

قال الغزالي : فضيلة الصدق

قال الله تعالى : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ (الأحزاب : ٢٣) وقال النبي ﷺ : « إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[1] ويكفي في فضيلة الصدق أن الصدّيق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال : ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صدّيقاً نبيا** ﴾ (مريم : ٤١) وقال : ﴿ **واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيا** ﴾ (مريم : ٥٤) وقال تعالى : ﴿ **واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبيا** ﴾ (مريم : ٥٦) وقال ابن عباس : أربع من كنّ فيه فقد ربح : الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر . وقال بشر بن الحارث : من عامل الله بالصدق استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرملي : رأيت منصور الدينوري في المنام فقلت له : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل ، فقلت له : أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا ؟ قال : الصدق وأقبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان : اجعل الصدق مطيتك ، والحق سيفك ، والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل لحكيم : ما رأيت صادقاً ! فقال له : لو كنت صادقاً لعرفت الصادقين . وعن محمد بن عليّ الكناني قال : وجدنا دين الله تعالى مبنياً على ثلاثة أركان : على الحق والصدق والعدل ، فالحق على الجوارح ، والعدل على القلوب ، والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى : ﴿ **ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة** ﴾ (الزمر : ٦٠) قال : هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين .

وقال بعضهم : أجمع الفقهاء والعلماء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ـ ولا يتم بعضها إلا ببعض ـ الإسلام الخالص عن البدعة والهوى ، والصدق لله تعالى في الأعمال ، وطيب المطعم .

---

(١) متفق عليه .

وقيل لسهل : ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه ؟ فقال : الصدق والسخاء والشجاعة . فقيل : زدنا ، فقال : التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن الجنيد في قوله تعالى : ﴿ **ليسأل الصادقين عن صدقهم** ﴾ (الأحزاب : ٨) قال : يسأل الصادقين عند أنفسهم عن صدقهم عند ربهم ، وهذا أمر على خطر .

بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان : صدق في القول ، وصدق في النية والإرادة ، وصدق في العزم ، وصدق في الوفاء بالعزم ، وصدق في العمل ، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها ، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة في الصدق . ثم هم أيضاً على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه .

(**الصدق الأول**) صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار ، أو فيما يتضمن الإخبار وينبه عليه ، والخبر إما أن يتعلق بالماضي أو المستقبل ، وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا الصدق ، وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها . فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق .

(**الصدق الثاني**) في النية والإرادة : ويرجع ذلك إلى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا لله تعالى ، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذباً ـ كما روينا في فضيلة الإخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيما علمت ؟ فقال : فعلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى : كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم[1] ـ فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته . وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد . وكذلك قول الله تعالى : ﴿ **والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون** ﴾ (المنافقون : ١) وقد قالوا : إنك لرسول الله وهذا صدق ، ولكن كذّبهم لا من حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب . فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الإخلاص فكل صادق فلابدّ وأن يكون مخلصاً .

---

(١) أخرجه مسلم .

(الصدق الثالث) صدق العزم : فإن الإنسان قد يقدّم العزم على العمل فيقول في نفسه : إن رزقني الله مالاً تصدّقت بجميعه ـ أو بشطره ـ أو إن لقيت عدوّاً في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قُتلت ، وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق . فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة ، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة ، فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوّة كما يقال : لفلان شهوة صادقة . ويقال : هذا المريض شهوته كاذبة ، مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوي أو كانت ضعيفة ، فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى . والصادق والصديق هو الذي تصادف عزيمته في الخيرات كلها قوّة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد ؛ بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ. فإنه قد وجد من نفسه العزم الجازم ، والمحبة الصادقة بأنه لا يتأمر مع وجود أبي بكر رضي الله عنه ، وأكد ذلك بما ذكره من القتل .

(الصدق الرابع) في الوفاء بالعزم : فإنّ النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة ، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم ، وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾ (الأحزاب : ٢٣) فقد روي عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال : أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه ، أما والله لئن أراني الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع! قال: فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: ياأبا عمرو إلى أين ؟ فقال : واهاً لريح الجنة ! إني أجد ريحها دون أحد . فقاتل حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر : ما عرفت أخي إلا بشامة أو ببنانه ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه** ﴾[1] ووقف رسول الله ﷺ على مصعب بن عمير ـ وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيداً ـ وكان صاحب لواء

---

(١) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في الكبرى وهو عند البخاري مختصراً أن هذه الآية نزلت في أنس بن النضر .

رسول الله فقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ **رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر** ﴾[١] وقال فضالة بن عبيد : سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهداء أربعة : رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذي يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ـ ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته ـ قال الراوي : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله ﷺ ـ ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدوّ فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أتاه سهم غائر فقتله فهو في الدرجة الثانية ، ورجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الثالثة ، ورجل أسرف على نفسه لقي العدوّ فصدق الله حتى قتل فذلك في الدرجة الرابعة »[٢] وقال مجاهد : رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود فقالا : إن رزقنا الله تعالى مالاً لنصدّقن فبخلوا به فنزلت : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين** ﴾ وقال بعضهم : إنما هو شيء نووه في أنفسهم لم يتكلموا به فقال : ﴿ **ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين * فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون * فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون** ﴾ (التوبة : ٧٥ ـ ٧٧) فجعل العزم عهداً ، وجعل الخلف فيه كذباً ، والوفاء به صدقاً . وهذا الصدق أشدّ من الصدق الثالث ، فإنّ الناس قد تسخو بالعزم ثم تكيع عند الوفاء لشدّته عليها ، ولهيجان الشهوة عند التمكن وحصول الأسباب . ولذلك استثنى عمر رضي الله عنه فقال : لأن أقدم فتضرب عنقي أحب إليّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسوّل لي نفسي عند القتل شيئاً لا أجده الآن لأني لا آمن أن يثقل عليها ذلك فتتغير عن عزمها . أشار بذلك إلى شدّة الوفاء بالعزم .

(**الصدق الخامس**) في الأعمال : وهو أن يجتهد حتى لاتدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به ، لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجرّ الباطن إلى تصديق الظاهر ، وهذا مخالف ما ذكرناه في ترك الرياء ، لأن المرائي هو الذي يقصد ذلك ، ورب واقف على

---

(١) أخرجه أبو نعيم مرسلاً .

(٢) أخرجه الترمذي وقال حسن .

هيئة الخشوع في صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة ، فمن ينظر إليه يراه قائماً بين يدي الله تعالى وهو بالباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته ، فهذه الأعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعراباً هو فيه كاذب ، وهو مطالب بالصدق في الأعمال . وكذلك قد يمشي الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفاً بذلك الوقار ، فهذا غير صادق في عمله وإن لم يكن ملتفتاً إلى الخلق ولا مرائياً إياهم ، ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره .

إذن مخالفة الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت رياء ويفوت بها الإخلاص ، وإن كانت عن غير قصد فيفوت بها الصدق .

وقال يزيد بن الحارث : إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف ، وإن كانت سريرته أفضل من علانيته فذلك الفضل ، وإن كانت علانيته أفضل من سريرته فذلك الجور . وقال معاوية بن قرة : من يدلني على بكّاء بالليل بسّام بالنهار . وقال عبد الواحد بن زيد : كان الحسن إذا أمر بشيء كان من أعمل الناس به ، وإذا نهى عن شيء كان من أترك الناس له . ولم أر أحداً قط أشبه سريرة بعلانية منه . وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول : إلهي عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة ، وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ـ ويبكي . وقال أبو يعقوب النهرجوري : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية .

فإذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق .

(**الصدق السادس**) وهو أعلى الدرجات وأعزها : الصدق في مقامات الدين ، كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور . فإن هذه الأمور لها مباد يكلف الاسم بظهورها ، ثم لها غايات وحقائق ، والصادق المحقق من نال حقيقتها ، وإذا غلب الشيء وتمت حقيقته سُمي صاحبه صادقاً فيه ، كما يقال : فلان صدق القتال . ويقال : هذا هو الخوف الصادق ، وهذه هي الشهوة الصادقة . وقال الله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذي آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك هم الصادقون** ﴾ (الحجرات : ١٥) وقال تعالى : ﴿ **ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولئك الذي صدقوا** ﴾ (البقرة : ١٧٧).

ثم درجات الصدق لا نهاية لها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض ، فإن كان صادقاً في الجميع فهو الصدّيق حقاً . قال سعد بن معاذ : ثلاثة أنا فيهنّ قويّ وفيما سواهن ضعيف : ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي حتى أفرغ منها ، ولا شيعت جنازة فحدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دفنها ، وما سمعت رسول الله ﷺ يقول قولاً إلا علمت أنه حق ، فقال ابن المسيّب : ما ظننت أنّ هذه الخصال تجتمع إلا في النبي عليه الصلاة والسلام ، فهذا صدق في هذه الأمور ، [وإذ كان الزهد أثراً عن التوحيد والصدق مع الله ، فليكن موضوع الفقرة الرابعة] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة : في الزهد

قال الغزالي : بيان علامات الزهد

اعلم أنه قد يظنّ أن تارك المال زاهد ، وليس كذلك ؛ فإنّ ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب المدح بالزهد ، فكم من الرهابين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا ديرا لا باب له ، وإنما مسرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرهم إليه ومدحهم له ، فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة ، فإذن معرفة الزهد أمر مشكل ، بل حال الزهد على الزاهد مشكل .

وينبغي أن يعول في باطنه على ثلاث علامات :

(العلامة الأولى) أن لا يفرح بموجود ولا يحزن على مفقود ، كما قال تعالى : **﴿ لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم ﴾** (الحديد : ٢٣) .

(العلامة الثانية) أن يستوي عنده ذامّه ومادحه ، فالأوّل علامة الزهد في المال ، والثاني علامة الزهد في الجاه .

(العلامة الثالثة) أن يكون أُنسه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إما محبة الدنيا وإما محبة الله ، وهما في القلب كالماء والهواء في القدح ، فالماء إذا دخل خرج الهواء ولا يجتمعان ، وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشتغل بغيره ، ولذلك قيل لبعضهم : إلى ماذا أفضى بهم الزهد ؟ فقال : إلى الأنس بالله ؛ وأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان .

وقد قال أهل المعرفة : إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعاً وعمل لهما ، وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا .

وقال أبو سليمان : من شُغل بنفسه شُغل عن الناس ـ وهذا مقام العاملين . ومن شغل بربه شغل عن نفسه ـ وهذا مقام العارفين . والزاهد لابدّ وأن يكون في أحد هذين المقامين ومقامه الأوّل أن يشغل نفسه بنفسه ، وعند ذلك يستوي المدح والذم والوجود والعدم ، ولا يستدل بإمساكه قليلاً من المال على فقد زهده أصلاً .

فإذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والمدح والذم ، وذلك لغلبة الأنس بالله . ويتفرّع عن هذه العلامات علامات أخرى لا محالة .

وقال يحي بن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود .

وقال ابن خفيف : علامته وجود الراحة في الخروج من الملك . وقال أيضاً : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف .

وقال أحمد بن حنبل وسفيان رحمها الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال السّري : لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه .

وقال السّري : مارست كل شيء من أمر الزهد فنلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فإني لم أبلغه ولم أطقه .

وقال الفضيل رحمه الله : جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا ، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا .

فهذا ما أردناه أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذ كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

[أقول : وإذ كان التوكّل أثراً عن التوحيد فليكن موضوع الفقرة الخامسة ولنلق لموضوعاتها بالنا فإن التوكّل إحدى فرائض الإسلام الكبرى . قال تعالى : ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ (التوبة : ٥١) .]

☆ ☆ ☆

الفقرة الخامسة : في التوكل

قال الغزالي : بيان حال التوكل

مقام التوكل ينتظم من : علم ، وحال ، وعمل .

فأما الحال : فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه ، وإنما العلم أصله والعمل ثمرته ، وقد أكثر الخائضون في بيان حدّ التوكل واختلفت عباراتهم ، وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حدّه ، ولا فائدة في النقل والإكثار ، فلنكشف الغطاء عنه ونقول :

التوكل مشتق من الوكالة ، يقال : وكّل أمره إلى فلان أي فوّضه إليه واعتمد عليه فيه ، ويسمى الموكول إليه وكيلاً ، ويسمى المفوض إليه متكلاً عليه ومتوكلاً عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزاً وقصوراً ، فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده . ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلاً فنقول : من ادعي عليه دعوة باطلة بتلبيس فوكل للخصومة من يكشف ذلك التلبيس لم يكن متوكلاً عليه ولا واثقاً به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقد فيه أربعة أمور : منتهى الهداية ، ومنتهي القوّة ، ومنتهى الفصاحة ، ومنتهى الشفقة . أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبيس حتى لا يخفى عليه من غوامض الحيل شيء أصلاً . وأما القدرة والقوّة فليستجريء على التصريح بالحق فلا يداهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يجبن ، فإنه ربما يطلع على وجه تلبيس خصمه فيمنعه الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضعفة للقلب عن التصريح به . وأما الفصاحة فهي أيضاً من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الإفصاح عن كل ما استجرأ القلب عليه وأشار إليه . فلا كل عالم بمواقع التلبيس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبيس . وأما منتهى الشفقة فيكون باعثاً له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود ، فإنّ قدرته لا تغني دون العناية به إذا كان لايهمه أمره ولا يبالي به ظفر على خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك ، فإن كان شاكّاً في الأربعة أو في واحدة منها أو جوّز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكمل منه لم تطمئن نفسه إلى وكيله ، بل بقي منزعج القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذره من قصور وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدّة الثقة والطمأنينة بحسب

تفاوت قوّة اعتقاده لهذه الخصال فيه ، والاعتقادات والظنون في القوّة والضعف تتفاوت تفاوتاً لا ينحصر ، فلا جرم تتفاوت أحوال المتوكلين في قوّة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه ، كما لو كان الوكيل والد الموكل ، فإنه يحصل له يقين بمنتهى الشفقة والعناية ، فتصير خصلة واحدة من الخصال الأربعة قطعية ، وكذلك سائر الخصال يتصوّر أن يحصل القطع بها ، وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقدرهم بياناً وأقدرهم على نصرة الحق .

فإذا عرفت التوكل في هذا المثال فقس عليه التوكل على الله تعالى ، فإن ثبت في نفسك أنه لا فاعل إلا الله واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العناية والعطف والرحمة بجملة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته ولا وراء منتهى علمه ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ولم يلتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوّته ، فإنه لا حول ولا قوّة إلا بالله فإن الحول عبارة عن الحركة ، والقوة عبارة عن القدرة ، فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسببه أحد أمرين : إما ضعف اليقين بإحدى هذه الصفات الأربع ، وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه ، فإذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته ، فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أنّ تلك الحالة لها في القوّة والضعف ثلاث درجات :

(**الدرجة الأولى**) ما ذكرناه : وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالته وعنايته كحاله في الثقة بالوكيل . (**الثانية**) وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا إياها ، فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يخلها ، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماه ، وأول خاطر يخطر في قلبه أمه فإنها مفزعه ، فإنه قد وثق بكفالتها وكفايتها وشفقتها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ، ويظن أنه طبع من حيث إنّ الصبي لو طولب بتفصيل هذه الخصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلاً في ذهنه ، ولكن كل ذلك وراء الإدراك ، فمن كان باله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كلف به كما

يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلاً حقاً . فإنّ الطفل متوكل على أمه . والفرق بين هذا وبين الأول : أن هذا متوكل وقد فني في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى المتوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير المتوكل عليه . وأما الأوّل فتوكل بالتكلف والكسب وليس فانيا عن توكله لأنّ له التفاتاً إلى توكله وشعوراً به ، وذلك شغل صارف عن ملاحظة المتوكل عليه وحده ، وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل : ما أدناه ؟ قال : ترك الأماني . قيل : وأوسطه ؟ قال : ترك الاختيار . وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال : لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه (**الثالثة**) وهي أعلاها . أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الميت بين يدي الغاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحرّكه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهو الذي قوي يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والإرادة والعلم وسائر الصفات ، ويفارق الصبي فإنّ الصبي يفزع إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويعدو خلفها ، بل هو مثل صبي علم أنه وإنْ لم يزعق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإنْ لم يتعلق بذيل أمه فالأم تحمله ، وإن لم يسألها اللبن فالأم تفاتحه وتسقيه ، فإن قلت : فهذه الأحوال هل يتصور وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بمحال ولكنه عزيز نادر ، والمقام الثاني والثالث أعزها ، والأوّل أقرب إلى الإمكان ، ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه ، بل يكاد لا يكون المقام الثالث في دوامه إلا كصفرة الوجل ، فإنّ انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوّة والأسباب طبع وانقباضه عارض ، كما أنّ انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض . والوجل عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تنمحي عن ظاهر البشرة الحمرة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة ، فإنّ البشرة ستر رقيق تتراءى من ورائه حمرة الدم ، وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم ، وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوّة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم ، وأما المقام الثاني فيشبه صفرة المحموم فإنه قد يدوم يوماً ويومين ، والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . [ومن لا يعرف] معنى قول (لا إله إلا الله) ومعنى قول (لا حول ولا قوة إلا بالله) [تصديقاً وتحقيقاً] فلا يتصور منه حال التوكل .

☆ ☆ ☆

[وإذ كان إفراد الله بالمحبة هو الثمرة العليا للتوحيد فليكن ذلك موضوع الفقرة السادسة مع ملاحظة أن محبة الله ورسوله ﷺ من أعلى فرائض الإسلام . قال تعالى : ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ (المائدة : ٥٤) ﴿ **والذين آمنوا أشد حباً لله** ﴾ (البقرة : ١٦٥) وقال عليه الصلاة والسلام : « أحبوا الله لما يغذوكم من نعمه »[١]] .

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الترمذي وصححه وأخرجه أيضاً الحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

الفقرة السادسة : في محبة الله

قال الغزالي : بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده

وأن من أحب غير الله لا من حيث نسبته إلى الله فذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى ، وحب الرسول ﷺ محمود لأنه أثر عن حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأنّ محبوب المحبوب محبوب ، ورسول المحبوب محبوب ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه ، وإيضاحه بأن نرجع إلى (أسباب خمسة) ونبيّن أنها مجتمعة في حق الله تعالى بجملتها ، ولا يوجد في غيره إلا آحادها ، وأنها حقيقة في حق الله تعالى ، ووجودها في حق غيره وَهْمٌ وتخيل وهو مجاز محض لا حقيقة له ، ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذي بصيرة ضدّ ما تخيله ضعفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقيقاً ، وَبَان أن التحقيق يقتضي أن لا نحب أحداً غير الله تعالى .

فأما السبب الأوّل : وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكماله ودوام وجوده ، وبغضه لهلاكه وعدمه ونقصانه وقواطع كماله فهذه جبلة كل حي ، ولا يتصوّر أن ينفك عنها ، وهذا يقتضي غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعاً أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكمال وجوده من الله وإلى الله وبالله ، فهو المخترع الموجد له وهو المبقي له ، وهو المكمل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب الموصلة إليه ، وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب ، وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته ، بل هو محو محض وعدم صرف لولا فضل الله عليه بالإيجاد ، وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالإبقاء ، وهو ناقص بعد الوجود لولا فضل الله عليه بالتكميل لخلقته ، وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا القيوم الحي الذي هو قائم بذاته ، وكل ما سواه قائم به ، فإن أحب العارف ذاته- ووجود ذاته مستفاد من غيره- فبالضرورة يحب المفيد لوجوده والمديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومخترعاً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوّماً لغيره ، فإن كان لا يحبه فهو لجهله

بنفسه وبربه ، والمحبة ثمرة المعرفة فتنعدم بانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوّتها ، ولذلك قال الحسن البصري رحمه الله تعالى : من عرف ربه أحبه ، ومن أحب الدنيا زهد فيها . وكيف يتصوّر أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذي به قوام نفسه ؟ ومعلوم أن المبتلى بحرّ الشمس لّما كان يحب الظل فيحب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل ، وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجرة ، والنور بالإضافة إلى الشمس فإنّ الكل من آثار قدرته ، ووجود الكل تابع لوجوده ، كما أن وجود النور تابع للشمس ، ووجود الظل تابع للشجر ، فإذن إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً فحبه لمن به قوامه أولاً ودوامه ثانياً في أصله وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضروري ، إن عرف ذلك كذلك ، ومن خلا عن الحب هذا فلأنه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته .

وأما السبب الثاني : وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بمعونته وانتدب لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شر الأشرار عنه ، وانتهض وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في نفسه وأولاده وأقاربه فإنه محبوب لا محالة عنده ، وهذا بعينه يقتضي أن لا يحب إلا الله تعالى فإنه لو عرف حق المعرفة لعلم أنّ المحسن إليه هو الله تعالى فقط ، فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فلست أعدّها إذ ليس يحيط بها حصر كما قال تعالى : ﴿ **وإن تعدّوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾ (إبراهيم : ٣٤)، ولكننا نقتصر الآن على بيان أنّ الإحسان من الناس غير متصوّر إلا بالمجاز ، وإنما المحسن هو الله تعالى . ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خزائنه ومكّنك منها لتتصرف فيها كيف تشاء ، فإنك تظن أنّ هذا الإحسان منه وهو غلط ؛ فإنه إنما تم إحسانه به وبماله وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك ، فمن الذي أنعم بخلقه وخلق ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ، ومَن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في الإحسان إليك ؟ ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله . ومهما سلّط الله عليه الدواعي وقرّر في نفسه أنّ صلاح دينه أو دنياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطرّاً في التسليم لا يستطيع مخالفته ، فالمحسن هو الذي اضطرّه لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة المرهقة إلى الفعل ، وأما يده فواسطة يصل بها إحسان الله إليك ، فهو المنفرد بالجود والإحسان والطوْل والامتنان ، فإن كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله تعالى ، فهو المستحق لهذه المحبة وحده .

وأما السبب الثالث : وهو حبك المحسن في نفسه وإن لم يصل إليك إحسانه . وهذا أيضاً موجود في الطباع ، فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق بالناس متلطّف بهم متواضع لهم ، وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك ، وبلغك خبر ملك آخر ظالم متكبر فاسق متهتك شرير وهو أيضاً بعيد عنك ؛ فإنك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد في القلب ميلاً إلى الأوّل وهو الحب ، ونفرة عن الثاني وهو البغض ، مع أنك آيس من خير الأوّل ، وآمن من شر الثاني ؛ لانقطاع طمعك عن التوغّل إلى بلادهما . فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن فقط ، لا من حيث إنه محسن إليك ، وهذا أيضاً يقتضي حب الله تعالى ، بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلاً إلا من حيث يتعلق منه بسبب ، فإنّ الله هو المحسن إلى الكافة ، والمتفضّل على جميع أصناف الخلائق ؛ أولاً : بإيجادهم ، وثانياً : بتكميلهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم ، وثالثاً : بترفيههم وتنعيمهم بخلق الأسباب التي هي في مظانّ حاجاتهم وإن لم تكن في مظانّ الضرورة ، ورابعاً : بتجميلهم بالمزايا والزوائد التي هي في مظنة زينتهم وهي خارجة عن ضروراتهم وحاجاتهم .

فإذن هو المحسن ؛ فكيف يكون غيره محسناً وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته ؟ فإنه خالق الحسن وخالق المحسن وخالق الإحسان وخالق أسباب الإحسان .

وأما السبب الرابع : وهو حب كل جميل لذات الجمال لا لحظ ينال من وراء إدراك الجمال . فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع ، وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين الرأس ، وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة ، والأول يدركه الصبيان والبهائم ، والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهراً من الحياة الدنيا . وكل جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال ، فإن كان مدركاً بالقلب فهو محبوب القلب ، ومثال هذا في المشاهدة حب الأنبياء والعلماء وذوي المكارم السنية والأخلاق المرضية ، فإن ذلك متصور مع تشوّش صورة الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدركه بحسن آثاره الصادرة منه الدالة عليه ، حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه ، فمن يحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو الصدّيق رضي الله تعالى عنه ، أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبهم إلا لحسن ما ظهر له منهم ، وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم ، بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي مصدر

الأفعال ؛ إذ الأفعال آثار صادرة عنها ، ودالة عليها ، فمن رأى حسن تصنيف المصنف وحسن شعر الشاعر ، بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأفعال صفاتها الجميلة الباطنة التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ، ثم كلما كان المعلوم أشرف وأتم جمالاً وعظمة كان العلم أشرف وأجمل ، وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل رتبة وأشرف قدراً . وأجل المعلومات هو الله تعالى ، فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى ، وكذلك ما يقاربه ويختص به ، فشرفه على قدر تعلقه به ، فإذن جمال صفات الصدّيقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور (أحدها) : علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . (والثاني) : قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة . (والثالث) : تنزههم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصادّة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر ، وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فانسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم : فأين علم الأوّلين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السموات ولا في الأرض ؟ وقد خاطب الخلق كلهم فقال عز وجل : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً** ﴾ (الإسراء : ٨٥) فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكمالاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى .

وأما صفة القدرة : فهي أيضاً كمال والعجز نقص ، فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فإنه محبوب وإدراكه لذيذ ، حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة عليّ وخالد رضي الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرّد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ، ويورث ذلك حباً في القلب ضرورياً للمتصف به فإنه نوع كمال ، فانسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى . فيستحيل أن يحب عبداً من عباد الله تعالى لقدرته وسياسته وتمكينه واستيلائه وكمال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم فهو الجبار القاهر والعليم القادر ، السموات مطويات بيمينه ، والأرض وملكها وما عليها في قبضته ، وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته ، إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرّة . وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يَعْيَ بخلقها ولا يمسه لغوب ولا فتور في اختراعها ، فلا قدرة ولا قادر إلا وهو أثر من

آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء ، فإن كان يتصوّر أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواه أصلاً .

وأما صفة التنزه عن العيوب والنقائص والتقدّس عن الرذائل والخبائث : فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة ، والأنبياء والصدّيقون وإن كانوا منزهين عن العيوب والخبائث فلا يتصوّر كمال التقدّس والتنزه إلا للواحد الحق الملك القدّوس ذي الجلال والإكرام . فإذن الجميل محبوب والجميل المطلق هو الواحد الذي لا ندّ له ، الفرد الذي لا ضدّ له ، الصمد الذي لا منازع له ، الغني الذي لا حاجة له ، القادر الذي يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد لا رادّ لحكمه ولا معقّب لقضائه ، العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرّة في السموات والأرض ، القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة ، الأزلي الذي لا أول لوجوده ، الأبدي الذي لا آخر لبقائه ، الضروري الوجود الذي لا يحوم إمكان العدم حول حضرته ، القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض ، خالق الجماد والحيوان والنبات ، المنفرد بالعزة والجبروت ،والمتوحد بالملك والملكوت ، ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال ، الذي تتحير في معرفة جلاله العقول ، وتخرس في وصفه الألسنة ، الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الإقرار بالقصور عن وصفه ، كما قال سيد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين : « لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك »[1] وقال سيد الصدّيقين رضي الله عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك وسبحانه من لم يجعل للخلق طريقاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته . فليت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقاً ويجعله مجازاً ؟ أينكر أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والمحامد ونعوت الكمال بالطبع عند من أدركه .

وأما السبب الخامس للحب : فهو المناسبة.وإذا كانت المناسبة سبب المحبة فالمناسبة قد تكون في معنى ظاهر كمناسبة الصبي في معنى الصبا ، وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي ﷺ إذ قال : « الأرواح جنود مجندة ؛ فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها

---

(١) أخرجه الستة إلا البخاري .

اختلف »[١] فالتعارف هو : التناسب ، والتناكر هو : التباين ، وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى لمناسبة لا ترجع إلا المشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان [هي] :

قرب العبد من ربه عزوجل في الصفات التي أمر فيها بالاقتداء والتخلُّق بأخلاق الربوبية ، حتى قيل تخلَّقوا بأخلاق الله ؛ وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والإحسان واللطف وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنصيحة لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل ، إلى غير ذلك من مكارم الشريعة ، فكل ذلك يقرّب إلى الله سبحانه وتعالى بالصفات .

فهذه هي المعلومات من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى في أعلى الدرجات لا في أدناها ، فكان المعقول المقبول عند ذوي البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المعقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ، ثم كل من يُحَب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غيره لمشاركته إياه في السبب ، والشركة نقصان في الحب وغض من كماله . ولا ينفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه ، فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد ، إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجوداً، ولا يُتصور أن يكون ذلك إمكاناً، فلا جرم أن لا يكون في حبه شركة فلا يتطرّق النقصان إلى حبه كما لا تتطرّق الشركة إلى صفاته . فهو المستحق ـ إذاً ـ لأصل المحبة ولكمال المحبة استحقاقاً لا يساهم فيه أصلاً . [وإذ كانت دعوى المحبّة أنست بعض الناس الخوف من الله ، وإذ كان من أخطاء الكثيرين من البشر أنّهم توهّموا أنّ لله صفات الجمال دون صفات الجلال ، فلم يعرفوا لله وقاراً ، وإذ كانت صفات الجلال تقتضي خوفاً ، وصفات الجمال تقتضي رجاء فلتكن الفقرة السابعة في الخوف والرجاء وهما من مقامات القلوب الكبرى التي يفترض على كل مسلم التحقق بها] .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه مسلم .

الفقرة السابعة : في الخوف والرجاء
قال الغزالي رحمه الله :

الرجاء والخوف جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود ، ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كئود ، فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوفاً بمكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء ـ إلا أزمّة الرجاء . ولا يصدّ عن نار الجحيم والعذاب الأليم ـ مع كونه محفوفاً بلطائف الشهوات وعجائب اللذات ـ إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف ، فلابدّ إذن من بيان حقيقتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما ، مع تضادهما .

بيان حقيقة الرجاء والخوف وتلازمهما

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين ، وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام ، وإنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال ، وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب ، وإلى سريعة الزوال كصفرة الوجل ، وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض ، فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام ، فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب ، وهذا جارٍ في كل وصف من أوصاف القلب ؛ وغرضنا الآن حقيقة الرجاء ، فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل ، فالعلم سبب يثمر الحال . والحال يقتضي العمل ، وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة ، وبيانه : أن كل ما يلاقيك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال ، وإلى موجود فيما مضى ، وإلى منتظر في الاستقبال ، فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمي ذكراً وتذكراً ، وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمي وجداً وذوقاً وإدراكاً ، وإنما سمي وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك ،وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمي انتظارا وتوقعاً ، فإن كان المنتظر مكروهاً حصل منه ألم في القلب سمي خوفاً وإشفاقاً ، وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وارتياح سمي ذلك الارتياح رجاء ، فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ، ولكن ذلك المحبوب المتوقع لابدّ وأن يكون له سبب ، فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه فاسم الرجاء عليه صادق ، وإن كان ذلك انتظاراً مع انخرام

أسبابه واضطرابها فاسم الغرور والحمق عليه أصدق من اسم الرجاء ، وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء فاسم التمني أصدق على انتظاره ؛ لأنه انتظار من غير سبب ، وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه ، أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال : أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع ، وأخاف غروبها وقت الغروب ، لأنّ ذلك مقطوع به ، نعم يقال : أرجو نزول المطر وأخاف انقطاعه ، وقد علم أرباب القلوب أنّ الدنيا مزرعة الآخرة ، والقلب كالأرض ، والإيمان كالبذر فيه ، والطاعات جارية مجرى تقليب الأرض وتطهيرها ، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها ، والقلب المستهتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ، ويوم القيامة يوم الحصاد ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان ، وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه ، كما لا ينمو بذر في أرض سبخة ، فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع ، فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوّس ، ثم أمدّه بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ، ثم نقّى الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ، ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته ؛ سمي انتظاره رجاء . وإن بث البذر في أرض صلبة سبخة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ، ثم انتظر الحصاد منه ؛ سمي انتظاره حمقاً وغروراً لا رجاء . وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تغلب الأمطار ولا تمتنع أيضاً ؛ سمي انتظاره تمنياً لا رجاء ؛ فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والمفسدات ؛ فالعبد إذا بث بذر الإيمان ، وسقاه بماء الطاعات ، وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة ، وانتظر من فضل الله تعالى تثبيته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة . كان انتظاره رجاء حقيقياً محموداً في نفسه باعثاً له على المواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت ؛ وإن قطع عن بذر الإيمان تعهده بماء الطاعات ، وترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر المغفرة ، فانتظاره حمق وغرور ، قال صلى الله عليه وآله وسلم : « الأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة »[1] وقال تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف**

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه .

أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيّاً ﴾ (مريم : ٥٩) وقال تعالى : ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا** ﴾ (الأعراف : ١٦٩) وذم الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال : ﴿ **ما أظن أن تبيد هذه أبداً * وما أظنّ الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدنّ خيراً منها منقلباً** ﴾ (الكهف : ٣٥ ، ٣٦) فإذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي حقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة ، وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة . وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تقصير فحقيق بأن يرجو قبول التوبة . وأما قبل التوبة إذا كان كارهاً للمعصية تسوءه السيئة وتسره الحسنة وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشتاق إليها ، فحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة ؛ لأنّ كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يفضي إلى التوبة ، وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولّئك يرجون رحمة الله** ﴾ (البقرة : ٢١٨) معناه : أولّئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله ، وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضاً قد يرجو ؛ ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء ، فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يعزم على التوبة والرجوع ، فرجاؤه المغفرة حمق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعهدها بسقي ولا تنقية [فإذا تبيّنت لك حقيقة الرجاء] فقد آن لك أن تعرف بعض ما ورد في مقام الخوف لتلازم التكليف في المقامين . قال تعالى : ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾ (الرحمن : ٤٦) وقال ﷺ : « قال الله عز وجل : وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإن خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة »[1] وقال ذو النون رحمه الله تعالى : من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد حبه وصح له لبه . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة ، لأنّ الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده ، فإذا انقطع زمامه هلك مع الهالكين . وقيل ليحيى بن معاذ : من آمن الخلق غدا ؟ فقال : أشدهم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمه الله : لا تجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن : يا أبا سعيد ، كيف نصنع ؟ نجالس أقواماً يخوّفونا حتى تكاد قلوبنا تطير ! فقال : والله إنك إن تخالط أقواماً يخوّفونك

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه .

حتى يدركك أمن ؛ خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمّنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله : ما فارق الخوف قلباً إلا خرب . وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله ﴿ **الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة** ﴾ (المؤمنون : ٦٠) هو الرجل يسرق ويزني ؟ قال : « لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه »[١] والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر ، وكل ذلك ثناء على الخوف ، لأنّ مذمة الشيء ثناء على ضدّه الذي ينفيه ، وضدّ الخوف الأمن ، كما أن ضدّ الرجاء اليأس ، وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له بل نقول : كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان ، فإنّ كل من رجا محبوباً فلابدّ وأن يخاف فوته ، فإن كان لا يخاف فوته فهو إذاً لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجياً ، فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر ، نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ، ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لغفلته عنه ، وعلى كل حال فهما متلازمان ، ولذلك قال تعالى : ﴿ **ويدعوننا رغباً ورهباً** ﴾ (الأنبياء : ٩٠) وقال عز وجل : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾ (السجدة : ١٦) ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء ، فقال تعالى : ﴿ **ما لكم لا ترجون لله وقاراً** ﴾ (نوح : ١٣) أي لا تخافون ، وكثيراً ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى الخوف وذلك لتلازمهما ، إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بلازمه ، بل أقول : كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية ، فإنّ البكاء ثمرة الخشية . قال تعالى : ﴿ **يبكون ويزيدهم خشوعاً** ﴾ (الإسراء : ١٠٩) وقال عز وجل : ﴿ **أفمن هذا الحديث تعجبون * وتضحكون ولا تبكون * وأنتم سامدون** ﴾ (النجم : ٥٩ ـ ٦١) وقال ﷺ : « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع »[٢] وقال ﷺ : « ما من قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمع من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهريقت في سبيل الله سبحانه وتعالى »[٣] وقال ﷺ : « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله » وذكر منهم : « رجلاً ذكر الله خالياً ففاضت عيناه »[٤] .

---

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح ، والنسائي وابن ماجه .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

(٤) متفق عليه .

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : من استطاع أن يبكي فليبك ، ومن لم يستطع فليتباك . وقال أبو سليمان : البكاء من الخوف ، والرجاء والطرب من الشوق .

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : لأن أدمع دمعة من خشية الله أحب إليّ من أن أتصدّق بألف دينار .

فإذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف ؛ لأنّ جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق المسبب .

بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما

اعلم أنّ الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وقول القائل : الخوف أفضل أم الرجاء ؟ سؤال فاسد يضاهي قول القائل : الخبز أفضل أم الماء ؟ وجوابه أن يقال : الخبز أفضل للجائع ، والماء أفضل للعطشان ، فإن اجتمعا نظر إلى الأغلب . فإن كان الجوع أغلب فالخبز أفضل ، وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل ، وإن استويا فهما متساويان ، وهذا لأن كل ما يراد لمقصود ففضله يظهر بالإضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه ، والخوف والرجاء دواءان تداوى بهما القلوب ؛ ففضلهما بحسب الداء الموجود ؛ فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاغترار به فالخوف أفضل ، وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل ، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية فالخوف أفضل .

وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغي أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لا لفظ الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء ، وذلك لأجل غلبة المعاصي . فأما التقي الذي ترك ظاهر الإثم وباطنه وخفيّه وجليّه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، ولذلك قيل : لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا . وروي أنّ علياً كرّم الله وجهه قال لبعض ولده : يا بني خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيته بحسنات أهل الأرض لم يتقبلها منك ، وارج الله رجاء ترى أنك لو أتيته بسيئات أهل الأرض غفرها لك ، ولذلك قال عمر رضي الله عنه : لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ، ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل . وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي ؛ فمثل عمر رضي الله عنه

ينبغي أن يستوي خوفه ورجاؤه ؛ ولقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً ، إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المنافقين[١] ، فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفيّ ، وقد قال ﷺ : « إنّ الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر- وفي رواية.إلا قدر فواق ناقة- فيسبق عليه الكتاب فيختم له بعمل أهل النار»[٢] وقدر فواق الناقة لا يحتمل عملا بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يختلج في القلب عند الموت فيقتضي خاتمة السوء ، فكيف يؤمن ذلك ؟ فإذن أقصى غايات المؤمن أن يعتدل خوفه ورجاؤه ، وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاغترار وقلة المعرفة ، ولذلك جمع الله تعالى [بين الخوف والرجاء] في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى : ﴿ **يدعون ربهم خوفاً وطمعاً** ﴾ (السجدة : ١٦) وقال عز وجل : ﴿ **ويدعوننا رغباً ورهباً** ﴾ (الأنبياء : ٩) وأين مثل عمر رضي الله عنه ؟ [لنقول له الأصلح في حقّك استواء الخوف والرجاء] . فالخلق في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف ، بشرط أنّ لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من المغفرة فيكون ذلك سبباً للتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف ، إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكدّر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعوه إلى التجافي عن دار الغرور فهو الخوف المحمود ، دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والحث ودون اليأس الموجب للقنوط .

وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الإشراف على الموت ، أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن ، لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد انقضى وقت العمل ، فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطيق أسباب الخوف ، فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تعجيل موته ، وأما روح الرجاء فإنه يقوي قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاؤه ، ولا ينبغي أن يفارق أحدّ الدنيا إلا محباً لله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى ، فإنّ من أحب لقاء الله تعالى أحب الله لقاءه ، والرجاء تقارنه المحبة فكل من ارتجي كرمه فهو محبوب ، والغرض أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة ، وغلبة الخوف قبل

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم والبزار وللطبراني في الأوسط « سبعين سنة » وإسناده حسن .

الموت أصلح لأنه أحرق لنار الشهوات وأقمع لمحبة الدنيا عن القلب ، ولذلك قال ﷺ : « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه »[١] وقال تعالى [في الحديث القدسي] : « أنا عند ظن عبدي بي »[٢] ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه : يا بني حدثني بالرخص واذكر لي الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به . وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه . وقال أحمد بن حنبل رضي الله تعالى عنه لابنه عند الموت : اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن ، والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه .

وإنما تحصل المحبة بالمعرفة بإخراج حب الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن المانع من المحبوب ، ولذلك رأى بعض الصالحين أبا سليمان الداراني في المنام وهو يطير ، فسأله ؟ فقال : الآن أفلتُّ ، فلمّا أصبح سأل عن حاله فقيل له : إنه مات البارحة .

بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف

واعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين : أحدهما الخوف من عذابه ، والثاني الخوف منه ؛ فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطّلعين على سر قوله تعالى : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ (آل عمران : ٢٨) وقوله عز وجل : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ (آل عمران : ١٠٢) وأما الأوّل فهو خوف عموم الخلق ، وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار ، وكونهما جزاءين على الطاعة والمعصية ، وضعفه بسبب الغفلة وضعف الإيمان ، وإنما تزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم ؛ فإن فاتت المشاهدة فالسماع لا يخلو من تأثير .

وأما الثاني وهو الأعلى فأن يكون الله هو المخوف ، أعني أن يخاف الحجاب عنه ويرجو القرب منه . وهذه خشية العلماء ، قال تعالى : ﴿ **إنما يخشى الله من عباده العلماء** ﴾ (فاطر : ٢٨) ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية ، فإذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف ، فمن عرف الله تعالى عرف أن يفعل ما يشاء ولا يبالي ، ويحكم ما يريد ولا يخاف .

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

فخطر الخاتمة وعسر الثبات يزيدان نيران الخوف اشتعالاً ولا يمكّنانها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن ، وأن القلب أشدّ تقلباً من القدر في غليانها ، وقد قال مقلب القلوب عز وجل : ﴿ إنّ عذاب ربهم غير مأمون ﴾ (المعارج : ٢٨) فأجهل الناس من أمنه وهو ينادي بالتحذير من الأمن ، ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روّح قلوبهم بروح الرجاء لاحترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله ، وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ؛ إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلّب القلوب . قال بعض العارفين : لو كانت الشهادة [أي في سبيل الله] على باب الدار والموت على الإسلام [أي دون شهادة مع أنّه أقلّ درجة] عند باب الحجرة لاخترت الموت على الإسلام ، لأني لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد أمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الخاتمة عند كل خطرة وعند كل حركة ، وهم الذين وصفهم الله تعالى إذ قال : ﴿ وقلوبهم وجلة ﴾ (المؤمنون : ٦٠) .

ولما احتضر سفيان جعل يبكي ويجزع ، فقيل له : يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإنّ عفو الله أعظم من ذنوبك ، فقال : أو على ذنوبي أبكي لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا .

وكان سهل يقول : المريد يخاف أن يبتلى بالمعاصي ، والعارف يخاف أن يبتلى بالكفر .

فإذا كان خوف العارفين مع رسوخ أقدامهم وقوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء .

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على الموت مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أني بريء من النفاق كان أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس . وما عنوا به النفاق الذي هو ضدّ أصل الإيمان بل المراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً منافقاً ، وله علامات كثيرة . قال ﷺ : « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، وإن كانت فيه خصلة منهن ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن

خان ، وإذا خاصم فجر »[١] وفي لفظ آخر : « وإذا عاهد غدر » .

وقد فسّر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شيء منه إلا صديق ، إذ قال الحسن : إنّ من النفاق اختلاف السر والعلانية ، واختلاف اللسان والقلب ، واختلاف المدخل والمخرج . ومن الذي يخلو عن هذه المعاني ؟ بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس معتادة ونُسي كونها منكراً بالكلية ، بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوّة ، فكيف الظن بزماننا! حتى قال حذيفة رضي الله تعالى عنه: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير بها منافقاً إني لأسمعها من أحدكم في اليوم عشر مرات[٢]. وكان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من الكبائر[٣]. وقال بعضهم: علامة النفاق أن تكره من الناس ما تأتي مثله ، وأن تحب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله : إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال : كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[٤] .

وكان حذيفة يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يمتلىء بالإيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مغرز إبرة ، ويأتي عليه ساعة يمتلىء بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مغرز إبرة . فقد عرفت بهذا أنّ خوف العارفين من سوء الخاتمة ، وأنّ سببه أمور تتقدّمه ، منها البدع ومنها المعاصي ، ومنها النفاق ، ومتى يخلو العبد عن شيء من جملة ذلك !

قال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، فقال : لو كنت منافقاً لما خفت النفاق ، فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والخاتمة خائفاً منهما .

☆ ☆ ☆

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة .

(٣) أخرجه البخاري وأحمد والبزار والحاكم .

(٤) رواه أحمد والطبراني .

بيان معنى سوء الخاتمة

فإن قلت إن أكثر العارفين يرجع خوفهم إلى سوء الخاتمة ، فما معنى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين ، إحداهما أعظم من الأخرى ، فأما الرتبة العظيمة الهائلة : فأن يغلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله : إما الشك ؛ وإما الجحود ، فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك ، فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجاباً بينه وبين الله تعالى أبداً ، وذلك يقتضي البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهي دونها أن يغلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها ، فيتمثل ذلك في قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى في تلك الحالة متسع لغيره ، فيتفق قبض روحه في تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكساً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها .

فإن قلت : فما السبب الذي يفضي إلى سوء الخاتمة ؟ فاعلم أنّ أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ، ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها . أما الختم على الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين :

(**أحدهما**) يتصوّر مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح في الأعمال . كالمبتدع الزاهد فإنّ عاقبته مخطرة جداً ، وإن كانت أعماله صالحة .

(**وأما السبب الثاني**) فهو ضعف الإيمان في الأصل ، ثم استيلاء حب الدنيا على القلب . ومهما ضعف الإيمان ضعف حب الله تعالى وقوي حب الدنيا ، فيصير بحيث لا يبقى في القلب موضع لحب الله تعالى إلا من حيث حديث النفس ، ولا يظهر له أثر في مخالفة النفس والعدول عن طريق الشيطان ، فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقسو ويسودّ وتتراكم ظلمة النفوس على القلب ، فلا يزال ينطفىء ما فيه من نور الإيمان على ضعفه حتى يصير طبعاً وريْناً ، فإذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب ـ أعني حب الله ـ ضعفاً لما يبدو من استشعار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب ، فيتألم القلب باستشعار فراق الدنيا ، ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بإنكار ما قُدّر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله ، فيُخشى أن يثور في باطنه بغض لله تعالى بدل الحب ، كما أنّ الذي يحب ولده حباً ضعيفاً إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها

انقلب ذلك الحب الضعيف بغضاً ، فإن اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبداً ، وأما الذي يُتوفى على الحب فإنه يقدم على الله تعالى قدوم العبد المحب المشتاق إلى مولاه الذي تحمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعاً في لقائه ، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور ، بمجرّد القدوم فضلاً عما يستحقه من لطائف الإكرام وبدائع الإنعام .

وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار ، فلها أيضاً سببان : أحدهما : كثرة المعاصي وإن قوي الإيمان ، والآخر : ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي .

وإذ بان لك معنى سوء الخاتمة، وما هو مخوف فيها، فاشتغل بالاستعداد لها، فواظب على ذكر الله تعالى ، وأخرج من قلبك حب الدنيا ، واحرس عن فعل المعاصي جوارحك ، وعن الفكر فيها قلبك ، واحترز عن مشاهدة المعاصي ومشاهدة أهلها جهدك ، فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك ، وإياك أن تسوّف وتقول : سأستعدّ لها إذا جاءت الخاتمة ، فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيه روحك فراقب قلبك في كل تطريفة ، وإياك أن تهمله لحظة فلعل تلك اللحظة خاتمتك ، إذ يمكن أن تختطف فيها روحك ، هذا ما دمت في يقظتك ، وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن ، وأن يغلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك ، لست أقول على لسانك فإنّ حركة اللسان بمجرّدها ضعيفة الأثر . واعلم قطعاً أنه لا يغلب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم غالباً عليه ، وأنه لا يغلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ، ولا ينبعث عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك ، والموت والبعث شبيه النوم واليقظة ، فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ، ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه ، فكذلك لا يموت المرء إلا على ما عاش عليه ، ولا يحشر إلا على ما مات عليه ، وتحقق قطعاً ويقيناً أنّ الموت والبعث حالتان من أحوالك ، كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك ، وآمن بهذا تصديقاً باعتقاد القلب إن لم تكن أهلاً لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة ، وراقب أنفاسك ولحظاتك ، وإياك أن تغفل عن الله طرفة عين فإنك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم ، فكيف إذا لم تفعل . والناس كلهم هلكى إلا العالمون ، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون ، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

بيان أحوال الأنبياء والملائكة [والأولياء] في الخوف

روت عائشة رضي الله عنها : أنّ رسول الله ﷺ كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله[١] .

ورأى رسول الله ﷺ صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق[٢] . وروي أنه كان إذا دخل في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل[٣] .

وعن أنس أنه عليه الصلاة والسلام سأل جبريل « مالي لا أرى ميكائيل يضحك ؟ » فقال جبريل : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار[٤] .

وقال جابر : « كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول : صبّحتكم ومسّتكم « بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وقرن بين أصبعيه ـ »[٥] وقال ابن مسعود رضي الله عنه : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام** ﴾ (الأنعام : ١٢٥) فقال : « إن النور إذا دخل الصدر انفسح » فقيل : يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال : « نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله »[٦] [ومن مقامي الخوف والرجاء ، إلى مقامي التقوى والورع . فهما الأثران المباشران لمقام الخوف] .

☆ ☆ ☆

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه البزار بسند جيد . وفي الصحيحين عن عائشة : رأى جبريل في صورته مرتين وعن ابن مسعود : رأى جبريل له ستمائة جناح .

(٣) رواه أبو داود والترمذي في الشمائل ، والنسائي .

(٤) رواه أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين بإسناد جيد .

(٥) أخرجه مسلم .

(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرك .

الفقرة الثامنة : في التقوى والورع

[ذكرنا التقوى بجانب الورع لأنها يطلقان أحياناً في النصوص أو في عبارات الناس ويراد كل منهما بالآخر ؛ وأحياناً يراد بالورع الحالة الأرقى من التقوى ، وأحياناً يراد بالتقوى المقام الأرقى من الورع وهو مذهب الغزالي ، وقد غلط الكثيرون في فهم التقوى مما اقتضى منّا كلاماً طويلاً مستخرجاً من النصوص في كتابنا (جند الله ثقافة وأخلاقاً) استغرق حوالي ثمانين صفحة من صفحات ذلك الكتاب ، وقد انصبّ الحديث فيه عن مكانة التقوى وأهميتها في دين الله حتّى لكأنّها هي الكلمة الجامعة للتكليف ، وعن ماهية التقوى وحقيقتها ، وعن تعريف المتّقين وعن طرق الوصول إلى التقوى ، وكل ذلك من خلال النصوص .

وقد توسعنا في باب التكليف في كتابنا (تربيتنا الروحية) وذكرنا هناك محلّ التقوى في دين الله ، ومن أهم ما ينبغي أن يكون واضحاً في قضية التقوى : **أنّ للتقوى طريقاً إذا سُلك تصبح التقوى ملكة في القلب ينبثق عنها سلوك على ضوء الكتاب والسنّة .**

وأنّ ما يطالب به الإنسان من الكتاب والسنّة يختلف باختلاف درجات المسؤولية وسعة دوائر علاقاته وارتباطاته .

وأنّ من التقوى المسؤولية المشتركة بين المسلمين في إقامة دين الله ، ومن هذه المسؤولية المشتركة إقامة فروض الكفايات .

وأنّ من التقوى إقامة الفروض العينية التي هي أثر عن واجبات وقت أو عصر .

ومن أهم طرق التقوى العبادة وخاصّة إذا أدّيت في مقام الإحسان ، وأنّ الإحسان طريقه بعد الدخول في الإسلام العمل الصالح والكف عن المعاصي ، فذلك الذي يوصل إلى حقيقة الإيمان التي هي مقام الإحسان .

ولنكتف بهذه الإشارات إلى التقوى فالاختصار فيه لا يكفي .

وأما الورع فننقل لك عن الغزالي ما قاله في درجات الورع الأربع .

قال رحمه الله] :

الدرجات الأربع في الورع وشواهدها

أما الدرجة الأولى : وهي ورع العدول وهو كل ما اقتضت الفتوى تحريمه مما يدخل في مداخل الحرام المطلق الذي ينسب مقتحمه إلى الفسق والمعصية .

وأما الدرجة الثانية : فأمثلتها : كل شبهة لا يجب اجتنابها ولكن يستحب اجتنابها ، وأما ما يجب اجتنابها فتلحق بالحرام ، ومنها ما يكره اجتنابها فالورع عنها ورع الموسوسين ، كمن يمتنع من الاصطياد خوفاً من أن يكون الصيد قد أفلت من إنسان أخذه وملكه ، وهذا وسواس . وأما ما يستحب اجتنابها ولا يجب هو الذي ينزّل عليه قوله ﷺ : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك »[١] ونحمله على نهي التنزيه .

يحكى عن ابن سيرين أنه ترك لشريك له أربعة آلاف درهم حاك في قلبه شيء ، مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به ، فكل ما هو شبهة لا يجب اجتنابه فهو مثال هذه الدرجة .

أما الدرجة الثالثة : وهي ورع المتقين ، فيشهد لها قوله ﷺ : « لا يبلغ العبد درجة المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس »[٢] وقال عمر رضي الله عنه . كنا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة أن نقع في الحرام .

وقيل : إن هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما . وقال أبو الدرداء : إن من تمام التقوى أن يتقي العبد في مثقال ذرّة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً حتى يكون حجابا بينه وبين النار ، وأخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من تمر الصدقة وكان صغيراً فقال النبي ﷺ : « كخ كخ »[٣] أي ألقها . ومن ذلك ما روى بعضهم أنه كان عند محتضر ، فمات ليلاً فقال : أطفئوا السراج قد حدث للورثة حق في الدهن .

ومن ذلك التورع عن الزينة لأنه يخاف منها أن تدعو إلى غيرها ـ وإن كانت الزينة مباحة في نفسها ـ وهذا من ترك ما لا بأس به مخافة مما به البأس . أي مخافة من أن يفضي

---

(١) أخرجه النسائي والترمذي وابن حبان وصححاه .

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه السيوطي .

(٣) أخرجه البخاري .

إليه ، وأكثر المباحات داعية إلى المحظورات ، حتى استكثار الأكل واستعمال الطيب للمتعزب فإنه يحرّك الشهوة ، ثم الشهوة تدعو إلى الفكر ، والفكر يدعو إلى النظر ، والنظر يدعو إلى غيره ، وكذلك النظر إلى دور الأغنياء وتجملهم ، مباح في نفسه ولكن يهيج الحرص ويدعو إلى طلب مثله ، ويلزم منه ارتكاب ما لا يحل في تحصيله ، وهكذا المباحات كلها إذا لم تؤخذ بقدر الحاجة في وقت الحاجة مع التحرّز من غوائلها بالمعرفة أولاً ثم بالحذر ثانياً ، فقلما تخلو عاقبتها عن خطر ، وكذا كل ما أخذ بالشهوة فقلما يخلو عن خطر ، وكره السلف الثوب الرقيق وقالوا : من رق ثوبه رق دينه ، وكل ذلك خوفاً من سريان اتباع الشهوات في المباحات إلى غيرها ، فإن المحظور والمباح تشتهيها النفس بشهوة واحدة ، وإذا تعوّدت الشهوة المسامحة استرسلت ، فاقتضى خوف التقوى الورع عن هذا كله ، فكل حلال انفك عن مثل هذه المخافة فهو الحلال الطيب في الدرجة الثالثة ، وهو كل ما لا يخاف أداؤه إلى معصية ألبتة .

أما الدرجة الرابعة : وهو ورع الصديقين ، فالحلال عندهم كل ما لا تتقدّم في أسبابه معصية ولا يستعان به على معصية ولا يقصد منه في الحال والمآل قضاء وطر ، بل يتناول لله تعالى فقط وللتقوي على عبادته واستبقاء الحياة لأجله .

وهذه رتبة الموحدين المتجرّدين عن حظوظ أنفسهم ، المفردين لله تعالى بالقصد ، ولا شك في أن من يتورّع عما يوصل إليه أو يستعان عليه بمعصية ليتورّع عما يقترن بسبب اكتسابه معصية أو كراهية ، ولذلك تقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوّة مع أنه شربه عن جهل ، وكان لا يجب إخراجه ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصدّيقين ، ومن ذلك ؛ التورّع من كسب حلال اكتسبه خياط يخيط في المسجد ؛ فإن أحمد رحمه الله كره جلوس الخياط في المسجد . وسئل عن المغازلي يجلس في قبة في المقابر في وقت يخاف من المطر ؛ فقال : إنما هي من أمر الآخرة وكره جلوسه فيها . وأطفأ بعضهم سراجاً أسرجه غلامه من قوم يكره مالهم . وامتنع من تسجير تنور للخبز وقد بقي فيه جمر من حطب مكروه فهذه دقائق الورع عند سالكي طريق الآخرة .

والتحقيق فيه أن الورع له أول وهو الامتناع عما حرمته الفتوى وهو ورع العدول ، وله غاية وهو ورع الصديقين ، وذلك هو الامتناع من كل ما ليس لله مما أخذ بشهوة أو تُوصّل إليه بمكروه ، أو اتصل بسببه مكروه ، وبينهما درجات في الاحتياط ، فكلما كان العبد أشدّ

تشديداً على نفسه كان أخف ظهراً يوم القيامة وأسرع جوازاً على الصراط ، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته ، وتتفاوت المنازل في الآخرة بحسب تفاوت هذه الدرجات في الورع ، كما تتفاوت درجات النار في حق الظلمة بحسب تفاوت درجات الحرام في الخبث ، وإذا علمت حقيقة الأمر فإليك الخيار ، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط ، وإن شئت فرخص فلنفسك تحتاط وعلى نفسك ترخص ، والسلام .

☆ ☆ ☆

الفقرة التاسعة : في الشكر

[التقوى هي عتبة الوصول إلى الشكر ، فمقام الشكر أرقى ولذلك قال تعالى : ﴿ **واتقوا الله لعلّكم تشكرون** ﴾ (آل عمران : ١٣٢) لأن الشكر استنفاد للطاقات في الأحب إلى الله ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

وها نحن ننقل لك عن الغزالي كلامه في فضيلة الشكر وفي بيان حدّه وحقيقته . قال رحمه الله] :

بيان فضيلة الشكر

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالذكر في كتابه مع أنه قال : ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾ (العنكبوت : ٤٥) فقال تعالى : ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾ (البقرة : ١٥٢) وقال تعالى : ﴿ **ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم** ﴾ (النساء : ١٤٧) وقال تعالى : ﴿ **وسنجزي الشاكرين** ﴾ (آل عمران : ١٤٥) وقال عز وجل إخباراً عن إبليس اللعين : ﴿ **لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم** ﴾ (الأعراف : ١٦) قيل هو طريق الشكر ، ولعلوّ رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال : ﴿ **ولا تجد أكثرهم شاكرين** ﴾ (الأعراف : ١٧) وقال تعالى : ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾ (سبأ : ١٣) وقد قطع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى : ﴿ **لئن شكرتم لأزيدنكم** ﴾ (إبراهيم : ٧) واستثنى في خمسة أشياء في الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال تعالى : ﴿ **فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء** ﴾ (التوبة : ٢٨) وقال : ﴿ **فيكشف ما تدعون إليه إن شاء** ﴾ (الأنعام : ٤١) وقال : ﴿ **يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ (البقرة : ٢١٢) وقال : ﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء** ﴾ وقال : ﴿ **ويتوب الله على من يشاء** ﴾ (التوبة : ١٥) وهو خلق من أخلاق الربوبية إذ قال تعالى : ﴿ **والله شكور حليم** ﴾ (التغابن : ١٧) وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال تعالى : ﴿ **وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده** ﴾ (الزمر : ٧٤) وقال : ﴿ **وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين** ﴾ (يونس : ١٠) .

بيان حدّ الشكر وحقيقته

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين ، وهو أيضاً ينتظم من علم وحال وعمل ، فالعلم هو الأصل فيورث الحال والحال يورث العمل فأما العلم فهو معرفة النعمة من المنعم ، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه ، والفعل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه . ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح وباللسان ولابد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الإحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الإحاطة بكمال معانيه .

(**فالأصل الأوّل**) العلم : وهو علم بثلاثة أمور ؛ بعين النعمة ، ووجه كونها نعمة في حقه ، وبذات المنعم ووجود صفاته التي بها يتم الإنعام ويصدر الإنعام منه عليه . فإنه لابد من : نعمة ، ومنعم ، ومنعم عليه تصل إليه النعمة من المنعم بقصد وإرادة ، فهذه الأمور لابد من معرفتها . هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو المنعم ، والوسائط مسخرون من جهته .

وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها . بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان : التقديس . ثم إذا عرف ذاتاً مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس : وهو التوحيد . ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط ، فالكل نعمة منه ، فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة ، إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد ؛ كمال القدرة والانفراد بالفعل .

فإذن لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه ، فإن خالجك ريب في هذا لم تكن عارفاً لا بالنعمة ولا بالمنعم ، فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره ، فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك ؛ فهذا بيان هذا الأصل .

(**الأصل الثاني**) الحال المعتمدة من أصل المعرفة : وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع ، ولكن إنما يكون شكراً إذا كان حاوياً شرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالمنعم لا بالنعمة ولا بالإنعام .

(**الأصل الثالث**) العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة المنعم . وهذا العمل يتعلق

بالقلب وباللسان وبالجوارح ، أما بالقلب : فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان : فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه ، وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بها على معصيته ، حتى إن شكر العينين : أن تستر كل عيب تراه لمسلم ، وشكر الأذنين : أن تستر كل عيب تسمعه فيه ، فيدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان : لإظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به ؛ وكان السلف يتساءلون ونيتهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعاً ، والمستنطق له به مطيعاً ، وما كان قصدهم الرياء بإظهار الشوق ، وكلّ عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت ؛ فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين ، وكيف لا تقبح الشكوى من ملك الملوك وبيده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء ، فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى ، فهو المبلي والقادر على إزالة البلاء . وذل العبد لمولاه عز ، والشكوى إلى غيره ذل ؛ وإظهاره للعبد مع كونه مثله ذل قبيح . قال الله تعالى : ﴿ **إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له** ﴾ (العنكبوت : ١٧) وقال تعالى : ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم** ﴾ (الأعراف : ١٩٤) فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روي أن وفداً قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله ، فقام شاب ليتكلم ، فقال عمر : الكبر الكبر ! فقال : يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك ! فقال : تكلم ، فقال : لسنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة ، أما الرغبة فقد أوصلها إلينا فضلك ، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك ، وإنما نحن وفد الشكر جئناك نشكرك باللسان وننصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بجموع حقيقته .

أما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه فهو نظر إلى مجرّد عمل اللسان . وقول القائل : إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة ، جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان . وقول حمدون القصار : شكر النعمة : أن ترى نفسك في الشكر طفيلياً . إشارة إلى أن معنى المعرفة من معاني الشكرفقط. وقول الجنيد : الشكر : أن لا ترى نفسك أهلاً للنعمة . إشارة إلى حال من أحوال

القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم ؛ فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تتفق ، ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالاً بما يهمهم عما لا يهمهم ، أو يتكلمون بما يرونه لائقاً بحالة السائل ، اقتصاراً على ذكر القدر الذي يحتاج إليه ، وإعراضاً عما لا يحتاج إليه .

☆ ☆ ☆

الفقرة العاشرة : في الصبر والتسليم والرضا

[بين الصبر والشكر تلازم كالتلازم الحاصل بين النعمة والابتلاء ، فالإنسان لا يخلو عنهما ، ثم إن الشكر بالعمل يقتضي صبراً على العمل ، ولذلك كان الصبر ثلاثة أنواع : صبر على الطاعة ، وصبر عن المعصية ، وصبر على البلاء ، وذلك هو الحياة كلّها ، لذلك كان الصبر نصف الإيمان لأنه ما من مقام من مقامات الإيمان إلا ويلازمه الصبر .

وليس دون الصبر على البلاء إلا الجزع وهو مذموم أو الكفر فإنّه مهلك ، فليس أمام المسلم إلا أن يصبر ، ولذلك كان لازم الصبر الجميل التسليم والرضا بقضاء الله .

وقد أسهب الغزالي وأطال في هذه المقامات وهذه شذرات من كلامه] .

قال رحمه الله :

بيان فضيلة الصبر

وقد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً ، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل : ﴿ **وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾ (السجدة : ٢٤) وقال تعالى : ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا** ﴾ (الأعراف : ١٣٧) وقال تعالى : ﴿ **ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** ﴾ (النحل : ٩٦) وقال تعالى : ﴿ **أولَئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا** ﴾ (القصص : ٥٤) وقال تعالى : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ (الزمر : ١٠) فما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ، ولأجل ذلك كان للصوم الأجر الكبير لأنه نصف الصبر ، وقال الله تعالى : ﴿ **واصبروا إن الله مع الصابرين** ﴾ (الأنفال : ٤٦) وعلق النصرة على الصبر فقال تعالى : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين** ﴾ (آل عمران : ١٢٠) وجمع للصابرين بين أمور لم يجمعها لغيرهم فقال تعالى : ﴿ **أولَئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولَئك هم المهتدون** ﴾ (البقرة : ١٥٧) فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين . واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول .

بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ما عنه الصبر

اعلم أن الصبر ضربان ؛ أحدهما : ضرب بدني ، كتحمل المشاق بالبدن والثبات عليها . وهو إما بالفعل : كتعاطي الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها . وإما بالاحتمال : كالصبر على الضرب الشديد والمرض العظيم والجراحات الهائلة . وذلك يكون محموداً إذا وافق الشرع .

ولكن المحمود التام هو الضرب الآخر : وهو الصبر النفسي عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى . ثم هذا الضرب إذا كان صبراً على شهوة البطن والفرج سمي عفة ، وإن كان على احتمال مكروه ، فقد اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر . فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر ، وتضادّه حالة تسمّى الجزع والهلع وهو إطلاق داعي الهوى يسترسل في رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها . وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس ، وتضاده حالة تسمى البطر . وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن . وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلماً ويضاده التذمر . وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر . وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوماً . وإن كان عن فضول العيش سمي زهداً ويضاده الحرص . وإن كان صبراً على يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر . وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وسمى الكل صبراً فقال تعالى : ﴿ **والصابرين في البأساء** ﴾ أي المصيبة ﴿ **والضراء** ﴾ أي الفقر ﴿ **وحين البأس** ﴾ أي المحاربة ﴿ **أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** ﴾ (البقرة : ١٧٧) فإذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ، ومن يأخذ المعاني من الأسامي يظن أنّ هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفة ، والذي يسلك الطريق المستقيم وينظر بنور الله تعالى يلحظ المعاني أوّلاً فيطّلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي فإنها وضعت دالة على المعاني . فالمعاني هي الأصول والألفاظ هي التوابع . ومن يطلب الأصول من التوابع لابدّ وأن يزل .

بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف

اعلم أنّ باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوّة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر ، وعند هذا يقال من صبر ظفر . والواصلون إلى هذه الرتبة هم الأقلّون فلا جرم هم الصدّيقون المقربون : ﴿ **الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾ (فصلت : ٣٠) فهؤلاء لازموا الطريق المستقيم واستووا على الصراط القويم واطمأنت نفوسهم على مقتضى باعث الدين . وإياهم ينادي المنادي : ﴿ **يا أيّتها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية** ﴾ (الفجر : ٢٧ ، ٢٨) .

الحالة الثانية : أن تغلب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ، ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة ، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون ، وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شقوتهم فحكّموا أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالىوأمر من أمور الله . وإليهم الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجِنّة والناس أجمعين** ﴾ (السجدة : ١٣) .

الحالة الثالثة : أن يكون الحرب سجالاً بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه ، وهذا من المجاهدين يعدُّ مثله لا من الظافرين ، وأهل هذه الحالة هم الذين : ﴿ **خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم** ﴾ (التوبة : ١٠٢) هذا باعتبار القوّة والضعف .

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بجهد جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك تصبراً ، وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحامل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر . وإذا دامت التقوى وقوي التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر ولذلك قال تعالى : ﴿ **فأما من أعطى واتقى * وصدّق بالحسنى * فسنيسره لليسرى** ﴾ (الليل : ٥ ـ ٧) ومثال هذه القسمة قدرة المصارع على غيره ، فإنّ الرجل القوي يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوّة بحيث لا يلقى في

مصارعته إعياء ولا لغوباً ولا تضطرب فيه نفسه ولا ينبهر . ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين . فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وباعث الهوى فإنه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين . ومهما أذعنت الشهوات وانقمعت وتسلط باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول المراوضة والمواظبة أورث ذلك مقام الرضا ، فالرضا أعلى من الصبر ، ولذلك قال ﷺ : « اعبد الله على الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير »[١] .

وقال بعض العارفين : أهل الصبر على ثلاثة مقامات (أولها) ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . (وثانيها) الرضا بالمقدور وهذه درجة الزاهدين . (وثالثها) المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصدّيقين .

واعلم أنّ الصبر ينقسم باعتبار حكمه إلى : فرض ، ونفل ، ومكروه ، ومحرم . فالصبر على المحظورات فرض . وعلى المكاره نفل . والصبر على الأذى المحظورمحظور كمن تقطع يده أو يد ولده وهو يصبر عليه ساكتاً . وكمن يقصد حريمه بشهوة محظورة فتهيج غيرته فيصبر عن إظهار الغيرة ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر محرم . والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع محك الصبر . فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يخيل إليك أنّ جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال

اعلم أنّ جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين (أحدهما) هو الذي يوافق هواه . (والآخر) هو الذي لا يوافقه بل يكرهه . وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما . فهو إذن لا يستغني قط عن الصبر .

(**النوع الأوّل**) ما يوافق الهوى : وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة

---

(١) أخرجه الترمذي .

واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا . وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور ؛ فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهاك في ملاذها المباحة منها أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان ، فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن ، والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشدّ من الصبر على البلاء لما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا : ابتلينا بفتنة الضراء فصبرنا ، وابتلينا بفتنة السراء فلم نصبر ، ولذلك حذّر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله** ﴾ (المنافقون : ٩) وقال عز وجل : ﴿ **إن من أزواجكم وأولادكم عدوّاً لكم فاحذروهم** ﴾ (التغابن : ١٤) وقال ﷺ : « الولد مبخلة مجبنة محزنة »[1] . ولما نظر عليه الصلاة والسلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قميصه نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال : « صدق الله : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾ إني لما رأيت ابني يتعثر لم أملك نفسي أن أخذته »[2] ففي ذلك عبرة لأولي الأبصار .

فالرجل كل الرجل من يصبر عليها وأن لا يركن إليها ويعلم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه في الفرح بها ولا ينهمك في التنعم واللذة واللهو واللعب ، وأن يرعى حقوق الله في ماله بالإنفاق ، وفي بدنه ببذل المعونة للخلق ، وفي لسانه ببذل الصدق ، وكذلك في سائر ما أنعم الله به عليه . وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر ، وإنما كان الصبر على السراء أشدّ لأنه مقرون بالقدرة ، ومن العصمة أن لا تقدر ، والصبر على الحجامة والفصد إذا تولاه غيرك أيسر من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك ؛ والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها ، فلهذا عظمت فتنة السراء .

(**النوع الثاني**) ما لا يوافق الهوى والطبع ، وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي ، أو لا يرتبط بختياره كالمصائب والنوائب . أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام :

---

(١) أخرجه أبو يعلى الموصلي .

(٢) أخرجه أصحاب السنن وقالوا : الحسن والحسين وقال الترمذي : حسن غريب .

(القسم الأوّل) ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التي توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان :

(الضرب الأوّل) الطاعة ، والعبد يحتاج إلى الصبر عليها ، فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشتهي الربوبية ، ولذلك قال بعض العارفين : ما من نفس إلا وهي مضمرة ما أظهر فرعون من قوله : ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ (النازعات : ٢٤) ولكن فرعون وجد له مجالاً وقبولاً فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه ، وما من أحد إلا وهو يدّعي ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته ، وإن كان ممتنعاً من إظهاره ، فإن استشاطته وغيظة عند تقصيرهم في خدمته واستبعاده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنزاعة الربوبيّة في رداء الكبرياء .

فإذن العبودية شاقة على النفس مطلقاً . ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة . ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة . ومنها ما يكره بسببها جميعاً كالحج والجهاد . فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد .

ويحتاج المطيع إلى الصبر على طاعته **في ثلاثة أحوال : الأولى** قبل الطاعة ،وذلك في تصحيح النية والإخلاص والصبر عن شوائب الرياء ودواعي الآفات ، وعقد العزم على الإخلاص والوفاء . وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والإخلاص ، وآفات الرياء ومكايد النفس . وقد نبه صلوات الله عليه إذ قال : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى »[1] وقال تعالى : ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين** ﴾ (البينة : ٥) ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل فقال تعالى : ﴿ **إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات** ﴾ (هود : ١٦) .

الحالة الثانية : حالة العمل ، كي لايغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلازم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضاً من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى : ﴿ **نعم أجر العاملين * الذين صبروا** ﴾ (العنكبوت : ٥٨ ، ٥٩) أي صبروا إلى تمام العمل .

---

(١) متفق عليه .

الحالة الثالثة : بعد الفراغ من العمل ، إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء ، والصبر عن النظر إليه بعين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى : ﴿ **ولا تبطلوا أعمالكم** ﴾ (محمد : ٣٣) وكما قال تعالى : ﴿ **لا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى** ﴾ (البقرة : ٢٦٤) فمن لا يصبر بعد الصدقة عن المنّ والأذى فقد أبطل عمله .

والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل ، وهو محتاج إلى الصبر عليهما وقد جمعهما الله تعالى في قوله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾ (النحل : ٩٠) فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذي القربى هو المروءة وصلة الرحم . وكل ذلك يحتاج إلى صبر .

(الضرب الثاني) المعاصي : فما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى : ﴿ **وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ (النحل : ٩٠) وقال ﷺ : « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه »[1] والمعاصي مقتضى باعث الهوى .

وأشد أنواع الصبر : الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة ، فإن العادة طبيعة خامسة ، فإذا انضافت العادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى ؛ فلا يقوى باعث الدين على قمعها . ثم إن كان ذلك الفعل مما تيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس ، كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والمراء والثناء على النفس تعريضاً وتصريحاً . وأنواع المزاح المؤذي للقلوب وضروب الكلمات التي يقصد بها الإزراء والاستحقار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وسيرهم ومناصبهم ، فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس . فللنفس فيه شهوتان : إحداهما نفي الغير ، والأخرى إثبات نفسه . وبها تتم له الربوبية التي هي في طبعه ، وهي ضدّ ما أمر به من العبودية . ولاجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معتاداً في المحاورات يعسر الصبر عنها ، وهي أكبر الموبقات حتى بطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها ، فترى الإنسان يلبس حريراً مثلاً فيُستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك منه ، ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك ، فيجب

---

(١) أخرجه ابن ماجه بالشطر الأول والنسائي في الكبرى بالشطر الثاني . بإسنادين جيدين .

عليـه العزلـة والانفراد فلا ينجيـه غيره ، فـالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة .

وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوّتها وضعفها . وأيسر من حركة اللسان حركة الخواطر باختلاف الوساوس ، فلا جرم يبقى حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنـه أصلاً إلا بـأن يغلب على القلب همٌّ آخر في الـدين يستغرقـه ، كمن أصبح وهمومه همٌّ واحد ، وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معيّن لم يتصور فتور الوسواس عنه .

(**القسم الثاني**) ما لا يرتبط هجومه باختياره ولـه اختيـار في دفعـه ، كما لو أوذي بفعل أو قول وجُني عليه في نفسه أو ماله فـالصبر على ذلـك بترك المكافـأة تـارة يكون واجبـاً وتـارة يكون فضيلة . قال بعض الصحابة رضوان الله عليهم : مـا كنـا نعدّ إيمـان الرجل إيمـانـاً إذا لم يصبر على الأذى . وقـال تعـالى حكايـة عن قـول رسـل الله لأقـوامهم : ﴿ **ولنصبرنّ على مـا آذيتمونـا وعلى الله فليتوكل المتـوكلـون** ﴾ (إبراهيم : ١٢) وقسم رسـول الله ﷺ مرة مـالاً ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمـة مـا أريـد بهـا وجـه الله ، فـأخبر رسول الله ﷺ فـاحمرّت وجنتـاه ثم قـال : « يرحم الله أخي موسى لقـد أوذي بـأكثر من هـذا فصبر »[1] وقـال تعـالى : ﴿ **ودع أذاهم وتوكل على الله** ﴾ (الأحزاب : ٤٨) وقـال تعـالى : ﴿ **واصبر على مـا يقولون واهجرهم هجراً جميلاً** ﴾ (المزمل : ١٠) وقـال تعـالى : ﴿ **ولقـد نعلم أنـك يضيق صـدرك بمـا يقـولـون * فسبـح بحمـد ربـك** ﴾ (الحجر : ٩٧ ، ٩٨) . وقـال تعـالى : ﴿ **ولتسمعنّ من الـذين أوتوا الكتـاب من قبلكم ومن الـذين أشركوا أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فـإن ذلـك من عـزم الأمـور** ﴾ (آل عمران : ١٨٦) أي تصبروا عن المكافـأة . ولذلك مدح الله تعالى العـافين عن حقوقهم في القصـاص وغيره فقـال تعـالى : ﴿ **وإن عـاقبتم فعـاقبوا بمثـل مـا عوقبتم بـه ولئن صبرتم لهـو خير للصـابرين** ﴾ (النحل : ١٢٦) وقـال ﷺ : « صل من قطعك ، وأعط من حرمـك ، واعف عمن ظلمـك »[2] وكل ذلـك أمر بـالصبر على الأذى . فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر ؛ لأنه يتعـارض فيـه بـاعث الـدين وباعث الشهوة والغضب جميعاً .

---

(١) متفق عليه .

(٢) رمز السيوطي لصحته .

(**القسم الثالث**) ما لا يدخل تحت حصر الاختيار أوّله وآخره ؛ كالمصائب : مثل موت الأعزة وهلاك الأموال ، وزوال الصحة بالمرض ، وعمى العين وفساد الأعضاء . وبالجملة سائر أنواع البلاء ، فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس رضي الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة ، وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة ، وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة . وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهي من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على الصبر عن المحارم .

فأما الصبر على بلاء الله فلا يقدر عليه إلا الأنبياء وهو بضاعة الصدّيقين فإنّ ذلك شديد على النفس . ولذلك قال ﷺ : « أسألك من اليقين ما تهوّن عليّ به مصائب الدنيا »[١] فهذا صبر مستنده حسن اليقين .

وقال أبو سليمان : والله ما نصبر على ما نحب فكيف نصبر على ما نكره ؟ وقال ﷺ : « ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى : ﴿ **إنّا لله وإنّا إليه راجعون** ﴾ اللهم اؤجرني بمصيبتي وأعقبني خيراً منها إلا فعل الله به ذلك »[٢] وقال أنس : حدّثني رسول الله ﷺ : « إنّ الله عز وجل قال : يا جبريل ما جزاء من سليت كريمتيه . قال : سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا قال الله تعالى : جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي »[٣] وقال ﷺ : « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي ببلاء فصبر ولم يشكني إلى عوّاده أبدلته لحماً خيراً من لحمه ، ودماً خيراً من دمه ، فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمتي »[٤] .

فإن قلت : بماذا تنال درجة الصبر في المصائب وليس الأمر إلى اختياره ، فهو مضطرّ شاء أم أبى ، فإن كان المراد به ألا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في اختيار ؟ فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع ، وشق الجيوب ، وضرب الخدود ، والمبالغة في الشكوى ، وإظهار الكآبة ، وتغيير العادة في الملبس والمفرش والمطعم ، وهذه الأمور داخلة تحت

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) رواه البخاري بلفظ : « إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته منهما الجنة » .

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ورواه البيهقي موقوفاً على أبي هريرة .

اختيـاره فينبغي أن يجتنب جميعهـا ، ويظهر الرضـا بقضـاء الله تعـالى ، ويبقى مستمرّاً على عادته ، ويعتقد أنّ ذلك كان وديعـة فـاسترجعت . كما روي عن الرميصـاء أم سليم رحمهـا الله ، أنها قالت : توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غـائب فقمت فسجيتـه في نـاحيـة البيت فقـدم أبو طلحة فقمت فهيأت له إفطاره فجعل يأكل ، فقال : كيف الصبي ؟ قلت : بأحسن حال بحمـد الله ومنّه ؛ فإنه لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة ، ثم تصنّعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ، ثم قلت : ألا تعجب من جيراننا ! قـال : مـا لهم ؟ قلت : أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا ، فقال : بئس ما صنعوا ! فقلت : هذا ابنك كان عارية من الله تعالى ، وإن الله قد قبضه إليه ، فحمـد الله واسترجع ثم غـدا على رسول الله ﷺ فأخبره ، فقال : « اللهم بارك لهما في ليلتهما »[١] قال الراوي : فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجـد سبعـة كلهم قـد قرأوا القرآن . وروى جـابر أنـه عليـه الصلاة والسـلام قـال : « رأيتني دخلت الجنـة فـإذا أنـا بـالرميصـاء امرأة أبي طلحـة » وقـد قيل : الصبر الجميل هو أن لا يُعرف صـاحب المصيبـة من غيره ، ولا يخرجـه عن حـدّ الصـابرين توجّـع القلب ، ولا فيضـان العين بـالـدمع ، إذ يكون من جميع الحـاضرين لأجل المـوت سـواء ، ولأنّ البكاء وتـوجـع القلب على الميت فإن ذلك مقتضى البشرية ، ولا يفارق الإنسان إلى الموت ، ولذلك لمـا مـات إبراهيم ولـد النبي ﷺ فاضت عيناه فقيل له : أما نهيتنا عن هذا ؟ فقال : « إنّ هذه رحمة »[٢] « إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[٣] بل ذلك أيضاً لا يخرج عن مقام الرضا ، فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه .

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

اعلم أن الذي أنزل الدواء وعـد الشفـاء ، فـالصبر وإن كان شـاقـاً أو ممتنعـاً فتحصيلـه ممكن بمعجون العلم والعمل ، فـالعلم والعمل همـا الأخلاط التي منهـا تركب الأدويـة لأمراض القلـوب كلها ، ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر ، وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفـة ، وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضـادة العلـة وقمعهـا .

---

(١) أخرجه الطبراني وأصل القصة عند البخاري ومسلم .

(٢) أخرجه الشيخان .

(٣) أخرجه الطبراني عن جرير وصححه السيوطي .

واستيفاء ذلك مما يطول ولكنا نعرّف الطريق في بعض الأمثلة .

فنقول : إذا افتقر إلى الصبر عن شهوة الوقاع ـ مثلاً ـ وقد غلب عليه الشهوة ، بحيث ليس يملك معها فرجه ، أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه ، أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن المواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة « فنقول » قد قدمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى ، وكل متصارعين أردنا أن يغلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر ؛ فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة .

فأما باعث الشهوة فسبيل تضعيفه ثلاثة أمور :

(**أحدها**) أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحركة للشهوة ـ من حيث نوعها ومن حيث كثرتها ـ فلابد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ، ضعيف في جنسه ، فيحترز عن اللحم والأطعمة المهيجة للشهوة .

(**الثاني**) قطع أسبابه المهيجة في الحال فإنه إنما يهيج بالنظر إلى مظانّ الشهوة ، إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة ، وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة والفرار منها بالكلية ، قال رسول الله ﷺ : « النظرة سهم من سهام إبليس »[١] وهو سهم يسدده الملعون ، ولا ترس يمنع منه إلا تغميض الأجفان أو الهرب من صوب رميه ، فإنه إنما يرمي هذا السهم عن قوس الصور فإذا انقلبت عن صوب الصور لم يصبك سهمه .

(**الثالث**) تسلية النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح ، فإن كل ما يشتهيه الطبع ففي المباحات من جنسه ما يغني عن المحظورات منه . وهذا هو العلاج الأنفع في حق الأكثر ، فإنّ قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ، ثم قد لا يقمع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال ﷺ : « عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء »[٢] .

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم .

(٢) متفق عليه .

وأما تقوية باعث الدين فإنما تكون بطريقين ،**أحدهما** :إطماعه في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا ، وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة .

وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة يضعف وتارة يقوى ، فإن قوي قوّى باعث الدين وهيجه تهييجاً شديداً وإن ضعف ضعّفه . وإنما قوّة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر ، وأقل ما أوتي الناس اليقين وعزيمة الصبر .

والثاني : أن يعوّد هذا الباعث مصارعة باعث الهوى حتى تدرك لذة الظفر بها فيستجرئك عليها وتقوى همّتك في مصارعتها ، فإن الاعتياد والممارسة للأعمال الشاقة تؤكّد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ، ولذلك تزيد قوّة الحمالين والفلاحين والمقاتلين . وبالجملة فقوّة الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الخياطين والعطارين والفقهاء والصالحين ، وذلك لأن قواهم لم تتأكد بالممارسة .

فالعلاج الأول : يضاهي إطماع المصارع بالخلعة عند الغلبة ووعده بأنواع الكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه إياهم بموسى حيث قال : ﴿ **وإنكم إذاً لمن المقرّبين** ﴾ (الأعراف : ١١٤) .

والثاني : يضاهي تعويد الصبي الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجرىء عليه وتقوى فيه همّته . فمن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا يقوى على الشهوة وإن ضعف ، ومن عوّد نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد .

فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاؤه ، وإنما أشدّها كف الباطن عن حديث النفس .

☆ ☆ ☆

بيان فضيلة الرضا

أما من الآيات فقوله تعالى : ﴿ **رضي الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ (البينة : ٨) وقال تعالى : ﴿ **هل جزاء الإحسان إلا الإحسان** ﴾ (الرحمن : ٦٠) ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى . وقال تعالى : ﴿ **ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر** ﴾ (التوبة : ٧٢) فقد رفع الله الرضا فوق جنات عدن كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال : ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر** ﴾ (العنكبوت : ٤٥) فكما أنّ مشاهدة المذكور في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب سكان الجنان .

وفي الحديث : « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول : سلوني ، فيقولون رضاك »[١] فسؤالهم الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . فإنما سألوه الرضا لأنه سبب دوام النظر ، فكأنهم رأوا غاية الغايات رفع الحجاب . وفي الخبر : « طوبى لمن هدي للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضي به »[٢] وعن نبينا ﷺ أنه قال : « من أحبّ أن يعلم ما له عند الله عز وجل فلينظر ما لله عز وجل عنده ؛ فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه »[٣] . وعن عمر بن عبد العزيز : ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر ، وقيل له : ما تشتهي ؟ فقال : ما يقضي الله . وقال ميمون بن مهران : من لم يرض بالقضاء فليس لحمقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : ليس الشأن في أكل خبز الشعير والخل ولا في لبس الصوف والشعر ، ولكنّ الشأن في الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن ألحس جمرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إليّ من أن أقول لشيء كان ليته لم يكن ، أو لشيء لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة في رجل محمد بن واسع ، فقال : إني لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : إني لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج من عيني .

---

(١) أخرجه البزار والطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح .

(٢) أخرجه الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ « وقنع » وقال صحيح .

(٣) أخرجه الحاكم وصححه بلفظ « منزلته ومنزلة الله » .

بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى

اعلم أنّ من قال : ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصوّر ؟ فإنما أتي من ناحية إنكار المحبة ، فأما إذا ثبت تصوّر الحب لله تعالى واستغراق الهمّ به فلا يخفى أنّ الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ، ويكون ذلك من وجهين :

(أحدهما) أن يبطل الإحساس بالألم حتى يجري عليه المؤلم ولا يحس ، وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها . ومثاله : الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بألم ذلك لشغل قلبه . بل الذي يحتجم أو يحلق رأسه بحديدة كآلة يتألم به ، فإن كان مشغول القلب بمهم من مهماته فرغ المزين والحجام وهو لا يشعر به . وكل ذلك لأنّ القلب إذا صار مستغرقاً بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه ، فكذلك العاشق المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يغتم له لولا عشقه ، ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه . وهذا إذا أصابه من غير حبيبه ! فكيف إذا أصابه من حبيبه ؟ وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل ، وإذا تصوّر هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصوّر في الألم العظيم بالحب العظيم ، فإنّ الحب أيضاً يتصوّر تضاعفه في القوّة كما يتصوّر تضاعف الألم ، وكما يقوى حب الصور الجميلة المدركة بحاسة البصر فكذا يقوى حب ما يعرف بنور البصيرة ، وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال . .

(أما الوجه الثاني) فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضياً به بل راغباً فيه مريداً له ـ أعني بعقله ـ وإن كان كارها بطبعه ، كالذي يلتمس من الفصّاد الفصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتقلد من الفصّاد به منّة بفعله ، فهذا حال الراضي بما يجري عليه من الألم . وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيّب عنده مشقة السفر وجعله راضياً بها . ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادّخر له فوق ما فاته رضي به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه . هذا إن كان يلاحظ الثواب والإحسان الذي يجازى به عليه ، ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ المحب في مراد محبوبه ورضاه لا لمعنى آخر وراءه ، فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوباً عنده

ومطلوباً ، وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد وصفها الواصفون في نظمهم ونثرهم ، فإذا تصوّر استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدي الذي لا منتهى لكماله المدرك بعين البصيرة التي لا يعتريها الغلط ، ولا يدور بها الموت ، بل تبقى بعد الموت ؟ فهذا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار ، فإذا تأملت عرفت أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلاً بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين . ومهما كان ذلك ممكناً في حب الخلق وحظوظهم كان ممكناً في حق حب الله تعالى . وإمكانه من وجهين : (أحدهما) الرضا بالألم لما يتوقع من الثواب الموجود كالرضا بالفصد والحجامة وشرب الدواء انتظاراً للشفاء . (والثاني) الرضا به لا لحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له ؛ فقد يغلب الحب بحيث ينغمر مراد المحب في مراد المحبوب ، فيكون ألذ الأشياء عنده سرور قلب محبوبه ورضاه ونفوذ إرادته ولو في هلاك روحه . كما قيل : ☆ فما لجرح إذا أرضاكم ألم ☆ وهذا ممكن مع الإحساس بالألم ، وقد يستولي الحب بحيث يدهش عن إدراك الألم ؛ فالقياس والتجربة والمشاهدة دالة على وجوده ، فلا ينبغي أن ينكره من فقده من نفسه ! لأنه إنما فقده لفقد سببه وهو فرط حبه ، ومن لم يذق طعم الحب لم يعرف عجائبه ، فللمحبين عجائب أعظم مما وصفناه .

بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا ، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يناقضه أيضاً ، وقد غلط في ذلك بعض البطالين والمغترين وزعم أن المعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به ، وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع . فأما الدعاء فقد تُعبدنا به ، وكثرة دعوات رسول الله ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام تدل عليه . ولقد كان رسول الله ﷺ في أعلى المقامات من الرضا . وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقوله : ﴿ **ويدعوننا رغباً ورهباً** ﴾ (الأنبياء : ٩٠) وأما إنكار المعاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبَّد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال : ﴿ **ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها** ﴾ (يونس : ٧) وقال تعالى : ﴿ **رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم** ﴾ (التوبة : ٨٧) وعن ابن مسعود : إن العبد ليغيب عن المنكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه ، قيل : وكيف

ذلك ؟ قال : يبلغه فيرضى به . وقد أمر الله تعالى بالمنافسة في الخيرات ونفي الشرور فقال تعالى : ﴿ **وفي ذلك فليتنافس المتنافسون** ﴾ (المطففين : ٢٦) وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يبثها في الناس ويعلمها ورجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق »[1] وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل والنهار فيقول الرجل : لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لفعلت مثل ما يفعل » وأما بغض الكفار والفجار والإنكار عليهم ومقتهم فما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** ﴾ (آل عمران : ٢٨) وقال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ (المائدة : ٥١) وقال تعالى : ﴿ **وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً** ﴾ (الأنعام : ١٢٦) وقال عليه الصلاة والسلام « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »[2] فإن قلت : فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى فإن كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قادح في التوحيد ، وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة لقضاء الله تعالى ، وكيف السبيل إلى الجمع وهو متناقض على الوجه ، وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد ؟ فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم ، وقد التبس على قوم حتى رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا وسموه : حسن الخلق وهو جهل محض ، بل نقول الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد ، فليس من التضاد في شيء واحد أن يكرهه من وجه ويرضى به من وجه ؛ إذ قد يموت عدوّك الذي هو أيضاً عدوّ بعض أعدائك وساع في إهلاكه ، فتكره موته من حيث إنه مات عدوّ عدوّك ، وترضاه من حيث إنه مات عدوّك ، وكذلك المعصية لها وجهان : وجه إلى الله تعالى من حيث إنها إرادته فلا يكون في ملكه إلا ما أراد فيسلّم به تسليماً للملك إلى مالك الملك ، ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه عند الله بغيضاً حيث سلط عليه أسباب البعد والمقت ، فهو من هذا الوجه منكر ومذموم . بهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من الغضب في الله ، والتشديد على الكفار ، والتغليظ عليهم ، والمبالغة في

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

(٢) رواه أحمد .

مقتهم مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل . وهذا كله يستمد من سر القدر ـ وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ، ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضيّ به . فمن قال : ليس الشر من الله ، فهو جاهل وكذا من قال : إنهما جميعاً منه ـ من غير افتراق في الرضا والكراهة .

وبهذا يعرف أيضاً أنّ الدعاء بالمغفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب المعينة على الدين غير مناقض للرضا بقضاء الله تعالى ، فإن الله تعبّد العباد بالدعاء ؛ ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ، ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحاً للكشف وسبباً لتواتر مزايا اللطف . كما أنّ حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضاً للرضا بقضاء الله تعالى في العطش ، وشرب الماء طلباً لإزالة العطش مباشرة سبب رتّبه مسبب الأسباب ، فكذلك الدعاء سبب رتّبه الله تعالى وأمر به . وقد ذكرنا أن التمسك بالأسباب جرياً على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل ، فهو أيضاً لا يناقض الرضا لأن مقام الرضا ملاصق للتوكل ويتصل به . نعم،إظهار البلاء في معرض الشكوى ، وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا ، وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقضه .

وقول القائل : الفقر بلاء ومحنة ، والعيال هم وتعب ، والاحتراف كدّ ومشقة ، كل ذلك قادح في الرضا ، بل ينبغي أن يسلّم التدبير لمدبره ، والمملكة لمالكها ويقول ما قاله عمر رضي الله عنه : لا أبالي أصبحت غنياً أو فقيراً فإني لا أدري أيها خير لي .

بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظانّ المعاصي ومذمتها لا يقدح في الرضا

اعلم أنّ الضعيف قد يظن أن نهي رسول الله ﷺ عن الخروج من بلد ظهر به الطاعون [كما في الحديث الصحيح] يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي ، لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال . بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بعد ظهور الطاعون حتى لا ينتقل المرض ، وأنه لو فتح هذا الباب لارتحل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين ، لا متعهد لهم ؛ فيهلكون هزالاً وضراً ، ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف ، وإذا عرفت المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي

مظان المعاصي ليس فراراً من القضاء،بل من القضاء الفرار مما لابدّ من الفرار منه . وكذلك مذمة المواضع التي تدعو إلى المعاصي ، والأسباب التي تدعو إليها ـ لأجل التنفير عن المعصية ـ ليست مذمومة . فمازال السلف الصالح يعتادون ذلك ، فهذا يدل على أنّ من بلي ببلدة تكثر فيها المعاصي ويقل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها ، بل ينبغي أن يهاجر . قال الله تعالى : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ (النساء : ٩٧) فإن منعه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضياً بحاله مطمئن النفس إليه ، بل ينبغي أن يكون منزعج القلب منها قائلاً على الدوام : ﴿ **ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها** ﴾ (النساء : ٧٥) وذلك لأن الظلم إذا عَمّ نزل البلاء ، ودمّر الجميع ، وشمل المطيعين . قال الله تعالى : ﴿ **واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة** ﴾ (الأنفال : ٢٥) فإذن ليس في شيء من أسباب نقص الدين ألبتة رضا مطلق فلا وجه للرضا بها بحال .

وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل المقامات الثلاث : رجل يحب الموت شوقاً إلى لقاء الله تعالى ، ورجل يحب البقاء لخدمة المولى ، ورجل قال : لا أختار شيئاً بل أرضى بما اختاره الله تعالى ؛ ورفعت هذه المسألة إلى بعض العارفين فقال : صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلهم فضولاً . واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط ، فقال الثوري : كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم ، واليوم وددت أني مت ، فقال له يوسف : لِمَ ؟ قال : لما أتخوّف من الفتنة ، فقال يوسف : لكني لا أكره طول البقاء ، فقال سفيان : لِمَ ؟ قال : لعلي أصادف يوماً أتوب فيه وأعمل صالحاً ، فقيل لوهيب : إيش تقول أنت ؟ فقال : أنا لا أختار شيئاً ، أحبّ ذلك إليّ أحبّه الله سبحانه وتعالى ، فقبله الثوري بين عينيه وقال : روحانية ورب الكعبة .

☆ ☆ ☆

الفقرة الحادية عشرة : في المراقبة والمشاهدة (الإحسان)

[ميزان النجاح في السير إلى الله هو الوصول إلى مقام الإحسان الذي ورد في الحديث الصحيح : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك » . وهو الذي يعبّر عنه بمقامي المشاهدة والمراقبة ، فالمراقبة : أن تستشعر أنّ الله يراك ، والمشاهدة : أن تعبده كأنّك تراه .

فإذا ما أردت أن تعرف قصورك من تمامك ، وتقصيرك من كمالك ، فابحث في قلبك عن هذين المقامين ، فذلك ميزان لا يخطيء ، فإن وجدت في قلبك مراقبة أو مشاهدة فأنت سائر أو ناجح في السير وإلا فابذل جهدك للوصول .

إنّه لعلامة على حياة القلب أن يستشعر صفات الله فيحسّ أنّ الله يراه ويسمعه وذلك مقام المراقبة .

وإنّه لعلامة على شفافية القلب أن يخرق نور البصيرة هذه الأكوان ثم إذا هي تحسّ وكأنها تشاهد الله عز وجلّ .

ولا وصول لهذين المقامين والقلب مريض ، فأمراض القلب تحجب الأنوار ، وما لم يستنر القلب لا يستشعر ، كما أنّه لا وصول إلا بكثرة ذكر وتأمّل ، فالذكر والفكر هما طريقاً الوصول إلى المراقبة والمشاهدة .

ولا تظنّن أنّ القليل من الذكر يكفي ، بل الذكر الكثير الذي يستغرق الكثير من الأوقات . قال تعالى : ﴿ **والذاكرين الله كثيراً والذاكرات** ﴾ (الأحزاب : ٣٥) وقال الله تعالى : ﴿ **واذكر اسم ربّك وتبتّل إليه تبتيلاً** ﴾ (المزمّل : ٨) أي انقطع إليه انقطاعاً . فانتقل بأورادك اليومية كي تصل بسرعة من المئات إلى الألوف ، وخصّص من أيامك للاعتكاف والذكر المستغرق ، واجعل مع الذكر فكراً وتفكّراً في هذا الكون .

وليكن لك من تذاكره في معاني القلوب من المتفقهين والمتشرعين والمتسننين غير أولي البدعة والجاهلين .

فإنّك إن شاء الله ذائق بفضل الله وكرمه ما ذاقه الصحابة والتابعون من بعدهم من مقامات الإيمان واليقين .

وإذ كان العبد في سيره إلى الله لا يخلو عن معصية أو تقصير ، إمّا في مخالفة أمر أو في مواقعة نهي ظاهر أو باطن ، كانت التوبة المستمرة هي زاد السائر إلى الله حتّى أن رسول الله ﷺ كان يستغفر في اليوم أكثر من سبعين مرة وكان يعدّ له كما ورد في حديث حسن في المجلس الواحد مئة مرة « رب اغفر لي وتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم » ولذلك سنختم هذا الفصل بفقرة عن التوبة المستمرّة] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية عشرة : في التوبة المستمرة

قال الغزالي : بيان حقيقة التوبة وحدّها

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتئم من ثلاثة أمور مرتبة : علم ، وحال ، وفعل . فالعلم الأوّل ، والحال الثاني ، والفعل الثالث . والأوّل موجب للثاني ، والثاني موجب للثالث إيجاباً اقتضاه اطّراد سنة الله في الملك والملكوت . أما العلم فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كل فواته بفعله تأسف على الفعل المفوّت ، فيسمّى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبوبه ندماً ، فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمّى إرادة وقصداً إلى فعل له تعلّق بالحال والماضي وبالاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذي كان ملابساً ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوّت للمحبوب إلى آخر العمر ، وأما بالماضي فبتلافي ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلاً للجبر ، فالعلم هو الأوّل وهو مطلع هذه الخيرات وأعني بهذا العلم الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيثمر نور هذا الإيمان مهما أشرق على القلب نار الندم ، فيتألم بها القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوباً عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب في قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك ، فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك في الحال والاستقبال والتلافي للماضي ثلاثة معان مرتبة في الحصول ، فيطلق اسم التوبة على مجموعها ، وكثيراً ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ، ويجعل العلم كالسابق ، والمقدمة والترك كالثمرة ، والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام : « الندم توبة »[1] إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده .

فيكون الندم محفوفاً بطرفيه أعني : ثمرته ومثمره ؛ وبهذا الاعتبار قيل في حدّ التوبة : إنه ذَوَبان الحشا لما سبق من الخطأ ؛ فإن هذا يعرض لمجرّد الألم ، ولذلك قيل : هو نار في القلب تلتهب ، وصدع في الكبد لا ينشعب ، وباعتبار معنى الترك قيل في حدّ التوبة : إنه خلع لباس الجفاء ، ونشر بساط الوفاء . وقال سهل بن عبد الله التستري : التوبة تبدل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة ، ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال.وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة ، والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر ؛ وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قيل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها ، وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجرّدة .

بيان وجوب التوبة وفضلها

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار والآيات .

فقد قال الله تعالى : ﴿ **وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون** ﴾ (النور : ٣١) وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ..** ﴾ (التحريم : ٨) . ومعنى النصوح : الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذ من النصح . ويدل على فضل التوبة قوله تعالى : ﴿ **إن الله يحب التوّابين ويحب المتطهرين** ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

وقال رسول الله ﷺ : « لَلَّهُ أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتدّ عليه الحرّ والعطش أو ما شاء الله قال : أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت ، فوضع رأسه على ساعده ليموت ، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه ؛ فالله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته »[1] وفي بعض الألفاظ « قال من شدّة فرحه إذ أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبدي » والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى ، والإجماع منعقد من الأمة على وجوبها ؛ إذ معناه العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى ، وهذا داخل في وجوب الإيمان ، ولكن قد تدهش الغفلة عنه ، فمعنى هذا العلم إزالة

---

(١) متفق عليه .

هذه الغفلة ، ولا خلاف في وجوبها . ومن معانيها : ترك المعاصي في الحال ، والعزم على تركها في الاستقبال ، وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال ، وذلك لا يشك في وجوبه . وأما التندم على ما سبق والتحزم عليه فواجب ، وهو روح التوبة ، وبه تمام التلافي ، فكيف لا يكون واجباً ، بل هو نوع ألم يحصل لا محالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله .

بيان أن وجوب التوبة على الفور

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه ، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان ، وهو واجب على الفور والمتقصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة تزجره عن الفعل المكروه .

فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً لتركها ، فمن لم يتركها فهو فاقد لهذا الجزء من الإيمان ، وهو المراد بقوله عليه الصلاة السلام : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن »[1] وما أراد نفي الإيمان كالعلم بالله ووحدانيته وصفاته وكتبه ورسله ، فإنّ ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي ، وإنما أراد به نفي الإيمان لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى ، موجباً للمقت ، كما إذا قال الطبيب : هذا سم فلا تتناوله ، فإذا تناوله يقال : تناول وهو غير مؤمن ، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب ، وكونه طبيباً ، وغير مصدّق به ، بل المراد أنه غير مصدّق بقوله : إنه سم مهلك ؛ فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً ، فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان ، وليس الإيمان باباً واحداً، بل هو نيف وسبعون باباً أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، ومثاله قول القائل : ليس الإنسان موجوداً واحداً بل هو نيف وسبعون موجوداً ، أعلاها القلب والروح ، وأدناها إماطة الأذى عن البشرة ، بأن يكون مقصوص الشارب ، مقلوم الأظافر ، نقيّ البشرة عن الخبث ، حتى يتميز عن البهائم المرسلة الملوثة بأرواثها ، المستكرهة الصور بطول مخالبها وأظلافها ، وهذا مثال مطابق ، فالإيمان كالإنسان ، وفقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقد الروح ، والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كإنسان مقطوع الأطراف ، مفقوع العينين ، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة

---

(١) متفق عليه .

لا أصل الروح ، وكما أن مَنْ هذا حاله قريب من أن يموت فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدّها وتقوّيها ؛ فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان ، وهو مقصّر في الأعمال ، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت وروده ؛ فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ، ولم تنتشر في الأعمال فروعه ، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت ، وخيف عليه سوء الخاتمة لا ما يسقى بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت . وقول العاصي للمطيع : إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرع لشجرة الصنوبر : أنا شجرة وأنت شجرة ، وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت : ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف ، فعند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار :

سوف ترى إذا انجلى الغبار ☆ أفرس تحتك أم حمار

في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العمر

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن : ندم يورث عزماً وقصداً ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصي حائلاً بينه وبين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط .

وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر .

وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضي : أن يرد فكره إلى أوّل يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام ويفتِّش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهراً شهراً ، ويوماً يوماً ، ونفساً نفساً ، وينظر إلى الطاعات ما الذي قصّر فيه منها ؟ وإلى المعاصي ما الذي قارفه منها ؟

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس ، أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية فيقضيها عن آخرها ، فإن شك في عدد ما فاته منها حسب مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضي الباقي ، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد .

وأما الصوم : فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أفطر عمداً أو نسي النية بالليل ولم يقض ، فيتعرّف مجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويشتغل بقضائه .

وأما الزكاة : فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه .

فيؤدي ما علم بغالب الظن أنه في ذمته ، وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويلزمه أن يسأل عن كيفية الخروج عنه العلماءَ .

وأما الحج : فإن كان قد استطاع في بعض السنين ، ولم يتفق له الخروج ، والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به ، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصياً . والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج . فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصي : فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصّل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم ، وقعود في مسجد مع الجنابة ، ومسّ المصحف بغير وضوء ، واعتقاد بدعة ، وشرب الخمر ، وسماع ملاهٍ ، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث المدة ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذاً من قوله ﷺ : « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها »[1] بل من قوله تعالى : ﴿ **إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾ (هود : ١١٤) فيكفّر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفّر القعود في المسجد جنباً بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفّر مسّ المصحف محدثاً بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقبيله ، وبأن يستوهب مصحفاً ويجعله وقفاً ، ويكفّر شرب الخمر بالتصدّق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه ، وعدّ جميع المعاصي غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة ؛ فإن المرض

---

(١) أخرجه الترمذي وصححه .

يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هي المتناسبات ، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها لكي تضادها ، فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً يؤثر في المحو ، فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى ، ويدل على أن الشيء يكفّر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والحنين إليها، فلا جرم إن كان أكل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم . وفي حديث عائشة رضي الله عنها : « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفّرها أدخل الله تعالى عليه الهموم فتكون كفارة لذنوبه »[1] ويقال : إنّ الهمَّ الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف سببه هو ظلمة الذنوب والهم بها ، وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المطلع .

فإن قلت : هَمُّ الإنسان غالباً بماله وولده وجاهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة ؟ فاعلم أن الحب له خطيئة ، والحرمان عنه كفارة ، ولو تمتع به لتمت الخطيئة . فإذن الهموم أيضاً مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى .

وأما مظالم العباد ففيها أيضاً معصية على حق الله تعالى ؛ فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضاً ، فما يتعلق منه بحق الله تداركه بالندم والتحسر وترك مثله في المستقبل ، والإتيان بالحسنات التي هي أضدادها ، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفّر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفّر قتل النفوس بإعتاق الرقاب - لأن تلك إحياء إذ البعد مفقود لنفسه موجود لسيده ، والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه ؛ فيقابل الإعدام بالإيجاد ، وبهذا تعرف أن ماذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمحو مشهود له في الشرع ؛ حيث كفّر القتل بإعتاق رقبة ، ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد، ومظالمالعباد إما في النفوسأو الأموال أو الأعراض أو القلوب، أعني به الإيذاء المحض .

---

(١) أخرجه أحمد بلفظ « ابتلاه الله بالحزن » .

أما النفوس : فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إما منه أو من عاقلته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول . وإن كان عمداً موجباً للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ، ويحكمه في روحه ، فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهدته إلا بهذا . ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ، ويهتك ستره ، ويلتمس من الوالي استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ، ويقيم حدّ الله على نفسه بأنواع المجاهدة ، فالعفو في محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين ، فإن أمر هذه إلى الوالي حتى إذا أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روي أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إني قد ظلمت نفسي وزنيت وإني أريد أن تطهرني ! فرده فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله إني قد زنيت ! فرده الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم ، فكان الناس فيه فريقين ، فقائل يقول : لقد هلك وأحاطت به خطيئته ، وقائل يقول : ما توبة أصدق من توبته فقال رسول الله ﷺ : « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمّة لوسعتهم »[١] وجاءت الغامدية فقالت : يا رسول الله إني قد زنيت فطهرني ! فردها فلما كان من الغد قالت : يا رسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردّني كما رددت ماعزا ، فوالله إني لحبلى . فقال ﷺ : « أما الآن فاذهبي حتى تضعي » فلما ولدت أتت بالصبي في خرقة فقالت : هذا قد ولدته قال : « اذهبي فأرضعيه حتى تفطميه » فلما فطمته أتت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت : يا نبي الله قد فطمته وقد أكل الطعام ! فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها ، وأمر الناس فرجموها ، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فنضح الدم على وجهه فسبّها . فسمع رسول الله ﷺ سبّه إياها فقال : « مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له » ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت[٢] .

وأما القصاص وحدّ القذف فلابدّ من تحليل صاحبه المستحق فيه ، وإن كان المتناول مالاً

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه مسلم .

تنـاولـه بغصب أو خيـانـة أو غبن في معـاملـة بنـوع تلبيس كترويـج زائف ، أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجرة أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لا من حـدّ بلوغـه بل من أوّل مدّة وجوده ، فإنّ ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراجه بعـد البلوغ إن كان الولي قد قصر فيـه فـإن لم يفعل كان ظـالمـاً مطـالبـاً بـه ، إذ يستوي في الحقوق المـاليـة الصبي والبالغ ، [على مذهب الشافعي] وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق من أوّل يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة ، وليناقش قبل أن يُنَاقش ، فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طـال في الآخرة حسـابـه ، فـإن حصّل مجموع مـا عليـه بظنّ غـالب ونـوع من الاجتهـاد ممكن فليكتبه وليكتب أسامي أصحاب المظـالم واحـداً واحـداً ، وليطف في نواحي العـالم ، وليطلبهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار ، فإنهم لا يقدرون على طلب المعـاملين كلهم ، ولا على طلب ورثتهم ، ولكن على كل واحـد منهم أن يفعـل منـه مـا يقـدر عليـه ، فـإن عجز فلا يبقى لـه طريق إلا أن يكثر من الحسنـات حتى تفيض عنـه يـوم القيامة فتؤخذ حسنـاتـه وتوضع في موازين أربـاب المظـالم ، ولتكن كثرة حسنـاتـه بقـدر كثرة مظالمه ، فإنه إن لم تف بها حسناته حمل من سيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئـات غيره . فهـذا طريق كل تائب في رد المظالم ، وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طـال العمر بحسب طول مدّة الظلم فكيف وذلـك ممـا لا يعرف ؟ وربمـا يكون الأجل قريبـاً ؟ فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشدّ من تشميره الذي كان في المعـاصي في متسع الأوقـات . هـذا حكم المظالم الثابتة في ذمته .

أما أمواله الحاضرة : فليردّ إلى المالك ما يعرف له مالكاً معيناً وما لا يعرف له مالكاً فعليـه أن يتصدّق به ، فإن اختلط الحلال بـالحرام فعليـه أن يعرف قـدر الحرام بـالاجتهـاد ويتصـدّق بذلك المقدار .

وأما الجناية على القلوب بمشافهة النـاس بمـا يسوءهـم أو بعيبهم في الغيبـة : فيطلب كل من تعرّض له بلسـان أو آذى قلبه بفعل من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ، ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامـة ، وأمـا من وجـده وأحلّه بطيب قلب منه فذلك كفارته .

وفي المتفـق عليـه من الصحيحين عن أبي سعيـد الخـدري أن نبي الله ﷺ قـال : « كان فين

كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ قال : لا.فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ، ومن يحول بينه وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناساً يعبدون الله عز وجل ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه حكماً بينهم فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة »[1] وفي رواية « فكان إلى القرية الصالحة أقرب منها بشبر فجعل من أهلها » وفي رواية « فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدي وإلى هذه أن تقرّبي وقال : قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فغفر له » فبهذا تعرف أنه لا خلاص إلا برجحان ميزان الحسنات ولو بمثقال ذرّة ؛ فلابدّ للتائب من تكثير الحسنات ، هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال : فهو أن يعقد مع الله عقداً مؤكداً ، ويعاهده بعهد وثيق أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره ـ مثلاً ـ فيعزم عزماً جزماً أنه لا يتناول الفاكهة ما لم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد في الحال ، وإن كان يتصوّر أن تغلبه الشهوة في ثاني الحال ، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال ، ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالماً أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة .

☆ ☆ ☆

---

(١) متفق عليه .

بيان أقسام العباد في دوام التوبة

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات :

(الطبقة الأولى) أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره ، فيتدارك ما فرط من أمره ، ولا يحدّث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوّة ، فهذا هو الاستقامة على التوبة ، وصاحبه هو السابق بالخيرات المستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة : التوبة النصوح . واسم هذه النفس الساكنة : النفس المطمئنة ، التي ترجع إلى ربها راضية مرضية ، وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله ﷺ : « سبق المفردون المستهترون بذكر الله تعالى ؛ وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً »[1] فإن فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الذكر عنهم . وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزوع إلى الشهوات . فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففتر نزاعها ولم يشغله عن السلوك صراعها ، وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه معنيّ بمجاهدتها وردّها . ثم تتفاوت درجات النزاع أيضاً بالكثرة والقلة واختلاف المدّة وباختلاف الأنواع . وكذلك يختلفون من حيث طول العمر . فمن مختطف يموت قريباً من توبته يغبط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة . ومن ممهل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته . وحال هذا أعلى وأفضل إذ كل سيئة فإنما تمحوها حسنة .

(الطبقة الثانية) تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها ، إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعتريه ، لا عن عمد وتجريد قصد ، ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غير أن يقدّم عزماً على الإقدام عليها ، ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من أسبابها التي تعرّضه لها . وهذه النفس جديرة بأن تكون هي النفس اللوامة ؛ إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذمية لا عن تصميم عزم وتخمين رأي وقصد ، وهذه أيضاً رتبة عالية ، وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى ، وهي أغلب أحوال التائبين ، لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه ،

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه .

وإنما غاية سعيه أن يغلب خيره شره حتى يثقل ميزانه ، فترجح كفة الحسنات ، فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد . وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى : ﴿ **الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة** ﴾ (النجم : ٣٢) فكل إلمام يقع بصغيرة لا عن توطين نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المعفو عنه . قال تعالى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ (آل عمران : ١٣٥) فأثنى عليهم مع ظلمهم لأنفسهم لتندُّمهم به ولومهم أنفسهم عليه . وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله ﷺ : « المؤمن كالسنبلة يفيء أحياناً ويميل أحياناً »[١] وفي الخبر : « لابد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة »[٢] أي : الحين بعد الحين ، فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارّة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار ، وكالفقيه الذي يؤيس المتفقة عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة . وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقيه . بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم ومن الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ : « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوّابون المستغفرون »[٣] وقال تعالى : ﴿ **أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ (الرعد : ٢٢) فما وصفهم بعدم السيئة أصلاً .

(الطبقة الثالثة) أن يتوب ويستمرّ على الاستقامة مدّة ، ثم تغلبه الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لعجزه عن قهر الشهوة ، إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك جملة من الذنوب مع القدرة والشهوة ، وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوتان وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفاه شرها ، هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة عند الفراغ يتندم ويقول : ليتني لم أفعله وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها ، لكنه تسوّل

---

(١) أخرجه أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس وفي الأمثال للرامهرمزي بإسناد جيد من حديث أنس .

(٢) أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب بأسانيد حسنة .

(٣) أخرجه الترمذي واستغربه الحاكم وصحح إسناده .

نفسه ويسوّف توبته مرة بعد أخرى ويوماً بعد يوم . فهذه النفس هي التي تسمّى : النفس المسوّلة ، وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً** ﴾ (التوبة : ١٠٢) فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكراهته لما تعاطاه مرجوّ فعسى الله أن يتوب عليه ، وعاقبته مخطرة من حيث تسويفه وتأخيره ، فربما يختطف قبل التوبة ، ويقع أمره في المشيئة ، فإن تداركه الله بفضله وجبر كسره وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين ، وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الخاتمة ما سبق عليه من القول في الأزل ، لأنه مهما تعذر على المتفقه ـ مثلاً ـ الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضعف الرجاء في حقه ، وإذا يسرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له [من الله إرادة الخير] .

(**الطبقة الرابعة**) أن يتوب ويجري مدة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ، ومن غير أنّ يتأسف على فعله ، بل ينهمك انهماك الغافل في اتباع شهواته ، فهذا من جملة المصرين ، وهذه النفس هي : النفس الأمارة بالسوء ، الفرارة من الخير ؛ ويخاف على هذا سوء الخاتمة ، وأمره في مشيئة الله ، فإن ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها ، وإن ختم له بالحسنى حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ، ولا يستحيل أن يشمله عموم العفو بسبب خفي لا نطّلع عليه .

☆ ☆ ☆

[وهذا أوان ختم هذا الفصل الذي كان في الركن الثاني من أركان التزكية : ركن التحقّق وقد بقي الركن الثالث في التزكية وهو التخلّق فلننتقل إليه] .

☆ ☆ ☆

الفصل الثالث

في التخلّق

ويدخل فيه التخلّق بأسماء الله الحسنى والاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم

تقديم

[بعض مضمون هذا الفصل من أشدّ الموضوعات غموضاً ، وأكثرها إشكالات ، فبسبب الغفلة عن بعض الحقائق ضلّ ناس ، لـذلـك نرجو من القـارىء أن يتملاه وأن يتـأنّى فيـه ونسـأل الله التوفيق والعصمة من الزلل .

عندما نتحدّث عن الذات الإلهية فإنّما نتحدّث فيا نتحدث فيـه عن ذات متّصفـة بصفـات مسمّـاة بأسماء ، والملاحظ أن بعض صفات الذات الإلهيـة يتّصف بهـا الإنسـان : كالسمع والبصر والكلام والعلم والإرادة والقـدرة والحيـاة ، كما أن بعض الأسماء الحسنى لله عـز وجـل يمكن أن يتّصف بمعانيها الإنسان كالكرم والجود والحلم والرأفة والصبر والشكر والعدل والرحمة .

ومن ههنا كان التخلّق عند أهل السلوك إلى الله عز وجل يعني فيا يعنيه التخلّق بما ينبغي التخلّق به من أسماء الله الحسنى على اعتبار أنّ لله المثل الأعلى ، فمهما تخلّق الإنسان بأسمائه فذلك ارتقاء .

وههنـا يكمن خطر إذ يتطلّع المتطلّعون إلى مثل هـذا دون معرفـة بتفصيلات مـا يجـوز في ذلك وما لا يجوز ، ودون معرفة بالحدود التي يجب أن يقف عندهـا الإنسـان ومن أجل توضيح ذلك نقول :

الله عز وجل ذات متّصفـة بصفـات مسمّـاة بـأسماء وهو الرب ، الإنسـان متّصف بصفـات ، ويمكن أن يتخلّق بأسماء وهو عبد ، فأوّل التكليفات الإلهية أن يتحقّق الإنسان بمقام العبودية ، وذلك يعني فيا يعنيه ، أن يخضع صفاته لمقام التكليف .

فالله سميع يسمع كل شيء وهو رب ، والإنسـان سميع وسمعـه محـدود ، وفي الوقت نفسـه هو مكلّف أن يسمع ضمن حدود العبودية ، فلا يجوز له أن يسمع غيبة أو نميمة أو فحشاً ....

والله بصير يرى كل شيء وهـو رب ، والإنسـان بصير وبصره محدود وهـو مكلّف أن يغضّ بصره عن المحارم فذلك مقام العبوديـة . والله متكلّم وهو رب ، والإنسـان متكلّم وهو مكلّف ألا يتكلّم إلا ضمن حدود .

وإرادة الله مطلقة ما شاء كان ، وعلى الإنسان أن يضبط إرادته على مقتضى العبودية ، فلا يريد إلا ما أمر الله به فرضيه ، فإذا تجاوز ذلك إلى ما حرّم الله سقط . وقدرة الله مطلقة ، وعلى الإنسان ألا يستعمل قدراته إلا حيث جاز له ذلك ، فإذا استعمل قدرته حيث حرّم الله فذلك السقوط .

وعلم الله محيط ، وأمّا علم الإنسان فمحدود ، وهناك علوم لا تصلح للإنسان كعلم السحر فهو مقيّد بمقام العبودية في العلوم .

وقل مثل ذلك في مثل الأسماء المشتركة بين العبد والرب ، فمقام العبد فيها التكليف ، فإذا خرج عن ذلك سقط ، والله عز وجل ربّ لا يسأل عمّا يفعل .

خذ مثلاً على ذلك اسم الله الحليم ، فالله عز وجل لا يسأل عمّا يفعل ، فهو يحلم عمّن يشاء كما يشاء ، أمّا الإنسان فليس له أن يحلم إذا انتهكت حرمات الله ، وليس له أن يحلم إذا كان إماماً للمسلمين عن الاعتداء على المسلمين ، وليس له أن يعفو عن حدٍّ رفع إليه ، فهذا أوّل ما يجب التنبّه عليه في مقام التخلّق بأسماء الله الحسنى .

☆ ☆ ☆

وقد جاءت سورة الإخلاص في القرآن ذاكرة خمس صفات تسلب عن الله ما لا يليق بذاته ، وهي التي بالغفلة عنها ضلّ من ضل ، هذه الصفات هي :

١ ـ الوحدانية .

٢ ـ الأولية والقدم .

٣ ـ الأزلية والبقاء .

٤ ـ القيومية والاستغناء .

٥ ـ عدم المشابهة والمشاكلة .

﴿ ولم يكن له كفواً أحد ﴾

فالذات الإلهية تفترق عن الذوات كلّها بهذه الصفات الخمس ، فلا يتّصف أحد بالوحدانية إلا الله ، أمّا ما عداه ومن عداه فهو إمّا متعدّد أو قابل للتعدّد ، وهو مركّب أو قابل للتركيب ، وهو مخلوق له بداية ونهاية ، وهو قابل لطروء الفناء عليه ، وهو محتاج إلى الله لا يستغني عنه ، وهو إمّا له نظير أو قابل لأن يكون له نظير ، والله ليس كذلك ، فمن عرف هذه الكمالات لله وأنّه الرب ، وعرف لنفسه النقص وأنّه عبد ، فإنه يكون قد تخلّص من الإشكال الثاني في مقام التخلّق .

☆ ☆ ☆

ومن الأسماء الحسنى لله عز وجل ما هو من مقتضيات مقام الربوبية كالعظمة والكبرياء والربوبية ، ومن ههنا فهناك أسماء لله عز وجل لا يصحّ أن يسمّى بها المخلوق : كالرحمن وذي الجلال والجبّار والرّب وملك الملوك وفي الحديث القدسي الصحيح : « الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني فيهما قصمته » فلابدّ أن يعرف العبد ذلك ليتخلّص من الإشكال الثالث في مقام التخلّق بأخلاق الله عز وجل .

☆ ☆ ☆

فإذا اتّضحت هذه القضايا فليعرف السالك إلى الله عز وجل أنّ أرقى مَنْ تحقّق وتخلّق بالكمالات هو رسول الله ﷺ محمّد ، وبالتالي فإنّ منتهى همّة السالك أن تكون في التخلّق بأخلاق رسول الله ﷺ ، فهو الذي اجتمع له التخلّق الممكن مع العبودية مع المعرفة على أعلى صور ذلك .

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ (التوبة : ١٢٨) ومن ههنا نقول :

إنّ من حاول الاقتداء برسول الله ﷺ وصل إلى الكمالات كلها دون إشكال ، ومن حاول الارتقاء عن غير طريق ذلك وقع في الإشكال .

☆ ☆ ☆

ولا اقتداء برسول الله ﷺ على الكمال والتمام - أي لا تحقّق ولا تخلّق - إلا إذا وجد الذكر الكثير ، وذلك نص القرآن الكريم :

﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

فما لم يأخذ الذكر من حياتك الكثير فإنّ بينك وبين الارتقاء بوناً كبيراً .

☆ ☆ ☆

والتخلّق بأخلاق رسول الله ﷺ يقتضي معرفة بالكتاب والسنّة والسيرة ، فلقد كان خلقه عليه الصلاة والسلام القرآن ، فما من خلق في القرآن سواء كان أمراً أو كان صفة لرسول ، أو كان صفة مدح إلا ولرسول الله ﷺ القدم الأعلى فيه ، وسيرته عليه الصلاة والسلام وشمائله هي مجلى الكمالات كلّها ، وفي سنته تفصيل كل خير ، ولذلك كانت دراسة ذلك ودراسة ما يخدمه ضرورة الكمال .

ومن أهم ما يجب التفطن له في الاقتداء برسول الله ﷺ الاقتداء به في الصفات الرئيسية لكل رسول وهي :

الصدق ، والأمانة ، والتبليغ ، والفطانة ، وفي كتابنا (الرسول) تفصيلات لمن أراد الوصول .

☆ ☆ ☆

وهل لنا بعد هذه الاحتراسات والتوضيحات أن نواطىء بعض أهل السلوك إلى الله فنذكر بعضاً من أسماء الله ، وما يمكن أن يأخذه العبد منها ، وبعضاً من شمائل رسول الله ﷺ ، لنعطي لعنوان هذا الفصل بعض مداه ، أو نسكت مكتفين بما قدّمناه ؟ الذي يترجّح عندي أن أذكر إشارات مختصرات في فقرتين :

الفقرة الأولى : في التخلّق ببعض أسماء الله الحسنى وحظ العبد منها .

الفقرة الثانية : في بعض شمائله عليه الصلاة والسلام للاقتداء بها] .

الفقرة الأولى : في حظ العبد من بعض أسماء الله الحسنى

[كان مرجعنا الرئيسي في هذه الفقرة كتاب (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) للغزالي نفسه ، وقد درجنا فيا مضى على أن نجعل كلامنا بين قوسين ، وكلام الغزالي أخرجناه عن ذلك ، لقلّة كلامنا في هذا الكتاب ، وسيبقى هذا الالتزام موجوداً في هذه الفقرة ولنبدأ :] .

١ ـ حظ العبد من اسمي الله الرحمن الرحيم على مقتضى العبودية :

حظ العبد من اسم الرحمن : أن يرحم عباد الله تعالى الغافلين ، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ والنصح بطريق اللطف دون العنف ، وأن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة لا بعين الإيذاء ، وأن تكون كل معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه ؛ فلا يألوا جهداً في إزالتها بقدر وسعه ؛ رحمة لذلك العاصي أن يتعرض لسخط الله تعالى ، ويستحق البعد عن جواره ، وحظه من اسم الله الرحيم أن لا يدع فاقة لمحتاج إلا ويسدها بقدر طاقته ، ولا يترك فقيراً في جواره وبلده إلا ويقوم بتعهده ودفع فقره إما بماله أو جاهه أو السعي في حقه بالشفاعة إلى غيره ، فإن عجز عن جميع ذلك فيعينه بالدعاء ، وإظهار الحزن لسبب حاجته رقّة عليه وعطفاً حتى كأنه مساهم له في ضره وحاجته .

٢ ـ وحظ العبد من اسم الله الملك على مقتضى العبودية :

أن يملك مملكته بحيث يطيعه فيها جنوده ورعاياه ، وإنما مملكته الخاصة به قلبه وقالبه وجنده شهوته وغضبه وهواه ، ورعيته لسانه وعيناه ويداه وسائر أعضائه ، فإذا ملكها ولم تملكه وأطاعته ولم يطعها فقد نال درجة الملك في عالمه ، فإن انضم إليه استغناؤه عن كل الناس واحتاج الناس كلهم إليه في حياتهم العاجلة والآجلة فهو الملك في العالم الأرضي ، وتلك رتبة الأنبياء عليهم السلام فإنهم استغنوا في الهداية إلى الحياة الآخرة عن كل أحد إلا عن الله ، واحتاج إليهم كل أحد ، يليهم في ذلك الملك العلماء الذين هم ورثة الأنبياء ، وإنما ملكهم بقدر قدرتهم على إرشاد العباد ، واستغنائهم عن الاسترشاد ، ولقد صدق بعض العارفين لما قال له بعض الأمراء : سلني حاجتك حيث قال : أَوَلِي تقول هذا ولي عبدان هما سيداك ؟ قال :

ومن هما ؟ قال : الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك ، وملكتهما وملكاك . وقال بعضهم لبعض الشيوخ: أوصني، فقال له : كن ملكاً في الدنيا وملكاً في الآخرة . فقال: وكيف؟ فقال: اقطع طمعك وشهوتك عن الدنيا تكن ملكاً في الدنيا والآخرة فإن الملك في الحرية والاستغناء .

٣ ـ وحظ العبد من اسم الله القدّوس على مقتضى العبودية :

أن ينزه إرادته وعلمه ، أما علمه فينزهه بأن يكون تردّد نظره وتطواف علمه حول الأمور الأزلية المنزهة ، وأما إرادته فينزهها عن أن تدور حول الحظوظ البشرية التي ترجع إلى لذة الشهوة والغضب ، ومتعة المطعم والمنكح والملبس والملمس والمنظر ، وما لا يصل إليه من اللذات إلا بواسطة الحس بل لا يريد إلا الله . ولا يبقى له حظ إلا في الله ، ولا يكون له شوق إلا إلى لقاء الله ، ولا فرح إلا بالقرب من الله .

[أقول : ومن حظ العبد من اسم الله القدوس أن يبذل جهداً فيما كلّفه الله عز وجل به في الطهارة والنظافة الظاهرتين والباطنتين فذلك تنزّه يليق بالإنسان وذلك من مظاهر كمالاته ، بل من مظاهر كمالاته أن تتجاوز النظافة والطهارة ذاته إلى كل ما يحيط به ، فسكنه نظيف ، وأثاثه طاهر ونظيف ، وأدوات استعماله نظيفة وطاهرة] .

٤ ـ ويأخذ العبد حظّه من اسم الله السلام على مقتضى العبودية :

إذا سلم عن الغش والحقد والحسد وإرادة الشر قلبه ، وسلمت عن الآثار والمحظورات جوارحه ، وسلمت عن الانتكاس والانعكاس صفاته ، فهو الذي يأتي اللهَ بقلب سليم ، وهو السلام من العباد .

وأعني بالانتكاس في صفاته : أن يكون عقله أسير شهوته ، وغضبه ، إذ الحق عكسه ، وهو أن تكون الشهوة والغضب أسير العقل وطوعه ، فإذا انعكس فقد انتكس ، ولا سلامة حيث يصير الأمير مأموراً ، والملك عبداً ، ولا يوصف بالسلام والإسلام إلا من سلم المسلمون من لسانه ويده فكيف يوصف به من لم يسلم هو من نفسه .

[أقول : ومما يدخل في التحقّق باسم الله السلام : أن يقدّم الإنسان لأهله وجيرانه وأهل حيّه وحرفته، ولمجتمعه وللإنسانية كلّها ، السّلام إلا إذا اقتضى أمر الله تأديباً ، أو إقامة حد ، أو

قياماًبفريضة جهاد ، أو أمر أمير المؤمنين بأمر لمصلحة ، وما عدا ذلك فالأصل أن يقدّم المسلم للعالم الإسلام والإحسان وهما سلام في سلام] .

٥ ـ وحظ العبد من اسم الله المؤمن على مقتضى العبودية :

أن يأمن الخلق كلهم جانبه بل يرجو كل خائف الاعتضاد به في دفع الهلاك عن نفسه في دينه ودنياه كما قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليأمن جاره بوائقه »[١] وأحق العباد باسم المؤمن من كان سبباً لأمن الخلق من عذاب الله بالهداية إلى طريق الله والإرشاد إلى سبيل النجاة ، وهذه حرفة الأنبياء والعلماء ، ولذلك قال ﷺ : « إنكم تتهافتون في النار تهافت الفراش وأنا آخذ بحجزكم »[٢] .

[أقول : ومما يدخل في حظ المؤمن من اسم الله المؤمن : أن يحسّ كل من يحيطون به بالراحة والطمأنينة والأمن والأمان في كل الظروف ، وذلك لكثرة طمأنينة قلبه ورباطة جأشه وحسن توكّله على الله] .

٦ ـ ويأخذ العبد حظه من اسم الله المهيمن على مقتضى العبودية :

إذا راقب نفسه حتى أشرف على أغواره وأسراره ، واستوفى مع ذلك تقويم أحواله وأوصافه ، وقام بحفظها على الدوام على مقتضى تقويمه ، فهو مهيمن بالإضافة إلى قلبه ، فإن اتسع إشرافه واستيلاؤه حتى قام بحفظ عباد الله على نهج السداد بعد اطّلاعه على بواطنهم وأسرارهم بطريق التفرس والاستدلال بظواهرهم كان نصيبه من هذا المعنى أوفر حظ وأتمه .

[أقول : إذا أقام الله عبداً في مقام الولاية على من دونه ، فواجبه إحكام القيام بسياسة الدنيا وإقامة الدين ، وذلك لا يكون له إلا إذا كانت هيمنته على شعبه كاملة ، وهيبته عند شعبه كاملة ، بما لا يخالف شرعاً ، ولا يناقض عدلاً ، ولا يخلّ بمروءة ولا يهتك ستراً ، وذلك من حظوظ العبد من اسم الله المهيمن] .

---

(١) رواه الإمام أحمد ، والبخاري ، ومسلم ، والنسائي ، وابن ماجه ، من حديث : عن أبي شريح .

(٢) رواه الإمام أحمد ، ومسلم في صحيحه . عن جابر رضي الله عنه بلفظ : « مثلي ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبهن عنها ، وأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تفلتون من يدي » والجنادب نحو الجراد والفراش ، وهو المعروف الذي يقع في النار .

٧ ـ حظ العبد من اسم الله العزيز على مقتضى العبودية :

العزيز من العباد من يحتاج إليه عباد الله تعالى في أهم أمورهم وهي الحياة الأخروية والسعادة الأبدية ، وذلك مما يقل ـ لا محالة ـ وجوده ، ويصعب إدراكه ، وهذه رتبة الأنبياء صلوات الله عليهم . ويشاركه في العز من ينفرد بالقرب من درجتهم في عصرهم ، كالخلفاء وورثتهم من العلماء ، وعزُّ كل واحد منهم بقدر علو مرتبته عن سهولة النيل والمشاركة وبقدر عنائه من إرشاد الخلق .

[أقول : من حظّ المؤمن من اسم الله العزيز ما ذكره الله عز وجل بقوله : ﴿ **ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لايعلمون** ﴾ (المنافقون : ٨) ﴿ **أعزّة على الكافرين** ﴾ (المائدة : ٥٤) وما ذكره رسول الله ﷺ بقوله :

« لا ينبغي للمسلم أن يذلّ نفسه ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يتعرضّ من البلاء ما لا يطيق » أخرجه الترمذي وصححه . فالمسلم عزيز على الكافرين والمنافقين ، عزيز فلا يقع في سفساف الأمور ، ولا يرتكب مخلات المروءة ، عزيز فلا يعرض نفسه للذلة ، إلا إذا كان أثراً عن قيام بفريضة عينية في حقه] .

٨ ـ ويأخذ العبد حظه من اسم الله الخالق على طريق المجاز :

إذا بلغ العبد في مجاهدة نفسه بطريق الرياضة وفي سياستها وسياسة الخلق مبلغاً ينفرد فيه باستنباط أمور لم يُسبَق إليها ، ويقدر مع ذلك على فعلها والترغيب فيها كان كالمخترع لما لم يكن له وجود من قبل ، إذ يقال لواضع الشطرنج : إنه الذي وضعه واخترعه حيث وضع ما لم يسبق إليه ، إلا أنّ وضع ما لا خير فيه لا يكون من صفات المدح ، وكذلك في الرياضات والمجاهدات والسياسات والصناعات التي هي منبع الخيرات ، صور وترتيبات يتعلمها الناس بعضهم من بعض ، ويرتقي ـ لا محالة ـ إلى أول مستنبط وواضع ، فكان ذلك الواضع كالمخترع لتلك الصور والخلق المقدر لها حتى يجوز إطلاق الاسم عليه مجازاً .

٩ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الغفّار على مقتضى العبودية :

أن يستر من غيره ما يحب أن يستر منه فقد قال عليه الصلاة والسلام : « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة » والمغتاب والمتجسس والمنتقم والمكافىء على الإساءة بمعزل عن هذا الوصف ، وإنما المتصّف به من لا يتحدث عن مخلوق لله إلا بأحسن ما فيه ، ولا ينفك مخلوق عن كمال ونقص وعن قبح وحسن فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب من هذا .

[أقول : الغفّار اسم مبالغة من الغفران ، فالغفّار هو الذي يغفر المرّة بعد المرّة ، ولا يتحقّق المسلم بهذا الاسم إلا إذا غفر لمن أساء إليه ولو تكرّرت منه الإساءة المرّة بعد المرّة ، إلا إذا أصبحت الإساءة عادة للمسيء ، فعندئذ يندب تأديبه ، وعلى مثل هذا حمل قوله تعالى : ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولَئك ما عليهم من سبيل** ﴾ (الشورى : ٤١)] .

١٠ ـ ومن حظ المسلم من اسم الله القهّار على مقتضى العبودية :

[أن يقهر نفسه على أمر الله ، وأن يقهر أعداء الله . قال تعالى : ﴿ **ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفّار ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح** ﴾ (التوبة : ١٢٠) . ﴿ **يا أيها النبي جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم** ﴾ (التوبة : ٧٣)] .

قال الغزالي :

القهار من العباد من قهر أعداءه ، وأعدى عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه ، وهي أعدى له من الشيطان الذي قد غره ، ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الشيطان إذ الشيطان يسوقه إلى الهلاك بواسطة شهواته ، وإحدى حبائل الشيطان النساء ، فليخش الإنسان أن يقع بسببهنّ في أحبولة الإثم ، وليقهر الشهوة المحرّمة بسطوة الدين وإشارة العقل ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الناس كافة فلم يقدر عليه أحد .

١١ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الوهّاب على مقتضى العبودية :

الذي يبذل جميع ما يملكه حتّى الروح لوجه الله تعالى .

[أقول : وبقدر ما يهب الإنسان لغيره الهبات في الله ولله فله من هذا الاسم نصيب] .

١٢ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الرزّاق على مقتضى العبودية :

غاية حظ العبد من هذا الوصف أمران : أحدهما أن يعرف حقيقة هذا الوصف وأنه لا يستحقه إلا الله تعالى ، فلا ينتظر الرزق إلا منه ، ولا يتوكل فيه إلا عليه .

(أقول : بقدر ما يكون الإنسان وسيلة لوصول رزق الله إلى العباد يأخذ حظّه من هذا الاسم ، ولعلّ ولاة المسلمين إذا أنفقوا وأحسنوا وصحّت نيّاتهم وكذلك ولاة خزائنهم هم الأكثر حظاً من هذا الإسم) .

١٣ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الفتّاح على مقتضى العبودية :

أن يصير العبد بحيث ينفتح بلسانه مغاليق المشكلات وأن يتيسّر بمعرفته ما تعسر على الخلق من الأمور الدينية والدنيوية .

[أقول : ومن حظ العبد من اسم الله الفتّاح أن تراه إذا حضر جلسة فتح قلوب الناس على الخير ، وفتّح لهم آفاقاً في الحديث تزيدهم علماً ومعرفة واستقامة ، وإذا كتب فتح للناس أبواباً على المجهول أو المنسيّ من الفرائض والواجبات والسنن ، وإذا استشير بشيء فتّح أمام الآخرين أبواباً من المسالك الطيبة ، وإذا حضر اجتماعاً لبحث في أمور المسلمين فتّح للعمل أبواباً من الخير ، وهو بالتالي مفتاح للخير مغلاق للشر ، وأهم أنواع الفتح المستمد من اسم الله الفتّاح ، أن يصبح العبد واسطة لتفتيح عين البصيرة على الله] .

١٤ ـ ومن حظ العبد من اسم الله العليم على مقتضى العبودية :

[أن يأخذ من العلم أقصاه فلا يقتصر على اسم العالم بل يتجاوز ذلك إلى أن يصبح عليماً ، ومقام العبودية في العلم يقتضي أن يتقن فروض العين ، ويتبحّر في فرض من فروض الكفاية التي أشرفها العلوم الدينية ، وإن كانت كل العلوم التي يحتاجها إعمار الدنيا على أساس الدين مفروضة فرض كفاية ، ولابدّ للمسلمين أن يختصّوا بها] .

وشرف العبد سببه العلم من حيث إنه من صفات الله تعالى ، ولكن العلم الأشرف ما معلومه أشرف ، وأشرف المعلومات هو الله تعالى ، فلذلك كانت معرفة الله تعالى أفضل المعارف ، وكذلك معرفة الطريق الذي يقرّب العبد من الله ، أو الأمر الذي يسهل به الوصول

إلى معرفة الله والقرب منه ، وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كثير شرف .

[وبقدر ما يتوسّع الإنسان في معرفة الأشياء يأخذ حظّاً من العلم : ﴿ **وعلّم آدم الأسماء كلّها** ﴾ (البقرة : ٣١) وإذا أكرمه الله عز وجل بشيء من العلم اللدنّي فذلك حظ عظيم من اسم الله العليم : ﴿ **وآتيناه من لدنّا علماً** ﴾ (الكهف : ٦٥) وأخطر أنواع العلم علم يحجب عن الآخرة :

﴿ **يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون** ﴾ (الروم : ٧) وأخطر ما يصاب به علماء الدنيا الغرور : ﴿ **قال إنّما أوتيته على علم عندي** ﴾ (القصص : ٧٨)]

١٥ ـ حظ العبد من اسمي الله القابض الباسط ، على مقتضى العبودية :

القابض الباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم ، وأوتي جوامع الكلم ، فتارة يبسط قلوب العباد بما يذكرهم من آلاء الله ونعمائه وتارة يقبضها بما ينذرهم به من جلال الله وكبريائه وصنوف عذابه وبلائه وانتقامه من أعدائه كما فعل رسول الله عليه الصلاة والسلام حيث قبض قلوب الصحابة عن الحرص على العباد حيث ذكر لهم[1] « أن الله تعالى يقول لآدم يوم القيامة ابعث بَعْثَ النار فيقول : كم ؟ فيقول : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » فانكسرت قلوبهم حتى فتروا عن العبادة فلما أصبح ورآهم على ما هم عليه من القبض والفتور روّح قلوبهم وبسطهم فذكر أنهم في سائر الأمم قبلهم كشامة سوداء في ثور أبيض .

[أقول : ومن حظ العبد من اسمي الله القابض والباسط على مقتضى العبودية أن يفرّح قلوب المؤمنين ، ويغيظ قلوب المعاندين ، وأن يوسّع على أهله وجيرانه ممن يستطيع الوصول إلى التوسعة عليه من المؤمنين ، وأن يقبض يده عن الكافرين إلا عن حق لابدّ منه] .

---

(١) رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : « أخرجوا بعث النار ـ أي المبعوث إليها ـ فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين » .

١٦ ـ حظ العبد من اسمي الله الخافض الرافع ، على مقتضى العبودية :

حظ العبد من ذلك أن يرفع الحق ويخفض الباطل وذلك بأن ينصر الحق ويزجر المبطل فيعادي أعداء الله ليخفضهم ، ويوالي أولياء الله ليرفعهم .

[أقول : بذل الجهد لرفع الحق وخفض الباطل فريضة ربّانية ، والعمل على أن يرفع العبد أهل الحقّ ويقدّمهم ليكونوا القادة والسادة ، ويخفض أهل الباطل ليكونوا أتباعاً فريضة ربّانية كذلك ، وقد غفل عن هذا الكثيرون من المسلمين ، حتّى صاروا يرفعون الظالمين ويخفضون أهل الحقّ ، والخروج من هذا بداياته صغيرة لكنّ آثارها كبيرة :

أولاً : أن يصبح المسلم درّاكاً لقضايا السياسة .

ثانياً : أن يكثر الثناء على المسلم حيث وجده متقدّماً في موقع وألا يثني على كافر أو منافق أو فاسق أو مبتدع وإن كان مشهوراً ، إلا إذا تعيّن لأمر لابدّ منه] .

١٧ ـ ومن حظ العبد من اسمي الله المعز المذل ، على مقتضى العبودية :

[أن يعمل على إعزاز دين الله وإذلال الكفر ، وأن يعمل على إعزاز أهل العدل وإذلال من سواهم . قال عليه الصلاة والسلام :

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[١] .

« فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن ، ليس وراء ذلك من الإيمان حبّة خردل »[٢]] .

وكل عبد استعمل في تيسير أسباب العز على يده ولسانه فهو ذو حظ من هذا الوصف . [أقول: لكنّه يكون آثماً إن أذلّ من لا يجوز إذلاله، وأعزّ من يجب إذلاله . قال عليه الصلاة والسلام : « من استعمل رجلاً على عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله وجماعة المسلمين »[٣]] .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم والترمذي .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) أخرجه الحاكم وصححه السيوطي .

١٨ - ومن حظ العبد من اسم الله الحكم على مقتضى العبودية :

[إذا حكم في أمر حكم على مقتضى الحق والعدل ، وليستطيع ذلك عليه أن يصل إلى رتبة الاجتهاد لكي يفتي الفتوى المناسبة للزمان والمكان والأشخاص على ضوء شرع الله ، ولكي يستطيع أن يفصل بين الخصوم على ضوء الاستيعاب لشريعة الله وساحة الخصومة ، وذلك في عصرنا على غاية من الصعوبة ، لما يحتاجه الإنسان من علوم الشريعة ، ومعرفة بالواقع وبأبعاد المشكلات والمؤثرات في المعاملات] .

١٩ - ومن حظ العبد من اسم الله العدل على مقتضى العبودية :

وحظ العبد من العدل لا يخفى وأول ما عليه من العدل من صفات نفسه هو أن يجعل الشهوة والغضب أسيرين تحت إشارة العقل والدين ، ومهما جعل العقل خادماً للشهوة والغضب فقد ظلم ، هذا جملة عدله في نفسه وتفصيله مراعاة حدود الشرع كله . وعدله في كل عضو أن يستعمله على الوجه الذي أذن الشرع فيه ، وأما عدله في أهله وذريته ثم في رعيته إن كان من أهل الولاية فلا يخفى ، وربما ظن أن الظلم هو الإيذاء ، والعدل هو إيصال النفع إلى الناس ، وليس كذلك ؛ بل لو فتح الملك خزائنه المشتملة على الأسلحة والكتب وصنوف الأموال ، ولكن فرّق الأموال على الأغنياء ، ووهب الأسلحة من أهل العلم ، وسلّم إليهم القلاع ، ووهب الكتب من الأجناد وأهل القتال ، وسلّم إليهم المساجد والمدارس فقد نفع ، ولكنه ظلم وعدل عن العدل إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق ، ولو آذى المرضى بسقي الأدوية والحجامة والفصد والإجبار على ذلك وآذى الجناة بالعقوبة قتلاً وقطعاً وضرباً كان عدلاً لأنه وضعها في موضعها .

[أقول : أن يكون الإنسان عادلاً في نفسه ومع أهله ومع من ولاه الله عليهم ، وفي أي قضيّة تعرض عليه فذلك طيّب ، ولكن أن يكون عين العدل ، وأن يكون العدل مجسّداً يمشي على الأرض ، فذلك هو حظ الإنسان الأرقى من اسم الله العدل ، وذلك لا يكون على الكمال والتمام إلا إذا أصبح خلق الإنسان هو القرآن . قال تعالى : ﴿ **وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** ﴾ (الحديد : ٢٥)] .

٢٠ ـ حظ العبد من اسم الله اللطيف على مقتضى العبودية :

حظ العبد من هذا الوصف الرفق بعباد الله تعالى ، والتلطف بهم في الدعوة إلى الله ، والهداية إلى سعادة الآخرة من غير ازدراء ، وعنف ، ومن غير خصام وتعصب ، وأحسن وجوه اللطف فيه الجذب إلى قبول الخلق بالشمائل والسيرة المرضية والأعمال الصالحة فإنها أوقع وألطف من الألفاظ المزينة .

[أقول : ويدخل في حظ المسلم من اسم الله اللطيف على مقتضى العبودية أن يكون لطيف الشمائل ، لطيف الكلام ، لطيف التصرّفات مع أهل الإيمان ، ومع من يدعوهم إلى الله ، وأن يكون لطيف المدخل والمخرج لطيف العلاقة ، وأن يحسن التأتي للأمور كلّها ؛ فيعرف كيف يبدأ وكيف ينتهي ، وأولى الخلق باللطف الأقربون ، ثم الجوار ، ثم الإخوان في الله ، ثم المسلمون ، ثم حلفاؤهم ، ثم من هم مظنّة القبول لدعوة الله ، ولا يصل الإنسان إلى مقام اللطف حتّى يكون لطيفاً مع الحيوانات والأشياء إلا إذا اقتضى الحكم الشرعي أو المصلحة الحياتية شيئاً آخر] .

٢١ ـ ومن حظ العبد من اسم الخبير على مقتضى العبودية :

أن يكون خبيراً بما يجري في عالمه ، وعالمه قلبه وبدنه ، والخفايا التي تتصف النفس الأمارة بها من الغش والخيانة والتطواف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمّل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس عنه ، فهذه أمور لا يعرفها إلا ذو خبرة بالغة ، قد خبر نفسه ، ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها وخُدعها فحاذرها ، وتشمر لمعاداتها وأخذ الحذر منها ، فذلك من العبيد جدير بأن يسمّى خبيراً .

[أقول : ويدخل في ذلك أن يكون خبيراً بعالمه يعرف الظواهر والخفايا ، وأن يكون خبيراً فيما ابتلي به من أعمال وأمانات ، فيؤدي العمل والأمانة على الوجه الأكمل ، وأن يكون خبيراً بخفايا اختصاصه حتّى يستطيع الخدمة أكثر ، وإذا ابتلي بالسياسة والرعاية فأن يعرف خفيّات الأمور وخلفيّاتها حتّى لا يخدع فيتضرّر بخداعه المسلمون] .

٢٢ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الحليم على مقتضى العبودية :

[أن يحلم العبد عن الإساءة إلى شخصه فيكون كما كان رسول الله ﷺ لا تزيده شدّة الجهل عليه إلا حلماً . أمّا إذا انتهكت حرمات الله ، أو اعتدي على الحرمات ، أو اعتدي على الأمّة والحقوق العامّة ، فعندئذ لا يصحّ الحلم إلا من عَجْزٍ أو ضَرَرٍ يغلب النفع] .

وحظ العبد من وصف الحليم ظاهر فالحلم من محاسن خصال العباد وذلك مستغن عن الشرح والإطناب .

٢٣ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الشكور على مقتضى العبودية :

[أن يشكر من أسدى إليه معروفاً ، وأن يشكر الله على كل حال بالأقوال والأفعال والأحوال ، فللقلب شكر وللسان شكر وللجوارح شكر ، وكل ما أعطاك الله عز وجل ينبغي أن تؤدي شكره ، وكل ذلك ينبغي أن يكون بطريقه المشروع والقدوة في ذلك كلّه رسول الله ﷺ] .

العبد يتصور أن يكون شاكراً في حق عبد آخر مرة بالثناء عليه بإحسانه إليه وأخرى بمجازاته أكثر مما صنعه إليه وذلك من الخصال الحميدة قال رسول الله ﷺ : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله »[1] وأما شكره لله فلا يكون إلا بنوع من المجاز والتوسع فإنه إن أثنى فثناؤه قاصر لأنه لا يحصي ثناء عليه ، وإن أطاع فطاعته نعمة أخرى من الله تعالى عليه ، بل عين شكره نعمة أخرى وراء النعمة المشكورة وإنما أحسن وجوه الشكر لنعم الله تعالى أن لا يستعملها في معاصيه بل في طاعته وذلك أيضاً بتوفيق الله وتيسيره في كون العبد شاكراً لربه .

٢٤ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الحفيظ على مقتضى العبودية :

[أن يكون قوياً في حفظ ما ائتمن عليه ، فقد ائتمن على أعضائه فعليه أن يحفظها على مقتضى أمر الله ، وائتمن على شريعة الله والقيام بحقّها فيما كلّف به فعليه أن يحفظ ذلك ، وإذا ائتمن على عمل فعليه أن يقوم بواجب ذلك فلا يفرّط ولا يؤخّر ولا يقصّر . قال يوسف عليه السلام : ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إنّي حفيظ عليم ﴾ (يوسف : ٥٥) والحفظ يقتضي

---

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده ، والترمذي ، والضياء ، عن أبي سعيد رضي الله عنه .

من صاحبه أن يكون قائماً على أمر عمله عارفاً بدقائقه ، متابعاً لتفصيلاته ، متداركاً للنواقص ، مرمّماً للتقصير فانظر لو أنّ كل موظّف كان كذلك ، أو كل رئيس كان كذلك ، أو صاحب عمل كان كذلك كيف يكون الحال] .

الحفيظ من العباد من يحفظ جوارحه وقلبه ، ويحفظ دينه عن سطوة الغضب وخلابة الشهوة وخداع النفس وغرور الشيطان فإنه على شفا جرف هار وقد اكتنفته هذه المهلكات المفضية إلى البوار .

٢٥ ـ ومن حظ العبد من اسم الله المقيت على مقتضى العبودية :

[أن يطعم الطعام فذلك من أخلاق الإسلام ، ومهما استطاع أن يسدّ جوع جائع أو عطش عطشان مسلم أو كافر ، أرض أو حيوان ، فالمرجو أن يكون مأجوراً ، لكن ذلك يخضع لموازنات شرعية ، فهناك أولويات وأفضليات ، وحقوق مقدّمة على مطالب] .

٢٦ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الجليل على مقتضى العبودية :

[ألا يسقط الإنسان حرمته ولا هيبته بإقدامه على مخلات العدالة من فسق أو مسقط للمروءة ، ومما يفقد هيبته كثرة المزاح وكثرة الضحك ورفع الكلفة مع غير أهل الأدب والفضل] .

٢٧ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الكريم على مقتضى العبودية :

[أن ينفق في سبيل الله من كل ما آتاه الله ، ويدخل في ذلك الإنفاق من الأموال والإنفاق من الأوقات ، ويدخل في ذلك كرم الضيافة في الإطعام والمأوى والمبيت ، ويدخل في ذلك إكرام الجوار والأرحام ، ويدخل في ذلك الهبة والإعارة والهدية والصدقة] .

٢٨ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الرقيب على مقتضى العبودية :

[أن يراقب نفسه وقلبه وأعماله فلا يقصّر في فريضة ظاهرة أو باطنة ، ولا يقع في محرّم ظاهر أو باطن ، وأن يراقب أهله وأولاده أن يقصّروا أو يفتروا أو ينحرفوا دون أن يتجسّس عليهم ، وأن يعرف حال من ولاه الله عليهم فيحسن سياستهم فيما يصلح دنياهم وأخراهم] .

٢٩ ـ ومن حظ العبد من اسم الله المجيب على مقتضى العبودية :

[أن يجيب الملهوف ، وأن يتجاوب مع ذي الحاجة ، وأن يفرّج الكربة ، وأن يساعد المحتاج.وممّا يدخل في ذلك ما ذكره الغزالي بقوله] :

العبد ينبغي أن يكون مجيباً أولاً لربه تعالى فيما أمره به ونهاه عنه وفيم ندبه إليه ودعاه . ثم لعباده في إسعاد كل سائل بما يسأله إن قدر عليه وفي لطف الجواب إن عجز عنه قال الله تعالى : ﴿ **وأما السائل فلا تنهر** ﴾ (الضحى : ١١) وقال رسول الله ﷺ : « لو دعيت إلى كراع لأجبت ولو أهدي إليّ ذراع لقبلت » وكان حضور الدعوات وقبول الهدايا غاية الإكرام ، فكم من خسيس متكبر يترفع عن قبول كل هدية ، ولا يتبذل في حضوره كل دعوة بل يصون جاهه وكبره ، ولا يبالي بقلب السائل المستدعي وإن تأذى بسببه فلا حظّ لمثله في هذا الاسم .

٣٠ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الحكيم على مقتضى العبودية :

[أن يضع الأمور في مواضعها على ضوء الشريعة ، فكلامه يناسب المقام ، وإنفاقه يناسب الحال ، وتقسيم أوقاته وترتيب شؤونه يناسب الأعمال ، وهو حكيم في بيته في علاقاته مع أولاده وزوجته وترتيب شؤون البيت وتنظيمه ، وهو حكيم في علاقاته مع الآخرين ، وإذا كانت له ولاية وضع كل شيء في محلّه الرجال والأعمال ، فالهيكل التنظيمي مناسب ، وآلية العمل مناسبة ، والمبادرة جيّدة ، وإذا كان رئيس دولة رتّب العلاقات الداخلية والخارجية على مقتضى الحكة ، والحكيم يختصر الزمن ويختصر الجهد ، أرباحه كثيرة وخسائره قليلة ، قال تعالى : ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً** ﴾ (البقرة : ٦٩)] .

من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله تعالى لم يستحق أن يسمى حكيماً ، لأنه لم يعرف أجل الأشياء وأفضلها ، والحكمة أجل العلوم وجلالة العلم بقدر جلالة المعلوم ، ولا أجل من الله ، ومن عرف الله فهو حكيم وإن كان ضعيف الفطنة في سائر العلوم الرسمية ، كليل اللسان ، قاصر البيان فيها ، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، نعم من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره ، فإنه قلّما يتعرض للجزئيات ، بل يكون كلامه كلياً ، ولا يتعرض لمصالح العاجلة ، بل يتعرض لما ينفع في العاقبة ، وربما أطلق الناس اسم الحكمة على مثل

الكلمات الكلية ويقال للناطق بها حكيم ، وذلك مثل قول سيد الأنبياء صلوات الله عليهم « رأس الحكمة مخافة الله »[١] . « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني »[٢] . « ما قل وكفى خير مما كثر وألهي »[٣] . « من أصبح معافي في بدنه آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[٤] . « كن ورعاً تكن أعبد الناس وكن قنعاً تكن أشكر الناس »[٥] « البلاء موكل بالمنطق »[٦] و « من حسن إسلام المرء تركه مالا يعنيه »[٧] . « السعيد من وعظ بغيره »[٨] . « الصمت حكمة وقليل فاعله »[٩] . « القناعة مال لاينفد »[١٠] . « الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله »[١١] . فهذه الكلمات وأمثالها تسمى حكمة وصاحبها يسمى حكيماً .

٣١ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الودود على مقتضى العبودية :

[أن يكون كثير التودّد مظهراً للمحبّة لمن تجب محبّته أو تجوز ، فهو كثير التودّد للصالحين والمؤمنين ، كثير التودّد لزوجته وأولاده وأرحامه ، كثير التودّد لإخوانه ، لا يكتفي بمجرد

---

(١) رواه الحكيم وابن لال عن ابن مسعود رضي الله عنه .

(٢) رواه الإمام أحمد ، والترمذي ، وابن ماجه ، والحاكم ، عن شداد بن أوس رضي الله عنه .

(٣) رواه أبو يعلى ، والضياء ، عن أبي سعيد رضي الله عنه .

(٤) رواه البخاري في الأدب ، والترمذي ، وابن ماجه بلفظ : « من أصبح منكم آمناً في سربه معافى في جسده عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها » .

(٥) رواه البيهقي في الشعب عن أبي هريرة : رضي الله عنه وتمامه « وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأقلّ الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب » .

(٦) رواه القضاعي عن حذيفة ، وابن السمعاني في تاريخه عن علي رضي الله عنه .

(٧) رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

(٨) رواه الديلمي .

(٩) رواه القضاعي عن أنس رضي الله عنه : والديلمي عن ابن عمر رضي الله عنهما . بلفظ : « الصمت حكمة وقليل فاعله » .

(١٠) رواه القضاعي عن أنس رضي الله عنه .

(١١) رواه أبو نعيم في الحلية ، والبيهقي في شعب الإيمان ، عن ابن مسعود رضي الله عنه .

الإحساس الداخلي ، بل يظهر الودّ على لسانه وفي تصرّفاته ، ولذلك ندبنا رسول الله ﷺ أن نذكر لمن نحبّه في الله أنّنا نحبّه ، وإظهار المودّة يكون بالكلمة الطيّبة وبالخدمة وبالتواضع وبالمسارعة إلى ما فيه الرضا في غير معصية] .

الودود من عباد الله من يريد لخلق الله كل ما يريده لنفسه . وأعلى من ذلك:من يؤثرهم على نفسه وكمال ذلك : أن لا يمنعه عن الإيثار والإحسان الغضب والحقد وما ناله من الأذى كما قال رسول الله ﷺ حيث كسرت رباعيته وأدمي وجهه : « اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون » فلم يمنعه سوء صنيعهم عن إرادته الخير لهم ، وكما أمر صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً حيث قال : « إن أردت أن تسبق المقربين فَصِل من قطعك ، وأعط من حرمك ، واعف عمن ظلمك » .

٣٢ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الباعث على مقتضى العبودية :

[أن يبذل جهده في رفع الهمم نحو الله ، وفي إنهاض المسلمين من كبوتهم ومحاولة الارتقاء بهم ، وأول ما يدخل في ذلك إحياء القلوب بالحكمة وإحياء الأمم بالرسالة] .

حقيقة البعث يرجع إلى إحياء الموتى بإنشائهم نشأة أخرى ، والجهل هو الموت الأكبر ، والعلم هو الحياة الأشرف ، وقد ذكر الله تعالى العلم والجهل في الكتاب وسماه حياة وموتاً ، ومن رقّى غيره من الجهل إلى العلم فقد أنشأه نشأة أخرى وأحياه حياة طيبة ، فإن كان للعبد مدخل في إفادة الخلق للعلم ودعائهم إلى الله تعالى فذلك نوع من الإحياء ، وهي رتبة الأنبياء ، ومن يرثهم من العلماء .

٣٣ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الشهيد على مقتضى العبودية :

[أن يصل إلى رتبة الشهادة على الأمم ﴿ **وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً** ﴾ (البقرة : ١٤٢) ولا يتم للإنسان ذلك إلا إذا كان عدلاً فعندئذ يكون شهيد الله على الناس ، كلمته حجّة وشهادته قائمة ، وممّا يدخل في حظ العبد من اسم الله الشهيد أن تتحقق فيه شروط القبول في الشهادة بأن لا يرتكب مخلاً بالشريعة أو المروءة ، ويبلغ العبد ذروة التحقّق إذا قدّم حياته في سبيل الله ولذلك سمّي شهيداً] .

٣٤ ـ ومن حظ العبد من اسم الله القوي على مقتضى العبودية :

[أن يمتلك كل ما أمكن من القوّة المتاحة كأن يكون قوي الجسد ، قوي الإيمان ، قوي السيطرة على نفسه ، قويا في العمل الذي يعمله ، قويا في المهمّة الموكلة إليه :

﴿ **يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القويّ الأمين** ﴾ (القصص : ٢٦) وفي الحديث : « المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير »] .

٣٥ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الولي على مقتضى العبودية :

[أن يوالي في الله ويعادي في الله ، وأن يكون وليّا لله . قال تعالى : ﴿ **ألا إن أوّلياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتّقون** ﴾ (يونس : ٦٢)] .

الولي من العباد من يحب الله ويحب أولياءه ، وينصره وينصر أولياءه ، ويعادي أعداءه ومن أعدائه النفس والشيطان ، فمن خذلهما ونصر أمر الله تعالى ووالى أولياء الله وعادى أعداءه فهو الولي من العباد .

٣٦ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الحميد على مقتضى العبودية :

[أن يحوي المحامد كلّها ، وأن يترك المذام سواء كانت مخلات في الشريعة أو المروءة] .

الحميد من العباد من حمدت عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله كلها من غير مشوبة ، وذاك هو محمد ﷺ وإخوانه من الأنبياء ومن عداهم من الأولياء والعلماء وكل واحد منهم حميد بقدر ما يحمد من عقائده وأخلاقه وأعماله وأقواله .

٣٧ ـ ومن حظ العبد من اسم الله البر على مقتضى العبودية :

[أن يكون برّاً بوالديه وأساتذته وشيوخه ومن له فضل عليه ، وأنواع البر لا تحصى وأمهاتها ما ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿**ليس البرّ أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكنّ البرّ من آمن بالله واليوم الآخر ...**﴾ الآية (البقرة : ١٧٧)] .

٣٨ ـ ومن حظ العبد من اسم الله التوّاب على مقتضى العبودية :

[أن يقبل العبد معاذير الخاطئين والخطّائين من رعاياه وأصدقائه ومعارفه مرّة بعد مرّة] .

٣٩ ـ من حظ العبد من اسم الله المنتقم على مقتضى العبودية :

[أن ينتقم من أعداء الله على كفرهم بالجهاد ، وعلى عدوانهم بالرد ، وأن ينتقم مّن اعتدى على حرمات الله بإقامة الحدود والقصاص إنْ كان من أهل الولاية ، وبالهجر والإعراض إن كان له ذلك على مقتضى الشريعة ، وأن ينتقم مّن أصبح الظلم خلقه : ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾ (الشورى : ٣٩) ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ⋆ إنّما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق** ﴾ (الشورى : ٤١ ، ٤٢)] .

٤٠ ـ ومن حظ العبد من اسم الله العفو على مقتضى العبودية :

[أن يعفو عمّن ظلمه وأساء إليه بل أن يحسن إليه ، وأن يسامحه لتكون له صفة العفو إلا إذا أصبحت الإساءة من صاحبها خلقاً فالأفضل له أن يردّ ليزجر صاحب ذلك عن الظلم] .

٤١ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الجامع على مقتضى العبودية :

الجامع من العباد من جمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح ، وبين الحقائق الباطنة في القلوب ، فمن كملت معرفته وحسنت سيرته فهو الجامع ، ولذلك قيل : الكامل من لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، والجمع بين الصبر والبصيره صعب ، والجامع من جمع بين الصبر والبصيرة .

٤٢ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الهادي على مقتضى العبودية :

[أن يقوم العبد بالدعوة إلى الله . وفي الحديث الشريف : « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »[1] .

---

(١) أخرجه أبو داود .

وبقدر الإخلاص وحرارة الدعوة وغزارة العلم وكثرة الأوقات المخصصة للدعوة يقوم العبد بمقام الهداية إلى الله عز وجل] .

٤٣ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الرشيد على مقتضى العبودية :

[أن تكون تدبيراته على سنن السداد موصلة إلى غاياتها الحميدة ، وعلى هذا فرشد كل عبد بمقدار هدايته في تدبيراته إلى إصابة شاكلة الصواب من مقاصد في دينه ودنياه ، وكذلك هو إذا كلّفته أمراً من أمور العامّة أو العمل الجماعي ، أو ابتلي بتدبير أمور الخلق فحظّه من اسم الله الرشيد أن يحسن التدبير للوصول إلى أحسن الغايات بأقصر الطرق وأحسنها وأحكمها وأكثرها تلازماً مع شريعة الله] .

٤٤ ـ ومن حظ العبد من اسم الغني على مقتضى العبودية :

[أن يحاول العبد ما استطاع أن يستغني عن الخلق فلا يسألهم شيئاً ، وقد غلب على أهل العصور الأخيرة اجتهاد بتفضيل الغنى عن طريق المباح والحلال ، وذلك لكثرة الحرام ، وضيق الناس بالفقير ، وما يترتّب على ذلك من ازدراء لا ينتفع معه الناس بمن كان فقيراً ولو كان عالماً ، وقد ذهب فقهاء الشافعية إلى أنّ الزكاة تدفع للإغناء وليست لسد الحاجة فقط ، فمن استطاع أن يكون غنيّاً مغنياً فذلك طيّب .

وأعظم الغنى الغنى بالله ، وأرقى العلماء من كان قادراً على التأديب والتعليم حتّى يغني المريد عن غيره] .

٤٥ ـ ومن حظ العبد من اسم الله البديع على مقتضى العبودية :

[أن يأتي بالبديع من القول أو العمل في أمر دنيا أو أخرى مع حسن النية ، ولا يظهر الإبداع الدنيوي بشيء كما يظهر في الأعمال الهندسية حتّى لو قال القائل : كل أنواع التقدّم المدني وراءها العقل الهندسي لكان قريباً من الصواب . فهندسة المعمار والميكانيك والكهرباء وراء ما نراه من آثار الإنسان في السيّارات والطيّارات والبناء الفنّي ، فمن أبدع مثل هذا فله من اسم الله البديع حظ .

ومن أبدع في ترقية شخصيّة الإنسان ، أو في إقامة عمل جماعي منظّم على أسس متينة

مستمدّة من الكتاب والسنّة واحتياجات العصر فله من هذا الاسم نصيب] .

٤٦ ـ ومن حظ العبد من اسم الله الصبور على مقتضى العبودية :

[أن يبالغ في الصبر على مقتضى التكليف ، فصبره عن الشهوات المحرّمة على أكمله ، وصبره على الطاعات على أكمله ، وصبره على ما أقامه الله فيه من خدمة العامّة على أتمه ، وصبره على ما ابتلاه الله به على منتهى الكمال] .

☆ ☆ ☆

[وبعد : فمقام التخلّق بأخلاق الله واسع وعريض ، ولنكتف منه بهذه الإشارة ، لأن أسماء الله عز وجل كثيرة ، وقد أحصى بعضهم من أسماء الله الحسنى ألفاً قد وردت في الكتاب والسنّة صراحة أو اشتقاقاً . وفي الحديث الصحيح : « اللهم إنّي أسألك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علّمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ... » مّما يدلّ على أنّ أسماء الله الحسنى كثيرة ، وكثير من هذه الأسماء يستطيع العبد أن يأخذ منه حظّاً في التخلّق على سبيل الحقيقة أو المجاز مع معرفة أنّ الله ليس كمثله شيء ذاتاً وصفاتٍ وأسماءً وأفعالاً .

وحسبنا أننا عرّفنا على هذا الجانب ، ليعرف الإنسان محلّ هذا الجانب في تزكية النفس .

ولا شيء يساعد على التخلّق مثل العلم والذكر ففي الحديث القدسي الصحيح : « وأنا معه إذا ذكرني»[1] وبقدر ماتكثر من الجلوس مع الله يكرمك الله عز وجل بالارتقاء ، وبقدر مايعطيك من العلم تعرف أن تضع كلّ شيء في محلّه .

وعلينا أن نعرف أنّه ما من أحد في تاريخ هذا العالم أخذ من الكمالات كما أخذ رسول الله ﷺ ، فلو أنّك أردت أن تستعرض أسماء الله الحسنى التي يجوز للخلق أن يتحققوا بها ثم بحثت عن أكمل من تخلّق بها فإنّك لا تجد كرسول الله ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم .

ونحن عارضون في الفقرة الثانية بعضاً من شمائله عليه الصلاة والسلام ، ومن سيرته تعطيراً لهذا الكتاب ولمناسبة ذلك لهذا الفصل ، فالتخلّق يدخل فيه الاقتداء برسول الله ﷺ ، وذلك شيء لا يحاط به ، ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جُلّه] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية : في بعض شمائله عليه الصلاة والسلام للاقتداء بها

[إنّك لا تصل إلى المعرفة بما ينبغي الاقتداء به من رسول الله ﷺ إلا إذا درست الكتاب والسنّة ، وحتّى لو فعلت ذلك لم تصل إلى الإحاطة ، لأنّ المعاني المتوالدة من الكتاب والسنّة لا تتناهى ، وإنّما يأخذ كل أحد على حسب استعداده ونوره ، ونحن ههنا إنّما نريد تعطير هذا الكتاب وإغناءه بما لابدّ منه .

وقد جمع الغزالي في إحيائه بعضاً من أخلاق النبوّة ، وخرّج العراقي ما ذكره الغزالي وبيّن درجته ، ونحن سنعتمد تخريج العراقي دون أن ننقله ، ونحذف من كلام الغزالي كلّ ما لم يصحّح العراقي روايته أو يحسّنها أو يدخلها في دائرة المقبول ، فنكون بذلك قد اجتمع لنا الاختصار مع التوثيق ، ومن أراد أن يعرف محلّ أي رواية أو درجتها فليراجع طبعات الإحياء وتخريجات العراقي عليها] .

قال الغزالي رحمه الله :

بيان تأديب الله حبيبه وصفيه محمداً ﷺ بالقرآن

كان رسول الله ﷺ كثير الضراعة والابتهال ، دائم السؤال من الله تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق ، فكان يقول في دعائه : « اللهم حَسِّن خُلُقي وخَلْقي » ويقول : « اللهم جنبني منكرات الأخلاق » فاستجاب الله تعالى دعاءه وفاء بقوله عز وجل : ﴿ **ادعوني أستجب لكم** ﴾ (غافر : ٦٠) فكان خلقه القرآن .

قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة رضي الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن . وإنما أدّبه القرآن بمثل قوله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) وقوله : ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾ (النحل : ٩٠) وقوله : ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ (لقمان : ١٧) وقوله : ﴿ **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** ﴾ (الشورى : ٤٣) وقوله : ﴿ **فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** ﴾ (المائدة : ١٣)

وقوله : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم** ﴾ (النور : ٢٢) وقوله : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم** ﴾ (فصلت : ٣٤) وقوله : ﴿ **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ (آل عمران : ١٣٤) وقوله : ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً** ﴾ (الحجرات : ١٢) ولما كسرت رباعيته وشج يوم أحد فجعل الدم يسيل على وجهه وهو يمسح الدم ويقول : « كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم » فأنزل الله تعالى : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾ (آل عمران : ١٢٨) وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر وهو عليه الصلاة والسلام المقصود الأول بالتأديب والتهذيب ، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق فإنه أُدّب بالقرآن وأَدَّبَ الخلق به ولذلك قال ﷺ : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » فهو الذي زينه بالخلق الكريم ثم أضاف إليه ذلك فقال : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (القلم : ٤) ثم بين رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم للخلق أن الله يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفسافها ومن ذلك حسن المعاشرة وكرم الصنيعة ولين الجانب وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام وعيادة المريض المسلم برّاً كان أو فاجراً وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت ـ مسلماً كان أو كافراً ـ وتوقير ذي الشيبة المسلم ، وإجابة الطعام والدعاء عليه ، والعفو والإصلاح بين الناس والجود والكرم والسماحة ، والابتداء بالسلام ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب ما حرّمه الإسلام من اللهو والباطل والغناء والمعازف كلها ، وكل ذي وتر ، وكل ذي دخل ، والكذب والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والبذخ والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغي والعدوان والظلم .

فلم يدع نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشاً ـ أو عيباً ، أو شيناً ـ إلا وحذرناه ونهانا عنه ويكفي من ذلك كله هذه الآية ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان** ﴾ الآية (النحل : ٩٠) فهكذا أدّب عباد الله ودعاهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

☆ ☆ ☆

بيان جملة من محاسن أخلاقه ﷺ التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار

كان ﷺ أحلم الناس وأشجع الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها أو عصمة نكاحها أو تكون ذات محرم منه ، وكان أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وإن فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفجأه الليل لم يأو إلى منزله حتى يتبرأ منه إلى من يحتاج إليه ، لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك في سبيل الله ، لا يُسْأل شيئاً إلا أعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه ، حتى إنه ربما احتاج قبل انقضاء العام إن لم يأته شيء ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ، ويخدم في مهنة أهله ، ويقطع اللحم معهن ، وكان أشدّ الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويجيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ، ولا يأكل الصدقة ، ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وإن عاد ذلك عليه بالضرر أو على أصحابه . وعرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو في قلة وحاجة إلى إنسان واحد يزيده في عدد من معه فأبى وقال : « أنا لا أنتصر بمشرك » ووجد من فضلاء أصحابه وخيارهم قتيلاً بين اليهود فلم يحف عليهم ولا زاد على مر الحق ، بل وَدّاه بمائة ناقة ، وإن بأصحابه لحاجة إلى بعير واحد يتقوون به . وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ، ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ، ولا يتورع عن مطعم حلال ، وإن وجد تمراً دون خبز أكله . وإن وجد خبز برّ أو شعير أكله ، وإن وجد حلوا أو عسلاً أكله ، وإن وجد لبناً دون خبز اكتفى به ، وإن وجد بطيخاً أو رطباً أكله ، لا يأكل متكئاً ولا على خوان ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة أيام متوالية حتى لقي الله تعالى إيثاراً على نفسه لا فقراً ولا بخلاً ، يجيب الوليمة ويعود المرضى . ويشهد الجنائز ويمشي وحده بين أعدائه بلا حارس ، أشد الناس تواضعاً ، وأسكنهم في غير كبر ، وأبلغهم في غير تطويل وأحسنهم بشراً ، ويلبس ما وجد فمرّة شملة ومرة برد حبرة يمانياً ومرّة جبة صوف ما وجد من المباح لبس ، وخاتمه فضة يلبسه في خنصره الأيمن والأيسر ، يردف خلفه عبده أو غيره . يركب ما أمكنه مرة فرساً ومرة بعيراً ومرة بغلة شهباء ومرة حماراً ومرة يمشي راجلاً حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة ، يعود المرضى في أقصى المدينة . يحب الطيب

ويكره الرائحة الرديئة . ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين . ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم ، ويتألف أهل الشرف بالبر لهم ، يصل ذوي رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لا يجفو على أحد ، يقبل معذرة المعتذر إليه ، يمزح ولا يقول إلا حقاً ، يضحك من غير قهقهة . يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق أهله وترفع الأصوات عليه فيصبر ، وكان له لقاح وغنم يتقوت هو وأهله من ألبانها ، وكان له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس ، ولا يمضي له وقت في غير عمل لله تعالى أو فيما لابد له منه من صلاح نفسه ، يخرج إلى بساتين أصحابه ، لا يحتقر مسكيناً لفقره وزمانته ، ولا يهاب ملِكاً لملكه ، يدعو هذا وهذا إلى الله دعاء مستوياً قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة ، والسياسة التامة ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، نشأ في بلاد الجهل والصحاري في فقره وفي رعاية الغنم يتيماً ، لا أب له ولا أم ، فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأوّلين والآخرين ، وما فيه النجاة والفوز في الآخرة والغبطة والخلاص في الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول ، وفقنا الله لطاعته في أمره والتأسي به في فعله آمين يارب العالمين .

بيان جملة أخرى من آدابه وأخلاقه ﷺ

ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعل لها كفارة ورحمة ، وما لعن امرأة قط ولا خادماً بلعنة وقيل له وهو في القتال : لو لعنتهم يا رسول الله فقال : « إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً » وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عام أو خاص عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له . وما ضرب بيده أحداً قط إلا أن يضرب بها في سبيل الله تعالى ، وما انتقم من شيء صنع إليه قط إلا أن تنتهك حرمة الله ، وما خيّر بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك ، وما كان يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته ، قال أنس : والذي بعثه بالحق ما قال لي في شيء قط كرهه « لم فعلته ؟ » ولا لامني نساؤه إلا قال : « دعوه إنما كان هذا بكتاب وقَدَر » وكان من خلقه ﷺ أن يبدأ من لقيه بالسلام ، ومن قاومه لحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، وكان إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته عليها ، وكان لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله ، وكان أكثر جلوسه أن ينصب ساقيه جميعاً ويمسك بيديه عليهما

شبه الحبوة ، ولم يكن يعرف مجلسه أصحابه ، لأنه كان حيث انتهى به المجلس جلس ، وما رؤي قط ماداً رجليه بين أصحابه حتى لا يضيّق بها على أحد إلا أن يكون المكان واسعاً لا ضيق فيه ، وكان أكثر ما يجلس مستقبل القبلة وكان يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه بالوسادة التي تحته ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل ، وما استصفاه أحد إلا ظنّ أنه أكرم الناس عليه حتى يعطي كل من يجلس إليه نصيبه من وجهه حتى كان مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف محاسنه وتوجهه للمجالس إليه ، ومجلسه مع ذلك مجلس حياء وتواضع وأمانه قال الله تعالى : ﴿ **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) ولقد كان يدعو أصحابه بكناهم إكراماً لهم واستمالة لقلوبهم ويكني من لم تكن له كنية فكان يدعى بما كناه به . ويكني أيضاً النساء اللاتي لهن الأولاد واللاتي لم يلدن يبتديء لهن الكنى ، ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم ، وكان أبعد الناس غضباً وأسرعهم رضا ، وكان أرأف الناس بالناس وخير الناس للناس ، وأنفع الناس للناس ، ولم تكن ترفع في مجلسه الأصوات ، وكان إذا قام من مجلسه قال : « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك » ثم يقول : « علمنيهن جبريل عليه السلام » .

بيان كلامه وضحكه ﷺ

كان ﷺ أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً . وكان نزر الكلام سمح المقالة ، إذا نطق ليس بمهذار ، وكان كلامه كخرزات نظمن قالت عائشة رضي الله عنها : كان لا يسرد الكلام كسردكم هذا . قالوا : وكان أوجز الناس كلاماً وبذاك جاءه جبريل وكان مع الإيجاز يجمع كل ما أراد وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كأنه يتبع بعضه بعضاً ، بين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه ، وكان جهير الصوت أحسن الناس نغمة ، وكان طويل السكوت لا يتكلم في غير حاجة . ولا يقول المنكر ولا يقول في الرضا والغضب إلا الحق . ويعرض عمن تكلم بغير جميل ، ويكني عما اضطره الكلام إليه مما يكره ، وكان إذا سكت تكلم جلساؤه ، ولا يتنازع عنده في الحديث ويعظ بالجد والنصيحة . ويقول : « لا تضربوا القرآن بعضه ببعض فإنه أنزل على وجوه » وكان أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه ، وتعجباً مما تحدثوا به وخلطاً لنفسه بهم ولربما ضحك حتى تبدو نواجده ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء به وتوقيراً له قالوا : وكان من أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه القرآن أو يذكر

الساعة أو يخطب بخطبة عظة ، وكان إذا سرّ ورضي فهو أحسن الناس رضا ، فإن وعظ وعظ بجد ، وإن غضب ـ وليس إلا لله ـ ما يقوم لغضبه شيء ، وكذلك كان في أموره كلها ، وكان إذا نزل به الأمر فوّض الأمر إلى الله وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى .

بيان أخلاقه وآدابه ﷺ في الطعام

كان ﷺ يأكل ما وجد ، وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف ، والضفف : ما كثرت عليه الأيدي ، وكان إذا جلس يأكل يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلي ، إلا أن الركبة تكون فوق الركبة ، والقدم فوق القدم ويقول : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » وكان لا يأكل الحار ويقول : « إنه غير ذي بركة ، وإن الله لم يطعمنا ناراً فأبردوه » وكان يأكل مما يليه ويأكل بأصابعه الثلاث ، وكان يأكل خبز الشعير غير منخول ، وكان يأكل القثاء بالرطب ويستعين باليدين جميعاً ، وكان أكثر طعامه الماء والتمر ، وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين ، وكان أحب الطعام إليه اللحم ، وكان يأكل الثريد باللحم والقرع وكان يحب القرع .

وكان إذا أكل اللحم لم يطأطيء رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعاً ثم ينتهشه انتهاشاً وكان يأكل الخبز والسمن ، وكان يحب من الشاة الذراع والكتف ، ومن القدر الدباء[1] ومن التمر العجوة ، ودعا في العجوة بالبركة وقال : « هي من الجنة وشفاء من السم والسحر » وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكراث ، وما ذم طعاماً قط لكن إن أعجبه أكله وإن كرهه تركه وإن عافه لم يبغّضه إلى غيره ، وكان يعاف الضب والطحال ولا يحرمهما ، وكان يلعق بأصابعه الصحفة ويقول : « آخر الطعام أكثر بركة » . وكان يلعق أصابعه من الطعام ، وكان لا يمسح يده بالمنديل حتى يلعق أصابعه واحدة واحدة ويقول : إنه لا يدرى في أي الطعام البركة ، ويشرب في ثلاث دفعات بثلاث تسميات وثلاث تحميدات ، وكان يدفع فضل سؤرة إلى من على يمينه ، فإن كان من على يساره أجل رتبة قال للذي على يمينه : « السنّة أن تُعطَى فإن أحببت أثرتهم » وكان لا يتنفّس في الإناء بل ينحرف عنه ، وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب .

---

(١) الدباء : القرع .

بيان آدابه وأخلاقه ﷺ في اللباس

كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار أو رداء أو قميص أو جبة أو غير ذلك ، وكان أكثر لباسه البياض ويقول : « ألبسوها أحياءكم وكفّنوا فيها موتاكم » وكانت له ملحفة مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالناس فيها وحدها ، وربما لبس الكساء وحده ما عليه غيره ، وكان له كساء ملبد يلبسه ، وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما أمّ به الناس على الجنائز ، وربما صلى في بيته في الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه ويكون ذلك الإزار الذي جامع فيه يومئذ ،وكان ربما صلى بالليل في الإزار ويرتدي ببعض الثوب مما يلي هدبه ويلقي البقية على بعض نسائه فيصلي كذلك ، وكان يتختم وكان يختم به على الكتب ، وكان يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمامة ، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه وعلى جبهته ، وكان إذا لبس ثوباً لبسه من قبل ميامنه ويقول : « الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمّل به في الناس » وكان له فراش من أدم حشوه ليف وكان ينام على الحصير ليس تحته شيء غيره .

بيان عفوه ﷺ مع قدرته

كان ﷺ أحلم الناس وأرغبهم في العفو مع القدرة حتى أتي بقلائد من ذهب وفضة فقسمها بين أصحابه فقام رجل من أهل البادية فقال : يا محمد والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل ، فقال : ويحك فمن يعدل عليه بعدي » فلما ولى قال : « ردوه عليّ رويداً » روى جابر: أنه ﷺ كان يقبض للناس يوم خيبر من فضة في ثوب بلال فقال له رجل: يارسول الله اعدل فقال له رسول الله ﷺ : « ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذن وخسرت إن كنت لا أعدل »[1] فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق فقال : « معاذ الله أن يتحدث الناس أنّي أقتل أصحابي » وكان رسول الله ﷺ في حرب فرأوا من المسلمين غرّة فجاء رجل حتى قام على رأس رسول الله ﷺ بالسيف فقال : من يمنعك مني ؟ فقال : « الله » فقال : فسقط السيف من يده فأخذ رسول الله ﷺ السيف وقال : « من يمنعك مني ؟ » فقال : كن

---

(١) أخرجه مسلم .

خير آخذ . قال : « قل : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » فقال : لا ، غير أني لا أقاتلك ولا أكون معك ولا أكون مع قوم يقاتلونك ، فخلى سبيله فجاء أصحابه فقال : جئتكم من عند خير الناس وروى أنس : أن يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة ليأكل منها فجيء بها إلى النبي ﷺ فسألها عن ذلك فقالت : أردت قتلك ؛ فقال : « ما كان الله ليسلطك على ذلك » قالوا : أفلا تقتلها ؟ فقال : « لا » وسحره رجل من اليهود فأخبره جبريل عليه أفضل الصلاة والسلام بذلك حتى استخرجه وحلّ العقد فوجد لذلك خفة ، وما ذكر ذلك لليهودي ولا أظهره عليه قط وقال عليّ رضي الله عنه : بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد فقال : « انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها » فانطلقنا حتى أتينا روضة خاخ فقلنا : أخرجي الكتاب فقالت : ما معي من كتاب فقلنا : لتخرجن الكتاب أو لننزعن الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به النبي ﷺ فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين بمكة يخبرهم أمراً من أمر رسول الله ﷺ فقال : « يا حاطب ما هذا ؟ » قال : يا رسول الله لا تعجل عليّ ؛ إني كنت امرءاً ملصقاً في قومي ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهلهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك النسب منهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعل ذلك كفراً ولا رضا بالكفر بعد الإسلام ولا ارتداداً عن ديني ، فقال رسول الله ﷺ : « إنه صدقكم » فقال عمر رضي الله عنه : دعني أضرب عنق هذا المنافق ، فقال ﷺ : إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله عز وجل قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، وقسّم رسول الله ﷺ قسمة فقال رجل من الأنصار : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فاحمرّ وجهه وقال : رحم الله أخي موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر .

بيان إغضائه ﷺ عما كان يكرهه

كان رسول الله رقيق البشرة ، لطيف الظاهر والباطن ، يعرف في وجهه غضبه ورضاه ، وكان إذا اشتد وجده أكثر من مس لحيته الكريمة ، ولقد بال أعرابي في المسجد بحضرته فهمّ به الصحابة فقال ﷺ : « لا تزرموه » أي : لا تقطعوا عليه البول ثم قال له : « إنّ هذه المساجد لا تصلح لشيء من القذر والبول والخلاء » وفي رواية « قرّبوا ولا تنفروا » .

بيان سخاوته وجوده ﷺ

كان ﷺ أجود الناس وأسخاهم ، وكان في شهر رمضان كالريح لا يمسك شيئاً ، كان أجود الناس كفاً ، وأوسع الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، ومن رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ، وما سئل عن شيء قط على الإسلام إلا أعطاه ، وأنّ رجلاً أتاه فسأله فأعطاه غنماً سدّت ما بين جبلين فرجع إلى قومه وقال : أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة . وما سئل شيئاً قط فقال لا ، وحمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسّمها فما رد سائلاً حتى فرغ منها ، ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه فوقف رسول الله ﷺ وقال : « أعطوني ردائي لو كان لي عدد هذه العضاه نعماً لقسمتها بينكم ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً » .

بيان شجاعته ﷺ

كان ﷺ أنجد الناس وأشجعهم ، قال عليّ رضي الله عنه : لقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدوّ ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً . وقال أيضاً : كنا إذا احمرّ البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه قيل : وكان ﷺ قليل الكلام ، قليل الحديث ، فإذا أمر الناس بالقتال تشمّر ، وكان من أشدّ الناس بأساً ، وكان الشجاع الذي يقرب منه في الحرب لقربه من العدوّ ، ولما غشيه المشركون نزل عن بغلته فجعل يقول : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » فما رؤي يومئذ أحد كان أشدّ منه .

بيان تواضعه ﷺ

كان ﷺ أشدّ الناس تواضعاً في علو منصبه قال ابن عامر : رأيته يرمي الجمرة على ناقة شهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك ، وكان يركب الحمار موكفا عليه قطيفة ، وكان مع ذلك يستردف ، وكان يعود المريض ويتبع الجنازة ويجيب دعوة المملوك ويخصف النعل ويرقع الثوب وكان يصنع في بيته مع أهله في حاجتهم وكان أصحابه لا يقومون له لما عرفوا من كراهيته لذلك وكان يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم وأُتي ﷺ برجل فأرعد من هيبته فقال له :

« هوّن عليك فلست بملك إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد » وكان يجلس بين أصحابه مختلطاً بهم كأنه أحدهم فيأتي الغريب فلا يدري أيهم هو ؟ حتى يسأل عنه وكان لا يأكل على خوان ولا في سكرجة حتى لحق الله تعالى ، وكان إذا جلس مع الناس إن تكلموا في معنى الآخرة أخذ معهم ، وإن تحدثوا في طعام وإن تكلموا في الدنيا تحدّث معهم رفقاً بهم وتواضعاً لهم وكانوا يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون فيبتسم هو إذا ضحكوا .

بيان صورته وخِلْقته ﷺ

وكان من صفة رسول الله ﷺ أنه لم يكن بالطويل البائن ، ولا بالقصير المتردد ، وأما لونه : فقد كان أزهر اللون ولم يكن بالآدم ولا بالشديد البياض . والأزهر : هو الأبيض الناصع الذي لا تشوبه صفرة ولا حمرة ولا شيء من الألوان ونعته عمه أبو طالب فقال :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

ونعته بعضهم بأنه مشرب بحمرة فقالوا : إنما كان المشرب منه بالحمرة ما ظهر للشمس والرياح كالوجه والرقبة والأزهر الصافي عن الحمرة ما تحت الثياب منه . وكان عرقه ﷺ في وجهه كاللؤلؤ أطيب من المسك الأذفر .

وأما شعره : فقد كان رجل الشعر حسنه ليس بالسبط ولا الجعد القطط ، وكان إذا مشطه بالمشط يأتي كأنه حبك الرمل . وقيل : كان شعره يضرب منكبيه ، وأكثر الرواية أنه كان إلى شحمة أذنيه . وربما جعله غدائر أربعاً تخرج كل أذن من بين غديرتين . وربما جعل شعره على أذنيه فتبدو سوالفه تتلألأ . وكان شيبه في الرأس واللحية سبع عشرة شعرة ، ما زاد على ذلك .

وكان ﷺ أحسن الناس وجهاً وأنورهم ، لم يصفه واصف إلا شبهه بالقمر ليلة البدر ، وكان يرى رضاه وغضبه في وجهه لصفاء بشرته ، وكان ﷺ واسع الجبهة ، أزج الحاجبين سابغهما ، وكان أبلج ما بين الحاجبين كأن ما بينهما الفضة المخلصة ، وكانت عيناه نجلاوين أدعجهما ، وكان في عينيه تمزج من حمرة ، وكان أهدب الأشفار حتى تكاد تلتبس من كثرتها ، وكان أقنى العرنين ـ أي مستوي الأنف ـ وكان مفلّج الأسنان ـ أي متفرّقها ـ وكان إذا افتر ضاحكاً افتر عن مثل سنا البرق إذا تلألأ ، وكان من أحسن عباد الله شفتين وألطفهم ختم فم ، وكان سهل الخدين

صلبهما ليس بالطويل الوجه ولا المكلثم ، كث اللحية ، وكان يعفي لحيته ويأخذ من شاربه ، وكان أحسن عباد الله عنقاً لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر ، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهباً يتلألأ في بياض الفضة وفي حمرة الذهب ، وكان ﷺ عريض الصدر لا يعدو لحم بعض بدنه بعضاً كالمرآة في استوائها وكالقمر في بياضه ، موصول ما بين لبته وسرته بشعر منقاد كالقضيب ، لم يكن في صدره ولا بطنه شعر غيره ، وكانت له عكن ثلاث يغطي الإزار منها واحدة ويظهر اثنتان ، وكان عظيم المنكبين أشعرهما ضخم الكراديس - أي رؤوس العظام من المنكبين والمرفقين والوركين - وكان واسع الظهر، ما بين كتفيه خاتم النبوة وهو مما يلي منكبه الأيمن .

فيه شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متواليات كأنها من عرف فرس ، وكان عبل العضدين والذراعين طويل الزندين رحب الراحتين سائل الأطراف كأن أصابعه قضبان الفضة ، كفه ألين من الخز ، كأن كفه كف عطار طيباً - مسها بطيب أو لم يمسها - يصافحه المصافح فيظل يومه يجد ريحها ، ويضع يده على رأس الصبي فيعرف من بين الصبيان بريحها على رأسه ، وكان عبل ما تحت الإزار من الفخذين والساق ، وكان معتدل الخلق في السمن بدن في آخر زمانه ، وكان لحمه متماسكاً يكاد يكون على الخلق الأول لم يضره السمن .

وأما مشيه ﷺ فكان يمشي كأنما يتقلع من صخر ، وينحدر من صبب ، يخطو تكفياً ويمشي الهوينى بغير تبختر - والهوينى : تقارب الخُطا .

☆ ☆ ☆

الباب الرابع
في بعض ثمرات التزكية

وفيه فصلان
الفصل الأول : في ضبط اللسان
الفصل الثاني : في أدب العلاقات

تقديم

[رأينـا من قبـل أنّ النفس المزكّـاة : هي التي تخلّقت بمـا يجب التخلّـق بـه من أسماء الله الحسنى على مقتضى العبـوديـة ، وهي التي تحقّقت بمقـامـات القلـوب التي هي الأثر المبـاشر عن معرفـة الله عـز وجـل ، وهي التي تطهّرت من الأمراض ، فـالتزكيـة : تطهّر وتخلّـق وتحقّـق ، والقدوة العليا في ذلـك رسول الله ﷺ ، والتخلّق بـأسماء الله الحسنى تنبثق عنـه آثـار عمليـة في الحياة ، والتحقّق بمقامـات اليقين تنبثق عنـه ثمرات عمليـة في الحيـاة ، وهـذا هو المقصود بثمرات التزكية .

ولا تظهر ثمرات التزكيـة في شيء كظهـورهـا في ضبـط اللسـان وأدب العـلاقـات مـع الله ومـع الناس ، فذلك هو الشيء الحسّ من تزكية النفس . أن ينضبـط اللسـان ويكثر الإحسـان ، ولا يسلّم الناس لأحد بزكاة النفس إلا إذا رأوا ذلـك منـه في سلوك مبـاشر ، وفي الأصل فـإنّ أدب العلاقـات ذو شقين : شق سلبي وشق إيجـابي ، أمّـا الإيجـابي : فكالإيثـار والصبر والحلم والرحمـة والشفقة والخدمة وتفقّد الأحوال والتحمّل والكرم وحسن الإنصات ، وأمّـا السلبي : فـالكف عن أعراض النـاس وترك الاستهزاء بهم والسخريـة منهم وسوء الظن ، ومـع أنّ بعضـاً من هـذه لهـا صلـة بـاللسـان فقـد جعلنـا هـذا البـاب فصلين ، فصـلاً في آداب اللســان ، وفصـلاً في أدب العلاقات ، للتسهيل والتوضيح .

☆ ☆ ☆

قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح :

« إنّ في الجسد لمضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب » .

إنّ فساد القلب بـالكـذب والنفـاق والفسوق والعصيـان والكبر والعجب والغرور لـه ثمراتـه الخبيثـة في الحيـاة ، من رَفْضٍ للحـق ، وعُتُوٍّ على عبـاد الله ، وتجـاوزٍ للحـدود ، واعتـداءٍ على الحقوق ، واحتقارٍ لعباد الله ، وتطاولٍ عليهم .

وأمّا صلاح القلب : فتظهر ثمراته في كلّ دائرة من دوائر الحياة ، في محيـط الأسرة والنقـابـة

والمجتمع ، وفي العلاقات الثنائية والجماعية .

والدارس للكتاب والسنّة وفهم العلماء المحقّقين الثقات ، العامل بما يعلم تظهر عليه ثمرات التزكية و يتنكّب الطريق الآخر ، ولو لم ينبثق ذلك عنده عن نظرية متكاملة في تزكية النفس لأنّ هذه النظرية مبناها على هذه النصوص والعمل بها ، ومن ثم فإنّ من يكثر تلاوة القرآن مع التدبّر ، ويكثر من القراءة في السنّة لا يفوته خُلُق يجب التحقّق به ، ولا يدخل عليه خُلُق يجب الفرار منه .

نقول هذا حتّى لا يدّعي مدّع بأنّ دراسة الكتاب والسنّة والعمل بما فيهما لا تكفيان في تزكية النفس ، ومع ذلك فدراسة ما هو ألصق بتزكية النفس من التأليف مفيدة .

☆ ☆ ☆

في الشريعة عدل وفضل ، وحسن وأحسن ، وفيها محرّمات ومكروهات ومباحات وآداب وواجبات وفرائض ، وهناك فروض عين ، وفروض كفاية ، وسنن عين ، وسنن كفاية ، وفيها للأريحيّات وللذوقيّات ولمراعاة الرأي العام الصالح محلّ ، وعلى قدر ما تزكو النفوس يظهر الفضل والأحسن ، وتقوم الفرائض والواجبات والسنن والأريحيّات والذوقيّات ومراعاة الرأي العام الصالح ، ولرسولنا عليه الصلاة والسلام في هذه المقامات ما لا يلحقه بشر ؛ فضع عين قلبك على القدوة ولا ترضى بدون الكمال .

ولم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام]

☆ ☆ ☆

الفصل الأول
في ضبط اللسان

تقديم

[من الكلام قبيح وأقبح ، وفاحش وأفحش ، ومنه الحسن والأحسن ، والله عز وجل ندبنا إلى الكلمة الأحسن . قال تعالى :

﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إنّ الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ (الإسراء : ٥٣) . وتذييل الأمر بقوله تعالى : ﴿ **إنّ الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ يكاد يكون تعليلاً لهذا الأمر ، ممّا يفيد : أنّه حيث ما نزل كلامنا عن هذا المستوى الرفيع فذلك يعطي الشيطان فرصة النزغ بيننا ، فتأمّل هذا وانظر حال أكثر الخلق إذ يبقى كلامهم دائراً بين القبيح والأقبح والفاحش والأفحش والمباح ، ونادراً من يرتقي منهم إلى دائرة الحسن ، مع أنّ الكلام الحسن يمكن أن ينزغ الشيطان بين أهله ما لم يرتقوا إلى الكلام الأحسن ، فما أصعب ذلك من مقام .

☆ ☆ ☆

إنّ من أمهات ما طولبنا به في شأن اللسان أن نستعمله في الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي إصلاح ذات البين والتناجي بالبر والتقوى :

قال تعالى :

﴿ **ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران : ١٠٤) ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا مَن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾ (النساء : ١١٤) ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى** ﴾ (المجادلة : ٩) .

هذه أمّهات ممّا طولبنا به في شأن اللسان ، ولكنّ قائمة المطلوبات من اللسان والمنهيّات كثيرة ، وقد حاول ابن الأزرق في كتابه (بدائع السلك) استقصاءها فذكر ما أُمر به اللسان فعدّد : « الصدق ، الأمر بالمعروف ، النهي عن المنكر ، طيب الكلام ، زجر المضلين ، الإغلاظ في الله ، الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان ، القيام بكلمة الله ، القيام بالشهادة ، الإصلاح بين الناس ، تعليم الجاهل ، التذكير ، إرشاد الضال ، التحدّث بالنعم ، الذكر ، تلاوة القرآن ،

الصلاة على النبي ﷺ ، الدعاء ، قول المعروف ، الاستغفار ، الدّعاء للأخ بظهر الغيب ، الدعاء إلى سبيل رب العالمين ، الأذان والإقامة ، القنوت ، التسمية عند الطعام ، إفشاء السلام ، ردّ السلام ، الدعاء للمريض ، الدعاء للمؤمنين ، إجابة المؤذن والمقيم ، الشفاعة ، تأديب الأولاد ، سؤال العافية، الدعاء، التلفظ بكلمتي الشهادة، الحكم بالقسط، تصديق من يجب تصديقه، أمر الأئمة بما يأمرون به الأمة ، تعليم العلوم الشرعية ، حمد الله ، أقوال الصلاة ، أقوال الحج ، التبشير ، التهنئة ، المشورة ، تبيين الكلام للمخاطب ، قول من دعي إلى الحاكم أو المفتي سمعاً وطاعة ونحو ذلك ، الدلالة على الخير ، الاقتصاد في الموعظة والعلم ، اعتذار من أهديت إليه هدية فردها لموجب شرعي ، الدعاء لصاحب المعروف ، التبري من أهل البدع والمعاصي ، مخاطبة ذوي الفضل بكناهم ، الاستيذان في قراءة كتب الرسائل ، الأذكار المشروعة في العبادات والعادات » .

ثم ذكر ابن الأزرق ما نهي عنه اللسان فعدد : « الغيبة ، النمية ، اليمين الغموس ، القذف ، الحكم بغير ما أنزل الله ، الكذب ، شهادة الزور ، البهتان ، سب الوالدين ، الكذب على النبي ﷺ ، سب الصحابة رضي الله عنهم ، الانتساب إلى غير الله ، فضيحة المسلم ، الزيادة في كتاب الله ، التحدث بما يظن أنه كذب ، الهجو ، إفشاء السر ، الوعد الكاذب ، كلام ذي الوجهين ، الدعاء إلى البدعة ، المنّ ، تنفيق السلعة باليمين الكاذبة ، جحد الحق ، الغناء المحظور ، انتهار الفقير ، اللعن ، الهمز ، اللمز ، الفُجر ، الطعن ، الفحش ، السعاية ، قول هلك الناس ، قول مطرنا بنوء كذا ، قول إن فعل كذا فهو يهودي أو نصراني ، أن يقول لمسلم : يا كافر ، قول اللهم اسلبه الإيمان ، سب الحُمَّى ، سب الدهر ، سب المسلم ، دعوى الجاهلية ، الحلف بغير أسماء الله ، الإخبار بالمعصية ، إفساد المرأة على زوجها ، أن يقال في المكوس حق السلطان ، الشفاعة في باطل ، المراء ، الجدال ، التقعُّر في الكلام ، الكلام فيما لا يعني ، الإكثار من الشعر ، انتهار الوالدين ، الخصومة ، المزاح المحظور ، السخرية ، القدح في العلماء ، المدح ، كلمة الكفر ، سب الموتى ، الكلام في الخطبة ، لبس الحق بالباطل ، رمي البريء بالذنب ، سؤال المرأة الطلاق من غير عذر ، كثرة الكلام ، البخس ، الجهر بالسوء من القول ، الأمر بالمنكر ، النهي عن المعروف ، التشدق بتكلف السّجع ، قول ماشاء الله وما شئت ، وليقل : ماشاء الله ثم ما شئت ، إضافة الشر إلى الله تعالى ، قول عبدي وأمتي ، إطلاق الكَرْم على العنب ، قول شاهنشاه : أي ملك الملوك ، سؤال المغفرة للكافر ، أن يقال للمسلم : يا كلب

ونحوه ، تناجي اثنين معهما ثالث وحده بغير إذنه ، وصف المرأة حُسْن أخرى لنحو زوجها دون حاجة شرعية ، سؤال الرجل فيما ضرب امرأته ، تذكير من غضب بالله ورسوله ، السؤال بوجه الله غير الجنة ، التحدث بكل ما سمع ، سؤال العامي عن العلوم الغامضة ، التحدث مع الناس بما لا يفهمون ، نقل الحديث إلى ولاة الأمور دون مبرر شرعي ، سب الرب ، سب الديك ، كثرة الحلف في البيع ونحوه وإن كان صادقاً ، الحديث بعد صلاة العشاء الآخرة إلا لمسوغ شرعي ، تسمية العشاء الآخرة العتمة والمغرب العشاء ، القراءة بالألحان ، التنابز بالألقاب ، الخوض فيما شجر بين السلف الصالح ، استطالة الرجل في عرض أخيه ، تحريف الكلم عن مواضعه ، جحد الوديعة ، كتم العلم . الكلام على الخلاء ، الدعاء على النفس والولد ، كتم الحق ، مسألة الناس ، إفشاء السر بين الزوجين » .

هذه التكاليف الكثيرة للّسان مرجعها إلى أن على الإنسان أن يقول الكلمة التي هي أحسن ويترك ما عداها ، ومن ههنا كان الحديث عن آفات اللسان من الأمور المهمّة لأنّه بمعرفة ذلك يتجنّب الإنسان ما ينزل عن المقام الأعلى .

عرفت الشّر لا للشرّ لكن لتوقّيه ومن لا يعرف الشرّ يقع فيه

وقد أفاض الغزالي في آفات اللسان ، وها نحن نستخلص لك ما تمسّ الحاجة إليه] .

قال الغزالي رحمه الله :

بيان عظيم خطر اللسان وفضيلة الصمت

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت ، فلذلك مدح الشارع الصمت وحث عليه فقال ﷺ : « من صمت نجا »[١] وقال (لقمان) : « الصمت حِكَم وقليل فاعله » أي حكمة وحزم . وروى عبد الله بن سفيان عن أبيه قال : قلت يا رسول الله أخبرني عن الإسلام بأمر لا أسال عنه أحداً بعدك . قال : « قل آمنتُ بالله ثم استقم » قال : قلت فما أتقي ؟ فأومأ بيده إلى لسانه[٢] . وقال عقبة بن عامر : قلت يا رسول الله ما النجاة ؟ قال :

---

(١) أخرجه الترمذي بسند فيه ضعف ، وقال : غريب ، وهو عند الطبراني بسند جيد .

(٢) أخرجه الترمذي وصححه ، والنسائي ، وابن ماجه .

« أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك »[١] وقال سهل بن سعد الساعدي . قال رسول الله ﷺ : « من يتكفل لي بما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة »[٢] .

وقد سئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة فقال : « تقوى الله وحُسن الخلق » وسئل عن أكثر ما يدخل النار فقال : « الأجوفان : الفم والفرج »[٣] فيحتمل أن يكون المراد بالفم آفات اللسان لأنه محله ، ويحتمل أن يكون المراد به البطن لأنه منفذه ؛ فقد قال معاذ بن جبل : قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا ابن جبل وهلْ يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟ »[٤] وقال عبد الله بن سفيان الثقفي : قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به فقال : « قل ربي الله ثم استقم » قلت : يا رسول الله ما أخوف ما تخاف علي ؟ فأخذ بلسانه وقال : « هذا »[٥] وروي أن معاذاً قال : يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ فأخرج رسول الله ﷺ لسانه ثم وضع عليه أصبعه[٦] وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه وهو يمد لسانه بيده فقال له : ما تصنع يا خليفة رسول الله ؟ قال : هذا أوردني الموارد إن رسول الله ﷺ قال : « ليس شيء من الجسد إلا يشكو إلى الله اللسان على حدّته »[٧] وعن ابن مسعود أنه كان على الصفا يلبي ويقول : يالسان قل خيراً تغنم واسكت عن شر تسلم من قبل أن تندم ، فقيل له يا أبا عبد الرحمن أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته ؟ فقال : لا بل سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه »[٨] وقال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « من كَفَّ لسانه ستر الله عورته ، ومن ملك غضبه وقاه الله عذابه ، ومن اعتذر إلى الله قَبِلَ الله عذره »[٩] وعن صفوان بن سليم قال : قال رسول الله ﷺ : « ألا أخبركم بأيسر العبادة وأهونها على البدن .

---

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه الترمذي وصححه ، وابن ماجه .

(٤) أخرجه الترمذي وصححه ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

(٥) رواه النسائي والترمذي وصححه ابن ماجه .

(٦) أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا .

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا ، وقال الدارقطني : وروي هذا الحديث عن قيس ابن أبي حازم عن أبي بكر ولا علة له .

(٨) أخرجه الطبراني وابن أبي الدنيا في الصمت والبيهقي في الشعب بسند حسن .

(٩) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت بسند حسن .

الصمت وحسن الخلق »[١] وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت »[٢] .

وعن البراء بن عازب قال : جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال : دلني على عمل يدخلني الجنة ، قال : « أطعم الجائع ، واسق الظمآن ، وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ، فإن لم تطق فكف لسانك إلا من خير »[٣] وقال ﷺ : « اخزن لسانك إلا من خير ، فإنك بذلك تغلب الشيطان »[٤] وقال ﷺ : « إن الله عند لسان كل قائل فليتق الله امرؤ علم ما يقول » قال الحسن البصري : وكانوا يقولون « إن لسان المؤمن وراء قلبه فإذا أراد أن يتكلم بشيء تدبره بقلبه ثم أمضاه بلسانه ، وإن لسان المنافق أمام قلبه ، فإذا همَّ بشيء أمضاه بلسانه وبقلبه » .

[وقال عمر] من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كانت النار أولى به .

الآثار : كان أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه يضع حصاة في فيه يمنع بها نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ويقول : هذا الذي أوردني الموارد ، وقال عبد الله بن مسعود : والله الذي لا إله إلا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان . وقال طاوس : لساني سبع إن أرسلته أكلني . وقال وهب بن منبه : في حكمة آل داود ؛ حق على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه حافظاً للسانه مقبلاً على شأنه . وقال الحسن : ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه . وقال الأوزاعي : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أما بعد : فإن من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله قل كلامه إلا فيا يعنيه . وقال بعضهم : الصمت يجمع للرجل فضيلتين ؛ السلامة في دينه ، والفهم عن صاحبه . وقال محمد بن واسع لمالك بن دينار : يا أبا يحيى حفظ اللسان أشدّ على الناس من حفظ الدينار والدرهم . وقال يونس بن عبيد : ما من الناس أحد يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سر عمله . وقال الحسن تكلم قوم عند معاوية ـ رحمه الله ـ والأحنف بن قيس ساكت فقال له :

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد .

(٤) أخرجه الطبراني في الصغير وفي المعجم الكبير وابن حبان في صحيحه .

ما لك يا أبا بحر لا تتكلم ؟ فقال له : أخشى الله إن كذبت وأخشاك إن صدقت . فإن قلت : فهذا الفضل الكبير للصمت ما سببه ؟ فاعلم أن سببه كثرة آفات اللسان من الخطأ والكذب والغيبة والنميمة والرياء والنفاق والفحش والمراء وتزكية النفس والخوض في الباطل والخصومة والفضول والتحريف والزيادة والنقصان وإيذاء الخلق وهتك العورات . فهذه آفات كثيرة وهي سباقة إلى اللسان لا تثقل عليه ، ولها حلاوة في القلب وعليها بواعث من الطبع ومن الشيطان ، والخائض فيها قلما يقدر أن يمسك اللسان فيطلقه بما يحب ويكفه عما لا يحب فإن ذلك من غوامض العلم ، ففي الخوض خطر وفي الصمت سلامة فلذلك عظمت فضيلته ، هذا مع ما فيه من جمع الهم ودوام الوقار والفراغ للفكر والذكر والعبادة والسلامة من تبعات القول في الدنيا ومن حسابه في الآخرة . فقد قال الله تعالى : ﴿ **ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد** ﴾ (قٓ : ١٨) . ويدلك على فضل لزوم الصمت أمر ، وهو أن الكلام أربعة أقسام : قسم هو ضرر محض ، وقسم هو نفع محض ، وقسم فيه ضرر ومنفعة ، وقسم ليس فيه ضرر ولا منفعة .

أما الذي هو ضرر محض فلابدّ من السكوت عنه ، وكذلك ما فيه ضرر ومنفعة لا تفي بالضرر ، وأما ما لا منفعة فيه ولا ضرر فهو فضول والاشتغال به تضييع زمان وهو عين الخسران ، فلا يبقى إلا القسم الرابع ، ونحن الآن نعدّ آفات اللسان ونبتدىء بأخفها ونترقّى إلى الأغلظ قليلاً ، ونؤخر الكلام في الغيبة والنميمة والكذب فإن النظر فيها أطول وهي عشرون آفة فاعلم ذلك ترشد بعون الله تعالى .

الآفة الأولى : الكلام فيما لا يعنيك

اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات التي ذكرناها من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها ، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً ، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه ، فإنك مضيع به زمانك ومحاسب على عمل لسانك وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما كان ينفتح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه ، ولو هَلَّلْتَ الله سبحانه وذكرته وسبحته لكان خيراً لك فكم من كلمة تبني بها قصراً في الجنة . ومن قدر على أن يأخذ كنزاً من الكنوز فأخذ مكانه مدرة لاينتفع بها كان خاسراً خسراناً مبيناً ، وهذا مثال من ترك ذكر

الله تعالى واشتغل بمباح لا يعنيه فإنه وإن لم يأثم فقد خسر حيث فاته الربح العظيم بذكر الله تعالى ، فإنّ المؤمن يكون صمته فكراً ونظره عبرة ونطقه ذكراً ، بل رأس مال العبد أوقاته ومهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدّخر بها ثواباً في الآخرة فقد ضيع رأس ماله . ولهذا قال النبي ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »[1] ومن تكلم فيما لا يعنيه حوسب عليه ، وإن كان كلامه غير مباح فلا تتهيأ الجنة مع المناقشة في الحساب فإنه نوع من العذاب .

قال مجاهد سمعت ابن عباس يقول : خمس هنّ أحب إليّ من الدهم الموقوفة : لا تتكلم فيما لا يعنيك فإنه فضل ولا آمن عليك الوزر ، ولا تتكلم فيما يعنيك حتى تجد له موضعاً فإنه رب متكلم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فعنت ، ولا تمار حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يقليك والسفيه يؤذيك ، واذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن يذكرك به ، وأعفه مّما تحب أن يعفيك منه ، وعامل أخاك بما تحب أن يعاملك به ، واعمل عمل رجل يعلم أنه مجازى بالإحسان مأخوذ بالاحترام .

وقال عمر رضي الله عنه : لا تتعرض لما لا يعنيك ، واعتزل عدوك واحذر صديقك من القوم إلا الأمين . ولا أمين إلا من خشي الله تعالى ، ولا تصحب الفاجر فتتعلم من فجوره ولا تطلعه على سرك ، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى .

وحدّ الكلام فيما لا يعنيك : أن تتكلم بكلام لو سكت عنه لم تأثم ، ولم تستضر به في حال ولا مال ، مثاله أن تجلس مع قوم فتذكر لهم أسفارك وما رأيت فيها من جبال وأنهار ، وما وقع لك من الوقائع ، وما استحسنته من الأطعمة والثياب ، وما تعجبت منه من مشايخ البلاد ووقائعهم . فهذه أمور لو سكت عنها لم تأثم ولم تستضر ، وإذا بالغت في الجهاد حتى لم يمتزج بحكايتك زيادة ولا نقصان ، ولا تزكية نفس من حيث التفاخر بمشاهدة الأحوال العظيمة ، ولا اغتياب لشخص ولا مذمة لشيء مما خلقه الله تعالى فأنت مع ذلك كله مضيع زمانك ـ وأنى تسلم من الآفات التي ذكرناها ـ ومن جملتها أن تسأل غيرك عما لا يعنيك ، فأنت بالسؤال مضيع وقتك ، وقد ألجأت صاحبك أيضاً بالجواب إلى التضييع ، هذا إذا كان الشيء مما لايتطرّق إلى السؤال عنه آفة . وأكثر الأسئلة فيها آفات . فإنك تسأل غيرك عن

---

(١) أخرجه الترمذي وقال : غريب . وابن ماجه .

عبادته مثلاً فتقول : هل أنت صائم ؟ فإن قال : نعم ، كان مظهراً لعبادته فيدخل عليه الرياء ، وإن لم يدخل سقطت عبادته من ديوان السر ، وعبادة السر تفضل عبادة الجهر بدرجات ، وإن قال : لا ، كان كاذباً ، وإن سكت كان مستحقراً لك وتأذيت به ، وإن احتال لمدافعة الجواب افتقر إلى جهد وتعب فيه ، فقد عرضته بالسؤال إما للرياء أو للكذب أو للاستحقار أو للتعب في حيلة الدفع ، وكذلك سؤالك عن سائر عباداته ، وكذلك سؤالك عن المعاصي وعن كل ما يخفيه ويستحي منه . وسؤالك عما حدّث به غيرك فتقول له : ماذا تقول ؟ وفيم أنت ؟ وكذلك ترى إنساناً في الطريق فتقول : من أين ؟ فربما يمنعه مانع من ذكره ، فإن ذكره تأذى به ، واستحيا ، وإن لم يصدق وقع في الكذب وكنت السبب فيه .. وكذلك تسأل عن مسألة لا حاجة بك إليها والمسئول ربما لم تسمح نفسه بأن يقول لا أدري ، فيجيب عن غير بصيرة .

وأما سببه الباعث عليه فالحرص على معرفة ما لا حاجة به إليه ، أو المباسطة بالكلام على سبيل التودد أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها .

وعلاج ذلك كله أن يعلم أن الموت بين يديه ، وأنه مسئول عن كل كلمة ، وأن أنفاسه رأس ماله . وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الحور العين فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين . هذا علاجه من حيث العلم . وأما من حيث العمل فالعزلة أو أن يضع حصاة في فيه ، وأن يلزم نفسه السكوت بها عن بعض ما يعنيه حتى يعتاد اللسان ترك ما لا يعنيه ، وضبط اللسان في هذا على غير المعتزل شديد جداً .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم ، وهذا يتناول الخوض فيما لا يعني والزيادة فيما يعني على قدر الحاجة ، فإنّ من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يجسمه ويقرره ويكرره . ومهما تأدّى مقصوده بكلمة واحدة فذكر كلمتين فالثانية فضول ـ أي فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم ـ لما سبق ـ وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . قال عطاء بن أبي رباح : إنّ من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدّون فضول الكلام ماعدا كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله ﷺ ، أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطلق بحاجتك في معيشتك التي لا بدّ لك

منها ، أتنكرون أنّ عليكم حافظين كراماً كاتبين عن اليمين وعن الشمال قعيد ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره أن كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه . وعن بعض الصحابة قال : إنّ الرجل ليكلمني بالكلام لَجَوابه أشهى إليّ من الماء البارد إلى الظمآن فأترك جوابه خيفة أن يكون فضولاً . وقال مطرف : ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكرونه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار : اللهم اخزه وما أشبه ذلك . واعلم أنّ فضول الكلام لا ينحصر بل المهم محصور في كتاب الله تعالى عز وجل : ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس** ﴾ (النساء : ١١٤) وقال ﷺ : « طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله »[١] فانظر كيف قلب الناس الأمر في ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان ، وعن مطرف بن عبد الله عن أبيه قال : قدمت على رسول الله ﷺ في رهط من بني عامر فقالوا : أنت والدنا وأنت سيدنا وأنت أفضلنا علينا فضلاً ، وأنت أطولنا علينا طَوْلاً ، وأنت الجفنة الغرّاء وأنت وأنت فقال : « قولوا قولكم ولا يستهوينكم الشيطان »[٢] إشارة إلى أن اللسان إذا أطنب بالثناء ـ ولو بالصدق ـ فيخشى أن يستهويه الشيطان إلى الزيادة المستغنى عنها . وقال ابن مسعود : أنذركم فضول كلامكم ؛ حسب امرىء من الكلام ما بلغ به حاجته . وقال مجاهد : إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليسكّت ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا ؟ فيكتب كذاباً . وقال الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ووكل بها ملكان كريمان يكتبان أعمالك فاعمل ما شئت وأكثر أو أقل .

قال إبراهيم التيمي : إذا أراد المؤمن أن يتكلم نظر فإن كان له تكلم وإلا أمسك ، والفاجر إنما لسانه رسلاً رسلاً . وقال الحسن : من كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر ماله كثرت ذنوبه ، ومن ساء خلقه عذّب نفسه ، وقال عمرو بن دينار : تكلم رجل عند النبي ﷺ فأكثر فقال له ﷺ : « كم دون لسانك من حجاب ؟ » فقال : شفتاي وأسناني . قال : « أفما كان لك ما يرد كلامك ؟ »[٣] وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : إنه ليمنعني من كثير الكلام خوف المباهاة . وقال بعض الحكماء : إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت ، وإن كان

(١) أخرجه البغوي وابن قانع والبيهقي وقال ابن عبد البر إنه حديث حسن .
(٢) أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بلفظ آخر ورواه ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .
(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا مرسلاً ورجاله ثقات .

ساكتاً فأعجبه السكوت فليتكلم . وقال يزيد بن أبي حبيب : من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع ، فإن وجد من يكفيه فإن في الاستماع سلامة ، وفي الكلام تزيين وزيادة ونقصان . وقال ابن عمر : إن أحق ما طهّر الرجل لسانه . ورأى أبو الدرداء امرأة سليطة فقال : لو كانت هذه خرساء كان خيراً لها . وقال إبراهيم : يهلك الناس خلتان : فضول المال ، وفضول الكلام . فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وسببه الباعث عليه . وعلاجه ما سبق في الكلام فيما لا يعني .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق وتنعم الأغنياءوتجبر الملوك ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة ، فإن كل ذلك مما لا يحل الخوض فيه وهو حرام . وأما الكلام فيما لايعني أو أكثر مما يعني فهو ترك الأولى ولا تحريم فيه . نعم من يكثر الكلام فيما لا يعني لا يؤمن عليه الخوض في الباطل . وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهات الدين والدنيا . وفي هذا الجنس تقع كلمات يهلك بها صاحبها وهو يستحقرها ، فقد قال بلال بن الحارث : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة ، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله عليه به سخطه إلى يوم القيامة »[1] وكان علقمة يقول : كم من كلام منعنيه حديث بلال بن الحارث . وقال النبي صلى الله تعالى عليه وسلم : « إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا »[2] وقال أبو هريرة : إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً يرفعه الله بها في أعلى الجنة . وقال ﷺ : « أعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل »[3] وإليه الإشارة بقوله تعالى عن أهل النار : ﴿ **وكنا نخوض مع الخائضين** ﴾ (المدثر : ٤٥) وبقوله تعالى : ﴿ **فلا تقعدوا معهم حتى**

---

(١) أخرجه ابن ماجه والترمذي وقال : حسن صحيح .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا بسند حسن .

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً ورجاله ثقات ، ورواه هو والطبراني موقوفاً على ابن مسعود بسند صحيح .

يخوضوا في حديث غيره إنكم إذاً مثلهم ﴾ (النساء : ١٤٠) وقال سلمان : أكثر الناس ذنوباً يوم القيامة أكثرهم كلاماً في معصية الله . وقال ابن سيرين : كان رجل من الأنصار يمرّ بمجلس لهم فيقول لهم : توضئوا فإن بعض ما تقولون شر من الحدث . فهذا هو الخوض في الباطل وهو وراء ما سيأتي من الغيبة والنميمة والفحش وغيرها ، بل هو الخوض في ذكر محظورات سبق وجودها أو تدبر للتوصل إليها من غير حاجة دينية إلى ذكرها ، ويدخل فيه أيضاً الخوض في حكاية البدع والمذاهب الفاسدة [إلا لردّ وإنكار] وحكاية ما جرى من قتال الصحابة على وجه يوهم الطعن في بعضهم . وكل ذلك باطل والخوض فيه خوض في الباطل نسأل الله حسن العون بلطفه وكرمه .

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهيّ عنه قال ﷺ : « لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه »[١] وقال ﷺ : « من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة »[٢] وقال أيضاً : « ما ضل قوم بعد أن هداهم الله تعالى إلا أوتوا الجدل »[٣] وقال الزبير لابنه : لا تجادل الناس بالقرآن فإنك لا تستطيعهم ولكن عليك بالسنّة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : من جعل دينه عرضة للخصومات أكثر التنقل . وقال مسلم بن يسار : إياكم والمراء فإنّه ساعة جهل العالم وعندها يبتغي الشيطان زلته وقيل : ما ضل قوم بعد إذ هداهم الله إلا بالجدل . وقال مالك بن أنس رحمة الله عليه : ليس هذا الجدال من الدين في شيء . وقال أيضاً : المراء يقسي القلوب ويورث الضغائن . وقال لقمان لابنه : يا بني لا تجادل العلماء فيمقتوك . وقال بلال بن سعد : إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه فقد تمت خسارته . وقال سفيان : لو خالفت أخي في رمانة فقال : حلوة وقلت : حامضة لسعى بي إلى السلطان . وقال أيضاً : صاف من شئت ثم أغضبه بالمراء فليرمينك بداهية تمنعك العيش . وقال ابن أبي ليلى : لا أماري صاحبي فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه . وقال أبو الدرداء : كفى بك إثماً أن لا تزال ممارياً . وقال عمر رضي الله عنه : لا

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) أخرجه الترمذي وحسنه .

(٣) أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وصححه وزاد : « بعد هدىً كانوا عليه » .

تتعلم العلم لثلاث ولا تتركه لثلاث : لا تتعلمه لتماري به ، ولا لتباهي به ، ولا لترائي بـه . ولا تتركه حياء من طلبه ، ولا زهادة فيه ، ولا رضا بالجهل منه . وقيل لميمون بن مهران : مـالـك لا تترك أخاك عن قلى ؟ قال : لأني لا أشاريه ولا أماريه . ومـا ورد في ذم المراء والجـدال أكثر من أن يحصى . وحدّ المراء : هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهـار خلل فيـه ؛ إمـا في اللفـظ وإما في المعنى وإمـا في قصـد المتكلم . وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض . فكل كلام سمعتـه إن كـان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقـاً بـأمور الـدين [ولا يترتب عليه فساد] فاسكت عنه .

والطعن في كلام الغير تارة يكون في لفظه : بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو من جهـة اللغة أو من جهة العربية أو من جهة النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير . وذلك يكون تـارة من قصور المعرفة وتارة يكون بطغيان اللسان . وكيفما كان فلا وجه لإظهار خلله .

وأما في المعنى : فبأن يقول : ليس كما تقول ؛ وقد أخطأت فيه من وجه كـذا وكـذا . وأمـا في قصده فمثل أن يقول : هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك منه الحق وإنما أنت فيه صـاحب غرض ، وما يجري مجراه ، وهذا الجنس إن جرى في مسألـة علميـة ربمـا خص بـاسم الجـدل وهو أيضاً مذموم بل الواجب السكوت أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العنـاد والنكارة ، أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن .

وأما المجادلة : فعبارة عن قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامـه ونسبتـه إلى القصور والجهل فيه ، وآية ذلك أن يكون تنبيهه للحق من جهة أخرى مكروهاً عنـد المجـادل ، يحب أن يكون هو المظهر له خطأ ليبين به فضل نفسه ونقص صاحبـه ، ولا نجـاة من هـذا إلا بالسكوت عن كل ما لا يأثم به لو سكت عنه .

وأمـا البـاعث على هـذا : فهـو الترفـع بـإظهـار العلم والفضـل ، والتهجم على الغير بـإظهـار نقصه ، وهما شهوتان باطنتان للنفس قويتـان لهـا . أمـا إظهـار الفضل : فهو من قبيل تزكيـة النفس وهي من مقتضى مـا في العبـد من طغيـان دعـوى العلـو والكبريـاء وهي من صفـات الربوبية . وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السبعية فإنـه يقتضي أن يمزق غيره ويقصمـه ويصدمه ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان ، وإنما قوّتها المراء والجـدال . فـالمواظب

على المراء والجدال مقوّ لهذه الصفات المهلكة ، وهذا مجاوز حد الكراهة بل هو معصية مهما حصل فيه إيذاء الغير . ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه على أن يعود فينصر كلامه بما يمكنه من حق أو باطل ، ويقدح في قائله بكل ما يتصوّر له : فيثور الشجار بين المتماريين كما يثور الهراش بين الكلبين ، يقصد كل واحد منهما أن يعض صاحبه بما هو أعظم نكاية وأقوى في إفحامه وإلجامه .

وأما علاجه : فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره . إنّ علاج كل علة بإماطة سببها . وسبب المراء والجدال ما ذكرناه ، ثم المواظبة عليه تجعله عادة وطبعاً حتى يتمكن من النفس ويعسر الصبر عنه . روي أن أبا حنيفة رحمة الله عليه قال لداود الطائي : لم آثرت الانزواء ؟ قال : لأجاهد نفسي بترك الجدال ، فقال : احضر المجالس واستمع ما يقال ولا تتكلم ، قال : ففعلت ذلك فما رأيت مجاهدة أشدّ عليّ منها . وهو كما قال لأن من سمع الخطأ من غيره وهو قادر على كشفه يعسر عليه الصبر عند ذلك جداً . ولذلك قال ﷺ : « من ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة » لشدة ذلك على النفس وأكثر ما يغلب ذلك في المذاهب والعقائد . فإن المراء طبع ؛ فإذا ظن أن له عليه ثواباً اشتد عليه حرصه ، وتعاون الطبع والشرع عليه ، وذلك خطأ محض [إلا في ردّ المذاهب والعقائد الضالة والباطلة] بل ينبغي للإنسان أن يكف لسانه عن أهل القبلة ، وإذا رأى مبتدعاً تلطف في نصحه في خلوة [إلا إذا كان ينشر بدعته في الملأ ويخشى على السامعين وهو يستطيع الردّ وإلا فإنه ينصحه بينه وبينه] لا بطريق الجدال فإن الجدال يخيل إليه أنها حيلة منه في التلبيس وأن ذلك صنعة يقدر المجادلون من أهل مذهبه على أمثالها لو أرادوا ، فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد ، فإذا عرف أن النصح لا ينفع اشتغل بنفسه وتركه ، وكل من اعتاد المجادلة مدة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزّاً وقبولاً قويت فيه هذه المهلكات ولا يستطيع عنها نزوعاً إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزّز بالفضل . وآحاد هذه الصفات يشقّ مجاهدتها فكيف بمجموعها ؟ .

☆ ☆ ☆

الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؛ فالمراء طعن في كلام الغير بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير ، وإظهار مزية الكياسة . والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها . والخصومة لجاج في الكلام ليستوفى به مال أو حق مقصود ، وذلك تارة يكون ابتداء وتارة يكون اعتراضاً . والمراء لا يكون إلا باعتراض على كلام سبق .

فقد قالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله ﷺ : « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »[1] وقال بعضهم : إياك والخصومة فإنها تمحق الدين . ويقال : ما خاصم ورع قط في الدين . وقال ابن قتيبة : مر بي بشر بن عبد الله بن أبي بكرة فقال : ما يجلسك ههنا ؟ قلت : خصومة بيني وبين ابن عم لي ، فقال : إن لأبيك عندي يداً وإني أريد أن أجزيك بها ، وإني والله ما رأيت شيئاً أذهب للدين ولا أنقص للمرءوة ولا أضيع للذة ولا أشغل للقلب من الخصومة ؟ قال : فقمت لأنصرف فقال لي خصمي : ما لك ؟ قلت : لا أخاصمك ، قال : إنك عرفت أن الحق لي ، قلت : لا ولكن أكرم نفسي عن هذا قال : فإني لا أطلب منك شيئاً هو لك .

فإن قلت : فإذا كان للإنسان حق فلابد له من الخصومة في طلبه أو في حفظه مهما ظلم فكيف يكون حكمه وكيف تذم خصومته ؟ فاعلم أن هذا الذم يتناول الذي يخاصم بالباطل والذي يخاصم بغير علم ؛ مثل وكيل القاضي (المحامي) فإنه قبل أن يتعرف أن الحق في أي جانب هو يتوكل في الخصومة من أي جانب كان ؛ فيخاصم بغير علم ويتناول الذي يطلب حقه ، ولكنه لا يقتصر على قدر الحاجة بل يظهر اللدد في الخصومة على قصد التسلط أو على قصد الإيذاء لقهر الخصم وكسره مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول : إنما قصدي عناده وكسر عرضه ، وإني إن أخذت منه المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي . وهذا مقصوده اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً . فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد إليه سبيلاً ، فإن ضبط اللسان في

---

(١) أخرجه البخاري .

الخصومة على حد الاعتدال متعذر ، والخصومة توغر الصدر وتهيّج الغضب ، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين ، حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه ، فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات ، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه فلا يبقى الأمر على حد الواجب ، فالخصومة مبدأ كل شر . وكذا المراء والجدال ، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة ، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة وذلك متعذر جداً ، فمن اقتصر على الواجب في خصومته سلم من الإثم ولا تذم خصومته ، إلا أنه أقل ما يفوته في الخصومة والمراء والجدال طيب الكلام وما ورد فيه من الثواب ؛ إذ أقل درجات طيب الكلام إظهار الموافقة ، ولا خشونة في الكلام أعظم من الطعن والاعتراض الذي حاصله إما تجهيل وإما تكذيب ، فإن من جادل غيره أو ماراه أو خاصمه فقد جهّله أو كذّبه فيفوت به طيب الكلام . وقد قال ﷺ : « يمكّنكم من الجنة طيب الكلام وإطعام الطعام »[1] وقد قال الله تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسناً** ﴾ (البقرة : ٨٤) وقال ابن عباس رضي الله عنهما : من سلّم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان مجوسياً إن الله تعالى يقول : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيُّوا بأحسن منها أو ردوها** ﴾ (النساء : ٨٦) وقال ابن عباس أيضاً : لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه [أي بما يقابله من خير] . وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « إن في الجنة لغرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام وألان الكلام »[2] وقال نبينا عليه الصلاة والسلام : « الكلمة الطيبة صدقة »[3] وقال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجد فبكلمة طيبة »[4] وقال عمر رضي الله عنه : البر شيء هين وجه طليق وكلام لين . وقال بعض الحكماء : الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح . وقال بعض الحكماء : كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك فلا تكن به عليه بخيلاً ، فإنه لعله يعوضك منه ثواب المحسنين . وهذا كله في فضل الكلام الطيب وتضاده الخصومة والمراء والجدال واللجاج ، فإنه الكلام المستكره الموحش المؤذي للقلب المنغص للعيش المهيج للغضب الموغر للصدر . نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه .

---

(١) الطبراني بإسناد جيد : « يوجب الجنة إطعام الطعام وحسن الكلام » .

(٢) أخرجه الترمذي .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) متفق عليه .

الآفة السادسة : التقعُّر في الكلام

التقعر في الكلام بالتشدق ، وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه بالتشبيهات والمقدّمات وما جرت به عادة المتفاصحين المدّعين للخطابة . كل ذلك من التصنع المذموم ومن التكلف الممقوت الذي قال فيه رسول الله ﷺ : « أنا وأتقياء أمتي براء من التكلف » وقال ﷺ : « إن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني مجلساً الثرثارون المتفيهقون المتشدقون في الكلام »[١] وقال ﷺ : « ألا هلك المتنطعون ـ ثلاث مرات ـ »[٢] والتنطع : هو التعمق والاستقصاء . وقال عمر رضي الله عنه : شقاشق الكلام من شقاشق الشيطان . وجاء عمر بن سعد بن أبي وقاص إلى أبيه سعد يسأله حاجة ، فتكلم بين يدي حاجته بكلام فقال له سعد : ما كنت من حاجتك بأبعد منك اليوم ! إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يأتي على الناس زمان يتخللون الكلام بألسنتهم كما تتخلل البقرة الكلأ بلسانها »[٣] وكأنه أنكر عليه ما قدمه على الكلام من التشبيب والمقدمة المصنوعة المتكلفة . وهذا أيضاً من آفات اللسان ، ويدخل فيه كل سجع متكلف ، وكذلك التفاصح الخارج عن حدّ العادة . وكذلك التكلف بالسجع في المحاورات إذ قضى رسول الله ﷺ بغرّة في الجنين فقال بعض قوم الجاني : كيف ندري من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل ومثل ذلك بطل ؟ فقال : « أسجعاً كسجع الأعراب »[٤] وأنكر ذلك لأن أثر التكلف والتصنع بيّن عليه ، بل ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض وما وراء ذلك تصنع مذموم . ولا يدخل في هذه تحسين ألفاظ الخطابة والتذكير من غير إفراط وإغراب ، فإن المقصود منها تحريك القلوب وتشويقها وقبضها وبسطها ، فلرشاقة اللفظ تأثير فيه فهو لائق به . فأما المحاورات التي تجري لقضاء الحاجات فلا يليق بها السجع والتشديق والاشتغال به من التكلف المذموم ، ولا باعث عليه إلا الرياء وإظهار الفصاحة والتميز بالبراعة وكل ذلك مذموم يكرهه الشرع ويزجر عنه .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه أحمد وهو عند الترمذي وحسنه بلفظ : « إن أبغضكم إليّ ... »

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) رواه أحمد .

(٤) أخرجه مسلم .

الآفة السابعة : الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهيّ عنه ومصدره الخبث واللؤم . قال ﷺ : « إياكم والفحش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش »[١] ونهى رسول الله ﷺ عن أن تسب قتلى بدر من المشركين فقال : « لا تسبوا هؤلاء فإنه لا يخلص إليهم شيء مما تقولون وتؤذون الأحياء ألا إن البذاء لؤم »[٢] وقال ﷺ : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء »[٣] وقال ﷺ : « البذاءة والبيان شعبتان من شعب النفاق »[٤] فيحتمل أن يراد بالبيان كشف ما لا يجوز كشفه ، ويحتمل أيضاً المبالغة في الإيضاح حتى ينتهي إلى حدّ التكلف ، ويحتمل أيضاً البيان في أمور الدين وفي صفات الله تعالى ، فإن إلقاء ذلك مجملاً إلى أسماع العوام أولى من المبالغة في بيانه ؛ إذ قد يثور من غاية البيان فيه شكوك ووساوس فإذا أجملت بادرت القلوب إلى القبول ولم تضطرب ، ولكن ذكره مقروناً بالبذاء يشبه أن يكون المراد به المجاهرة بما يستحي الإنسان من بيانه ، فإن الأولى في مثله الإغماض والتغافل دون الكشف والبيان ، وقال ﷺ : « إن الله لا يحب الفاحش والمتفحش »[٥] وقال جابر بن سمرة : كنت جالساً عند النبي ﷺ وأبي أمامي فقال ﷺ : « إن الفحش والتفاحش ليسا من الإسلام في شيء ، وإن أحسن الناس إسلاماً أحاسنهم أخلاقاً »[٦] وقال الأحنف بن قيس : ألا أخبركم بأدوإ الداء : اللسان البذيء والخلق الدنيء ، فهذه مذمة الفحش . فأما حدّه وحقيقته : فهو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة فاحشة يستعملونها فيها ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها بل يكنون عنها . ويدلون عليها بالرموز فيذكرون ما يقاربها ويتعلق بها ، وقال ابن عباس : إن الله حيي كريم يعفو ويكنو ، ـ كنّى باللمس عن الجماع ـ فالمسيس واللمس والدخول والصحبة كنايات عن الوقاع وليست بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى والحاكم وصححه ورواه ابن حبان .

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا مرسلاً ورجاله ثقات .

(٣) أخرجه الترمذي بإسناد صحيح .

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه .

(٥) للطبراني وإسناده جيد .

(٦) أخرجه أحمد وابن أبي الدنيا بإسناد صحيح .

والتعبير ، وهذه العبارات متفاوتة في الفحش وبعضها أفحش من بعض . وربما اختلف ذلك بعادة البلاد وأوائلها مكروهة وأواخرها محظورة وبينهما درجات يتردد فيها ، وليس يختص هذا بالوقاع ، بل الكناية بقضاء الحاجة عن البول والغائط أولى من لفظ التغوّط والخراء وغيرهما ، فإن هذا أيضاً مما يخفى وكل ما يخفى يستحيا منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش ، وكذلك يستحسن في العادة الكناية عن النساء فلا يقال : زوجتك كذا بل يقال · قيل في الحجرة ، أو من وراء الستر ، أو قالت أم الأولاد ، فالتلطف في هذه الألفاظ محمود والتصريح فيها يفضي إلى الفحش ، وكذلك من به عيوب يستحيا منها فلا ينبغي أن يعبر عنها بصريح لفظها كالبرص والقرع والبواسير . بل يقال : العارض الذي يشكوه وما يجري مجراه ، فالتصريح بذلك داخل في الفحش وجميع ذلك من آفات اللسان . قال العلاء بن هرون : كان عمر بن عبد العزيز يتحفظ في منطقه . فخرج تحت إبطه خرّاج فأتيناه نسأله لنرى ما يقول ؟ فقلنا : من أين خرج ؟ فقال : من باطن اليد . والباعث على الفحش إما قصد الإيذاء وإما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب . قال أعرابي لرسول الله ﷺ : أوصني فقال : « عليك بتقوى الله وإن امرؤ عيّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيّره بشيء فيه يكن وباله عليه وأجره لك ولا تسبّن شيئاً » قال : فما سببت شيئاً بعده[1] وقال عياض ابن حمار : قلت يا رسول الله إن الرجل من قومي يسبني وهو دوني هل عليّ من بأس أن أنتصر منه ؟ فقال : « المتسابان شيطانان يتعاويان ويتهارجان »[2] . وقال ﷺ : « سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر »[3] وقال ﷺ : « المستبان ما قالا فعلى البادىء منهما حتى يعتدي المظلوم »[4] وقال ﷺ : « ملعون من سب والديه » وفي رواية « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه » قالوا يا رسول الله كيف يسب الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب الآخر أباه »[5] .

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني بإسناد جيد .

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي وأصله عند أحمد .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه أحمد وأبو يعلي والطبراني من حديث ابن عباس باللفظ الأول بإسناد جيد واتفق الشيخان على اللفظ الثاني من حديث عبد الله بن عمرو .

الآفة الثامنة : اللعن

إمـا لحيوان أو جماد أو إنسـان وكل ذلـك مـذموم . قـال رسـول الله ﷺ : « المؤمن ليس بلعان »[١] وقـال ﷺ : « لا تلاعنوا بلعنـة الله ولا بغضبـه ولا بجهنم »[٢] وقـال حـذيفـة : مـا تلاعن قوم قـط إلا حـق عليهم القـول وقـال عمران بن حصين : بينـما رسـول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ امرأة من الأنصار على ناقة لها فضجرت منها فلعنتها فقـال ﷺ : « خـذوا مـا عليهـا وأعروها فإنها ملعونة »[٣] وقال : فكأني أنظر إلى تلـك النـاقـة تمشي بين النـاس لا يتعرض لهـا أحد . وقال أبو الدرداء : ما لعن أحد الأرض إلا قالت : لعن الله أعصانا لله . وقـال رسول الله ﷺ : « إن اللعانين لا يكونون شفعـاء ولا شهـداء يوم القيـامـة »[٤] . وقـال أنس : كان رجل يسير مع رسول الله ﷺ على بعير فلعن بعيره فقال ﷺ : « يا عبـد الله لا تسر معنـا على بعير ملعون »[٥] وقال ذلك إنكاراً عليه . واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعـده من الله عز وجل وهو الكفر والظلم ، بـأن يقول : لعنـة الله على الظالمين وعلى الكافرين ، وينبغي أن يتبع فيه لفظ الشرع فـإن في اللعنـة خطراً لأنـه حكم على الله عز وجل بأنه قد أبعد الملعون وذلك غيب لا يطلع عليـه غير الله تعـالى ، ويطلع عليه رسول الله ﷺ إذا أطلعه الله عليه .

والصفات المقتضيـة للعن ثلاثـة : الكفر ، والبـدعـة ، والفسق . وللعن في كل واحـدة ثلاث مراتب .

الأولى : اللعن بالوصف الأعم كقولك : لعنة الله على الكافرين والمبتدعين والفسقة .

الثانيـة : اللعن بـأوصـاف أخص منـه كقولـك : لعنـة الله على اليهود والنصـارى والمجوس وعلى القـدريـة والخوارج والروافض ، أو على الزنـاة والظلمـة وآكلي الربـا ، وكل ذلـك جـائز . ولكن في لعن أوصاف المبتدعـة خطر لأن معرفـة البـدعـة غـامضـة ولم يرد فيـه لفـظ مـأثور ،

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه .

(٢) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح .

(٣) رواه مسلم .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد جيد .

فينبغي أن يمنع منه العوام لأن ذلك يستدعي المعارضة بمثله ويثير نزاعاً بين الناس وفساداً .

الثالثة : اللعن للشخص المعين وهذا فيه خطر كقولك : زيد لعنه الله ، وهو كافر أو فاسق أو مبتدع ، والتفصيل فيه أن كل شخص ثبتت لعنته شرعاً فتجوز لعنته كقولك : فرعون لعنه الله ، وأبو جهل لعنه الله ، لأنه قد ثبت أن هؤلاء ماتوا على الكفر وعرف ذلك شرعاً . وأما شخص بعينه في زماننا كقولك : زيد لعنه الله ، وهو يهودي مثلاً فهذا فيه خطر فإنه ربّما يسلم فيموت مقرباً عند الله فكيف يحكم بكونه ملعوناً ؟ فإن قلت : يلعن لكونه كافراً في الحال كما يقال للمسلم : رحمه الله ، لكونه مسلماً في الحال ، وإن كان يتصور أن يرتد ؟ فاعلم أن معنى قولنا : رحمه الله ، أي ثبته الله على الإسلام الذي هو سبب الرحمة وعلى الطاعة ، ولا يمكن أن يقال : ثبت الله الكافر على ما هو سبب اللعنة فإن هذا سؤال للكفر وهو في نفسه كفر ، بل الجائز أن يقال : لعنه الله إن مات على الكفر ، ولا لعنه الله إن مات على الإسلام . وذلك غيب لا يدرى ، والمطلق متردد بين الجبهتين ففيه خطر ، وليس في ترك اللعن خطر . وإذا عرفت هذا في الكافر فهو في زيد الفاسق أو زيد المبتدع أولى ، فلعن الأعيان فيه خطر لأن الأعيان تتقلب في الأحوال إلا من أعلم به رسول الله ﷺ فإنه يجوز أن يعلم من يموت على الكفر ، ولذلك عيّن قوماً باللعن يقول في دعائه على قريش : « اللهم عليك بأبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة »[١] وذكر جماعة قتلوا على الكفر حتى إن من لم يعلم عاقبته كان يلعنه فنهي عنه إذ روي أنه كان يلعن الذين قتلوا أصحاب بئر معونة في قنوته شهراً فنزل قوله تعالى : ﴿ **ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** ﴾[٢] يعني : أنهم ربما يسلمون فمن أين تعلم أنهم ملعونون ؟ وكذلك من بان لنا موته على الكفر جاز لعنه وجاز ذمه إن لم يكن فيه أذى على مسلم ، فإن كان لم يجز ، كما روي أن رسول الله ﷺ سأل أبا بكر رضي الله عنه عن قبر مر به وهو يريد الطائف فقال : هذا قبر رجل كان عاتياً على الله ورسوله وهو سعيد بن العاص ، فغضب ابنه عمرو بن سعيد وقال : يا رسول الله هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب للهام من أبي قحافة فقال أبو بكر : يكلمني هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام ؟ فقال ﷺ : « اكفف عن أبي بكر » فانصرف ثم أقبل على

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الشيخان .

أبي بكر فقال : « يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء » فكف الناس عن ذلك[١] . وشرب بعضهم الخمر فحده رسول الله ﷺ فقال بعض الصحابة . لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به فقال ﷺ : « لا تكن عوناً للشيطان على أخيك »[٢] وفي رواية « لا تقل هذا فإنه يحب الله ورسوله » فنهاه عن ذلك ، وهذا يدل على أن لعن فاسق بعينه غير جائز . وعلى الجملة ففي لعن الأشخاص خطر فليجتنب فلا يجوز أن يرمى مسلم بفسق أو كفر من غير تحقيق . قال ﷺ : « لا يرمي رجل رجلاً بالكفر ولا يرميه بالفسق إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك »[٣] .

وهذا معناه أن يكفّره وهو يعلم أنه مسلم فإن ظن أنه كافر ببدعة أو غيرها كان مخطئاً لا كافراً . وقال معاذ : قال لي رسول الله ﷺ : « أنهاك أن تشتم مسلماً أو تعصي إماماً عادلاً ، والتعرض للأموات أشدّ »[٤] قال مسروق : دخلت على عائشة رضي الله عنها فقالت : ما فعل فلان لعنه الله ؟ قلت : توفي ، قالت : رحمه الله ، قلت : وكيف هذا ؟ قالت : قال رسول الله ﷺ : « لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا »[٥] وقال عليه الصلاةوالسلام : « لا تسبوا الأموات فتؤذوا به الأحياء »[٦] وقال عليه الصلاة والسلام : « أيها الناس احفظوني في أصحابي أيها الناس إذا مات الميت فاذكروا منه خيراً »[٧] .

وإنما أوردنا هذا لتهاون الناس باللعنة وإطلاق اللسان بها . والمؤمن ليس بلعان فلا ينبغي أن يطلق اللسان باللعنة إلا على من مات على الكفر ، أو على الأجناس المعروفين بأوصافهم دون الأشخاص المعينين . فالاشتغال بذكر الله أولى فإن لم يكن ففي السكوت سلامة .

وقال رجل لرسول الله ﷺ : أوصني . فقال : « أوصيك أن لا تكون لعاناً »[٨] وقال ابن

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) أخرجه الترمذي ورجاله ثقات .

(٧) وللشيخين من حديث أبي سعيد وأبي هريرة « لا تسبوا أصحابي » ، وللنسائي من حديث عائشة « لا تذكروا موتاكم إلا بخير » وإسناده جيد .

(٨) أخرجه أحمد والطبراني وابن أبي عاصم .

عمر : إن أبغض الناس إلى الله كل طعّان لعّان . وقال بعضهم : لعن المؤمن يعدل قتله ، وقال حماد بن زيد بعد أن روى هذا : لو قلت إنه مرفوع لم أبال ؟ وعن أبي قتادة قال : كان يقال : « من لعن مؤمناً فهو مثل أن يقتله »[1] وقد نقل ذلك حديثاً مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ .

☆ ☆ ☆

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

أما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التجرّد له مذموم . قال رسول الله ﷺ : « لأن يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يريه خير له من أن يمتلىء شعراً »[2] [أقول : هذا محمول على نوع من الشعر الفاسد المعنى] وعن مسروق أنه سئل عن بيت من الشعر فكرهه فقيل له في ذلك فقال : أنا أكره أن يوجد في صحيفتي شعر . وسئل بعضهم عن شيء من الشعر فقال : اجعل مكان هذا ذكراً فإن ذكر الله خير من الشعر. وعلى الجملة فإنشاد الشعر ونظمه ليس بحرام إذا لم يكن فيه كلام مستكره قال ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » نعم مقصود الشعر المدح والذم والتشبيب ، وقد يدخله الكذب ، وقد أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت الأنصاري بهجاء الكفار[3] ، والتوسع في المدح فإنه وإن كان كاذباً فإنه لا يلتحق في التحريم بالكذب كقول الشاعر :

ولو لم يكن في كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بنهاية السخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخياً كان كاذباً ، وإن كان سخياً فالمبالغة من صنعة الشعر فلا يقصد منه أن يعتقد صورته . وقد أنشدت أبيات بين يدي رسول الله ﷺ لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه .

☆ ☆ ☆

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) متفق عليه .

الآفة العاشرة : المزاح

وأصله مذموم منهي عنه إلا قدراً يسيراً يستثنى منه قال ﷺ : « لا تمار أخاك ولا تمازحه »[١] فإن قلت : المماراة فيها إيذاء لأنّ فيها تكذيباً للأخ والصديق أو تجهيلاً له ، وأما المزاح فمطايبة وفيه انبساط وطيب قلب فلم ينهى عنه ؟ فاعلم أنّ المنهيّ عنه الإفراط فيه أو المداومة عليه . أما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل فيه واللعب مباح ولكن المواظبة عليه مذمومة ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وتورث الضغينة في بعض الأحوال ، وتسقط المهابة والوقار . فما يخلو عن هذه الأمور فلا يذم كما روي عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح فإنّ غرضه أن يضحك الناس كيفما كان . وقد قال رسول الله ﷺ : « إنّ الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها في النار أبعد من الثريا » وقال عمر رضي الله عنه : من كثر ضحكه قلّت هيبته ، ومن مزح استخف به ، ومن قلّ ورعه مات قلبه . ولأنّ الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة قال ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً »[٢] .

ونظر وهيب بن الورد إلى قوم يضحكون في عيد فطر فقال : إن كان هؤلاء قد غفر لهم فما هذا فعل الشاكرين ؟ وإن كان لم يغفر لهم فما هذا فعل الخائفين ؟ وكان عبد الله بن أبي يعلى يقول : أتضحك ولعل أكفانك قد خرجت من عند القصار ؟ وقال محمد بن واسع : إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي ألست تعجب من بكائه ؟ قيل : بلى ، قال : فالذي يضحك في الدنيا ولا يدري إلى ماذا يصير هو أعجب منه ، فهذه آفة الضحك والمذموم منه أن يستغرق ضحكاً ، والمحمود منها التبسم الذي ينكشف فيه السنّ ولا يسمع له صوت . وكذلك كان ضحك رسول الله ﷺ[٣] .

وأما أداء المزاح إلى سقوط الوقار فقد قال عمر رضي الله عنه : من مزح استخف به . وقال محمد بن المنكدر : قالت لي أمي يا بني لا تمازح الصبيان فتهون عندهم . وقال سعيد بن العاص

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) متفق عليه .

(٣) معناه في مسلم .

لابنـه : يـا بني لا تمـازح الشريف فيحقـد عليـك ولا الـدنيء فيجترىء عليـك . وقـال عمر بـن عبد العزيز رحمه الله تعالى : اتقوا الله وإيـاكم والمزاح فـإنـه يورث الضغينـة ويجرّ إلى القبيح ، تحدّثوا بالقرآن وتجالسوا به فإن ثقل عليكم فحديث حسن من حديث الرجال . وقـال عمر رضي الله عنه : أتـدرون لم سمي المزاح مزاحـاً ؟ قـالوا : لا ، قـال : لأنـه أزاح صـاحبـه عن الحق . وقيل : لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح . ويقال : المزاح مسلبة للنُّهى مقطعة للأصدقاء .

فإن قلت : قد نقل المزاح عن رسول الله ﷺ وأصحابه فكيف ينهى عنـه ؟ فـأقول : إن قدرت على ما قدر عليه رسول الله ﷺ وأصحابه وهو أن تمزح ولا تقول إلا حقاً ولا تؤذي قلباً ولا تُفرط فيه وتقتصر عليه أحياناً على الندور فلا حرج عليـك فيـه ، ولكن من الغلـط العظيم أن يتخـذ الإنسـان المزاح حرفـة يواظب عليـه ويفرط فيـه ثم يتمسـك بفعل الرسول ﷺ وهـو خطأ إذ من الصغائر ما يصير كبيرة بالإصرار ، ومن المباحـات مـا يصير صغيرة بـالإصرار ، فلا ينبغي أن يغفل عن هذا نعم روى أبو هريرة أنهم قالوا يا رسول الله إنك تداعبنا فقـال : « إني وإن داعبتكم لا أقول إلا حقاً »[1] . وقال أنس : إن النبي ﷺ كان من أفكه النـاس مع نسـائـه روي أنه كان كثير التبسم وقال زيد بن أسلم : إن امرأة يقال لهـا أم أيمن جـاءت إلى النبي ﷺ فقالت : إن زوجي يدعوك ، قـال : « ومن هو أهو الـذي بعينـه بيـاض ؟ » قـالت : والله مـا بعينه بياض ! فقال : « بلى إن بعينه بياضاً » فقالت : لا والله . فقال ﷺ : « ما من أحـد إلا وبعينه بياض » وأراد به البياض المحيط بالحدقة[2] وجـاءت امرأة أخرى فقـالت : يـا رسول الله احملني على بعير ، فقال : « بل نحملك على ابن البعير » فقـالت : مـا أصنع بـه إنـه لا يحملني . فقـال ﷺ : « مـا من بعير إلا وهو ابن بعير »[3] فكان يمزح بـه وقـال أنس : كان لأبي طلحـة ابن يقـال لـه أبو عمير وكان رسول الله ﷺ يـأتيهم ويقول : « يـا أبـا عمير مـا فعل النغير »[4] لنغير كان يلعب به وهو فرخ العصفور .

وقالت عائشة رضي الله عنها : سـابقني رسول الله ﷺ فسبقتـه ، فلمـا حملت اللحم سـابقني

---

(١) أخرجه الترمذي وحسنه .

(٢) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة والمزاح ورواه ابن أبي الدنيا من حديث عبيدة بن سهم الفهري مع اختلاف .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه .

(٤) متفق عليه .

فسبقني ، وقال : « هذه بتلك »[١] وقالت أيضاً رضي الله عنها : كان عندي رسول الله ﷺ وسودة بنت زمعة فصنعت حريرة وجئت به فقلت لسودة : كلي ، فقالت : لا أحبه ، فقلت : والله لتأكلين أو لألطخن به وجهك ، فقالت : ما أنا بذائقته ، فأخذت بيدي من الصحفة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله ﷺ جالس بيني وبينها ، فخفض لها رسول الله ﷺ ركبتيه لتستقيد مني فتناولت من الصحفة شيئاً فمسحت به وجهي وجعل رسول الله ﷺ يضحك[٢] . وروى علقمة عن أبي سلمة أنه كان ﷺ يدلع لسانه للحسن بن عليّ رضي الله عنهما فيرى الصبي لسانه فيهش له[٣] وعندما ذكر له الأقرع بن حابس أنه لا يقبّل ولده ، قال ﷺ : « إنّ من لا يرحم لا يُرحَم »[٤] فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل وقال ﷺ مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكل تمراً : « أتأكل التمر وأنت رمد ؟ » فقال : إنما آكل بالشق الآخر يا رسول الله فتبسم ﷺ[٥] قال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه . وروي أن خوّات بن جبير الأنصاري كان جالساً إلى نسوة من بني كعب بطريق مكة فطلع عليه رسول الله ﷺ فقال : « يا أبا عبد الله ما لك مع النسوة ؟ » فقال : يفتلن ضفيراً لجمل لي شرود ، قال : فمضى رسول الله ﷺ لحاجته ثم عاد فقال : « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ » قال : فسكت واستحييت وكنت بعد ذلك أتفرّر منه كلما رأيته حياء منه ، حتى قدمت المدينة وبعد ما قدمت المدينة قال : فرآني في المسجد يوماً أصلي فجلس إليّ فطوّلت فقال : « لا تطوّل فإني أنتظرك » فلما سلمت قال : « يا أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ » قال : فسكت واستحييت ، فقام وكنت بعد ذلك أتفرّر منه حتى لحقني يوماً وهو على حمار وقد جعل رجليه في شق واحد فقال : « أبا عبد الله أما ترك ذلك الجمل الشراد بعد ؟ » فقلت : والذي بعثك بالحق ما شرد منذ أسلمت فقال : « الله أكبر الله أكبر اللهم اهد أبا عبد الله » قال : فحسن إسلامه وهداه الله[٦] .

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه .

(٢) أخرجه الزبير بن بكار في كتاب الفكاهة وأبو يعلى بإسناد جيد .

(٣) أخرجه أبو يعلى من هذا الوجه .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه ابن ماجه والحاكم ورجاله ثقات .

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات .

فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الدوام والمواظبة عليها هزل مذموم وسبب للضحك المميت للقلب .

☆ ☆ ☆

الآفة الحادية عشرة : السخرية والاستهزاء

وهذا محرم مهما كان مؤذياً كما قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خير منهنّ** ﴾ (الحجرات : ١١) ومعنى السخرية الاستهانة والتحقير والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه . وقد يكون ذلك بالمحاكاة في الفعل والقول ، وقد يكون بالإشارة والإيماء ، وإذا كان بحضرة المستهزأ به لم يسم ذلك غيبة وفيه معنى الغيبة . قالت عائشة رضي الله عنها : حاكيت إنساناً فقال لي النبي ﷺ : « والله ما أحب أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا »[١] وقال ابن عباس في قوله تعالى حكاية عن المجرمين : ﴿ **يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾ (الكهف : ٤٩) إن الصغيرة التبسم بالاستهزاء بالمؤمن . والكبيرة القهقهة بذلك . وهذا إشارة إلى أن الضحك على الناس من جملة الذنوب والكبائر . وعن عبد الله بن زمعة أنه قال سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب فوعظهم في ضحكهم من الضرطة فقال : « علام يضحك أحدكم مما يفعل »[٢] وقال معاذ بن جبل : قال النبي ﷺ : « من عيّر أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله »[٣] . وكل هذا يرجع إلى استحقار الغير والضحك عليه استهانة واستصغاراً له . وعليه نبه قوله تعالى : ﴿ **عسى أن يكونوا خيراً منهم** ﴾ أي لا تستحقره استصغاراً فلعله خير منك .

وهذا إنما يحرم في حق من يتأذّى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وربما فرح من أن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح ـ وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ـ وإنما المحرم استصغار يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون . وذلك تارة بأن يضحك على

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وصححه .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

كلامه إذا تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته ، أو على صورته وخلقته إذا كان قصيراً أو ناقصاً لعيب من العيوب . فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهيّ عنها .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهيّ عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي ﷺ : « إذا حدث الرجل الحديث ثم التفت فهي أمانة »[١] وقال الحسن : إن من الخيانة أن تحدّث بسر أخيك . ويروى أن معاوية رضي الله عنه أسر إلى الوليد بن عتبة حديثاً فقال لأبيه : يا أبت إن أمير المؤمنين أسرّ إليّ حديثاً وما أراه يطوي عنك ما بسطه إلى غيرك ؟ قال : فلا تحدثني به فإن من كتم سره كان الخيار إليه ، ومن أفشاه كان الخيار عليه . قال : فقلت يا أبت وإن هذا ليدخل بين الرجل وبين ابنه ؟ فقال : لا والله يا بني ولكن أحب أن لا تذلل لسانك بأحاديث السر ، قال : فأتيت معاوية فأخبرته فقال : يا وليد أعتقك أبوك من رق الخطأ . فإفشاء السر خيانة وهو حرام إذا كان فيه إضرار . ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

الآفة الثالثة عشرة : الوعد الكاذب

فإن اللسان سبّاق إلى الوعد ، ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** ﴾ (المائدة : ١) وقال ﷺ العدة عطية[٢] ، وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال : ﴿ **إنه كان صادق الوعد** ﴾ (مريم : ٥٤) ، ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال : إنه كان خطب إلى ابنتي رجل من قريش وقد كان إليه مني شبه الوعد ، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق ! أشهدكم أني قد زوجته ابنتي . وقيل لإبراهيم : الرجل يواعد الرجل الميعاد فلا يجيء ، قال : ينتظره إلى أن يدخل وقت الصلاة التي تجيء .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث قباث بن أشيم بسند ضعيف وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود ورواه ابن أبي الدنيا في الصمت والخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث الحسن مرسلاً .

وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا ويقول : إن شاء الله ، وهو الأولى . ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلابد من الوفاء إلا أن يتعذر ، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق . قال أبو هريرة : قال النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان »[١] وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « أربع من كن فيه كان منافقاً ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر »[٢] وهذا ينزل على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر ، فأما من عزم على الوفاء فعنّ له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغي أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة حاجزة .

الآفة الرابعة عشرة : الكذب في القول واليمين

وهو من قبائح الذنوب وفواحش العيوب . قال إسماعيل بن واسط : سمعت أبا بكر الصديق رضي الله عنه يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال : قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا عام أوّل ـ ثم بكى ـ قال : « إن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[٣] . وقال الحسن : كان يقال : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية ، والقول والعمل ، والمدخل والمخرج ، وإن الأصل الذي بني عليه النفاق الكذب . وقال عليه الصلاة والسلام : « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب »[٤] وقال ابن مسعود : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يزال العبد يكذب ويتحرّى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[٥] .

وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « إن التجار هم الفجار ، فقيل : يا رسول

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد .

(٥) متفق عليه .

الله أليس أحل الله البيع ؟ قال : نعم ولكنهم يحلفون فيأثمون ويحدثون فيكذبون »[١] وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ثلاثة نفر لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم : المنان بعطيته ، والمنفق سلعته بالحلف الفاجر ، والمسبل إزاره »[٢] وقال ﷺ : « ما حلف حالف بالله فأدخل فيها مثل جناح بعوضة إلا كانت نكتة في قلبه إلى يوم القيامة »[٣] وقال أبو ذر قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة يحبهم الله : رجل كان في فئة فنصب نحره حتى يقتل أو يفتح الله عليه وعلى أصحابه ، ورجل كان له جار سوء يؤذيه فصبر على أذاه حتى يفرق بينهما موت أو ظعن ، ورجل كان معه قوم في سفر أو سرية فأطالوا السرى حتى أعجبهم أن يمسوا الأرض فنزلوا . فتنحى يصلي حتى يوقظ أصحابه للرحيل . وثلاثة يشنؤهم الله : التاجر أو البياع الحلاف ، والفقير المختال ، والبخيل المنان »[٤] وقال ﷺ : « ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم ويل له ويل له »[٥] وقال ﷺ : « رأيت كأن رجلاً جاءني فقال : لي قم فقمت معه ، فإذا أنا برجلين أحدهما قائم والآخر جالس ، بيد القائم كلوب من حديد يلقمه في شدق الجالس فيجذبه حتى يبلغ كاهله ، ثم يجذبه فيلقمه الجانب الآخر فيمدّه فإذا مدّه رجع الآخر كما كان ، فقلت للذي أقامني ما هذا ؟ فقال : هذا رجل كذاب يعذب في قبره إلى يوم القيامة »[٦] .

وقال صلى الله تعالى عليه وآله وسلم : « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل مستكبر »[٧] وقال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله ﷺ إلى بيتنا وأنا صبي صغير فذهبت لألعب فقالت أمي : يا عبد الله تعال حتى أعطيك فقال ﷺ : « ما أردت أن تعطيه ؟ » قالت : تمراً ، فقال : « أما إنك لو لم تفعلي لكتبت عليك كذبة »[٨] وقال ﷺ : « لو أفاء الله عليّ نعماً عدد هذا الحصى لقسمتها بينكم ثم لا

---

(١) أخرجه أحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد .
(٢) أخرجه مسلم .
(٣) أخرجه الترمذي والحاكم وصحح إسناده .
(٤) أخرجه أحمد ، وإسناده جيد .
(٥) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي .
(٦) أخرجه البخاري .
(٧) رواه مسلم .
(٨) رواه أبو داود وله شاهد .

تجدوني بخيلاً ولا كذاباً ولا جباناً »(١) وقال ﷺ وكان متكئاً : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين » ثم قعد وقال : « ألا وقول الزور »(٢) وقال ابن عمر : قال رسول الله ﷺ : « إن العبد ليكذب الكذبة ليتباعد الملك عنه مسيرة ميل من نتن ما جاء به »(٣) وقال أنس : قال النبي ﷺ : « تقبّلوا إليّ بست أتقبّل لكم بالجنة » فقالوا : وما هن ؟ قال : « إذا حدث أحدكم فلا يكذب ، وإذا وعد فلا يخلف ، وإذا ائتمن فلا يخن ، وغضوا أبصاركم ، واحفظوا فروجكم ، وكفوا أيديكم »(٤) .

وخطب عمر رضي الله عنه يوماً فقال : قام فينا رسول الله ﷺ كقيامي هذا فيكم فقال : « أحسنوا إلى أصحابي ثم الذين يلونهم ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل على اليمين ولم يستحلف ويشهد ولم يستشهد »(٥) وقال النبي ﷺ : « من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين »(٦) وقال ﷺ : « من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق له لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان »(٧) وقالت عائشة رضي الله عنها : ما كان من خلق أشدّ على أصحاب رسول الله ﷺ من الكذب ولقد كان رسول الله ﷺ يطلع على الرجل من أصحابه على الكذب فما ينجلي من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث توبة لله عز وجل منها(٨) . وقال أبو بكر رضي الله عنه في خطبة بعد وفاة رسول الله ﷺ : قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامي هذا عام أول ـ ثم بكى ـ وقال : « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهما في الجنة »(٩) .

وأما الآثار : فقد قال عليّ رضي الله عنه : أعظم الخطايا عند الله الكذب ، وشر الندامة

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .

(٤) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٥) أخرجه الترمذي وصححه والنسائي في الكبرى .

(٦) أخرجه مسلم .

(٧) متفق عليه .

(٨) أخرجه أحمد ورجاله ثقات .

(٩) أخرجه ابن ماجه والنسائي في اليوم والليلة .

ندامة يوم القيامة . وقال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه : ما كذبت كذبة منذ شددت عليّ إزاري . وقال عمر رضي الله عنه : أحبكم إلينا ما لم نركم أحسنكم اسماً ، فإذا رأيناكم فأحبكم إلينا أحسنكم خلقاً ، فإذا اختبرناكم فأحبكم إلينا أصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة . وعن ميمون بن أبي شبيب قال : جلست أكتب كتاباً فأتيت على حرف إن أنا كتبته زينت الكتاب وكنت قد كذبت ، فعزمت على تركه فنوديت من جانب البيت : ﴿ **يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة** ﴾ (إبراهيم : ٢٧) . وقال ابن السماك : ما أراني أوجر على ترك الكذب لأني إنما أدعه أنفة . وقيل لخالد بن صبيح : أيسمّى الرجل كاذباً بكذبة واحدة ؟ قال : نعم . وقال مالك بن دينار : الصدق والكذب يعتركان في القلب حتى يخرج أحدهما صاحبه وكلّم عمر بن عبد العزيز الوليد بن عبد الملك في شيء فقال له : كذبت ، فقال عمر : والله ما كذبت منذ علمت أن الكذب يشين صاحبه .

بيان ما رخّص فيه من الكذب

اعلم أن الكذب ليس حراماً لعينه بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، فإن أقل درجاته أن يعتقد المخبر الشيء على خلاف ما هو عليه فيكون جاهلاً ، وقد يتعلق به ضرر غيره ، ورب جهل فيه منفعة ومصلحة ، فالكذب محصل لذلك الجهل فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً .

قال ميمون بن مهران : الكذب في بعض المواطن خير من الصدق ، أرأيت لو أن رجلاً سعى خلف إنسان بالسيف ليقتله فدخل داراً فانتهى إليك فقال : أرأيت فلاناً ؟ ما كنت قائلاً ؟ ألست تقول : لم أره ؟ وما تصدق به . وهذا الكذب واجب .

فنقول : الكلام وسيلة إلى المقاصد ، فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب إن كان المقصود واجباً ، كما أن عصمة دم المسلم واجبة . فمها كان في الصدق سفك دم امرىء مسلم قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب . ومهما كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين واستمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح ، إلا أنه ينبغي أن يتحرز عنه ما أمكن ، لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه

فيخشى أن يتداعى إلى ما يستغني عنه وإلى ما لا يقتصر على حدّ الضرورة ، فيكون الكذب حراماً في الأصل إلا لضرورة .

والذي يدل على الاستثناء ما روي عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله ﷺ يرخّص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها[1] وقالت أيضاً : قال رسول الله ﷺ : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً »[2] وقالت أسماء بنت يزيد : قال رسول الله ﷺ : « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمين ليصلح بينهما »[3] .

وروي أن ابن أبي عذرة الدؤلي وكان في خلافة عمر رضي الله عنه كان يخلع النساء اللاتي يتزوّج بهن فطارت له في الناس من ذلك أحدوثة يكرهها ، فلما علم بذلك أخذ بيد عبد الله ابن الأرقم حتى أتى به إلى منزله ، ثم قال لامرأته : أنشدك بالله هل تبغضينني ؟ قالت : لا تنشدني ، قال : فإني أنشدك الله ، قالت : نعم ، فقال لابن الأرقم : أتسمع ؟ ثم انطلقا حتى أتيا عمر رضي الله عنه فقال : إنكم لتحدثون أني أظلم النساء وأخلعهن فاسأل ابن الأرقم ، فسأله فأخبره ، فأرسل إلى امرأة ابن أبي عذرة فجاءت هي وعمتها فقال : أنت التي تحدّثين لزوجك أنك تبغضينه ؟ فقالت : إني أوّل من تاب وراجع أمر الله تعالى ، إنه ناشدني فتحرّجت أن أكذب ، أفأكذب يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم فاكذبي فإن كانت إحداكن لا تحب أحدنا فلا تحدّثه بذلك ، فإن أقل البيوت الذي بني على الحب ، ولكن الناس يتعاشرون بالإسلام والأحساب .

وقال عليّ رضي الله عنه : إذا حدثتكم عن النبي ﷺ فلأن أخر من السماء أحب إليّ من أن أكذب عليه ، وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فالحرب خدعة .

فهذه الثلاث ورد فيها صريح الاستثناء ، وفي معناها ما عداها إذا ارتبط به مقصود صحيح له أو لغيره . أما في ماله : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ، أو يأخذه

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أحمد بزيادة فيه وهو عند الترمذي مختصراً وحسنه .

سلطان فيسأله عن فاحشة بينه وبين الله تعالى ارتكبها فله أن ينكر ذلك ، فيقول : ما زنيت وما سرقت . وقال ﷺ : « من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فليستتر بستر الله »[1] وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ، فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذي يؤخذ ظلماً وعرضه بلسانه وإن كان كاذباً .

وأما عرض غيره : فبأن يسأله عن سر أخيه فله أن ينكره ، وأن يصلح بين اثنين ، وأن يصلح بين الضرات من نسائه بأن يظهر لكل واحدة أنها أحب إليه ، وإن كانت امرأته لا تطاوعه إلا بوعد لا يقدر عليه فيعدها في الحال تطييباً لقلبها ، أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس به . ولكن الحدّ فيه أن الكذب محذور ولو صدق في هذه المواضع تولد منه محذور . فينبغي أن يقابل أحدهما بالآخر ويزن بالميزان القسط ، فإذا علم أن المحذور الذي يحصل بالصدق أشدّ وقعاً في الشرع من الكذب فله الكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الصدق فيجب الصدق ، وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة فإن شك في كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولأجل غموض إدراك مراتب المقاصد ينبغي أن يحترز الإنسان من الكذب ما أمكنه ، وكذلك مهما كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز المسامحة بحق الغير والإضرار ؛ وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادات المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذوراً ، حتى إن المرأة لتحكي عن زوجها ما تفخر به وتكذب لأجل مراغمة الضرات ، وذلك حرام . وقالت أسماء : سمعت امرأة سألت رسول الله ﷺ قالت : إن لي ضرة وإني أتكثر من زوجي بما لم يفعل أضارُّها بذلك فهل عليّ شيء فيه ؟ قال ﷺ : « المتشبّع بما لم يعط كلابس ثوبي زور »[2] .

ويدخل في هذا فتوى العالم بما لا يتحققه ، وروايته الحديث الذي لا يثبته إذ غرضه أن يظهر فضل نفسه ، فهو لذلك يستنكف من أن يقول : لا أدري ، وهذا حرام . ومما يلتحق بالنساء الصبيان ، فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب

---

(١) الحاكم وإسناده حسن .

(٢) متفق عليه .

كان ذلك مباحاً . نعم روينا في الأخبار أن ذلك يكتب كذباً ، ولكن الكذب المباح أيضاً قد يكتب ويحاسب عليه ويطالب بتصحيح قصده فيه ثم يعفى عنه ، لأنه إنما أبيح بقصد الإصلاح ويتطرق إليه غرور كبير ، فإنه قد يكون الباعث له حظه وغرضه الذي هو مستغن عنه ، وإنما يتعلل ظاهراً بالإصلاح فلهذا يكتب . وكل من أتى بكذبة فقد وقع في خطر الاجتهاد ليعلم أن المقصود الذي كذب لأجله هل هو أهم في الشرع من الصدق أم لا ؟ وذلك غامض جداً والحزم تركه إلا أن يصير واجباً بحيث لا يجوز تركه كما لو أدّى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان .

وقد ظن ظانون أنه يجوز وضع الأحاديث في فضائل الأعمال وفي التشديد في المعاصي ، وزعموا أن القصد منه صحيح وهو خطأ محض . إذ قال ﷺ : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار »[1] إذ في الصدق مندوحة عن الكذب ففيما ورد من الآيات والأخبار كفاية عن غيرها . وقول القائل : إن ذلك قد تكرر على الأسماع وسقط وقعه ، وما هو جديد فوقعه أعظم ، فهذا هوس إذ ليس هذا من الأغراض التي تقاوم محذور الكذب على رسول الله ﷺ وعلى الله تعالى ويؤدي فتح بابه إلى أمور تشوّش الشريعة فلا يقاوم خير هذا شره الأصلي . والكذب على رسول الله ﷺ من الكبائر التي لا يقاومها شيء . نسأل الله العفو عنا وعن جميع المسلمين .

بيان الحذر من الكذب بالمعاريض

قد نقل عن السلف أن في المعاريض مندوحة عن الكذب قال عمر رضي الله عنه : أما في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب ؟ وروي ذلك عن ابن عباس وغيره . وإنما أرادوا بذلك إذا اضطر الإنسان إلى الكذب فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض ولا التصريح جميعاً ، ولكن التعريض أهون . ومثال التعريض ما روي أن مطرفاً دخل على زياد فاستبطأه فتعلل بمرض وقال : ما رفعت جنبي منذ فارقت الأمير إلا ما رفعني الله . وقال إبراهيم : إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب فقل : إن الله تعالى ليعلم ما قلت من ذلك من شيء فيكون قوله (ما) حرف نفي عند المستمع ، وعنده للإبهام . وكان معاذ بن جبل عاملاً لعمر

---

(١) متفق عليه .

رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته : ما جئت به مما يأتي به العمّال إلى أهلهم ؟ وما كان قد أتاها بشيء . فقال : كان عندي ضاغط ، قالت : كنت أميناً عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر رضي الله عنه . فبعث عمر معك ضاغطاً ؟ وقامت بذلك بين نسائها واشتكت عمر ، فلما بلغه دعا معاذاً وقال : بعثت معك ضاغطاً ؟ قال : لم أجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك ، فضحك عمر رضي الله عنه وأعطاه شيئاً فقال : أرضها به ومعنى قوله ضاغطاً : يعني رقيباً وأراد به الله تعالى . وكان النخعي لا يقول لابنته : أشتري لك سكراً بل يقول : أرأيت لو اشتريت لك سكراً ؟ فإنه ربما لا يتفق له ذلك . وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية : قولي له اطلبه في المسجد ولا تقولي له : ليس ههنا كيلا يكون كذباً . وكان الشعبي إذا طلبه في المنزل من يكرهه خطّ دائرة وقال للجارية : ضعي الأصبع فيها وقولي ليس ههنا . وهذا كله في موضع الحاجة فأما في غير موضع الحاجة فلا ، لأن هذا تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذباً فهو مكروه على الجملة كما روى عبد الله بن عتبة قال : دخلت مع أبي على عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه فخرجت وعليّ ثوب ، فجعل الناس يقولون : هذا كساكه أمير المؤمنين ؟ فكنت أقول : جزى الله أمير المؤمنين خيراً ، فقال لي أبي : يا بني اتق الكذب وما أشبهه ، فنهاه عن ذلك لأنّ فيه تقريراً لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة وهذا غرض باطل لا فائدة فيه .

ومن الكذب الذي لا يوجب الفسق ما جرت به العادة في المبالغة كقوله : طلبتك كذا وكذا مرة وقلت لك كذا مائة مرة ، فإنه لا يريد به تفهيم المرات بعددها بل تفهيم المبالغة ، فإن لم يكن طلبه إلا مرة واحدة كان كاذباً ، وإن كان طلبه مرات لا يعتاد مثلها في الكثرة لا يأثم وإن لم تبلغ مائة ، وبينهما درجات يتعرض مطلق اللسان بالمبالغة فيها لخطر الكذب . ومما يعتاد الكذب فيه ويتساهل به أن يقال : كُلِ الطعام ، فيقول : لا أشتهيه ؛ وذلك منهيّ عنه وهو حرام ، قال الليث بن سعد : كانت عينا سعيد بن المسيب ترمص حتى يبلغ الرمص خارج عينيه ، فيقال له : لو مسحت عينيك ؟ فيقول : وأين قول الطبيب : لا تمس عينيك . فأقول : لا أفعل ؟ وهذه مراقبة أهل الورع . ومن تركه (أي الورع) انسل لسانه في الكذب عن حد اختياره فيكذب ولا يشعر . وربما يكذب في حكاية المنام ، والإثم فيه عظيم إذ قال عليه السلام : « إن من أعظم الفرية أن يدعي الرجل إلى غير أبيه ، أو يُري عينيه في المنام ما

لم ير أو يقول عليّ ما لم أقل »[١] وقال عليه الصلاة والسلام : « من كذب في حلم كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد بينهما أبداً »[٢] .

☆ ☆ ☆

الآفة الخامسة عشرة : الغيبة

والنظر فيها طويل فلنذكر أولاً مذمة الغيبة وما ورد فيها من شواهد الشرع ، وقد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة ، فقال تعالى : ﴿ **ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه** ﴾ (الحجرات : ١٢) وقال عليه الصلاة والسلام : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه »[٣] والغيبة تتناول العرض وقد جمع الله بينه وبين المال والدم ، وقال أبو برزة : قال عليه الصلاة والسلام : « لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضا وكونوا عباد الله إخواناً »[٤] .

وقال أنس : قال رسول الله ﷺ : « مررت ليلة أسري بي على أقوام يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت : يا جبريل من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم »[٥] . وقال البراء : خطبنا رسول الله ﷺ حتى أسمع العواتق في بيوتهن فقال : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته »[٦] . وقال جابر : كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتى على قبرين يعذب صاحباهما فقال : « إنهما يعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان يغتاب الناس ، وأما الآخر فكان لا يستنزه من بوله » فدعا بجريدة رطبة ـ أو جريدتين ـ فكسرها ثم أمر بكل كسرة فغرست على قبر وقال : « أما

(١) أخرجه البخاري .
(٢) أخرجه البخاري .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) متفق عليه .
(٥) أخرجه أبو داود مسنداً ومرسلاً والمسند أصح .
(٦) أخرجه ابن أبي الدنيا هكذا ورواه أبو داود من حديث أبي برزة بإسناد جيد .

إنـه سيهوّن من عـذابها مـا كانتـا رطبتين ـ أو مـا لم ييبسـا »[١] وكان الصحـابـة رضي الله عنهم يتلاقون بالبشر ، ولا يغتـابون عنـد الغَيْبـة ويرون ذلـك أفضل الأعمـال ويرون خلافـه عـادة المنافقين . وعن مجاهد أنه قال في : ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾ (الهمزة : ١) الهمزة : الطعان في الناس ، واللمزة : الذي يأكل لحوم الناس .

وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فـاذكر عيوبـك . وقـال أبو هريرة : يبصر أحدكم القذى في عين أخيـه ولا يبصر الجـذع في عين نفسـه . وكان الحسن يقول : ابن آدم إنك لن تصيب حقيقة الإيمـان حتى لا تعيب النـاس بعيب هو فيـك ، وحتى تبـدأ بصلاح ذلـك العيب فتصلحه من نفسك ، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصـة نفسـك ، وأحب العبـاد إلى الله من كان هكذا . وقال عمر رضي الله عنه : عليكم بذكر الله تعـالى فـإنـه شفـاء وإيـاكم وذكر النـاس فإنه داء . نسأل الله حسن التوفيق لطاعته .

بيان معنى الغيبة وحدودها

اعلم أن حد الغيبة : أن تذكر أخاك بما يكرهـه لو بلغـه ، سواء ذكرتـه بنقص في بـدنـه أو نسبه أو في خلقه أو في فعله أو في قوله أو في دينه أو في دنياه ، حتى في ثوبه وداره ودابته .

أما البدن : فكـذكرك العمش والحول والقرع والقصر والطول والسواد والصفرة ، وجميع مـا يتصور أن يوصف به مما يكرهه كيفما كان . وأما النسب : فبأن تقول : فـاسق أو خسيس ، أو شيء مما يكرهه كيفما كان . وأما الخلق : فبـأن تقول : هو سيء الخلق بخيل متكبر مراء شـديـد الغضب جبان عاجز ضعيف القلب متهور وما يجرى مجراه . وأما في أفعالـه المتعلقـة بـالـدين : فكقولك : هو سارق أو كذاب أو شارب خمر أو خائن أو ظـالم أو متهـاون بـالصلاة أو الزكاة أو لا يحسن الركوع أو السجود أو لايحترز من النجـاسـات أو ليس بـاراً بوالـديـه أو لا يضع الزكاة موضعها أو لا يحسن قسمهـا أوْ لا يحرس صومـه عن الرفث والغيبـة والتعرض لأعراض النـاس . وأما فعله المتعلق بالدنيا : فكقولك : إنه قليل الأدب متهـاون بـالنـاس ، أو لايرى لأحـد على نفســه حقـاً أو يرى لنفســه الحق علىالنـاس ، أو أنـه كثير الكلام كثير الأكل نئوم ينـام في غير

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في الصمت وأبو العباس الدغولي في كتـاب الآداب بإسنـاد جيـد وهو في الصحيحين من حـديث ابن عباس إلا أنه ذكر فيه النمية بدل الغيبة .

وقت النوم ويجلس في غير موضعه ، وأما في ثوبه فكقولك : إنه واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب .

وقال قوم : لا غيبة في الدين لأنه ذمّ ما ذمه الله تعالى فذكره بالمعاصي وذمه بها يجوز ، بدليل ما روي أن رسول الله ﷺ ذكرت له امرأة وكثرة صلاتها وصومها ولكنها تؤذي جيرانها بلسانها فقال : « هي في النار »(١) . فهذا فاسد لأنهم كانوا يذكرون ذلك لحاجتهم إلى تعرف الأحكام بالسؤال ، ولم يكن غرضهم التنقيص ولا يحتاج إليه في غير مجلس الرسول ﷺ . والدليل عليه إجماع الأمة على أن من ذكر غيره بما يكرهه فهو مغتاب لأنه داخل فيما ذكر رسول الله ﷺ في حد الغيبة .

وكل هذا وإن كان صادقاً فيه فهو به مغتاب عاص لربه وآكل لحم أخيه ، بدليل ما روي أن النبي ﷺ قال : « هل تدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « ذكرك أخاك بما يكرهه » قيل : أرأيت إن كان في أخي ما أقوله ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه فقد بهتّه »(٢) .

وقال الحسن ذكر الغير ثلاثة الغيبة والبهتان والإفك ، وكل في كتاب الله عز وجل ، فالغيبة أن تقول ما فيه ، والبهتان أن تقول ما ليس فيه ، والإفك أن تقول ما بلغك ، وذكر ابن سيرين رجلاً فقال : ذاك الرجل الأسود ، ثم قال : أستغفر الله إني أراني قد اغتبته . وذكر ابن سيرين إبراهيم النخعي فوضع يده على عينيه ولم يقل الأعور .

بيان أن الغيبة لا تقتصر على اللسان

اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه ، فالتعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول ، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام . فمن ذلك قول عائشة (رضي الله عنها) : دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه مسلم .

« اغتبتها »[١] . ومن ذلك المحاكاة يمشي متعارجاً أو كما يمشي ، فهو غيبة بل هو أشد من الغيبة لأنه أعظم في التصوير والتفهيم ولما رأى رسول الله ﷺ عائشة حاكت امرأة قال : « ما يسرني أني حاكيت إنساناً ولي كذا وكذا »[٢] .

وكذلك الغيبة بالكتابة فإن القلم أحد اللسانين . وذكر المصنف شخصاً معيناً وتهجين كلامه في الكتاب غيبة إلا أن يقترن به شيء من الأعذار المحوجة إلى ذكره وأما قوله : قال قوم كذا ؛ فليس ذلك غيبة ، وإنما الغيبة التعرض لشخص معين إما حي وإما ميت . ومن الغيبة أن تقول : بعض من مر بنا اليوم ، أو بعض من رأيناه ، إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ، لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا كان المخاطب يفهم منه شخصاً معيناً ، لأن المحذور تفهيمه دون ما به التفهيم فأما إذا لم يفهم عينه جاز . كان رسول الله ﷺ إذا كره من إنسان شيئاً قال : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا »[٣] . فكان لا يعيّن . وقولك : بعض من قدم من السفر ، أو بعض من يدّعي العلم ، إن كان معه قرينة تفهم عين الشخص فهي غيبة .

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القراء المرائين فإنهم يفهمون المقصود على صيغة أهل الصلاح ليظهروا من أنفسهم التعفف عن الغيبة ويفهمون المقصود ، ولا يدرون بجهلهم أنهم جمعوا بين فاحشتين . الغيبة والرياء ، وذلك مثل أن يذكر عنده إنسان فيقول : الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السلطان والتبذل في طلب الحطام ، أو يقول : نعوذ بالله من قلة الحياء نسأل الله أن يعصمنا منها ، وإنما قصده أن يفهم عيب الغير فيذكره بصيغة الدعاء ، وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته فيقول : ما أحسن أحوال فلان . ما كان يقصّر في العبادات ولكن قد اعتراه فتور وابتلي بما يبتلى به كلنا وهو قلة الصبر . فيذكر نفسه ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك ، ويمدح نفسه بالتشبه بالصالحين بأن يذم نفسه ، فيكون مغتاباً ومرائياً ومزكياً نفسه ، فيجمع بين ثلاث فواحش وهو بجهله يظن أنه من الصالحين المتعففين عن الغيبة . ولذلك يلعب الشيطان بأهل الجهل إذا اشتغلوا بالعبادة من غير علم فإنه يتبعهم ويحبط بمكايده عملهم ويضحك عليهم ويسخر منهم . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا وابن مردويه وهو حسن عند ابن حبان .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال هو حسن صحيح .

(٣) أخرجه أبو داود ورجاله رجال الصحيح .

الحاضرين فيقول : سبحان الله ما أعجب هذا ! حتى يصغى إليه ويعلم ما يقول ، ، فيـذكر الله تعـالى ويستعمل الاسم آلـة في تحقيق خبثـه ، وهو يمتن على الله عـز وجـل بـذكره جهـلاً منـه وغروراً ، وكذلك يقول : ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفـاف بـه نسـأل الله أن يروح نفسه ، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام وفي إظهار الدعـاء لـه ، بل لو قصـد الـدعـاء لأخفـاه في خلوته عقيب صلاته ، ولو كان يغتم به لاغتم أيضاً بإظهار ما يكرهـه . وكـذلـك يقول : ذلـك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينـا وعليـه ، فهو في كل ذلـك يظهر الـدعـاء والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده ، وهو لجهله لا يدري أنـه قـد تعرض لمقت أعظم ممـا تعرض لـه الجهال إذا جاهروا .

ومن ذلـك الإصغـاء إلى الغيبـة على سبيل التعجب فـإنـه إنمـا يظهر التعجب ليزيـد نشـاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها وكأنه يستخرج الغيبة منه بهذا الطريق فيقول : عجب مـا علمت أنه كذلك ! ما عرفته إلى الآن إلا بالخير ، وكنت أحسب فيه غير هذا ، عافانا الله من بلائـه ، فإن كل ذلك تصديق للمغتاب والتصديق بالغيبة بل السـاكت شريك المغتاب .

فـالمستمع لا يخرج من إثم الغيبـة إلا أن ينكر بلسـانـه أو بقلبـه إن خـاف ، وإن قـدر على القيام أو قطع الكلام بكلام آخر فلم يفعل لزمه ، وإن قال بلسانه : اسكت ، وهو مشته لذلـك بقلبه فذلك نفاق ، ولا يخرجه من الإثم ما لم يكرهه بقلبه ، ولا يكفي في ذلك أن يشير باليـد أي اسكت ، أو يشير بحاجبه وجبينه ، فإن ذلك استحقار للمـذكور بل ينبغي أن يعظم ذلـك فيذب عنه صريحاً .

قال عليه الصلاة والسلام : « من ذب عن عرض أخيه بالغيب كان حقّـاً على الله أن يعتقـه من النار »[1] .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه أحمد والطبراني .

بيان الأسباب الباعثة على الغيبة

اعلم أن البواعث على الغيبة كثيرة ولكن يجمعها أحد عشر سبباً . ثمانية منها تطّرد في حق العامة ، وثلاثة تختص بأهل الدين والخاصة .

أما الثمانية ، فالأول : أن يشفي الغيظ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه ، فإنه إذا هاج غضبه يتشفّى بذكر مساويه فيسبق اللسان إليه بالطبع إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب فيحتقن الغضب في الباطن فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

الثاني : موافقة الأقران ومجاملة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ويظن أنه مجاملة في الصحبة . وقد يغضب رفقاؤه فيحتاج إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء .

الثالث : أن يستشعر من إنسان أنه سيقصده ويطوّل لسانه عليه أو يقبّح حاله عند محتشم ، أو يشهد عليه بشهادة فيبادره قبل أن يقبّح هو حاله ويطعن فيه ليسقط أثر شهادته ، أو يبتديء بذكر ما فيه صادقاً ليكذب عليه بعده فيروّج كذبه بالصدق الأول ويستشهد ويقول : ما من عادتي الكذب ، فإني أخبرتكم بكذا وكذا من أحواله فكان كما قلت .

الرابع : أن ينسب إلى شيء فيريد أن يتبرأ منه فيذكر الذي فعله ، وكان من حقه أن يبريء نفسه ولا يذكر الذي فعل فلا ينسب غيره إليه ، أو يذكر غيره بأنه كان مشاركاً له في الفعل ليمهد بذلك عذر نفسه في فعله .

الخامس : إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره فيقول : فلان جاهل وفهمه ركيك وكلامه ضعيف . وغرضه أن يثبت في ضمن ذلك فضل نفسه ويريهم أنه أعلم منه ، أو يحذر أن يعظم مثل تعظيمه فيقدح فيه لذلك .

السادس : الحسد وهو أنه ربما يحسد من يثني الناس عليه ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه ، فيريد أن يسقط ماء وجهه عند

الناس حتى يكفوا عن كرامته والثناء عليه لأنه يثقل عليه أن يسمع كلام الناس وثناءهم عليه وإكرامهم له ، وهذا هو عين الحسد وهو غير الغضب والحقد ، فإن ذلك يستدعي جناية من المغضوب عليه ، والحسد قد يكون مع الصديق المحسن والرفيق الموافق .

السابع : اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ومنشؤه التكبر والعجب .

الثامن : السخرية والاستهزاء استحقاراً له فإن ذلك قد يجري في الحضور ويجري أيضاً في الغيبة ومنشؤه التكبر واستصغار المستهزأ به .

وأما الأسباب الثلاثة التي هي في الخاصة فهي أغمضها وأدقها ، لأنها شرور خبأها الشيطان في معرض الخيرات وفيها خير ولكن شاب الشيطان بها الشر .

الأول : أن تنبعث من الدين داعية التعجب في إنكار المنكر والخطأ في الدين ، فيقول : ما أعجب ما رأيت من فلان ! فإنه قد يكون به صادقاً ويكون تعجبه من المنكر ، ولكن كان حقه أن يتعجب ولا يذكر اسمه فيسهل الشيطان عليه ذكر اسمه في إظهار تعجبه ، فصار به مغتاباً وآثماً من حيث لا يدري . ومن ذلك قول الرجل : تعجبت من فلان كيف يحب جاريته وهي قبيحة ؟ وكيف يجلس بين يدي فلان وهو جاهل ؟ .

الثاني : الرحمة وهو أن يغتم بسبب ما يبتلى به فيقول : مسكين فلان قد غني أمره وما ابتلي به ، فيكون صادقاً في دعوى الاغتمام ويلهيه الغمّ عن الحذر من ذكر اسمه فيذكره فيصير به مغتاباً فيكون غمه ورحمته خيراً ، وكذا تعجبه، ولكن ساقه الشيطان إلى شر من حيث لا يدري ، والترحُّم والاغتمام ممكن دون ذكر اسمه فيهيجه الشيطان على ذكر اسمه ليبطل به ثواب اغتمامه وترحمه .

الثالث : الغضب لله تعالى فإنه قد يغضب على منكر قارفه إنسان إذا رآه أو سمعه فيظهر غضبه ويذكر اسمه ، وكان الواجب أن يظهر غضبه عليه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يظهره على غيره ، أو يستر اسمه ولا يذكره بالسوء ، فهذه الثلاثة مما يغمض دركها على العلماء فضلاً عن العوام ، فإنهم يظنون أن التعجب والرحمة والغضب إذا كان لله تعالى ، كان

عذراً في ذكر الاسم وهو خطأ ، بل المرخص في الغيبة حاجات مخصوصة لا مندوحة فيها عن ذكر الاسم ـ كما سيأتي ذكره ـ روي عن عامر بن واثلة : أن رجلاً مرّ على قوم في حياة رسول الله ﷺ فسلّم عليهم فردوا عليه السلام ، فلما جاوزهم قال رجل منهم : إني لأبغض هذا في الله تعالى فقال أهل المجلس : لبئس ما قلته والله لننبئنّه ، ثم قالوا : يا فلان لرجل منهم ـ قم فأدركه وأخبره بما قال فأدركه رسولهم فأخبره فأتى الرجل رسول الله ﷺ وحكى له ما قال وسأله أن يدعوه له ، فدعاه وسأله فقال : قد قلت ذلك فقال ﷺ : « لم تبغضه ؟ » فقال : أنا جاره وأنا به خابر ، والله ما رأيته يصلي قط إلا هذه المكتوبة ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني أخرتها عن وقتها أو أسأت الوضوء لها أو الركوع أو السجود فيها ؟ فسأله فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يصوم شهراً قط إلا هذا الشهر الذي يصومه البر والفاجر ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني قط أفطرت فيه أو نقصت من حقه شيئاً ؟ فسأله عنه فقال : لا ، فقال : والله ما رأيته يعطي سائلاً ولا مسكيناً قط ولا رأيته ينفق شيئاً من ماله في سبيل الله إلا هذه الزكاة التي يؤديها البر والفاجر ، قال : فاسأله يا رسول الله هل رآني نقصت منها أو ماكست فيها طالبها الذي يسألها ؟ فسأله فقال : لا فقال ﷺ للرجل : « قم فلعله خير منك »[١] .

بيان العلاج الذي يمنع اللسان عن الغيبة

اعلم أن مساوىء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل ، وإنما علاج كل علة مضادة سببها ، فلنفحص عن سببها . وعلاج كف اللسان عن الغيبة على وجهين : أحدهما على الجملة ، والآخر على التفصيل :

أمّا على الجملة : فهو أن يعلم تعرضه لسخط الله تعالى بغيبته بهذه الأخبار التي رويناها وأن يعلم أنها محبطة لحسناته يوم القيامة ، فإنها تنقل حسناته يوم القيامة إلى من اغتابه بدلاً عما استباحه من عرضه ، فإن لم تكن له حسنات نقل إليه من سيئات خصمه ، وهو مع ذلك متعرض لمقت الله عز وجل ومشبه عنده بآكل الميتة ، بل العبد يدخل النار بأن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته وربما تنقل إليه سيئة واحدة ممن اغتابه فيحصل بها الرجحان ويدخل

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح .

بها النار ، وإنما أقل الدرجات أن تنقص من ثواب أعماله وذلك بعد المخاصمة والمطالبة والسؤال والجواب والحساب .

روي أن رجلاً قال للحسن : بلغني أنك تغتابني ، فقال : ما بلغ من قدرك عندي أني أحكّمك في حسناتي ، فمها آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك ، وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه فإن وجد فيها عيباً اشتغل بعيب نفسه ، ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمراً خلقياً فالذم له ذم للخالق ؛ فإن من ذم صنعة فقد ذم صانعها ، قال رجل لحكيم : يا قبيح الوجه ، قال : ما كان خلق وجهي إليّ فأحسنه . وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب جهل بنفسه وهو من أعظم العيوب ، وينفعه أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، فإذا كان لا يرضى لنفسه أن يغتاب ينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه فهذه معالجات جلية .

أما التفصيل : فهو أن ينظر في السبب الباعث له على الغيبة فإن علاج العلة بقطع سببها وقد قدمنا الأسباب . أما الغضب فيعالجه وهو أن يقول : إني إذا أمضيت غضبي عليه فلعل الله تعالى يمضي غضبه علي بسبب الغيبة إذ نهاني عنها فاجترأت على نهيه واستخففت بزجره .

وقال ﷺ : « من كظم غيظاً وهو يقدر على أن يمضيه دعاه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره في أي الحور شاء »[1] .

وأما الموافقة : فبأن تعلم أن الله تعالى يغضب عليك إذا طلبت سخطه في رضا المخلوقين ، فكيف ترضى لنفسك أن توقّر غير مولاك فتترك رضاه لرضاهم إلا أن يكون غضبك لله تعالى ؟ وذلك لا يوجب أن تذكر المغضوب عليه بسوء بل ينبغي أن تغضب لله أيضاً على رفقائك إذا ذكروه بالسوء ، فإنهم عصوا ربك بأفحش الذنوب وهي الغيبة .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه .

وأما تنزيه النفس بنسبة الغير إلى الخيانة حيث يستغنى عن ذكر الغير : فتعالجه بأن تعرف أن التعرض لمقت الخالق أشد من التعرض لمقت المخلوقين وأنت بالغيبة متعرض لسخط الله يقيناً ولا تدري أنك تتخلص من سخط الناس أم لا ! فتخلص نفسك في الدنيا بالتوهم وتهلك في الآخرة وتخسر حسناتك بالحقيقة ويحصل لك ذم الله تعالى نقداً وتنتظر دفع ذم الخلق نسيئة وهذا غاية الجهل والخذلان .

وأما عذرك كقولك : إن أكلت الحرام ففلان يأكله وإن قبلت مال السلطان ففلان يقبله فهذا جهل لأنك تعتذر بالاقتداء بمن لا يجوز الاقتداء به فإن من خالف أمر الله تعالى لا يُقتدى به كائناً من كان ولو دخل غيرك النار ، وأنت تقدر على أن لا تدخلها لم توافقه. ولو وافقته لسفه عقلك ، ففيما ذكرته غيبة وزيادة معصية أضفتها إلى ما اعتذرت عنه وبرهنت مع الجمع بين المعصيتين على جهلك وغباوتك .

وأما قصدك المباهاة وتزكية النفس بزيادة الفضل بأن تقدح في غيرك : فينبغي أن تعلم أنك بما ذكرته به أبطلت فضلك عند الله وأنت من اعتقاد الناس فضلك على خطر ، وربما نقص اعتقادهم فيك إذا عرفوك بثلب الناس فتكون قد بعت ما عند الخالق يقيناً بما عند المخلوقين وهماً ، ولو حصل لك من المخلوقين اعتقاد الفضل لكانوا لا يغنون عنك من الله شيئاً .

وأما الغيبة لأجل الحسد : فهو جمع بين عذابين لأنك حسدته على نعمة الدنيا وكنت في الدنيا معذباً بالحسد ، فما قنعت بذلك حتى أضفت إليه عذاب الآخرة ، فكنت خاسراً نفسك في الدنيا فصرت أيضاً خاسراً في الآخرة لتجمع بين النكالين ، فقد قصدت محسودك فأصبت نفسك وأهديت إليه حسناتك . فإذا أنت صديقه وعدو نفسك إذ لا تضره غيبتك وتضرك ، وتنفعه إذ تنقل إليه حسناتك أو تنقل إليك سيئاته ، ولا تنفعك وقد جمعت إلى خبث الحسد جهل الحماقة . وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار فضل محسودك كما قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

وأما الاستهزاء : فمقصودك منه إخزاء غيرك عند الناس بإخزاء نفسك عند الله تعالى وعند الملائكة والنبيين عليهم الصلاة والسلام ، فلو تفكرت في حسرتك وجنايتك وخجلتك وخزيك يوم القيامة يوم تحمل سيئات من استهزأت به وتساق إلى النار لأدهشك ذلك عن إخزاء

صاحبك ! ولو عرفت حالك لكنت أولى أن تضحك [من نفسك] ، وأما الرحمة له على إثمه فهو حسن ، ولكن حسدك إبليس فأضلك ، وأنطقك بما ينقل من حسناتك إليه ما هو أكثر من رحمتك . فيكون جبراً لإثم المرحوم ، وتنقلب أنت مستحقاً لأن تكون مرحوماً ، إذ حبط أجرك ونقصت من حسناتك ، وكذلك الغضب لله تعالى لا يوجد الغيبة ، وإنما الشيطان حبب إليك الغيبة ليحبط أجر غضبك وتصير معرضاً لمقت الله عز وجل بالغيبة .

وأما التعجب إذا أخرجك إلى الغيبة : فتعجب من نفسك أنت ؟ كيف أهلكت نفسك ودينك بدين غيرك أو بدنياه وأنت مع ذلك لا تأمن عقوبة الدنيا ! وهو أن يهتك الله سترك كما هتكت بالتعجب ستر أخيك . فإذن علاج جميع ذلك المعرفة فقط والتحقق بهذه الأمور التي هي من أبواب الإيمان ، فمن قوي إيمانه بجميع ذلك انكف لسانه عن الغيبة لا محالة .

بيان تحريم الغيبة بالقلب

اعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوىء الغير فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره بالسوء ، فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه بل الشك أيضاً معفو عنه ، ولكن المنهيّ عنه أن يظن ، والظن : عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب . فقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات : ١٢) وسبب تحريمه أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ، فعند ذلك لا يمكنك إلا أن تعتقد ما علمته وشاهدته ، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه فإنه أفسق الفساق . وقد قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة** ﴾ (الحجرات : ٦) فلا يجوز تصديق إبليس ، وإن كان ثَمَّ مخيلة تدل على فساد واحتمل خلافه لم يجز أن تصدق به ، لأن الفاسق يتصور أن يصدق في خبره ولكن لا يجوز لك أن تصدق به ، حتى إن من استنكه فوجد منه رائحة الخمر لا يجوز أن يحدّ ، إذ يقال : يمكن أن يكون قد تمضمض بالخمر ومجها وما شربها ، أو حمل عليه قهراً ، فكل ذلك لا محالة دلالة محتملة فلا يجوز تصديقها

بالقلب وإساءة الظن بالمسلم بها .

فلا يستباح ظن السوء إلا بما يستباح به المال وهو نفس مشاهدة أو بينة عادلة ، فإذا لم يكن كذلك وخطر لك وسواس سوء الظن فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر .

فإن قلت : فبماذا يعرف عقد الظن والشكوك تختلج والنفس تحدث ؟ فتقول : أمارة عقد سوء الظن أن يتغير القلب معه عما كان فينفر عنه نفوراً ما ، ويستثقله ويفتر عن مراعاته وتفقده وإكرامه والاغتمام بسببه ، فهذه أمارات عقد الظن وتحقيقه . أما في القلب : فبتغيره إلى النفرة والكراهة، وأما في الجوارح: فبالعمل بموجبه. والشيطان قد يقرر على القلب بأدنى مخيلة مساءة الناس ، ويلقي إليه أن هذا من فطنتك وسرعة فهمك وذكائك وأن المؤمن ينظر بنور الله تعالى ، وهو على التحقيق ناظر بغرور الشيطان وظلمته .

وأما إذا أخبرك به عدل فمال ظنك إلى تصديقه كنت معذوراً ، لأنك لو كذّبته لكنت جانياً على هذا العدل إذا ظننت به الكذب ، وذلك أيضاً من سوء الظن ، فلا ينبغي أن تحسن الظن بواحد وتسيء بالآخر . نعم ينبغي أن تبحث هل بينهما عداوة ومحاسدة وتعنت فتتطرق التهمة بسببه ؟ فقد رد الشرع شهادة الأب العدل للولد للتهمة ورد شهادة العدو ، فلك عند ذلك أن تتوقف . وإن كان عدلاً فلا تصدقه ولا تكذبه ، ولكن تقول في نفسك : المذكور حاله كان عندي في ستر الله تعالى ، وكان أمره محجوباً عني وقد بقي كما كان لم ينكشف لي شيء من أمره ، وقد يكون الرجل ظاهره العدالة ولا محاسدة بينه وبين المذكور ، ولكن قد يكون من عادته التعرض للناس وذكر مساويهم ، فهذا قد يظن أنه عدل وليس بعدل ، فإن المغتاب فاسق ، وإن كان ذلك من عادته ردت شهادته إلا أن الناس لكثرة الاعتياد تساهلوا في أمر الغيبة ولم يكترثوا بتناول أعراض الخلق .

ومهما خطر لك خاطر بسوء على مسلم فينبغي أن تزيد في مراعاته وتدعو له بالخير ، فإن ذلك يغيظ الشيطان ويدفعه فلا يلقي إليك الخاطر السوء خيفة من اشتغالك بالدعاء والمراعاة ، ومهما عرفت هفوة مسلم بحجة فانصحه في السر ولا يخدعنك الشيطان فيدعوك إلى اغتيابه ، وإذا وعظته فلا تعظه وأنت مسرور باطلاعك على نقصه لينظر إليك بعين التعظيم

وتنظر إليه بعين الاستحقار وتترفع عليه ، بإيذاء الوعظ . وليكن قصدك تخليصه من الإثم وأنت حزين ، كما تحزن على نفسك إذا دخل عليك نقصان في دينك . وينبغي أن يكون تركه لذلك من غير نصحك أحب إليك من تركه بالنصيحة . فإذا أنت فعلت ذلك كنت قد جمعت بين أجر الوعظ وأجر الغم بمصيبته وأجر الإعانة له على دينه .

ومن ثمرات سوء الظن التجسس ، فإن القلب لا يقنع بالظن ويطلب التحقيق فيشتغل بالتجسس وهو أيضاً منهيّ عنه ، قال الله تعالى : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ فالغيبة وسوء الظن والتجسس منهيّ عنه في آية واحدة ، ومعنى التجسس أن لا يترك عبادة الله تحت ستر الله ، فيتوصل إلى الاطلاع وهتك الستر حتى ينكشف له ما لو كان مستوراً عنه كان أسلم لقلبه ودينه .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

اعلم أن المرخص في ذكر مساويء الغير هو غرض صحيح في الشرع لا يمكن التوصل إليه إلا به فيدفع ذلك إثم الغيبة وهي ستة أمور :

الأول : التظلم فإن من ذكر قاضياً بالظلم والخيانة وأخذ الرشوة كان مغتاباً عاصياً إن لم يكن مظلوماً ، أما المظلوم من جهة القاضي فله أن يتظلم إلى السلطان وينسبه إلى الظلم إذ لا يمكنه استيفاء حقه إلا به قال ﷺ : « إن لصاحب الحق مقالاً »[1] وقال عليه الصلاة والسلام : « مطل الغنيّ ظلم »[2] وقال عليه السلام : « ليّ الواجد يحل عقوبته وعرضه »[3] . [اللّيّ : المطل] .

الثاني : الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى منهج الصلاح ، كما روي أن عمر رضي الله عنه مر على عثمان ـ وقيل : على طلحة ـ رضي الله عنه ـ فسلم عليه فلم يرد السلام ، فذهب إلى أبي بكر رضي الله عنه فذكر له ذلك ، فجاء أبو بكر إليه ليصلح ذلك ولم يكن ذلك غيبة عندهم ، وكذلك لما بلغ عمر رضي الله عنه أن أبا جندل قد عاقر الخمر بالشام كتب إليه :

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح .

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ **حمٓ * تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم * غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب** ﴾ الآية (غافر : ١ ـ ٣) فتاب ، ولم ير ذلك عمر ممن أبلغه غيبة ، إذ كان قصده أن ينكر عليه ذلك فينفعه نصحه ما لا ينفعه نصح غيره ، وإنما إباحة هذا بالقصد الصحيح فإن لم يكن ذلك هو المقصود كان حراماً .

الثالث : الاستفتاء كأن يقول للمفتي ، ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي فكيف طريقي في الخلاص ؟ والأسلم التعريض بأن يقول : ما قولك في رجل ظلمه أبوه أو أخوه أو زوجته ؟ ولكن التعيين مباح بهذا القدر لما روي عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي ﷺ : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي أفآخذ من غير علمه فقال : « خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف »[٤] فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ولم يزجرها ﷺ إذ كان قصدها الاستفتاء .

الرابع : تحذير المسلم من الشر ، فإذا رأيت فقيهاً يتردد إلى مبتدع أو فاسق وخفت أن تتعدى إليه بدعته وفسقه فلك أن تكشف له بدعته وفسقه ، مهما كان الباعث لك الخوف عليه من سراية البدعة والفسق لا غيره . وذلك موضع الغرور إذ قد يكون الحسد هو الباعث ويلبّس الشيطان ذلك بإظهار الشفقة على الخلق ، وكذلك من اشترى مملوكاً وقد عرفت المملوك بالسرقة أو بالفسق أو بعيب آخر فلك أن تذكر ذلك ، فإن سكوتك ضرر المشتري وفي ذكرك ضرر العبد ، والمشتري أولى بمراعاة جانبه ، وكذلك المزكي إذا سئل عن الشاهد فله الطعن فيه إن علم مطعناً ، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة . فإن علم أنه يترك التزويج بمجرد قوله : لا تصلح لك ، فهو الواجب وفيه الكفاية وإن علم أنه لا ينزجر إلا بالتصريح بعيبه فله أن يصرح به ، وكانوا يقولون ثلاثة لا غيبة لهم : الإمام الجائر والمبتدع والمجاهر بفسقه .

الخامس : أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه كالأعرج والأعمش ، فلا إثم على من يقول : روى أبو الزناد عن الأعرج ، وسلمان عن الأعمش ، وما يجري مجراه فقد فعل العلماء ذلك لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه لو علمه بعد أن

---

(٤) متفق عليه .

قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى ، ولذلك يقال للأعمى : البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

السادس : أن يكون مجاهراً بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر ومصادرة الناس ، وكان ممن يتظاهر به بحيث لا يستنكف من أن يذكر له ولا يكره أن يذكر به ، فإذا ذكرت فيه ما يتظاهر به فلا إثم عليك ، وقال عمر رضي الله عنه : ليس لفاجر حرمة وأراد به المجاهر بفسقه دون المستتر إذ المستتر لابد من مراعاة حرمته ، وقال الصلت بن طريف : قلت للحسن : الرجل الفاسق المعلن بفجوره ذكري له بما فيه غيبة له ؟ قال : لا ولا كرامة . وقال الحسن : ثلاثة لا غيبة لهم : صاحب الهوى والفاسق المعلن بفسقه والإمام الجائر ، فهؤلاء الثلاثة يجمعهم أنهم يتظاهرون به وربما يتفاخرون به ، فكيف يكرهون ذلك وهم يقصدون إظهاره ؟ نعم لو ذكره بغير ما يتظاهر به أثم .

بيان كفارة الغيبة

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج به من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته ! وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله ، إذ المرائي قد يستحل ليظهر من نفسه الورع وفي الباطن لا يكون نادماً ، فيكون قد قارف معصية أخرى وقال الحسن : يكفيه الاستغفار دون الاستحلال ، وقال مجاهد : كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير ، وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال : أن تمشي إلى صاحبك فتقول له : كذبت فيما قلت وظلمتك وأسأت فإن شئت أخذت بحقك وإن شئت عفوت ، وهذا هو الأصح . وقول القائل : العرض لا عوض له فلا يجب الاستحلال منه بخلاف المال كلام ضعيف ، إذ قد وجب في العرض حد القذف وتثبت المطالبة به . بل في الحديث الصحيح ما روي أنه ﷺ قال : « من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض أو مال فليستحللها منه من قبل أن يأتي يوم ليس هناك دينار ولا درهم ، إنما يؤخذ من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فزيدت على سيئاته »[1] فإذن لابد

---

(١) متفق عليه .

من الاستحلال إن قدر عليه ، فإن كان غائباً أو ميتاً فينبغي أن يكثر له الاستغفار والدعاء ويكثر من الحسنات .

فإن قلت : فالتحليل هل يجب ؟ فأقول : لا ؛ لأنه تبرع والتبرع فضل ، وليس بواجب ولكنه مستحسن وسبيل المعتذر أن يبالغ في الثناء عليه والتودد إليه ويلازم ذلك حتى يطيب قلبه ، فإن لم يطب قلبه كان اعتذاره وتودده حسنة محسوبة به ، يقابل به سيئة الغيبة في القيامة .

وكان بعض السلف لا يحلل . قال سعيد بن المسيب : لا أحلل من ظلمني . وقال ابن سيرين : إني لم أحرمها عليه فأحللها له إن الله حرم الغيبة عليه وما كنت لأحلل ما حرم الله أبداً .

فإن قلت : فما معنى قول النبي ﷺ ينبغي أن يستحلها وتحليل ما حرمه الله تعالى غير ممكن ؟ فنقول : المراد به العفو عن المظلمة لا أن ينقلب الحرام حلالاً ، وما قاله ابن سيرين حسن في التحليل قبل الغيبة فإنه لا يجوز له أن يحلل لغيره الغيبة .

وقد قال الله تعالى : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) فقال النبي ﷺ : « يا جبريل ما هذا العفو ؟ فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تعفو عمن ظلمك وتصل من قطعك وتعطي من حرمك »[1] . وروي عن الحسن أن رجلاً قال له : إن فلاناً قد اغتابك فبعث إليه رطباً على طبق وقال : قد بلغني أنك أهديت إليّ من حسناتك فأردت أن أكافئك عليها فاعذرني فإني لا أقدر أن أكافئك على التمام .

الآفة السادسة عشرة : النميمة

قال الله تعالى : ﴿ **همّاز مشّاء بنميم** ﴾ (القلم : ١١) ثم قال : ﴿ **عتل بعد ذلك زنيم** ﴾ (القلم : ١٣) قال عبد الله بن المبارك : الزنيم ولد الزنى الذي لا يكتم الحديث . والزنيم هو الدعي وقال تعالى : ﴿ **ويل لكل همزة لمزة** ﴾ (الهمزة : ١) قيل الهمزة : النّمام وقال تعالى : ﴿ **حمّالة الحطب** ﴾ (المسد : ٤) قيل : إنها كانت نمامة حمالة للحديث وقال تعالى :

---

(١) أخرجه ابن مردويه بأسانيد حسان .

﴿ **فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً** ﴾ (التحريم : ١٠) قيل : كانت امرأة لوط تخبر بالضيفان وامرأة نوح تخبر أنه مجنون وقد قال ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام »[١] وفي حديث آخر « لا يدخل الجنة قتات » والقتات : هو النمام وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « أحبكم إلى الله أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون ، وإن أبغضكم إلى الله المشاءون بالنميمة ، المفرقون بين الإخوان ، الملتمسون للبرآء العثرات »[٢] . وقال ﷺ : « ألا أخبركم بشراركم » قالوا : بلى . قال : « المشاءون بالنميمة المفسدون بين الأحبة الباغون للبرآء العيب »[٣] .

ويقال : ابتغى رجل حكيماً سبعمائة فرسخ في سبع كلمات فلما قدم عليه قال : إني جئت للذي آتاك الله تعالى من العلم أخبرني عن السماء وما أثقل منها ؟ وعن الأرض وما أوسع منها ، وعن الصخر وما أقسى منه ؟ وعن النار وما أحرّ منها ؟ وعن الزمهرير وما أبرد منه ؟ وعن البحر وما أغنى منه ؟ وعن اليتيم وما أذلّ منه ؟ فقال له الحكيم : البهتان على البريء أثقل من السموات ، والحق أوسع من الأرض ، والقلب القانع أغنى من البحر ، والحرص والحسد أحر من النار والحاجة إلى القريب إذا لم تنجح أبرد من الزمهرير ، وقلب الكافر أقسى من الحجر ، والنمام إذا بان أمره أذل من اليتيم .

بيان حد النميمة وما يجب في ردها

اعلم أن اسم النميمة إنما يطلق في الأكثر على من ينم قول الغير إلى المقول فيه ، كما تقول : فلان كان يتكلم فيك بكذا وكذا ، وليست النميمة مختصة به بل حدها كشف ما يكره كشفه ، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه ، أو كرهه ثالث ، وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز أو بالإيماء وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان ذلك عيباً ونقصاً في المنقول عنه أو لم يكن بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عما يكره كشفه بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس مما يكره فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط والصغير .

(٣) أخرجه أحمد .

لمسلم أو دفع لمعصية كما إذا رأى من يتناول مال غيره فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له ، فأما إذا رآه يخفي مالاً لنفسه فذكره فهو نميمة وإفشاء للسر ، فإن كان ما ينم به نقصاً وعيباً في المحكي عنه كان قد جمع بين الغيبة والنميمة . فالباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه أو إظهار الحب للمحكي له ، أو التفرج بالحديث والخوض في الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه النميمة وقيل له : إن فلاناً قال فيك كذا وكذا أو فعل في حقك كذا أو هو يدبر في إفساد أمرك أو في ممالأة عدوك أو تقبيح حالك أو ما يجري مجراه فعليه ستة أمور ، **الأول** : أن لا يصدقه لأن النمام فاسق وهو مردود الشهادة . قال الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة** ﴾ (الحجرات : ٦) . **الثاني** : أن ينهاه عن ذلك وينصح له ويقبح عليه فعله . قال الله تعالى : ﴿ **وأمر بالمعروف وانه عن المنكر** ﴾ (لقمان : ١٧) . **والثالث** : أن يبغضه في الله تعالى فإنه بغيض عند الله تعالى ويجب بغض من يبغضه الله تعالى . **الرابع** : أن لا تظن بأخيك الغائب السوء لقول الله تعالى : ﴿ **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (الحجرات : ١٢) . **الخامس** : أن لا يحملك ما حكي لك على التجسس والبحث لتحقق ، اتباعاً لقول الله تعالى : ﴿ **ولا تجسسوا** ﴾ (الحجرات : ١٢) . **السادس** : أن لا ترضى لنفسك ما نهيت النمام عنه ولا تحكي نميمته فتقول فلان قد حكى لي كذا وكذا ، فتكون به نماماً ومغتاباً وقد تكون قد أتيت ما عنه نهيت ، وقد روي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنه دخل عليه رجل فذكر له عن رجل شيئاً فقال له عمر : إن شئت نظرنا في أمرك فإن كنت كاذباً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا** ﴾ وإن كنت صادقاً فأنت من أهل هذه الآية : ﴿ **همّاز مشاء بنميم** ﴾ (القلم : ١١) وإن شئت عفونا عنك ؟ فقال : العفو يا أمير المؤمنين لا أعود إليه أبداً .

☆ ☆ ☆

الآفة السابعة عشرة : كلام ذي اللسانين

كلام ذي اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ويكلم كل واحد منهما بكلام يوافقه ، وقلما يخلو عنه من يشاهد متعاديين وذلك عين النفاق ، قال عمار بن ياسر : قال رسول الله ﷺ : « من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة »[١] . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ : « تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بحديث وهؤلاء بحديث »[٢] وفي لفظ آخر : « الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » وقال أبو هريرة : لا ينبغي لذي الوجهين أن يكون أميناً عند الله .

فإن قلت : بماذا يصير الرجل ذا لسانين ، وما حد ذلك ؟ فأقول : إذا دخل على المتعاديين وجامل كل واحد منهما وكان صادقاً فيه لم يكن منافقاً ولا ذا لسانين ، فإن الواحد قد يصادق متعاديين ولكن صداقة طفيفة لا تنتهي إلى حد الأخوة إذ لو تحققت الصداقة لاقتضت معاداة الأعداء ، نعم لو نقل كلام كل واحد منهما إلى الآخر فهو ذو لسانين وهو شر من النميمة ، إذ يصير نماماً بأن ينقل من أحد الجانبين فقط فإذا نقل من الجانبين فهو شر من النمام ، وإن لم ينقل كلاماً ولكن حسّن لكل واحد منهما ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه فهذا ذو لسانين ، وكذلك إذا وعد كل واحد منهما بأن ينصره ، وكذلك إذا أثنى على واحد منهما في معاداته ، وكذلك إذا أثنى على أحدهما وكان إذا خرج من عنده يذمه فهو ذو لسانين . بل ينبغي أن يسكت أو يثني على المحق من المتعاديين . ويثني عليه في غيبته وفي حضوره وبين يدي عدوه .

قيل لابن عمر رضي الله عنهما : إنّا ندخل على أمرائنا فنقول القول فإذا خرجنا قلنا غيره فقال : كنا نعد هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ[١] ، وهذا نفاق مهما كان مستغنياً عن الدخول على الأمير وعن الثناء عليه ، فلو استغنى عن الدخول ولكن إذا دخل يخاف إن لم يثن فهو نفاق ، لأنه هو الذي أحوج نفسه إلى ذلك ، فإن كان مستغنياً عن الدخول لو قنع بالقليل

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب المفرد وأبو داود بسند حسن .

(٢) متفق عليه وهو عند ابن أبي الدنيا بلفظ المصنف .

(١) أخرجه الطبراني من طرق .

وترك المال والجاه فدخل لضرورة الجاه والغنى وأثنى فهو منافق لأنه يحوج إلى الأمراء وإلى مراعاتهم ومراءاتهم . فأما إذا ابتلي به لضرره وخاف إن لم يثن فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز . قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشّر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : « ائذنوا له فليس رجل العشيرة هو » ثم لما دخل ألان له القول ، فلما خرج قلت : يا رسول الله قلت فيه ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال : « يا عائشة إن شر الناس الذي يكرم اتقاء شره »[١] .

ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم . فأما الثناء فهو كذب صراح ولا يجوز إلا لضرورة أو إكراه يباح الكذب بمثله ، بل لا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكن بلسانه وينكر بقلبه .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهو منهيّ عنه في بعض المواضع . أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح .

فأما المادح ، **فالأول :** أنه قد يفرط فينتهي به إلى الكذب .

والثانية : أنه قد يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً .

الثالثة : أنه قد يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه ، وروي أن رجلاً مدح رجلاً عند النبي ﷺ فقال له عليه الصلاة والسلام : « ويحك قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح » ثم قال : « إن كان أحدكم لابد مادحاً أخاه فليقل : أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك »[٢] ، وهذه الآفة تتطرق إلى المدح بالأوصاف المطلقة التي تعرف بالأدلة كقوله : إنه تقيّ وورع وزاهد وخيّر وما يجري مجراه ، فأما إذا

---

(١) متفق عليه .

(٢) أصله متفق عليه .

قال : رأيته يصلي بالليل ويتصدق ويحج فهذه أمور مستيقنة . ومن ذلك قوله : إنه عدل رضا فإن ذلك خفي فلا ينبغي أن يجزم القول فيه إلا بعد خبرة باطنه . سمع عمر رضي الله رجلاً يثني على رجل فقال : أسافرت معه ؟ قال : لا ، قال : أخالطته في المبايعة والمعاملة ؟ قال : لا ، قال : فأنت جاره صباحه ومساءه ؟ قال :لا ، فقال : والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه .

الرابعة : أنه قد يفرح الممدوح وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز .

وقال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء فقد أحب أن يعصى الله تعالى في أرضه ، والظالم الفاسق ينبغي أن يذم ليغتم ولا يمدح ليفرح .

وأما الممدوح فيضره من وجهين ؛ **أحدهما :** أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً وهما مهلكان .

الثاني : هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ، ومن أُعجب بنفسه قلّ تشمره وإنما يتشمّر للعمل من يرى نفسه مقصراً فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما أفلح». وقال مطرف : ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي ، وقال زياد بن أبي مسلم : ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحاً إلا تراءى له الشيطان ، ولكن المؤمن يراجع ، فقال ابن المبارك : لقد صدق كلاهما أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام ، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص .

وقال عمر رضي الله عنه : المدح هو الذبح ، وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل والمدح يوجب الفتور ، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح ، لذلك شبهه به . فإن سلم المدح من هذه الآفات في حق المادح والممدوح لم يكن به بأس بل ربما كان مندوباً إليه ؛ ولذلك أثنى رسول الله ﷺ على الصحابه فقال : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم لرجح »[١] .

وقال في عمر : « لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب » ـ أخرجه الترمذي وحسنه ـ

---

(١) رواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح .

وأي ثناء يزيد على هذا ؟ ولكنه ﷺ قال عن صدق وبصيرة . وكانوا رضي الله عنهم أجلّ رتبة من أن يورثهم ذلك كبراً وعجباً وفتوراً . قال ﷺ : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر »[١] أي لست أقول هذا تفاخراً كما يقصد الناس بالثناء على أنفسهم . وذلك لأن افتخاره ﷺ كان بالله وبالقرب من الله لا بولد آدم وتقدمه عليهم ، كما أن المقبول عند الملك قبولاً عظيماً إنما يفتخر بقبوله إياه وبه يفرح لا بتقدمه على بعض رعاياه. وبتفصيل هذه الآفات تقدر على الجمع بين ذم المدح وبين الحث عليه قال ﷺ : « وجبت »[٢] لما أثنوا على بعض الموتى .

بيان ما على الممدوح

اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ولا ينجو منه إلا بأن يعرف نفسه ويتأمل ما في خطر الخاتمة ودقائق الرياء وآفات الأعمال ، فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه وعليه أن يظهر كراهة المدح .

قال ﷺ : « احثوا التراب في وجوه المادحين »[٣] وقال سفيان بن عيينة : لا يضر المدح من عرف نفسه . وأثني على رجل من الصالحين فقال : اللهم إن هؤلاء لا يعرفوني وأنت تعرفني . وقال آخر لما أثني عليه : اللهم إن عبدك هذا تقرّب إليّ بمقتك وأنا أشهدك على مقته . وقال عليّ رضي الله عنه لما أثني عليه : اللهم اغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون واجعلني خيراً مما يظنون . وأثنى رجل على عمر رضي الله عنه فقال : أتهلكني وتهلك نفسك ؟ وأثنى رجل على عليّ كرم الله وجهه في وجهه وكان قد بلغه أنه يقع فيه . فقال : أنا دون ما قلت وفوق ما في نفسك .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد ولمسلم من حديث أبي هريرة : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مسلم .

الآفة التاسعة عشرة : [عدم الدقة في الكلام]

الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيا فيا يتعلق بالله وصفاته ، ويرتبط بأمور الدين فلا يقدر على تقويم اللفظ في أمور الدين إلا العلماء الفصحاء ، فمن قصر في علم أو فصاحة لم يخل كلامه عن الزلل لكن الله تعالى يعفو عنه لجهله . مثاله : ما قال حذيفة : قال النبي ﷺ : « لا يقل أحدكم : ما شاء الله وشئت ولكن ليقل : ما شاء الله ثم شئت »(١) ، وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية وهو على خلاف الاحترام . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يكلمه في بعض الأمر فقال : ما شاء الله وشئت ، فقال ﷺ : « أجعلتني لله عديلاً بل ما شاء الله وحده »(٢) وخطب رجل عند رسول الله ﷺ فقال : من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى فقال : « قل : ومن يعص الله ورسوله فقد غوى »(٣) فكره رسول الله ﷺ قوله : ومن يعصهما لأنه تسوية وجمع ، وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ويجيز أن يقول : أعوذ بالله ثم بك . وأن يقول : لولا الله ثم فلان ولا يقول : لولا الله وفلان ؟

وعن ابن عباس رضي الله عنهما : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه ، فيقول : لولاه لسرقنا الليلة . وقال عمر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت »(٤) . قال عمر رضي الله عنه : فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها . وقال ﷺ : « لا تسموا العنب كَرْماً إنما الكرم الرجل المسلم »(٥) . وقال أبو هريرة : قال رسول الله ﷺ « لا يقولن أحدكم : عبدي ولا أمتي كلكم عبيد الله وكل نسائكم إماء الله وليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي ، ولا يقول المملوك : ربي ولا ربتي وليقل سيدي وسيدتي فكلكم عبيد الله والرب الله سبحانه وتعالى » (٦) . وقال ﷺ : « لا تقولوا

---

(١) أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح .
(٢) أخرجه النسائي في الكبرى بإسناد حسن وابن ماجه .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) متفق عليه .
(٥) متفق عليه .
(٦) أخرجه مسلم وأحمد .

للفاسق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم »[1] ، وقال ﷺ : « من قال إنه بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال ، وإن كان كاذباً فلن يرجع إلى الإسلام سالماً »[2] . فهذا وأمثاله مما يدخل في الكلام ولا يمكن حصره .

ومن تأمل جميع ما أوردنا من آفات اللسان علم أنه إذا أطلق لسانه لم يسلم وعند ذلك يعرف سر قوله ﷺ : « من صمت نجا »[3] ، لأن هذه الآفات كلها مهالك ومعاطب وهي على طريق المتكلم فإن سكت سلم من الكل ، وإن نطق وتكلم خاطر بنفسه إلا أن يوافقه لسان فصيح وعلم غزير وورع حافظ ومراقبة لازمة ، ويقلل من الكلام فعساه يسلم عند ذلك ، وهو مع جميع ذلك لا ينفك عن الخطر ، فإن كنت لا تقدر على أن تكون ممن تكلم فغنم فكن ممن سكت فسلم فالسلامة إحدى الغنيمتين .

الآفة العشرون : [الخوض الجاهل في العلوم والسؤال المتعنت]

الفضول خفيف على القلب . والعامي يفرح بالخوض في العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنه من العلماء وأهل الفضل ، ولا يزال يحبب إليه ذلك حتى يتكلم في العلم بما هو كفر وهو لا يدري . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم ، فإنه بالإضافة إليه عامي . ولذلك قال ﷺ : « ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم »[4] . وقال أنس : سأل الناس رسول الله ﷺ يوماً فأكثروا عليه وأغضبوه فصعد المنبر وقال : « سلوني لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به » فقام إليه رجل فقال : يا رسول الله من أبي ؟ فقال : « أبوك حذافة » فقام إليه شابان أخوان فقالا : يا رسول الله من أبونا ؟ فقال : « أبوكما الذي تدعيان إليه » ، ثم قام إليه رجل آخر فقال : يا رسول الله أفي الجنة أنا أم في النار ؟ فقال : « لا بل في النار » فلما رأى الناس غضب رسول الله ﷺ أمسكوا فقام إليه عمر رضي الله عنه فقال : رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ، فقال : « اجلس يا عمر

---

(١) أخرجه أبو داود بسند صحيح .

(٢) أخرجه النسائي وابن ماجه بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه الترمذي .

(٤) متفق عليه .

رحمك الله إنك ما علمتُ لموفق »[١] .

وفي الحديث : « نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » [٢] وقال ﷺ : « يوشك الناس يتساءلون بينهم حتى يقولوا : قد خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فإذا قالوا ذلك فقولوا ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد** ﴾ حتى تختموا السورة ثم ليتفل أحدكم عن يساره ثلاثاً وليستعذ بالله من الشيطان الرجيم »[٣] .

وقال جابر : ما نزلت آية المتلاعنين إلا لكثرة السؤال[٤] وفي قصة موسى والخضر عليهما السلام تنبيه على المنع من السؤال قبل أوان استحقاقه إذ قال : ﴿ **فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً** ﴾ (الكهف : ٧٠) فلما سأل عن السفينة أنكر عليه حتى اعتذر وقال : ﴿ **لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا** ﴾ (الكهف : ٧٣) فلم يصبر حتى سأل ثلاثاً قال : ﴿ **هذا فراق بيني وبينك** ﴾ (الكهف : ٧٨) وفارقه .

فسؤال العوام عن غوامض الدين من أعظم الآفات وهو من المثيرات للفتن .

☆ ☆ ☆

وهذا أوان الانتقال إلى الفصل الثاني وهو في أدب العلاقات .

☆ ☆ ☆

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه البزار بإسناد جيد .

الفصل الثاني
في أدَب العلاقات

الفقرة الأولى : في حقوق المسلم .
الفقرة الثانية : في حقوق الوالدين والولد .
الفقرة الثالثة : في حقوق الأقارب والرحم .
الفقرة الرابعة : في حقوق الجوار .
الفقرة الخامسة : في أدب العلاقة الزوجية .
الفقرة السادسة : في أدب العلاقات الأخوية .
الفقرة السابعة : في جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق .

تقديم

[أدب العلاقات البشرية مهم جداً في صلاح الإنسان وسعادته ، وقد أصبح لهذا النوع من الآداب مدارس متعددة على حسب الاختصاص ، فمدارس التمريض تعلّم أدب الخدمة للمريض ، ومدارس العلاقات الدبلوماسية تعلم أدب العلاقات الرسمية بين أصناف شتى من الخلق ، وهناك في الجيوش آداب العلاقات بين الأدنى والأعلى ، وعلى مستوى الحكم هناك الآداب الرسمية والتشريفات ، والذين يكتبون في الآداب يحاولون أن يعمّقوا أنواعاً من الآداب الاجتماعية ، أو يدعوا إلى تغيير فيها وأدبيات الشعوب وثقافاتها كل ذلك له صلة بأدب العلاقات ، فأدب العلاقات والتعامل البشري يشكل جزءاً كبيراً من الهيكل العام للحياة البشرية وقد تأخذ بعض الآداب طابع القانون أو العرف .

والمسلم بَحّاثة عن الكمال ، والإسلام كمال ودافع نحو الكمال ، ولو أنك تتبعت ما دعا إليه الإسلام من كمالات لها علاقة بأدب العلاقات لوجدت بحاراً لا تنتهي لأن صور الحياة لا تنتهي ، ولكل صورة حياتية في الإسلام أدب : علاقة الآباء بالأبناء ، علاقة الكبار بالصغار ، علاقة التلميذ بأستاذه ، وعلاقة المرأة بزوجها ، وعلاقة الجار بجواره ، علاقة البائع بالمبتاع ، علاقة الموظف عند الأمة بأصحاب المعاملات ، علاقة الحاكم بالمحكوم ، علاقة القائد بالجندي ، علاقة الأمم ببعضها ، علاقة الأخ بأخيه ، وما يقابل ذلك كله من آداب الجهة الأخرى كل ذلك له آدابه في الإسلام ودراسة الكتاب والسنّة تضعك على الصراط المستقيم .

☆ ☆ ☆

يعيش الإنسان بشكل فطري ضمن دوائر :

دائرة الأسرة .

دائرة الجوار .

دائرة الحرفة .

دائرة المجتمع .

ومجتمعه يضم أبناء دينه ويضم ـ أحياناً ـ غير أبناء دينه .

ثم هناك دائرة العلاقات الإنسانية .

والأصل في علاقات أبناء الحرفة الواحدة التعاون وعدم المضارّة ، والأصل في علاقة المسلم مع المواطنين غير المسلمين تقديم البر والعدل لهم ما وفوا بعهدهم ولم يحاربوا .

قال تعالى : ﴿ **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم** ﴾ (الممتحنة : ٨) .

والأصل في العلاقات الإنسانية : الإحسان إلا في حالة الحرب أو الموقف السياسي الموجّه من قبل أمير المؤمنين . قال تعالى : ﴿ **وقولوا للناس حسناً** ﴾ (البقرة : ٨٣) .

ونحن في هذا الفصل سننقل كلام الغزالي في أدب العلاقات مع المسلم والجار والوالدين والأرحام والزوجة والإخوان ، وما سوى ذلك من أدب العلاقات لابد من تتبعه .

وإنما ذكرنا ذلك لتقرأ وتبحث وتحقق وتستقصي وتتحقق . وهذا الكتاب يعطيك زاداً ونقاط علام] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الأولى : في حقوق المسلم

قال الغزالي رحمه الله :

هي : أن تسلم عليه إذا لقيته ، وتجيبه إذا دعاك ، وتشمته إذا عطس ، وتعوده إذا مرض ، وتشهد جنازته إذا مات ، وتبر قسمه إذا أقسم عليك ، وتنصح له إذا استنصحك ، وتحفظه بظهر الغيب إذا غاب عنك ، وتحب له ما تحب لنفسك وتكره له ما تكره لنفسك ، ورد جميع ذلك في أخبار وآثار ، (ومن الحقوق ما ذكره) ابن عباس رضي الله عنهما في معنى قوله تعالى : ﴿ رحماء بينهم ﴾ (الفتح : ٢٩) قال : يدعو صالحهم لطالحهم وطالحهم لصالحهم ، فإذا نظر الطالح إلى الصالح من أمة محمد ﷺ قال : اللهم بارك له فيما قسمت له من الخير وثبته عليه وانفعنا به ، وإذا نظر الصالح إلى الطالح قال : اللهم اهده وتب عليه واغفر له عثرته .

ومنها : أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه قال النعمان بن بشير : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى سائره بالحمى والسهر »[١] وروى أبو موسى عنه ﷺ أنه قال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً »[٢] .

ومنها : أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول ؟ قال ﷺ : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده »[٣] وقال ﷺ في حديث طويل يأمر فيه بالفضائل : « فإن لم تقدر فدع الناس من الشر فإنها صدقة تصدقت بها على نفسك »[٤] وقال أيضاً : « أفضل المسلمين من سلم المسلمون من لسانه ويده »[٥] ، وقال ﷺ : « أتدرون من المسلم ؟ » فقالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » ، قالوا : فمن المؤمن ؟ قال : « من أمنه

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

المؤمنون على أنفسهم وأموالهم » قالوا : فمن المهاجر ؟ قال : « من هجر السوء واجتنبه »[١] وقال رجل : يا رسول الله ما الإسلام ؟ قال : « يسلم المسلمون من لسانك ويدك »[٢] .

وقال ﷺ : « لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها عن ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين »[٣] .

وقال أبو هريرة رضي الله عنه : يا رسول الله علمني شيئاً أنتفع به . قال : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين »[٤] .

وقال ﷺ : « إن الله يكره أذى المؤمنين »[٥] . وقال الربيع بن خثيم : الناس رجلان : مؤمن فلا تؤذه ، وجاهل فلا تجاهله .

ومنها : أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه ، فإن الله لا يحب كل مختال فخور . قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى أوحى إليّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد »[٦] . ثم إن تفاخر عليه غيره فليحتمل ، قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾ (الأعراف : ١٩٩) . وعن ابن أبي أوفى : كان رسول الله ﷺ يتواضع لكل مسلم ولا يأنف ولا يتكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكين فيقضي حاجته[٧] .

ومنها : أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض . قال ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات »[٨] . وقال الخليل بن أحمد : ومن نمّ لك نمّ عليك ومن أخبرك بخبر غيرك أخبر غيرك بخبرك .

ومنها : أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام مهما غضب عليه . قال أبو أيوب

---

(١) أخرجه الطبراني والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه الحاكم وابن حبان في صحيحه والترمذي .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه ابن المبارك بإسناد جيد .

(٦) أخرجه أبو داود وابن ماجه واللفظ له ورجاله رجال الصحيح .

(٧) أخرجه النسائي بإسناد صحيح .

(٨) متفق عليه .

الأنصاري : قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »[١] . وقد قال ﷺ : « من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة »[٢] .

قالت عائشة رضي الله عنها : ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله [٣] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : ما عفا رجل عن مظلمة إلا زاده الله بها عزاً . وقال ﷺ : « ما نقص مال من صدقة وما زاد الله رجلاً بعفو إلا عزّاً وما من أحد تواضع لله إلا رفعه الله »[٤] .

ومنها : أن يحسن إلى كلٍ منهم ما استطاع لا يميز بين الأهل وغير الأهل . قال أبو هريرة : كان رسول الله ﷺ لا يأخذ أحد بيده فينزع يده حتى يكون الرجل هو الذي يرسلها ولم تكن ترى ركبته خارجة عن ركبة جليسه ولم يكن أحد يكلمه إلا أقبل عليه بوجهه ، ثم لم يصرفه عنه حتى يفرغ من كلامه[٥] .

ومنها : أن لا يدخل على أحد منهم إلا بإذنه بل يستأذن ثلاثاً فإن لم يؤذن له انصرف . قال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « الاستئذان ثلاث فالأولى يستنصتون والثانية يستصلحون والثالثة يأذنون أو يردون »[٦] .

ومنها : أن يخالق الجميع بخلق حسن ويعاملهم بحسب حالهم فإنه إن أراد لقاء الجاهل بالعلم والأمي بالفقه والعيِّ بالبيان آذى وتأذى .

ومنها : أن يوقر المشايخ ويرحم الصبيان . قال جابر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « ليس منا من لم يوقر كبيرنا ولم يرحم صغيرنا »[٧] . وقال ﷺ : « من إجلال الله

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم .

(٣) متفق عليه بلفظ : إلا أن تنتهك .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن .

(٦) في الصحيحين من حديث أبي موسى : الاستئذان ثلاث فإن أذن لك وإلا فارجع .

(٧) هو عند أبي داود والبخاري في الأدب بسند حسن .

إكرام ذي الشيبة المسلم »[١] . ومن تمام توقير المشايخ أن لا يتكلم بين أيديهم إلا بالإذن ، وقال جابر : قدم وفد جهينة على النبي ﷺ فقام غلام ليتكلم فقال ﷺ : « صه فأين الكبير ؟ »[٢] .

والتلطف بالصبيان من عادة رسول الله ﷺ[٣] . كان ﷺ يقدم من السفر فيتلقاه الصبيان فيقف عليهم ثم يأمر بهم فيرفعون إليه فيرفع منهم بين يديه ومن خلفه ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم[٤] . فربما تفاخر الصبيان بعد ذلك فيقول بعضهم لبعض : حملني رسول الله ﷺ بين يديه وحملك أنت وراءه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم ، وكان يؤتى بالصبي الصغير ليدعو له بالبركة وليسميه فيأخذه فيضعه في حجره فربما بال الصبي فيصيح به بعض من يراه فيقول : « لا تزرموا الصبي بوله فيدعه حتى يقضي بوله ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ويبلغ سرور أهله فيه لئلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بعده[٥] .

ومنها : أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رفيقاً ، قال ﷺ : « أتدرون على من حرمت النار ؟ » قالوا : الله ورسول أعلم ، قال : « على اللين الهين السهل القريب »[٦] .

وقال بعضهم : يا رسول الله دلّني على عمل يدخلني الجنة ، فقال : « إن من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام »[٧] . وقال عبد الله بن عمر : إن البر شيء هين ، وجه طليق وكلام ليّن . وقال ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة »[٨] .

وقال أنس رضي الله عنه : عرضت لنبي الله ﷺ امرأة وقالت : لي معك حاجة ، وكان معه ناس من أصحابه ، فقال : « اجلسي في أي نواحي السكك شئت أجلس إليك ، ففعلت فجلس إليها حتى قضت حاجتها »[٩] .

---

(١) أخرجه أبو داود بإسناد حسن .
(٢) أخرجه الحاكم وصححه .
(٣) أخرجه البزار وفي الصحيحين : « يا أبا عمير ما فعل النغير » .
(٤) رواه مسلم .
(٥) رواه مسلم ، وأصله متفق عليه .
(٦) أخرجه الترمذي ولم يقل : « اللين » وذكرها الخرائطي وقال الترمذي حسن غريب .
(٧) أخرجه الخرائطي واللفظ له والبيهقي في شعب الإيمان بإسناد جيد .
(٨) متفق عليه .
(٩) رواه مسلم .

ومنها : أن لا يعد مسلماً بوعد إلا ويفي به قال ﷺ : « العدة دين »[١] . وقال : « ثلاث في المنافق : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أئتمن خان »[٢] ، وقال : « ثلاث من كن فيه فهو منافق وان صام وصلى »[٣] وذكر ذلك .

ومنها : أن ينصف الناس من نفسه ولا يأتي إليهم إلا بما يحب أن يؤتى إليه قال ﷺ : « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال : الإنفاق من الإقتار والإنصاف من نفسه وبذل السلام »[٤] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وليؤت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه »[٥] .

ومنها : أن يزيد في توقير من تدل هيئته وثيابه على علو منزلته فينزل الناس منازلهم . روي أن عائشة رضي الله عنها كانت في سفر فنزلت منزلاً فوضعت طعامها فجاء سائل فقالت عائشة : ناولوا هذا المسكين قرصاً ، ثم مر رجل على دابة فقالت : ادعوه إلى الطعام . فقيل لها : تطعمين المسكين وتدعين هذا الغني ؟ فقالت : إن الله تعالى أنزل الناس منازل لابد لنا من أن ننزلهم تلك المنازل . هذا المسكين يرضى بقرص ، وقبيح بنا أن نعطي هذا الغني على هذه الهيئة قرصاً . وروي أنه ﷺ دخل بعض بيوته فدخل عليه أصحابه حتى غصّ المجلس وامتلأ ، فجاء جرير بن عبد الله البجلي فلم يجد مكاناً فقعد على الباب فلف رسول الله ﷺ رداءه فألقاه إليه وقال له : اجلس على هذا فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، ثم لفه ورمى به إلى النبي ﷺ وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني ، فنظر النبي ﷺ يميناً وشمالاً ثم قال : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه »[٦] . وكذلك كل من له عليه حق قديم فليكرمه . روي أن ظئر رسول الله ﷺ التي أرضعته جاءت إليه فبسط لها رداءه ثم قال لها : « مرحباً بأمي » ثم أجلسها على الرداء ثم قال لها : « اشفعي تشفعي وسلي

---

(١) رواه أبو داود في المراسيل .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري وأصله متفق عليه .

(٤) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث عمار بن ياسر ووقفه البخاري عليه .

(٥) أخرجه مسلم .

(٦) أخرجه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

تعطي » فقالت : قومي . فقال : أما حقي وحق بني هاشم فهو لك . فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحقنا يا رسول الله . ثم وصلها بعد وأخدمها ووهب لها سهمانه بحنين[١] فبيع ذلك من عثمان بن عفان رضي الله عنه بمائة ألف درهم ، ولربما أتاه من يأتيه وهو على وسادة جالس ولا يكون فيها سعة يجلس معه فينزعها ويضعها تحت الذي يجلس إليه فإن أبى عزم عليه حتى يفعل[٢] .

ومنها : أن يصلح ذات البين بين المسلمين مهما وجد إليه سبيلاً . قال ﷺ : « ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة ؟ » قالوا : بلى . قال : « إصلاح ذات البين وفساد ذات البين هي الحالقة »[٣] .

وعن النبي ﷺ فيما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ جالس إذ ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما الذي أضحكك ؟ قال : « رجلان من أمتي جثيا بين يدي رب العزة فقال أحدهما : يارب خذ لي مظلمتي من هذا ، فقال الله تعالى : ردّ على أخيك مظلمته . فقال : يارب لم يبق لي من حسناتي شيء ، فقال الله تعالى للطالب : كيف تصنع بأخيك ولم يبق له من حسناته شيء ؟ فقال : يارب فليحمل عني من أوزاري . ثم فاضت عينا رسول الله ﷺ بالبكاء . فقال : إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس فيه إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال : فيقول الله تعالى ـ أي للمتظلم ـ ارفع بصرك فانظر في الجنان فقال : يارب أرى مدائن من فضة وقصوراً من ذهب مكللة باللؤلؤ لأي نبي هذا أو لأي صديق أو لأي شهيد ؟ قال الله تعالى : هذا لمن أعطى الثمن قال : يارب ومن يملك ذلك ؟ قال : أنت . فأدخله الجنة . ثم قال ﷺ : اتقو الله وأصلحوا ذات بينكم فإن الله تعالى يصلح بين المؤمنين يوم القيامة »[٤] . وقد قال ﷺ : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً »[٥] . وهذا يدل على وجوب الإصلاح بين الناس لأن ترك الكذب

---

(١) أخرجه أبو داود والحاكم وصححه .

(٢) أخرجه أحمد وإسناده صحيح .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وصححه .

(٤) أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٥) متفق عليه .

واجب ولا يسقط الواجب إلا بواجب آكد منه قال ﷺ : « كل الكذب مكتوب إلا أن يكذب الرجل في الحرب فإن الحرب خدعة أو يكذب بين اثنين فيصلح بينهما أو يكذب لامرأته ليرضيها »[١] .

ومنها : أن يستر عورات المسلمين كلهم قال ﷺ : « من ستر على مسلم ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة »[٢] وقال : « لا يستر عبد عبداً إلا ستره الله يوم القيامة »[٣] . وقال ﷺ لهزال الذي أتى بماعز : « لو سترته بثوبك كان خيراً لك »[٤] . فإذن على المسلم أن يستر عورة نفسه فحق إسلامه واجب عليه كحق إسلام غيره ، قال أبو بكر رضي الله عنه : لو وجدت شارباً لأحببت أن يستره الله ولو وجدت سارقاً لأحببت أن يستره الله . وروي أن عمر رضي الله عنه كان يعس بالمدينة ذات ليلة فرأى رجلاً وامرأة على فاحشة فلما أصبح قال للناس : أرأيتم لو أن إماماً رأى رجلاً وامرأة على فاحشة فأقام عليهما الحد ما كنتم فاعلين ؟ قالوا : إنما أنت إمام ، فقال عليّ رضي الله عنه : ليس ذلك لك ، إذاً يقام عليك الحد إن الله لم يأمن على هذا الأمر أقل من أربعة شهود ، ثم تركهم ما شاء الله أن يتركهم ثم سألهم ، فقال القوم مقالتهم الأولى ، فقال عليّ رضي الله عنه مثل مقالته الأولى . وهذا يشير إلى أن عمر رضي الله عنه كان متردداً في أن الوالي هل له أن يقضي بعلمه في حدود الله ؟ فلذلك راجعهم في معرض التقدير لا في معرض الإخبار خيفة من أن لا يكون له ذلك فيكون قاذفاً بإخباره ، ومال إلى رأي عليّ إلى أنه ليس له ذلك . وهذا من أعظم الأدلة على طلب الشرع لستر الفواحش فإن أفحشها الزنا ، وقد نيط بأربعة من العدول ـ يشاهدون ذلك منه في ذلك منها كالمرود في المكحلة ـ وهذا قط لا يتفق وإن علمه القاضي تحقيقاً لم يكن له أن يكشف عنه . فانظر إلى الحكمة في حسم باب الفاحشة بإيجاب الرجم الذي هو أعظم العقوبات ثم انظر إلى كثيف ستر الله كيف أسبله على العصاة من خلقه بتضييق الطريق في كشفه ؟ فنرجو أن لا نحرم هذا الكرم يوم تبلى السرائر . ففي الحديث : « إن الله إذا ستر على عبد عورته في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها

---

(١) لمسلم نحوه .

(٢) أخرجه مسلم .

(٣) رواه مسلم .

(٤) أخرجه مالك .

في الآخرة وإن كشفها في الدنيا فهو أكرم من أن يكشفها مرة أخرى »[١] .

وقد قال رسول الله ﷺ لمعاوية : « إنك إن تتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت تفسدهم »[٢] . وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في جوف بيته »[٣] ، وقال بعضهم : كنت قاعداً مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، لو رأيت أحداً على حد من حدود الله تعالى ما أخذته ولا دعوت له أحداً حتى يكون معي غيري . وقال بعضهم : كنت قاعداً مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إذ جاءه رجل بآخر فقال : هذا نشوان ، فقال عبد الله بن مسعود : استنكهوه فاستنكهوه فوجده نشواناً فحبسه حتى ذهب سكره ، ثم دعا بسوط فكسر ثمره ثم قال للجلاد : اجلد وارفع يدك وأعط كل عضو حقه فجلده وعليه قباء أو مرط ، فلما فرغ قال للذي جاء به : ما أنت منه ؟ قال : عمه ، قال عبد الله : ما أدبت فأحسنت الأدب ولا سترت الحرمة ! إنه ينبغي للإمام إذا انتهى إليه حد أن يقيمه وإن الله عفو يحب العفو ثم قرأ : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا** ﴾ (النور : ٢٢) ثم قال : إني لأذكر أول رجل قطعه النبي ﷺ أتي بسارق فقطعه فكأنما أسف وجهه ، فقالوا : يا رسول الله كأنك كرهت قطعه ، فقال : « وما يمنعني ! لا تكونوا عوناً للشياطين على أخيكم ؟ » فقالوا : ألا عفوت عنه ؟ فقال : « إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حد أن يقيمه إن الله عفو يحب العفو وقرأ : ﴿ **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم** ﴾ »[٤] . وفي رواية فكأنما سفي في وجه رسول الله ﷺ رماد لشدة تغيره وقال رجل لعبد الله بن عمر : يا أبا عبد الرحمن كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى يوم القيامة ؟ قال سمعته يقول : « إن الله ليدني منه المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره من الناس فيقول : أتعرف ذنب كذا أتعرف ذنب كذا فيقول : نعم يارب ، حتى إذا قرره بذنوبه فرأى في نفسه أنه قد هلك قال له : يا عبدي إني لم أسترها عليك في

---

(١) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٢) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح .

(٣) أخرجه أبو داود بإسناد جيد .

(٤) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد .

الدنيا إلا وأنا أريد أن أغفرها لك اليوم ، فيعطى كتاب حسناته . وأما الكافرون والمنافقون (فتقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين)[١] ، وقال ﷺ : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين »[٢] ، وقال ﷺ : « من استمع خبر قوم وهم له كارهون صب في أذنه الآنك يوم القيامة »[٣] .

ومنها : أن يتقي مواضع التهم صيانة لقلوب الناس عن سوء الظن ولألسنتهم عن الغيبة فإنهم إذا عصوا الله بذكره وكان هو السبب فيه كان شريكاً قال الله تعالى : ﴿ **ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم** ﴾ (الأنعام : ١٠٨) وقال ﷺ : « كيف ترون من يسب أبويه ؟ » فقالوا : وهل من أحد يسب أبويه ؟ فقال : « نعم ؛ يسب أبوي غيره فيسبون أبويه »[٤] . وقد روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ كلم إحدى نسائه فمر به رجل فدعاه رسول الله ﷺ وقال : « يا فلان هذه زوجتي صفية » فقال : يارسول الله من كنت أظن فيه فإني لم أكن أظن فيك ، فقال : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »[٥] .

وزاد في رواية : « إني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً وكانا رجلين فقال : على رسلكما إنها صفية .. الحديث »[٦] وكانت قد زارته في العشر الأواخر من رمضان . وقال عمر رضي الله عنه : من أقام نفسه مقام التهم فلا يلومنّ من أساء به الظن . ومر برجل يكلم امرأة على ظهر الطريق فعلاه بالدرة فقال : يا أمير المؤمنين إنها امرأتي فقال : هلا حيث لا يراك أحد من الناس ؟ .

ومنها : أن يشفع لكل من له حاجة من المسلمين إلى من له عنده منزلة ويسعى في قضاء حاجته بما يقدر عليه ، قال ﷺ : « إني أوتى وأسأل وتطلب إليّ الحاجة وأنتم عندي فاشفعوا

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري .

(٤) متفق عليه .

(٥) رواه مسلم .

(٦) متفق عليه .

لتـؤجروا ويقضي الله على يـدي نبيـه مـا أحب »(١) ، وقـال رسـول الله ﷺ : « اشفعـوا إليّ لتؤجروا إني أريد الأمر وأؤخّره كي تشفعوا إليّ فتؤجروا » ، وروى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن زوج بريرة كان عبداً يقال له مغيث كأني أنظر إليـه خلفهـا وهو يبكي ودموعـه تسيل على لحيته ، فقال ﷺ للعباس : « ألا تعجب من شدّة حب مغيث لبريرة وشـدة بغضهـا له ! فقال النبي ﷺ : لو راجعتِه فإنه أبو ولـدك ، فقـالت : يـا رسول الله أتـأمرني فـأفعل ؟ فقال : لا إنما أنا شافع »(٢) .

ومنها : أن يبدأ كل مسلم منهم بالسلام قبل الكلام ويصافحه عند السلام .

وقـال بعضهم : دخلت على رسول الله ﷺ ولم أسلم ولم أستـأذن فقـال النبي ﷺ : « ارجـع فقل السلام عليكم أأدخل »(٣) . وقـال عليـه الصـلاة والسـلام : « وإذا دخلت منزلـك فسلم على أهل بيتك يكثر خير بيتك »(٤) .

وقال تعالى : ﴿ **وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منهـا أو ردوهـا** ﴾ (النسـاء : ٨٦) وقال عليه الصلاة والسلام : « والذي نفسي بيـده لا تـدخلوا الجنـة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحـابوا أفلا أدلكم على عمل إذا عملتموه تحـاببتم ؟ قـالوا بلى يـا رسول الله ، قـال : أفشـوا السـلام بينكم »(٥) .

وقـال عليـه الصلاة والسـلام : « يسلم الراكب على المـاضي وإذا سلم من القـوم واحـد أجـزأ عنهم »(٦) .

والمصافحة أيضاً سنة مع السلام وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : السلام عليكم ، فقـال عليه الصلاة والسلام : « عشر حسنات » فجـاء آخر فقـال : السـلام عليكم ورحمـة الله ، فقـال :

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه البخاري .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه .

(٤) للترمذي وصححه : « إذا دخلت على أهلك فسلم يكون بركة عليك وعلى أهل بيتك » .

(٥) أخرجه مسلم .

(٦) رواه مالك في الموطأ .

« عشرون حسنة » فجاء آخر فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فقال : « ثلاثون » [١] وكان أنس رضي الله عنه يمرّ على الصبيان فيسلم عليهم[٢] ويروى عن رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك . وروى عبد الحميد بن بهرام : أنه ﷺ مر في المسجد يوماً وعصبة من الناس قعود فأومأ بيده بالسلام ، وأشار عبد الحميد بيده إلى الحكاية[٣] .

قالت عائشة رضي الله عنها : إنّ رهطاً من اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا : السامّ عليك . فقال النبي ﷺ : « عليكم » قالت عائشة رضي الله عنها : فقلت بل عليكم السامّ واللعنة فقال عليه الصلاة والسلام : « يا عائشة إن الله يحب الرفق في كل شيء » قالت عائشة : ألم تسمع ما قالوا ؟ قال : « فقد قلت عليكم »[٤] . وقال عليه الصلاة والسلام : « يسلم الراكب على الماشي والماشي على القاعد والقليل على الكثير والصغير على الكبير »[٥] . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا انتهى أحدكم إلى مجلس فليسلم فإن بدا له أن يجلس فليجلس ، ثم إذا قام فليسلم فليست الأولى بأحق من الأخيرة »[٦] . وقال الحسن : المصافحة تزيد في الود . ولا بأس بقبلة يد المعظم في الدين تبركاً به وتوقيراً له . وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قبلنا يد النبي ﷺ[٧] . وروي أنّ أعرابياً قال : يا رسول الله ائذن لي فأقبل رأسك ويدك قال : فأذن له ففعل[٨] . ولقي أبو عبيدة عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فصافحه وقبل يده وتنحيا يبكيان ، وعن البراء بن عازب رضي الله عنه : أنه سلم على رسول الله ﷺ وهو يتوضأ فلم يرد عليه حتى فرغ من وضوئه فرد عليه ومدّ يده إليه فصافحه فقال : يا رسول الله ما كنت أرى هذا إلا من أخلاق الأعاجم ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إن المسلمين إذا التقيا فتصافحا تحاتّت ذنوبهما »[٩] . وعن النبي ﷺ قال : « إذا مر الرجل بالقوم فسلم عليهم فردوا عليه كان له عليهم

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وقال البيهقي في الشعب إسناده حسن .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن .

(٤) متفق عليه .

(٥) متفق عليه .

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وحسّنه .

(٧) أخرجه أبو داود بسند حسن .

(٨) أخرجه الحاكم من حديث بريدة إلا أنه قال : رجليك موضع يدك وقال صحيح الإسناد .

(٩) عند أبي داود والترمذي وابن ماجه مختصراً : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرقا » قال الترمذي حسن غريب .

فضل درجة لأنه ذكّرهم السلام وإن لم يردوا عليه رد عليه ملأ خير منهم وأطيب ـ أو قال وأفضل ـ »[١] . والانحناء عند السلام منهيّ عنه قال أنس رضي الله عنه : قلنا : يا رسول الله أينحني بعضنا لبعض ؟ قال : لا . قال : فيقبّل بعضنا بعضاً . قال : لا . قال : فيصافح بعضنا بعضاً قال : نعم[٢] . والالتزام والتقبيل قد ورد به الخبر عند القدوم من السفر[٣] . وقال أبو ذرّ رضي الله عنه : ما لقيته ﷺ إلا صافحني ، وطلبني يوماً فلم أكن في البيت فلما أُخبرت جئت وهو على سرير فالتزمني فكانت أجود وأجود[٤] . والأخذ بالركاب في توقير العلماء ورد به الأثر ، فعلَ ابن عباس ذلك بركاب زيد بن ثابت[٥] . وأخذ عمر بغرز زيد حتى رفعه وقال : هكذا فافعلوا بزيد وأصحاب زيد .

والقيام مكروه على سبيل الإعظام لا على سبيل الإكرام قال أنس : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ ؟ وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك[٦] . وقال عليه الصلاة والسلام : « من سره أن يمثل له الرجال قياماً فليتبوأ مقعده من النار »[٧] . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يقم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا »[٨] . وكانوا يحترزون عن ذلك لهذا النهي . وقال ﷺ : « إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته فإنما هي كرامة أكرمه بها أخوه فإن لم يوسع له فلينظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه »[٩] . وروي أنه سلم رجل على رسول الله ﷺ وهو يبول فلم يجب[١٠]. فيكره السلام على من يقضي حاجته ، ويكره أن يقول ابتداء : عليك السلام ، فإنه

---

(١) أخرجه الخرائطي والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود مرفوعاً وضعف البيهقي المرفوع ورواه موقوفاً عليه بسند صحيح .
(٢) أخرجه الترمذي وحسنه .
(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب .
(٤) أخرجه أبو داود .
(٥) أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد على شرط مسلم .
(٦) أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح .
(٧) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن .
(٨) متفق عليه .
(٩) أخرجه البغوي ورجاله ثقات .
(١٠) أخرجه مسلم .

قاله رجل لرسول الله ﷺ فقال عليه الصلاة والسلام : « إن عليك السلام تحية الموتى » قالها ثلاثاً ، ثم قال : « إذا لقي أحدكم أخاه فليقل : السلام عليكم ورحمة الله »[١] ويستحب للداخل إذا سلم ولم يجد مجلساً أن لا ينصرف بل يقعد وراء الصف . كان رسول الله ﷺ جالساً في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ فأما أحدهما فوجد فرجة فجلس فيها وأما الثاني فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهباً ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة . أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض فأعرض الله عنه »[٢] . وقال ﷺ : « ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يتفرّقا »[٣] . وسلمت أمّ هانيء على النبي ﷺ فقال : « من هذه ؟ » فقيل له : أم هانيء . فقال عليه الصلاة والسلام : « مرحباً بأم هانيء »[٤] .

ومنها : أن يصون عرض أخيه المسلم ونفسه وماله عن ظلم غيره مهما قدر ويرد عنه ويناضل دونه وينصره فإن ذلك يجب عليه بمقتضى أخوة الإسلام . روى أبو الدرداء : أن رجلاً نال من رجل عند رسول الله ﷺ فرد عنه رجل فقال النبي ﷺ : « من ردَّ عن عرض أخيه كان له حجاباً من النار »[٥] . وقال ﷺ : « ما من امرىء مسلم يرد عن عرض أخيه إلا كان حقّاً على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة »[٦] . وقال جابر وأبو طلحة : سمعنا رسول الله ﷺ يقول : « ما من امرىء مسلم ينصر مسلماً في موضع ينتهك فيه عرضه ويستحل حرمته إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصره وما من امرىء خذل مسلماً في موطن ينتهك فيه حرمته إلا خذله الله في موضع يحب فيه نصرته »[٧] .

ومنها : تشميت العاطس . قال عليه الصلاة والسلام في العاطس : « يقول : الحمد لله على كل حال ، ويقول الذي يشمته : يرحمكم الله ، ويرد عليه العاطس فيقول : يهديكم الله ويصلح

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وقال الترمذي حسن صحيح .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه الترمذي وحسنه .

(٦) أخرجه أحمد .

(٧) أخرجه أبو داود .

بالكم »(٣) . وشمت رسول الله ﷺ عاطساً ولم يشمت آخر فسأله عن ذلك فقال : « إنه حمد الله وأنت سكت »(٢) . وقال ﷺ : « يشمت العاطس المسلم إذا عطس ثلاثاً فإن زاد فهو زكام »(٣) . وروي أنه شمت عاطساً ثلاثاً فعطس أخرى فقال : « إنك مزكوم »(٤) . وقال أبو هريرة : كان رسول الله ﷺ إذا عطس غض صوته واستتر بثوبه أو يده(٥) . وروي خَمَّرَ وجهه . وقال أبو موسى الأشعري : كان اليهود يتعاطسون عند رسول الله ﷺ رجاء أن يقول : يرحمكم الله فكان يقول : « يهديكم الله »(٦) . وروى عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه : أن رجلاً عطس خلف النبي ﷺ في الصلاة فقال : الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى والحمد لله على كل حال ، فلما سلم النبي ﷺ قال : « من صاحب الكلمات ؟ » فقال : أنا يا رسول الله ما أردت بهن إلا خيراً ، فقال : لقد رأيت اثني عشر ملكاً كلهم يبتدرونها أيهم يكتبها »(٧) . وقال عليه الصلاة والسلام : « العطاس من الله والتثاؤب من الشيطان فإذا تثاءب أحدكم فليضع يده على فيه ، فإذا قال : هاها ، فإن الشيطان يضحك من جوفه »(٨) . وقال إبراهيم النخعي : إذا عطس في قضاء الحاجة فلا بأس بأن يذكر الله . وقال الحسن : يحمد الله في نفسه .

ومنها : إذا بلي بذي شر فينبغي أن يتحمله ويتقيه قال بعضهم : خالص المؤمن مخالصة وخالق الفاجر مخالقة فإن الفاجر يرضى بالخلق الحسن في الظاهر . وقال أبو الدرداء : إنا لنبش في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم وهذا معنى المداراة وهي مع من يخاف شره ، قال الله تعالى : ﴿ **ادفع بالتي هي أحسن السيئة** ﴾ (المؤمنون : ٩٦) قال ابن عباس في معنى قوله : ﴿ **ويدرءون بالحسنة السيئة** ﴾ (الرعد : ٢٢) أي الفحش والأذى بالسلام والمداراة . وقالت

---

(١) أخرجه أبو داود .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أبو داود وإسناده جيد .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح . وفي رواية لأبي نعيم في اليوم والليلة « وخمر وجهه وفاه » .

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

(٧) أخرجه أبو داود وإسناده جيد .

(٨) متفق عليه دون قوله : « العطاس من الله » فرواه الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة .

عائشة رضي الله عنها : استأذن رجل على رسول الله ﷺ فقال : « ائذنوا له فبئس رجل العشيرة هو » فلما دخل ألان له القول حتى أن له عنده منزلة فلما خرج قلت له : لما دخل قلت الذي قلت ، ثم ألنت له القول فقال : « يا عائشة إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه »(١) .

وفي الأثر : خالطوا الناس بأعمالكم وزايلوهم بالقلوب . وقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه : ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بداً حتى يجعل الله له منه فرجاً .

ومنها : أن يجتنب مخالطة الغافلين من أهل الدنيا ويختلط بالمساكين ويحسن إلى الأيتام كان النبي ﷺ يقول : « اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين »(٢) . وقال عليه الصلاة والسلام : « إياكم ومجالسة الموتى ، قيل : ومن الموتى يا رسول الله ؟ قال : الأغنياء »(٣) .

ومنها : النصيحة لكل مسلم والجهد في إدخال السرور على قلبه قال ﷺ : « المؤمن يحب للمؤمن كما يحب لنفسه »(٤) وقال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وقال ﷺ : « إن أحدكم مرآة أخيه فإذا رأى فيه شيئاً فليمطه عنه »(٥) وقال ﷺ : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » فقيل : كيف ينصره ظالماً ؟ قال : « يمنعه من الظلم »(٦) .

ومنها : أن يعود مرضاهم فالمعرفة والإسلام كافيان في إثبات هذا الحق ونيل فضله . وأدب العائد : خفة الجلسة وقلة السؤال وإظهار الرقة والدعاء بالعافية وغض البصر عن عورات الموضع . وعند الاستئذان لا يقابل الباب ويدق برفق ولا يقول : أنا ، إذا قيل له : مَنْ ؟ ولا يقول : يا غلام ، ولكن يحمد ويسبح وقال ﷺ : « تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه .

(٣) أخرجه الترمذي وضعفه والحاكم وصحح إسناده من حديث عائشة : « إياك ومجالسة الأغنياء » .

(٤) معناه متفق عليه .

(٥) رواه أبو داود والترمذي وهو حسن .

(٦) متفق عليه .

يده على جبهته أو على يده ويسأله كيف هو وتمام تحياتكم المصافحة »[١] . وقال ﷺ : « من عاد مريضاً قعد في مخارف الجنة حتى إذا قام وُكِّلَ به سبعون ألف ملك يصلون عليه حتى الليل »[٢] . وقال رسول ﷺ : « إذا عاد الرجل المريض خاض في الرحمة فإذا قعد عنده قرت فيه »[٣] . وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا مرض العبد بعث الله تبارك وتعالى إليه ملكين فقال : انظر ماذا يقول لعوّاده ؟ فإن هو إذا جاءوه حمد الله وأثنى عليه رفعا ذلك إلى الله وهو أعلم فيقول : لعبدي عليّ إن توفيته أن أدخله الجنة وإن أنا شفيته أن أبدل له لحماً خيراً من لحمه ودماً خيراً من دمه وأن أكفر عنه سيئاته »[٤] . وقال رسول الله ﷺ : « من يرد الله به خيراً يصب منه »[٥] . وقال عثمان رضي الله عنه : مرضت فعادني رسول الله ﷺ فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، أعيذك بالله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد من شر ما تجد » قالها مراراً [٦] . وقال طاوس : أفضل العيادة أخفها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : عيادة المريض مرة سنّة فما ازدادت فنافلة ، وقال بعضهم : عيادة المريض بعد ثلاث .

وجملة أدب المريض : حسن الصبر وقلة الشكوى والضجر ، والفزع إلى الدعاء والتوكل بعد الدواء على خالق الدواء .

ومنها : أن يشيّع جنائزهم قال ﷺ : « من شيّع جنازة فله قيراط من الأجر فإن وقف حتى تدفن فله قيراطان »[٧] . وفي الخبر « القيراط مثل أحد »[٨] . ولما روى أبو هريرة هذا الحديث وسمعه ابن عمر قال : لقد فرطنا إلى الآن في قراريط كثيرة . والقصد من التشييع قضاء حق المسلمين والاعتبار . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال : اغدوا فإنا رائحون ، موعظة بليغة وغفلة سريعة يذهب الأول والآخر لا عقل له . وخرج مالك بن دينار

---

(١) أخرجه الترمذي .

(٢) أخرجه أصحاب السنن والحاكم وابن ماجه وصححه الحاكم وحسنه الترمذي .

(٣) أخرجه الحاكم والبيهقي قال الحاكم صحيح على شرط مسلم وكذا صححه ابن عبد البر .

(٤) أخرجه مالك وإسناده جيد .

(٥) أخرجه البخاري .

(٦) أخرجه ابن السني والطبراني والبيهقي بإسناد حسن .

(٧) أخرجه الشيخان .

(٨) أخرجه مسلم وأصله متفق عليه .

خلف جنازة أخيه وهو يبكي ويقول : والله لا تقرّ عيني حتى أعلم إلى ما صرت ، ولا والله لا أعلم ما دمت حيّاً . وقال الأعمش : كنا نشهد الجنائز فلا ندري لمن نعزي لحزن القوم كلهم ؟ ونظر إبراهيم الزيات إلى قوم يترحمون على ميت فقال : لو ترحمون أنفسكم لكان أولى ! إنه نجا من أهوال ثلاث : وجه ملك الموت قد رأى ، ومرارة الموت قد ذاق ، وخوف الخاتمة قد أمن . وقال ﷺ : « يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد : يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله »[1] .

ومنها : أن يزور قبورهم والمقصود من ذلك الدعاء والاعتبار وترقيق القلب قال ﷺ : « ما رأيت منظراً إلا والقبر أفظع منه »[2] وقال عمر رضي الله عنه : خرجنا مع رسول الله ﷺ فأتى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه . فبكى وبكينا ، فقال : « ما يبكيكم ؟ » قلنا : بكينا لبكائك . قال : « هذا قبر آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي واستأذنته في أن أستغفر لها فأبى عليّ فأدركني ما يدرك الولد من الرقة »[3] . وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى تبتل لحيته ويقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن القبر أوّل منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد »[4] . وقال أبو ذر : ألا أخبركم بيوم فقري يوم أوضع في قبري . وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقيل له في ذلك فقال : أجلس إلى قوم يذكرونني معادي وإن قمت عنهم لم يغتابوني . وقال حاتم الأصم : من مر بالمقابر فلم يتفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم .

وآداب المعزي : خفض الجناح وإظهار الحزن وقلة الحديث وترك التبسم .

وآداب تشييع الجنازة : لزوم الخشوع وترك الحديث وملاحظة الميت والتفكر في الموت والاستعداد له وأن يمشي أمام الجنازة بقربها والإسراع بالجنازة سنة[5] فهذه جمل آداب تنبه على

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث عثمان وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن غريب .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصحح إسناده .

(٥) متفق عليه .

المعاشرة مع عموم الخلق .

والجملة الجامعة فيه : أن لا تستصغر منهم أحداً حيّاً كان أو ميتاً فتهلك لأنك لا تدري لعله خير منك ؟ فإنه وإن كان فاسقاً فلعله يختم لك بمثل حاله ويختم له بالصلاح ؟ ولا تنظر إليهم بعين التعظيم لهم في حال دنياهم فإن الدنيا صغيرة عند الله صغير ما فيها . ومهما عظم أهل الدنيا في نفسك فقد عظمت الدنيا فتسقط من عين الله ، ولا تبذل لهم دينك لتنال من دنياهم فتصغر في أعينهم ثم تحرم دنياهم فإن لم تحرم كنت قد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير . ولا تعادهم بحيث تظهر العداوة فيطول الأمر عليك في المعاداة ويذهب دينك ودنياك فيهم ويذهب دينهم فيك ، إلا إذا رأيت منكراً في الدين فتعادي أفعالهم القبيحة وتنظر إليهم بعين الرحمة لهم لتعرّضهم لمقت الله وعقوبته بعصيانهم فحسبهم جهنم يصلونها ، فما لك تحقد عليهم ؟ ولا تسكن إليهم في مودتهم لك وثنائهم عليك في وجهك وحسن بشرهم لك فإنك إن طلبت حقيقة ذلك لم تجد في المائة إلا واحداً وربما لاتجده . ولا تشك إليهم أحوالك فيكلك الله إليهم ولا تطمع أن يكونوا لك في الغيب والسر كما في العلانية فذلك طمع كاذب وأنى تظفر به ؟ ولا تطمع فيما في أيديهم فتستعجل الذل ولا تنال الغرض . ولا تعل عليهم تكبراً لاستغنائك عنهم فإن الله يلجئك إليهم عقوبة على التكبر بإظهار الاستغناء . وإذا سألت أخاً منهم حاجة فقضاها فهو أخ مستفاد وإن لم يقض فلا تعاتبه فيصير عدوّاً تطول عليك مقاساته . ولا تشتغل بوعظ من لا ترى فيه مخايل القبول فلا يسمع منك ويعاديك ، وليكن وعظك عرضاً واسترسالاً من غير تنصيص على الشخص . ومهما رأيت منهم شرّاً أو أصابك منهم ما يسوءك فَكِلْ أمرهم إلى الله واستعذ بالله من شرهم . ولا تشغل نفسك بالمكافأة فيزيد الضرر ويضيع العمر بشغله . ولا تقل لهم لم تعرفوا موضعي .

واعتقد أنك لو استحققت ذلك لجعل الله لك موضعاً في قلوبهم فالله المُحَبِّبُ والمُبَغِّضُ إلى القلوب وكن فيهم سميعاً لحقهم أصم عن باطلهم نطوقاً بحقهم صموتاً عن باطلهم [إلا ما أوجب عليك الشارع إنكاره] . واحذر صحبة أكثر الناس فإنهم لا يقيلون عثرة ولا يغفرون زلة ولا يسترون عورة ويحاسبون على النقير والقطمير ويحسدون على القليل والكثير ، ينتصفون ولا ينصفون ويؤاخذون على الخطأ والنسيان ولا يعفون ، يغرون الإخوان على الإخوان بالنميمة والبهتان ، فصحبة أكثرهم خسران وقطيعتهم رجحان ، إن رضوا فظاهرهم الملق وإن سخطوا

فباطنهم الحنق لا يؤمنون في حنقهم ولا يرجون في ملقهم ، ظاهرهم ثياب وباطنهم ذئاب ، يقطعون بالظنون ويتغامزون وراءك بالعيون ويتربصون بصديقهم من الحسد ريب المنون ، يحصون عليك العثرات في صحبتهم ليواجهوك بها في غضبهم ووحشتهم ، ولا تعوّل على مودة من لم تخبره حق الخبرة ، بأن تصحبه مدّة في دار أو موضع واحد فتجربه في عزله وولايته وغناه وفقره أو تسافر معه أو تعامله في الدينار والدرهم أو تقع في شدّة فتحتاج إليه ، فإن رضيته في الأحوال فاتخذه أباً لك إن كان كبيراً أو ابناً لك إن كان صغيراً أو أخاً لك إن كان مثلك . فهذه جملة آداب المعاشرة مع أصناف الخلق .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثانية : في حقوق الوالدين والولد

لا يخفى أنه إذا تأكد حق القرابة والرحم فأخص الأرحام وأمسها الولادة ، فيتضاعف تأكد الحق فيها . وقد قال ﷺ : « لن يجزي ولد والده حتى يجده مملوكاً فيشتريه فيعتقه »[١] . وقال ﷺ : « بر الوالدين أفضل من الصلاة والصدقة والصوم والحج والعمرة والجهاد في سبيل الله »[٢] . وقد قال ﷺ : « بر أمّك وأباك وأختك وأخاك ، ثم أدناك فأدناك »[٣] . وقال مالك بن ربيعة : بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة فقال : يا رسول الله ، هل بقي عليّ من برّ أبوي شيء أبرهما به بعد وفاتها ؟ قال : « نعم ، الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإنفاذ عهدهما ، وإكرام صديقهما ، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بها »[٤] . وقال ﷺ : « إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ود أبيه بعد أو يولي الأب »[٥] .

وقال عليه الصلاة والسلام : « كل غلام رهين أو رهينة بعقيقته تذبح عنه يوم السابع

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) روى أبو يعلى والطبراني في الصغير والأوسط من حديث أنس : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال : إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه . قال : « هل بقي من والديك أحد ؟ » قال : أمي قال : « قابل الله في برها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج ومعتمر ومجاهد » . وإسناده حسن .

(٣) أخرجه النسائي وأخرجه أحمد والحاكم ، ولأبي داود نحوه وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة : قال رجل : من أحق الناس بحسن الصحبة ؟ قال : « أمك ثم أمك ثم أمك ثم أبوك » لفظ مسلم .

(٤) أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٥) أخرجه مسلم .

ويحلق رأسه »[١] . وجاء رجل إلى عبد الله بن المبارك فشكا إليه بعض ولده ، فقال : هل دعوت عليه ؟ قال : نعم ، قال : أنت أفسدته .

ويستحب الرفق بالولد . رأى الأقرع بن حابس النبي ﷺ وهو يقبل ولده الحسن فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحداً منهم ! فقال عليه الصلاة والسلام : « إن من لا يرحم لا يُرحم »[٢] . وتعثر الحسن - والنبي ﷺ على منبره - فنزل فحمله وقرأ قوله تعالى : ﴿ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** ﴾[٣] . وقال عبد الله بن شداد : بينما رسول الله ﷺ يصلي بالناس ، إذ جاءه الحسين فركب عنقه وهو ساجد ، فأطال السجود بالناس حتى ظنوا أنه حدث أمر ، فلما قضى صلاته قالوا : قد أطلت السجود يا رسول الله حتى ظننا أنه قد حدث أمر ! فقال : « إن ابني قد ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته »[٤] . وفي ذلك فوائد : إحداها القرب من الله تعالى فإن العبد أقرب ما يكون من الله تعالى إذا كان ساجداً ، وفيه الرفق بالولد والبر وتعليم لأمته. فهذه هي الأخبار الدالة على تأكد حق الوالدين فإن هذه الرابطة آكد من الأخوة بل يزيد ههنا : أن أكثر العلماء على أن طاعة الأبوين واجبة في الشبهات ، وإن لم تجب في الحرام المحض ، حتى إذا كانا يتنغصان بانفرادك عنهما بالطعام فعليك أن تأكل معهما ، لأن ترك الشبهة ورع ، ورضا الوالدين حتم . وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما ، والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك من يعلمك ، وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها من يعلمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين .

قال أبو سعيد الخدري : هاجر رجل إلى رسول الله ﷺ من اليمن وأراد الجهاد ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هل باليمن أبواك » قال : نعم ، قال : « هل أذنا لك ؟ » قال : لا ، فقال عليه الصلاة والسلام : « فارجع إلى أبويك فاستأذنهما ، فإن فعلا فجاهد ، وإلا فبرهما فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد »[٥] . وجاء آخر إليه ﷺ ليستشيره في الغزو فقال : « ألك

---

(١) أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذي حسن صحيح .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) أخرجه أصحاب السنن . قال الترمذي حسن غريب .

(٤) رواه النسائي والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .

(٥) أخرجه أحمد وابن حبان .

والدة ؟ » قال : نعم ، قال : « فالزمها فإن الجنة عند رجليها »[١] . وجاء آخر يطلب البيعة على الهجرة وقال : ما جئتك حتى أبكيت والديَّ ، فقال : « ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما »[٢] .

☆ ☆ ☆

الفقرة الثالثة : في حقوق الأقارب والرحم

قال رسول الله ﷺ : « يقول الله تعالى أنا الرحمن وهذه الرحم شققت لها اسماً من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته »[٣] . وقال ﷺ : « من سره أن ينسأ له في أثره ويوسّع عليه في رزقه فليصل رحمه »[٤] . وفي رواية أخرى : « من سره أن يمد له في عمره ويوسع له في رزقه فليتق الله وليصل رحمه » . وقيل لرسول الله ﷺ : أي الناس أفضل ؟ قال : « أتقاهم لله وأوصلهم لرحمه . وآمرهم بالمعروف وأنهاهم عن المنكر »[٥] . وقال أبو ذر رضي الله عنه : أوصاني خليلي عليه الصلاة والسلام بصلة الرحم وإن أدبرت وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرّاً[٦] . وقال ﷺ : « إنّ الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها »[٧] . وقال زيد بن أسلم : لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة عرض له رجل فقال : إن كنت تريد النساء البيض والنوق الأدم فعليك بمدلج ، فقال عليه الصلاة والسلام : « إنّ الله قد منعني من بني مدلج بصلتهم الرحم »[٨] . وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما : قدمت عليّ أمي ، فقلت : يا رسول الله ، إنّ أمي قدمت عليّ وهي مشركة أفأصلها ؟ قال : « نعم »[٩] . وفي رواية : أفأعطيها ؟ قال : « نعم صليها » . وقال

---

(١) أخرجه النسائي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه وهو بهذه الزيادة في الرواية اللاحقة عند أحمد والحاكم بإسناد جيد .

(٥) رواه أحمد والطبراني بإسناد حسن .

(٦) رواه أحمد وابن حبان وصححه .

(٧) أخرجه الطبراني والبيهقي وهو عند البخاري دون قوله : « الرحم معلقة بالعرش » فرواه مسلم من حديث عائشة .

(٨) رواه الخرائطي وهو مرسل صحيح الإسناد .

(٩) متفق عليه .

عليه الصلاة والسلام : « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذي الرحم ثنتان »[١] . ولما أراد أبو طلحة أن يتصدّق بحائط كان له يعجبه عملاً بقوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ قال : يا رسول الله : هو في سبيل الله وللفقراء والمساكين ، فقال عليه الصلاة والسلام : « وجب أجرك على الله قسّمه في أقاربك »[٢] وقال عليه الصلاة والسلام : « أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح »[٣] . وروي أنّ عمر رضي الله عنه كتب إلى عماله : مروا الأقارب أن يتزاوروا ولا يتجاوروا ، وإنما قال ذلك لأنّ التجاور يورث التزاحم على الحقوق ، وربما يورث الوحشة وقطيعة الرحم .

☆ ☆ ☆

الفقرة الرابعة : في حقوق الجوار

اعلم أن الجوار يقتضي حقاً وراء ما تقتضيه أخوة الإسلام ، فيستحق الجار المسلم ما يستحقه كل مسلم وزيادة وقد قال ﷺ « أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً »[٤] وقال النبي ﷺ « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتي ظننت أنه سيورثه »[٥]وقال ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »[٦] . وقال ﷺ : « لا يؤمن عبد حتى يأمن جاره بوائقه »[٧] . ويروى أن رجلاً جاء إلى ابن مسعود رضي الله عنه فقال له : إن لي جاراً يؤذيني ويشتمني ويضيّق عليّ ، فقال : اذهب فإن هو عصى الله فيك فأطع الله فيه . وقيل لرسول الله ﷺ : إن فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وتؤذي جيرانها فقال ﷺ : « هي في النار »[٨] . وجاء رجل إليه عليه الصلاة والسلام يشكو جاره فقال له النبي ﷺ : « اصبر » ثم قال له في الثالثة أو الرابعة : « اطرح متاعك في الطريق » . قال : فجعل الناس يمرون به ويقولون ما لك ؟ فيقال : آذاه جاره قال فجعلوا يقولون : لعنه الله ، فجاءه جاره فقال له : ردّ متاعك فوالله لا

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه .

(٢) أخرجه البخاري .

(٣) أخرجه أحمد والطبراني والبيهقي .

(٤) أخرجه الترمذي وابن ماجه والقضاعي وهذه روايته قال الدارقطني : والحديث ثابت .

(٥) متفق عليه .

(٦) متفق عليه .

(٧) أخرجه البخاري .

(٨) أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد .

أعود[١] . واعلم أنه ليس حق الجوار كف الأذى فقط بل احتمال الأذى ، فإن الجار أيضاً قد كف أذاه فليس في ذلك قضاء حق ، ولا يكفي احتمال الأذى بل لابد من الرفق وإسداء الخير والمعروف ، وجملة حق الجار : أن يبدأه بالسلام ، ولا يطيل معه الكلام ، ولا يكثر عن حاله السؤال وذلك كي لا يضايقه ، ويعوده في المرض ويعزيه في المصيبة ، ويقوم معه في العزاء ، ويهنئه في الفرح ، ويظهر الشركة في السرور معه ، ويصفح عن زلاته ، ولا يتطلع من السطح إلى عوراته ، ولا يضايقه في وضع الجذع على جداره ، ولا في مصب الماء في ميزابه ، ولا في مطرح التراب في فنائه ، ولا يضيق طرقه إلى الدار ، ولا يتبعه النظر فيما يحمله إلى داره ، ويستر ما ينكشف له من عوراته ، وينعشه من صرعته إذا نابته نائبة ، ولا يغفل عن ملاحظة داره عند غيبته ، ولا يسمع عليه كلاماً ، ويغض بصره عن حرمته ، ولا يديم النظر إلى خادمته ، ويتلطف بولده في كلمته ، ويرشده إلى ما يجهله من أمر دينه ودنياه هذا إلى جملة الحقوق التي ذكرناها لعامة المسلمين ، قال مجاهد : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال : يا غلام إذا سلخت فابدأ بجارنا اليهودي ، حتى قال ذلك مراراً فقال له : كم تقول هذا ؟ فقال إن رسول الله ﷺ لم يزل يوصينا بالجار حتى خشينا أنه سيورثه[٢] . وقال هشام : كان الحسن لا يرى بأساً أن تطعم اليهودي والنصراني من أضحيتك ، وقال أبو ذرّ رضي الله عنه : أوصاني خليلي ﷺ وقال : « إذا طبخت قدراً فأكثر ماءها ، ثم انظر بعض أهل بيت في جيرانك فاغرف لهم منها »[٣] . وقالت عائشة رضي الله عنها : قلت يا رسول الله إن لي جارين أحدهما مقبل عليّ بابه والآخر ناء ببابه عني ، وربما كان الذي عندي لا يسعهما ، فأيهما أعظم حقاً ؟ فقال : « المقبل عليك ببابه »[٤] . ورأى الصدّيق ولده عبد الرحمن وهو يناصي جاراً له ، فقال : لا تناص جارك ، فإنّ هذا يبقى والناس يذهبون ، وقال الحسن بن عيسى النيسابوري : سألت عبد الله بن المبارك فقلت : الرجل المجاور يأتيني فيشكو غلامي أنه أتى أمراً والغلام ينكره ، فأكره أن أضربه ولعله بريء وأكره أن أدعه فيجد عليّ جاري ، فكيف أصنع ؟ قال : إنّ غلامك لعله أن يحدث حدثاً يستوجب فيه الآداب فاحفظه عليه ، فإذا

---

(١) أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن غريب .

(٣) رواه مسلم .

(٤) رواه البخاري .

شكاه جارك فأدّبه على ذلك الحدث ، فتكون قد أرضيت جارك وأدبته على ذلك الحدث ، وهذا تلطف في الجمع بين الحقين .

وقالت عائشة رضي الله عنها : خلال المكارم عشر تكون في الرجل ولا تكون في أبيه وتكون في العبد ولا تكون في سيده ، يقسمها الله تعالى لمن أحب : صدق الحديث ، وصدق الناس ، وإعطاء السائل ، والمكافأة بالصنائع ، وصلة الرحم ، وحفظ الأمانة ، والتذمم للجار ، والتذمم للصاحب ، وقرى الضيف ، ورأسهن الحياء . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر المسلمات لا تحقرنّ جارة لجارتها ولو فرسن شاة »[١] . قال ﷺ : « إن من سعادة المرء المسلم : المسكن الواسع ، والجار الصالح ، والمركب الهني »[٢] . وقال عبد الله : قال رجل : يا رسول الله ، كيف لي أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت ؟ قال : « إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت ، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت »[٣] . وقال جابر رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « من كان له جار في حائط أو شريك فلا يبعه حتى يعرضه عليه »[٤] . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : قضى رسول الله ﷺ : « أن الجار يضع جذعه في حائط جاره شاء أم أبى »[٥] . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « لا يمنعن أحدكم جاره أن يضع خشبة في جداره » .

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول : ما لي أراكم عنها معرضين ، والله لأرمينها بين أكتافكم . وقد ذهب بعض العلماء إلى وجوب ذلك . وقال ﷺ : « من أراد الله به خيراً عسّله » قيل : وما عسله ؟ قال : « يحببه إلى جيرانه »[٦] .

☆ ☆ ☆

---

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٣) رواه أحمد والطبراني وإسناده جيد .

(٤) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٥) متفق عليه .

(٦) أخرجه الخرائطي والبيهقي بإسناد جيد .

الفقرة الخامسة : [في آداب العلاقات الزوجية]

أما الزوج فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً : في الوليمة ، والمعاشرة ، والدعابة ، والسياسة ، والغيرة ، والنفقة ، والتعليم ، والقسم ، والتأديب في النشوز ، والوقاع ، والولادة ، والمفارقة بالطلاق .

الأدب الأوّل : وهي الوليمة أي عند الزواج ، وهي مستحبة ، قال أنس رضي الله عنه : رأى رسول الله ﷺ على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة فقال : «ما هذا؟» قال : تزوّجت امرأة على وزن نواة من ذهب . فقال : « بارك الله لك أَوْلِم ولو بشاة »(١) . وأولم رسول الله ﷺ على صفية بتمر وسويق(٢) . وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج : بارك الله لك وبارك عليك ، وجمع بينكما في خير(٣) . وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه عليه السلام أمر بذلك ، ويستحب إظهار النكاح . قال عليه الصلاة والسلام : « فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت »(٤) . قال رسول الله ﷺ : « أعلنوا هذا النكاح واجعلوه في المساجد واضربوا عليه بالدفوف »(٥) . وعن الربيع بنت معوّذ قالت : جاء رسول الله ﷺ فدخل غداة بنِيَ بي فجلس على فراشي وجويريات لنا يضربن بدفّهنّ ويندبن من قتل من آبائي إلى أن قالت إحداهن : (وفينا نبي يعلم ما في غد) فقال لها : « اسكتي عن هذه وقولي الذي كنت تقولين قبلها »(٦) .

الأدب الثاني : حسن الخلق معهن واحتمال الأذى منهن ترحماً عليهن وقال الله تعالى : ﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ (النساء : ١٩) وقال في تعظيم حقهن : ﴿ **وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً** ﴾ (النساء : ٢١) وقال : ﴿ **والصاحب بالجنب** ﴾ (النساء : ٣٦) قيل : هي المرأة ومن

---

(١) متفق عليه .

(٢) رواه الأربعة من حديث أنس ، ولمسلم نحوه .

(٣) رواه أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه .

(٤) رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه .

(٥) رواه الترمذي وحسنه .

(٦) رواه البخاري .

وصايا رسول الله ﷺ : « الله الله في النساء فإنهن عوان في أيديكم - يعني أسراء - أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله »[١] .

واعلم أنه ليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها ، بل احتمال الأذى منها والحلم عند طيشها وغضبها ، اقتداء برسول الله ﷺ فقد كانت أزواجه تراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل[٢] . وقال أنس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ أرحم الناس بالنساء والصبيان[٣] .

الثالث : أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمزاح والملاعبة ، فهي التي تطيب قلوب النساء ، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأخلاق ، حتى روي أنه ﷺ كان يسابق عائشة في العدو فسبقته يوماً ، وسبقها في بعض الأيام ، فقال عليه الصلاة والسلام : « هذه بتلك »[٤] . وقالت عائشة رضي الله عنها : سمعت أصوات أناس من الحبشة وغيرهم وهم يلعبون في يوم عاشوراء ؛ فقال لي رسول الله ﷺ : « أتحبين أن تري لعبهم . قالت : قلت نعم ، فأرسل إليهم فجاءوا ، وقام رسول الله ﷺ بين البابين ، فوضع كفه على الباب ومدّ يده ووضعت ذقني على يده وجعلوا يلعبون وأنظر ، وجعل رسول الله ﷺ يقول : «حسبك » وأقول لا تعجل مرتين ، ثم قال : « يا عائشة حسبك » فقلت : نعم ، فأشار إليهم فانصرفوا[٥] . وقال رسول الله ﷺ : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله »[٦] . وقال عليه الصلاة والسلام : « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي »[٧] . وقال عليه الصلاة والسلام لجابر : « هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك »[٨] .

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أم سلمة أن النبي ﷺ وهو في الموت جعل يقول : « الصلاة وما ملكت أيمانكم » فما زال يقولها وما يقبض بها لسانه ، وأما الوصية بالنساء فالمعروف أن ذلك كان في حجة الوداع . رواه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه مسلم بلفظ :«ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ»زاد علي بن عبد العزيز والبغوي : الصبيان .

(٤) رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه بسند صحيح .

(٥) متفق عليه مع اختلاف . وفي رواية للنسائي في الكبرى : وفيه فقال : يا حميراء ، وسنده صحيح .

(٦) رواه الترمذي والنسائي واللفظ له ، والحاكم وقال : رواته ثقات على شرط الشيخين .

(٧) أخرجه الترمذي وصححه .

(٨) متفق عليه .

ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت : والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج سكيتاً إذا خرج ، آكلاً ما وجد ، غير مسائل عما فقد .

الرابع : أن لا يتبسط في الدعابة وحسن الخلق والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها ويسقط بالكلية هيبته عندها ، بل يراعي الاعتدال فيه فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى منكراً ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة ، بل مهما رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض ، لأنه إذا أطاعها في هواها فهو عبدها فقد عكس الأمر وقلب القضية وأطاع الشيطان لما قال : ﴿ **ولآمرنهم فليغيرن خلق الله** ﴾ (النساء : ١١٩) إذ حق الرجل أن يكون متبوعاً لا تابعاً ، وقد سمّى الله الرجال قوّامين على النساء وسمّى الزوج سيداً ، فقال تعالى : ﴿ **وألفيا سيدها لدى الباب** ﴾ (يوسف : ٢٥) فإذا انقلب السيد مسخراً فقد بدّل نعمة الله كفراً ، وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض ، فكل ما جاوز حدّه انعكس إلى ضدّه ، فينبغي أن تسلك طريق الاقتصاد في المخالفة والموافقة وتتبع الحق في جميع ذلك لتسلم فإن الغالب عليهن سوء الخلق ، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة . وقال عليه الصلاة والسلام : « ثلاث من الفواقر .. وامرأة إن دخلت عليها سبتك ، وإن غبت عنها خانتك »[١] . وقد قال عليه الصلاة والسلام في خيرات النساء : « إنكن صواحبات يوسف »[٢] . يعني إنّ صرفكن أبا بكر عن التقدّم في الصلاة ميل منكن عن الحق إلى الهوى . قال الله تعالى حين أفشين سر رسول الله ﷺ : ﴿ **إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما** ﴾ (التحريم : ٤) أي : مالت وقال ذلك في خير أزواجه[٣] . وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يفلح قوم تملكهم امرأة »[٤] فإذن فيهن شر وفيهن ضعف ؛ فالسياسة والخشونة علاج الشر ، والمطايبة والرحمة علاج الضعف ، فالطبيب الحاذق هو الذي يقدّر العلاج بقدر الداء ، فلينظر الرجل أولاً إلى أخلاقها بالتجربة ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها .

الخامس : الاعتدال في الغيرة : وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها ،

---

(١) قال العراقي : سنده حسن .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) رواه البخاري .

ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن ، قال ﷺ : « إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل وهي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة »[١] . لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه ، فإن بعض الظن إثم . وقال عليّ رضي الله عنه : لا تكثر الغيرة على أهلك فترمى بالسوء من أجلك وأما الغيرة في محلها فلابدّ منها وهي محمودة . وقال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يغار والمؤمن يغار وغيرة الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حرّم الله عليه »[٢] . وقال عليه الصلاة والسلام : « أتعجبون من غيرة سعد أنا والله أغير منه والله أغير مني »[٣] . وكان الحسن يقول : أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج في الأسواق قبح الله من لا يغار ، والطريق المغني عن الغيرة أن لا يدخل عليها الرجال وهي لا تخرج إلى الأسواق والخروج مباح للمرأة العفيفة برضا زوجها ولكن القعود أسلم وينبغي أن لا تخرج إلا لمهم ، فإن الخروج للنظارات والأمور التي ليست مهمة تقدح في المروءة وربما تفضي إلى الفساد ، فإذا خرجت فينبغي أن تغض بصرها عن الرجال ، ولسنا نقول : إن وجه الرجل في حقها عورة كوجه المرأة في حقه ، بل هو كوجه الصبي الأمرد في حق الرجل فيحرم النظر عند خوف الفتنة فقط ، فإن لم تكن فتنة فلا ؛ إذ لم يزل الرجال على مرّ الأزمان مكشوفي الوجوه والنساء يخرجن منتقبات ولو كان وجوه الرجال عورة في حق النساء لأمروا بالتنقب أو منعوا من الخروج إلا لضرورة .

السادس : الاعتدال في النفقة فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق ، ولا ينبغي أن يسرف ، بل يقتصد . قال تعالى : ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ (الأعراف : ٣١) وقال تعالى : ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** ﴾ (الإسراء : ٢٩) وقد قال رسول الله ﷺ : « خيركم خيركم لأهله »[٤] وقال ﷺ : « دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك : أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك »[٥] .

---

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن حبان .

(٢) متفق عليه . ولم يقل البخاري : والمؤمن يغار .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه الترمذي من حديث عائشة وصححه .

(٥) أخرجه مسلم .

وينبغي أن يأمرها بالتصدّق ببقايا الطعام وما يفسد لو ترك ! فهذا أقل درجات الخير ، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير صريح إذن من الزوج ، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطعمهم منه ، فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف ، وإذا أكل فيقعد العيال كلهم على مائدته ، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها ، فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها .

السابع : أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به لاحتراز الواجب ، ويعلم زوجته أحكام الصلاة وما تقضي منها في الحيض وما لا يقضى ، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى : ﴿ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** ﴾ (التحريم : ٦) فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنّة ويزيل عن قلبها كل بدعة إن استمعت إليها ، ويخوفها في الله إن تساهلت في أمر الدين ، ويعلمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذكر ولا إلى تعلم فضل إلا برضاه ، ومهما أهملت المرأة حكماً من أحكام الحيض والاستحاضة ولم يعلمها الرجل حرج الرجل معها وشاركها في الإثم .

الثامن : إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن ، فإن خرج إلى سفر وأراد استصحاب واحدة أقرع بينهن[1] ، كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ ، فإن ظلم امرأة بليلتها قضى لها ، فإن القضاء واجب عليه ، وعند ذلك يحتاج إلى معرفة أحكام القَسْم وقد قال رسول الله ﷺ : « من كان له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأخرى - وفي لفظ - ولم يعدل بينهما ؛ جاء يوم القيامة وأحد شقيه مائل »[2] ، وإنما عليه العدل في العطاء والمبيت ، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار ، قال الله تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ (النساء : ١٢٩) أي أن تعدلوا في شهوة القلب وميل النفس ويتبع ذلك التفاوت في الوقاع « اللهم هذا جهدي فيما أملك ولا طاقة لي فيما تملك ولا أملك »[3] ، يعني الحب . وقد كانت عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه[4] ، وسائر نسائه يعرفن ذلك .

---

(١) متفق عليه .

(٢) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان .

(٣) أخرجه أصحاب السنن وابن حبان .

(٤) متفق عليه .

التاسع : في النشوز ومهما وقع بينهما خصام ولم يلتئم أمرهما : فإن كان من جانبهما جميعاً أو من الرجل فلا تطيع الزوجة زوجها ولا يقدر على إصلاحها فلابد من حكمين : أحدهما من أهله والآخر من أهلها لينظرا بينهما ويصلحا أمرهما ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ﴾ (النساء : ٣٥) وقد بعث عمر رضي الله عنه حكماً إلى زوجين ، فعاد ولم يصلح أمرهما فعلاه بالدرة وقال : إن الله تعالى يقول : ﴿ **إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما** ﴾ فعاد الرجل وأحسن النية وتلطف بها فأصلح بينهما . وإما إذا كان النشوز من المرأة خاصة فالرجال قوامون على النساء ، فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً ، وكذا إذا كانت تاركة للصلاة فله حملها على الصلاة قهراً ، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها : وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف ، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع أو انفرد عنها بالفراش وهجرها وهو في البيت معها من ليلة إلى ثلاث ليال . فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً غير مبرح بحيث يؤلمها ولا يكسر لها عظماً ولا يدمي لها جسماً . ولا يضرب وجهها فذلك منهي عنه . وقد قيل لرسول الله ﷺ : ما حق المرأة على الرجل ؟ قال : « يطعمها إذا طعم ، ويكسوها إذا اكتسى ، ولا يقبح الوجه ، ولا يضرب إلا ضرباً غير مبرح ، ولا يهجرها إلى في المبيت »[1] وله أن يغضب عليها ويهجرها في أمر من أمور الدين إلى عشر وإلى عشرين وإلى شهر .

العاشر : في آداب الجماع . ويستحب أن يبدأ باسم الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام : « لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال : اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا . فإن كان بينهما ولد لم يضره الشيطان »[2] ، ثم ينحرف عن القبلة ولا يستقبل القبلة بالوقاع إكراماً للقبلة ، وليغط نفسه وأهله بثوب وليقدم التلطف بالكلام والتقبيل ومن العلماء من استحب الجماع يوم الجمعة وليلته تحقيقاً لأحد التأويلين من قوله ﷺ : « رحم الله من غسل واغتسل »[3] الحديث . ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضاً نهمتها ، فإن إنزالها ربما يتأخر فتهيج شهوتها ، ثم القعود عنها إيذاء لها ، والاختلاف في طبع الإنزال يوجب

---

(١) رواه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن ماجه من رواية معاوية بن حيدة بسند جيد ، وقال : ولا يضرب الوجه ولا يقبح .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه أصحاب السنن وهو حديث حسن .

التنافر مهما كان الزوج سابقاً إلى الإنزال ، والتوافق في وقت الإنزال ألذ عندها ليشتغل الرجل بنفسه عنها ، فإنها ربما تستحي . وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرة فهو أعدل ، إذ عدد النساء أربعة فجاز التأخير إلى هذا الحد ، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص بحسب حاجتها في التحصين ، فإن تحصينها واجب عليه ، وإن كانت لا تثبت المطالبة بالوطء فذلك لعسر المطالبة والوفاء بها ، ولا يأتيها في المحيض .

الحادي عشر : في آداب الولادة وهي خمسة : (الأول) أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى ، فإنه لا يدري الخيرة له في أيهما ، فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له ، أو يتمنى أن يكون بنتاً ، بل السلامة منهن أكثر والثواب فيهن أجزل قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال رسول الله ﷺ : « ما من أحد يدرك ابنتين فيحسن إليهما ما صحبتاه إلا أدخلتاه الجنة »[١] ، وقال أبو هريرة : قال ﷺ : « من كانت له ثلاث بنات أو أخوات فصبر على لأوائهن وضرائهن أدخله الله الجنة بفضل رحمته إياهن ، فقال رجل : وثنتان يا رسول الله ؟ قال : وثنتان . فقال رجل : أو واحدة ؟ فقال : وواحدة »[٢] . (الأدب الثاني) أن يؤذّن في أُذن الولد ويستحب أن يلقنوه أوّل انطلاق لسانه لا إله إلا الله ، ليكون أوّل حديثه ، (الأدب الثالث) أن تسميه اسماً حسناً ؛ فذلك من حق الولد . وقال ﷺ : « إذا سميتم فعبدوا »[٣] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن »[٤] ، وقال : « سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي »[٥] ، قال العلماء : كان ذلك في عصره ﷺ إذ كان ينادى يا أبا القاسم والآن فلا بأس ، نعم لا يجمع بين اسمه وكنيته ، وقد قال ﷺ : « لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي »[٦] ، وقيل : إنّ هذا أيضاً كان في حياته .

وقال ﷺ : « إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم فأحسنوا أسماءكم »[٧] ، ومن كان

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) رواه الخرائطي واللفظ له والحاكم ولم يقل : أو أخوات . وقال صحيح الإسناد .

(٣) رواه الطبراني وصحح إسناده .

(٤) أخرجه مسلم .

(٥) متفق عليه .

(٦) رواه أحمد وابن حبان وأبو داود والترمذي وحسّنه .

(٧) أخرجه أبو داود ، قال النووي : بإسناد جيد .

له اسم يكره يستحب تبديله ، أبدل رسول الله ﷺ اسم العاصي بعبد الله[١] ، وكان اسم زينب برة ، فقال عليه الصلاة والسلام : « تزكي نفسها »[٢] فسماها زينب ، وكذلك ورد النهي في تسمية أفلح ويسار ونافع وبركة[٣] لأنه يقال : أثَمّ بركة ؟ فيقال : لا . (الرابع) العقيقة عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة ذكراً كان أو أنثى . وروت عائشة رضي الله عنها : أن رسول الله ﷺ أمر في الغلام أن يعق بشاتين مكافئتين ، وفي الجارية بشاة [٤] . وروي أنه عق عن الحسن بشاة [٥] وهذا رخصة في الاقتصار على واحدة وقال ﷺ : « مع الغلام عقيقته فأهريقوا عنه دماً وأميطوا عنه الأذى »[٦] . ومن السنّة أن يتصدّق بوزن شعره ذهباً أو فضة ؛ فقد ورد فيه خبر : أنه عليه الصلاة والسلام أمر فاطمة رضي الله عنها يوم سابع حسين أن تحلق شعره وتتصدّق بزنة شعره فضة[٧] .

(الخامس) أن يحنكه بتمرة أو حلاوة . وروي عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت : ولدت عبد الله بن الزبير بقباء ، ثم أتيت به رسول الله ﷺ فوضعته في حجره ثم دعا بتمرة مضغها ثم تفل في فيه[٨] فكان أول شيء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ ، ثم حنكه بتمرة ثم دعا له وبرّك عليه . وكان أوّل مولود ولد في الإسلام ، ففرحوا به فرحاً شديداً لأنهم قيل لهم : إن اليهود قد سحرتكم فلا يولد لكم .

الثاني عشر : في الطلاق ، وليعلم أنه مباح ، ولكنه أبغض المباحات إلى الله تعالى ، وإنما يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إيذاء بالباطل ، ومهما طلقها فقد آذاها ، ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه ، قال الله تعالى : ﴿ **فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلاً** ﴾ (النساء : ٣٤) أي لا تطلبوا حيلة للفراق . ومهما آذت زوجها وبذت على أهله

---

(١) رواه البيهقي بسند صحيح .
(٢) متفق عليه .
(٣) أخرجه مسلم .
(٤) أخرجه الترمذي وصححه .
(٥) أخرجه الترمذي من حديث عليّ وقال : ليس إسناده بمتصل ، ووصله الحاكم ، إلا أنه قال حسين .
(٦) أخرجه البخاري .
(٧) أخرجه الحاكم وصححه .
(٨) متفق عليه .

فهي جانية ، وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين . قال ابن مسعود في قوله تعالى : ﴿ **ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة** ﴾ (الطلاق : ١) مهما بذت على أهله وآذت زوجها فهو فاحشة ، وهذا أريد به في العدة ولكنه تنبيه إلى المقصود . وإن كان الأذى من الزوج فلها أن تفتدي ببذل مال ، ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع . قال تعالى : ﴿ **فلا جناح عليهما فيما افتدت به** ﴾ (البقرة : ٢٢٩) فردُّ ما أخذته فما دون لائق بالفداء . فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة ، قال ﷺ : « أيما امرأة سألت زوجها طلاقها من غير ما بأس لم ترح رائحة الجنة »[١] وفي لفظ آخر : « الجنة عليها حرام » ، ثم ليراع الزوج في الطلاق أربعة أمور : (الأوّل) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه ، (الثاني) أن يقتصر على طلقة واحدة فلا يجمع بين الثلاث ، (الثالث) أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف ، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق . قال تعالى : ﴿ **ومتعوهن** ﴾ وذلك واجب مهما لم يُسمّ لها مهر في أصل النكاح . (الرابع) أن لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح ، فقد ورد في إفشاء سر النساء في الخبر الصحيح وعيد عظيم[٢] ويروى عن بعض الصالحين أنه أراد طلاق امرأته ، فقيل له : ما الذي يريبك فيها ؟ فقال : العاقل لا يهتك ستر امرأته ، فلما طلقها قيل له : لم طلقتها ؟ فقال : ما لي ولامرأة غيري ، فهذا بيان ما على الزوج .

النظر في حقوق الزوج عليها

فعليها طاعة الزوج مطلقاً في كل ما طلب منها في نفسها مما لا معصية فيه ، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة . قال ﷺ : « أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة »[٣] . وقال ﷺ : « إذا صلت المرأة خمسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها »[٤] . وأضاف طاعة الزوج إلى مباني الإسلام ؛ وذكر رسول الله ﷺ

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان .

(٢) رواه مسلم .

(٣) أخرجه الترمذي وقال حسن غريب . وابن ماجه .

(٤) أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

النساء فقال : « حاملات والدات مرضعات رحيمات بأولادهن لولا ما يأتين إلى أزواجهن دخل مصلياتهن الجنة »[١] ، وقال ﷺ : « اطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ، فقلن : لِمَ يا رسول الله ؟ قال : يكثرن اللعن ويكفرن العشير »[٢] يعني : الزوج المعاشر .

وقال ﷺ : « لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها »[٣] ، وقال ﷺ : « أقرب ما تكون المرأة من وجه ربها إذا كانت في قعر بيتها ، وإن صلاتها في صحن دارها أفضل من صلاتها في المسجد ، وصلاتها في بيتها أفضل من صلاتها في صحن دارها ، وصلاتها في مخدعها أفضل من صلاتها في بيتها »[٤] والمخدع : بيت في بيت ، وذلك للستر ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « المرأة عورة فإذا خرجت استشرفها الشيطان »[٥] . فحقوق الزوج على الزوجة كثيرة ، وأهمها أمران ، أحدهما الصيانة والستر . والآخر ترك المطالبة بما وراء الحاجة ، والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً ، وهكذا كانت عادة النساء في السلف : كان الرجل إذا خرج من منزله تقول له امرأته أو ابنته : إياك وكسب الحرام فإنا نصبر على الجوع والضر ولا نصبر على النار . ومن الواجبات عليها : أن لا تفرّط في ماله بل تحفظه عليه . قال رسول الله ﷺ : « لا يحل لها أن تطعم من بيته إلا بإذنه إلا الرطب من الطعام الذي يخاف فساده ، فإن أطعمت عن رضاه كان لها مثل أجره ، وإن أطعمت بغير إذنه كان له الأجر وعليها الوزر »[٦] .

ومن حقها على الوالدين : تعليمها حسن المعاشرة ، وآداب العشرة مع الزوج كما روي أنّ أسماء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزوّج : إنك خرجت من العش الذي فيه درجت فصرت إلى فراش لم تعرفيه ، وقرين لم تألفيه ، فكوني له أرضاً يكن لك سماء وكوني له مهاداً

---

(١) أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أمامة دون قوله : « مرضعات » وهي عند الطبراني في الصغير .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه الترمذي وابن حبان .

(٤) أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود بأول الحديث دون آخره ، وآخره رواه أبو داود مختصراً من حديثه دون ذكر صحن الدار . ورواه البيهقي من حديث عائشةبلفظ : « ولأن تصلي في الدار خير لها من أن تصلي في المسجد » وإسناده حسن .

(٥) رواه الترمذي وقال حسن صحيح وابن حبان .

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي والبيهقي ، ولمسلم من حديث عائشة : « إذا أنفقت المرأة من طعام بيتها غير مفسدة كان لها أجرها بما أنفقت ، ولزوجها أجره بما كسب » .

يكن لك عماداً وكوني له أمة يكن لك عبداً ، لا تلحفي به فيقلاك ولا تباعدي عنه فينساك إن دنا منك فاقربي منه ، وإن نأى فابعدي عنه واحفظي أنفه وسمعه وعينه ، فلا يشمن منك إلا طيباً ، ولا يسمع إلا حسناً ، ولا ينظر إلا جميلاً . وقال رجل لزوجته :

خذي العفو مني تستديمي مودتي	ولا تنطقي في سورتي حين أغضب
ولا تنقريني نقرك الدف مرة	فإنك لا تدرين كيف المغيب
ولا تكثري الشكوى فتذهب بالهوى	ويأباك قلبي والقلوب تقلب
فإني رأيت الحب في القلب والأذى	إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قعر بيتها لا يكثر صعودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه ، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها لا تتعرّف إلى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن أنه يعرفها أو تعرفه ، همها صلاح شأنها وتدبير بيتها مقبلة على صلاتها وصيامها ، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها ، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله ، وتقدّم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها ، متنظفة في نفسها مستعدّة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الزوج .

ومن آدابها : ألا تتفاخر على الزوج بجمالها ولا تزدري زوجها لقبحه ، ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها ، ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال . روي عن معاذ بن جبل قال رسول الله ﷺ : « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلا قالت زوجته من الحور العين لا تُؤذيه قاتلك الله ، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا »[1] .

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب ، وابن ماجه .

ومما يجب عليها من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحدّ عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة ، قالت زينب بنت أبي سلمة : دخلت على أم حبيبة زوج النبي ﷺ حين توفي أبوها أبو سفيان بن حرب ، فدعت بطيب فيه صفرة خلوق أو غيره ، فدهنت به جارية ، ثم مست بعارضيها ، ثم قالت : والله ما لي بالطيب من حاجة غير أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم والآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشرا »[١] ، ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدّة ، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا لضرورة .

ومن آدابها : أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها . فقد روي عن أسماء بنت أبي بكر الصدّيق رضي الله عنهما أنها قالت : زوجني الزبير وما له في الأرض من مال ولا مملوك ولا شيء غير فرسه وناضحه فكنت أعلف فرسه وأكفيه مؤنته وأسوسه وأدق النوى لناضحه وأعلفه وأستقي الماء وأخرز غربه وأعجن ، وكنت أنقل النوى على رأسي من ثلثي فرسخ حتى أرسل إليّ أبو بكر بجارية فكفتني سياسة الفرس فكأنما أعتقني[٢] .

☆ ☆ ☆

الفقرة السادسة : في أدب العلاقات الأخوية

[قال تعالى : ﴿ إنّما المؤمنون إخوة ﴾ (الحجرات : ١٠) فالأخوّة ثابتة بين المؤمنين بمجرّد الإيمان ، وقد رأينا حقوق المسلم على المسلم ، وتلك هي الحقوق العامّة للأخوّة العامّة ، ولكن جرت السنّة أن يكون بجانب الأخوّة العامّة أخوّة خاصّة ينشؤها الأفراد فيما بينهم تساعد على تمتين أواصر الأخوّة العامّة وتكون عاملاً مساعداً في الوصول إلى الكمالات في المجتمع الإسلامي ، وهذا النوع من الأخوة كاد أن يطوى بساطه على أهميته ، لذلك أراد الأستاذ البنّا إحياءه ، واستهدفت حركته فيما استهدفت إحياء هذا الجانب .

وبقدر ما يوجد الإخاء الخاص ويتعمّق يستشعر الإنسان نعمة الدعوة إلى الله ونعمة الانخراط في الصف الإسلامي ، كما أنّه بقدر ما يتعمّق هذا الإخاء الخاص ليشمل صفاً عريضاً في

---

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

الأمة الإسلامية يكون النهوض وتحقيق الأهداف والأخذ بيد الأمة الإسلامية .

ولذلك فإن من أوجب الواجبات تأكيد آداب الأخوّة الخاصّة ، خشية أن تصبح العلاقة بين أبناء الإسلام علاقات رسمية باردة جافّة ، إذ عندما تعمّ هذه الظاهرة فإنّ الحركة الإسلامية تفقد أخصّ خصائصها ، بل تفقد مضمون اسمها ، إن الحبّ والتقدير والتوقير والقيام بالحقوق والواجبات يجب أن يكون الشغل الشاغل لأبناء الحركة الإسلامية فيعطون أمثال هذه الأمور الكثير من الأوقات ، ولا يظنّن أحد أنّ مثل هذه الأقوات مهدورة ، بل ذلك عامل من عوامل الإنجاز والإنتاج ، وأظن أنّ الغزالي قد وفّق في الحديث عن هذه الأخوّة الخاصة بما لم يلحق به ، لذلك حاولنا أن نأخذ الكثير ممّا ذكره تحت عنوان (الألفة والأخوة)] .

قال رحمه الله :

فضيلة الألفة والأخوة

اعلم أنّ الألفة ثمرة حسن الخلق ، والتفرّق ثمرة سوء الخلق . فحسن الخلق يوجب التحاب والتآلف والتوافق وسوء الخلق يثمر التباغض والتحاسد والتدابر ، ومهما كان المثمر محموداً كانت الثمرة محمودة . وحسن الخلق لا تخفى في الدين فضيلته وهو الذي مدح الله سبحانه به نبيه عليه الصلاة والسلام إذ قال : ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ (القلم : ٤) وقال النبي ﷺ : « أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق »[١] وقال أسامة بن شريك : قلنا يا رسول الله ! ما خير ما أعطي الإنسان ؟ فقال : « خلق حسن »[٢] ، وقال النبي ﷺ : « بعثت لأتمم محاسن الأخلاق »[٣] ، وقال ﷺ : « أثقل ما يوضع في الميزان خلق حسن »[٤] .

ولا يخفى أن ثمرة الخلق الحسن الألفة وانقطاع الوحشة ومهما طاب المثمر طابت الثمرة ، وكيف وقد ورد في الثناء على نفس الألفة سيا إذا كانت الرابطة هي التقوى والدين وحب الله من الآيات والأخبار والآثار ما فيه كفاية ومقنع ، قال الله تعالى مظهراً عظيم منته على الخلق

---

(١) أخرجه الترمذي والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٢) أخرجه ابن ماجه بإسناد صحيح .

(٣) رواه أحمد والبيهقي والحاكم وصححه .

(٤) رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

بنعمة الألفة : ﴿ **لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم** ﴾ (الأنفال : ٦٣) وقال : ﴿ **فأصبحتم بنعمته إخواناً** ﴾ (آل عمران : ١٠٣) أي بالألفة ، ثم ذم التفرقة وزجر عنها وقال الله تعالى : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا** ﴾ إلى ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ (آل عمران : ١٠٢) وقال ﷺ : « المؤمن إلف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف »[١] .

وقال أبو إدريس الخولاني لمعاذ : إني أحبك في الله ، فقال له : أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول العرش يوم القيامة ، وجوههم كالقمر ليلة البدر ، يفزع الناس وهم لا يفزعون ويخاف الناس وهم لا يخافون وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فقيل : من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقال : هم المتحابون في الله تعالى »[٢] ، ورواه أبو هريرة رضي الله عنه وقال فيه : « إن حول العرش منابر من نور عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم النبيون والشهداء ، فقالوا : يا رسول الله صفهم لنا ؛ فقال : هم المتحابون في الله والمتجالسون في الله والمتزاورون في الله »[٣] ، وقال ﷺ : « ما تحابّ اثنان في الله إلا كان أحبها إلى الله أشدّهما حبّاً لصاحبه »[٤] ، ويقال : إنّ الأخوين في الله إذا كان أحدهما أعلى مقاماً من الآخر رفع الآخر معه إلى مقامه وأنه يلتحق به كما تلتحق الذرية بالأبوين ، والأهل بعضهم ببعض لأن الأخوة إذا اكتسبت في الله لم تكن دون أخوة الولادة . قال عز وجل : ﴿ **ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء** ﴾ (الطور : ٢١) ، وقال ﷺ : « إن الله تعالى يقول : حقت محبتي للذين يتزاورون من أجلي ، وحقت محبتي للذينَ يتحابون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتباذلون من أجلي ، وحقت محبتي للذين يتناصرون من أجلي »[٥] ، وقال ﷺ : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا

---

(١) رواه أحمد والطبراني والحاكم وصححه .

(٢) قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ، وهو عند الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

(٣) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ورجاله ثقات .

(٤) أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد .

(٥) أخرجه أحمد ورواه الحاكم وصححه .

ظلي »[١] وقال ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلّق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله تعالى ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »[٢] .

وقال ﷺ : « إن رجلاً زار أخاً له في الله ، فأرصد الله له ملكا فقال : أين تريد ؟ قال : أريد أن أزور أخي فلاناً ، فقال : لحاجة لك عنده ؟ قال : لا ، قال : لقرابة بينك وبينه ؟ قال : لا ، قال : فبنعمة له عندك ؟ قال : لا ، قال : فبم ؟ قال : أحبه في الله ، قال : فإن الله أرسلني إليك يخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة »[٣] ، وقال ﷺ : « أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله »[٤] ، فلهذا يجب أن يكون للرجل أعداء يبغضهم في الله كما يكون له أصدقاء وإخوان يحبهم في الله .

الآثار : قال عليّ رضي الله عنه : عليكم بالإخوان فإنهم عدة في الدنيا والآخرة ألا تسمع إلى قول أهل النار : ﴿ فما لنا من شافعين ولا صديق حميم ﴾ (الشعراء : ١٠٠) وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : والله لو صمت النهار لا أفطره وقمت الليل لا أنامه وأنفقت مالي غلقاً غلقاً في سبيل الله أموت يوم أموت وليس في قلبي حب لأهل طاعة الله وبغض لأهل معصية الله ما نفعني ذلك شيئاً . وقال ابن السماك عند موته : اللهم إنك تعلم أني إذا كنت أعصيك كنت أحب من يطيعك فاجعل ذلك قربة لي إليك . وقال الحسن ـ على ضده ـ يا ابن آدم لا يغرنك قول من يقول : المرء مع من أحب فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . وهذه إشارة إلى أن مجرد ذلك من غير موافقة في بعض الأعمال أو كلها لا ينفع وقال الفضيل في بعض كلامه : هاه ! تريد أن تسكن الفردوس وتجاور الرحمن في داره مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ؟ بأي عمل عملته ؟ بأي

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) متفق عليه .

(٣) أخرجه مسلم .

(٤) رواه أحمد .

شهوة تركتها ؟ بأي غيظ كظمته ؟ بأي رحم قاطع وصلتها ؟ بأي زلة لأخيك غفرتها ؟ بأي قريب باعدته في الله ؟ بأي بعيد قاربته في الله ؟ . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : لو أن رجلاً قام بين الركن والمقام يعبد الله سبعين سنة لبعثه يوم القيامة مع من يحب . وقال الحسن رضي الله عنه : مصارمة الفاسق قربان إلى الله ، وقال رجل لمحمد بن واسع : إني لأحبك في الله ، فقال : أحبك الذي أحببتني له . ثم حوّل وجهه وقال : اللهم إني أعوذ بك أن أحب فيك وأنت لي مبغض .

في حقوق الأخوة والصحبة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين الشخصين كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضي النكاح حقوقاً يجب الوفاء بها قياماً بحق النكاح فكذا عقد الأخوة ، فلأخيك عليك حق في المال والنفس وفي اللسان والقلب ، بالعفو والدعاء وبالإخلاص والوفاء وبالتخفيف وترك التكلف والتكليف وذلك يجمعه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال

الأخوان إنما تتم أخوّتهما إذا ترافقا في مقصد واحد فهما من وجه كالشخص الواحد ، وهذا يقتضي المساهمة في السراء والضراء والمشاركة في المآل والحال وارتفاع الاختصاص والاستئثار ، والمواساة بالمال مع الأخوة على ثلاث مراتب .

أدناها : أن تنزله منزلة عبدك أو خادمك فتقوم بحاجته من فضلة مالك ، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداء ولم تحوجه إلى السؤال فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حق الأخوة .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتى تسمح بمشاطرته في المال ، قال الحسن : كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه .

الثالثة : وهي العليا أن تؤثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك وهذه رتبة الصدّيقين ومنتهى درجات المتحابين ومن ثمار هذه الرتبة الإيثار بالنفس أيضاً ، فإن لم تصادف نفسك في رتبة من هذه الرتب مع أخيك فاعلم أن عقد الأخوة لم ينعقد بعد في الباطن ، وإنما

الجاري بينكما مخالطة رسمية لا وقع لها في العقل والدين ، فقد قال ميمون بن مهران : من رضي من الإخوان بترك الإفضال فليؤاخ أهل القبور . وأما الدرجة الدنيا فليست أيضاً مرضية عند ذوي الدين ، وروي أن عتبة الغلام جاء إلى منزل رجل كان قد آخاه فقال : احتاج من مالك إلى أربعة آلاف فقال : خذ ألفين فأعرض عنه وقال : آثرت الدنيا على الله أما استحييت أن تدعي الأخوة في الله وتقول هذا . ومن كان في الدرجة الدنيا من الأخوة ينبغي أن لا تعامله في الدنيا قال أبو حازم : إذا كان لك أخ في الله فلا تعامله في أمور دنياك وإنما أراد به من كان في هذه الرتبة .

وأما الرتبة العليا : فهي التي وصف الله تعالى المؤمنين بها في قوله : ﴿ **وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ (الشورى : ٣٨) أي كانوا خلطاء في الأموال لا يميز بعضهم رحله عن بعض ، وكان منهم من لا يصحب من قال : نعلي ، لأنه أضاف إلى نفسه . وجاء فتح الموصلي إلى منزل لأخ له وكان غائباً ، فأمر أهله فأخرجت صندوقه ففتحه وأخذ حاجته وأخبرت الجارية مولاها فقال : إن صدقت فأنت حرة لوجه الله سروراً بما فعل . وجاء رجل إلى أبي هريرة رضي الله عنه وقال : إني أريد أن أواخيك في الله فقال : أتدري ما حق الإخاء ؟ قال : عرّفني ، قال : أن لا تكون أحق بدينارك ودرهمك مني ، قال : لم أبلغ هذه المنزلة بعد ، قال : فاذهب عني . وقال عليّ بن الحسين رضي الله عنهما لرجل : هل يدخل أحدكم يده في كم أخيه وكيسه فيأخذ منه ما يريد بغير إذنه ؟ قال : لا ، قال فلستم بإخوان . ودخل قوم على الحسن رضي الله عنه فقالوا : يا أبا سعيد أصليت ؟ قال : نعم ، قالوا : فإن أهل السوق لم يصلوا بعد ، قال : ومن يأخذ دينه من أهل السوق ؟ بلغني أن أحدهم يمنع أخاه الدرهم ! قاله كالمتعجب منه .

وروي أن مسروقاً ادّان ديناً ثقيلاً وكان على أخيه خيثمة دين قال : فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لايعلم .

وقال أبو سليمان الداراني : لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له . وقال أيضاً : إني لألقم اللقمة أخا من إخواني فأجد طعمها في حلقي . لذلك كان الإنفاق على الإخوان أفضل من الصدقات على الفقراء ، قال عليّ رضي الله عنه : لعشرون درهما أعطيها أخي في الله أحب إليّ من أن أتصدق بمائة درهم على المساكين . وقال أيضاً : لأن أصنع صاعاً

من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحب إليّ من أن أعتق رقبة . واقتداء الكل في الإيثار برسول الله ﷺ .

وقد قال الله تعالى : ﴿ أو صديقكم ﴾ وقال : ﴿ أو ما ملكتم مفاتحه ﴾ (النور : ٦١) إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوّض له التصرف كما يريد ، وكان أخوه يتحرج عن الأكل بحكم التقوى حتى أنزل الله تعالى هذه الآية وأذن لهم في الانبساط في طعام الإخوان والأصدقاء .

الحق الثاني : في الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال وتقديمها على الحاجات الخاصة

وهذه أيضاً لها درجات كما للمواساة بالمال ، فأدناها القيام بالحاجة عند السؤال والقدرة ولكن مع البشاشة والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنة ؛ قال بعضهم : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكّره ثانية فلعله أن يكون قد نسي فإن لم يقضها فكبّر عليه . وقضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة فجاء بهدية ، وقال : ما هذا ؟ قال : لما أسديته إليّ ، فقال : خذ مالك عافاك الله ، إذا سألت أخاك حاجة فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبّر عليه أربع تكبيرات وعدّه في الموتى . قال جعفر بن محمد : إني لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهم فيستغنوا عني ، هذا في الأعداء فكيف في الأصدقاء ؟ وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة يقوم بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته ، وكان الواحد منهم يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول : هل لكم زيت ، هل لكم ملح ، هل لكم حاجة ؟ وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه . وبهذا تظهر الشفقة والأخوة فإذا لم تثمر الشفقة حتى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها . قال ميمون بن مهران : من لم تنتفع بصداقته لم تضرك عداوته . وقال ﷺ : « ألا وإن لله أواني في أرضه وهي القلوب فأحب الأواني إلى الله تعالى أصفاها وأصلبها وأرقها ، أصفاها من الذنوب وأصلبها في الدين وأرقها على الإخوان »[1] ، وبالجملة فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك أو

---

(١) أخرجه الطبراني إلا أنه قال : « ألينها وأرقها » وإسناده جيد .

أهم من حاجتك ، وأن تكون متفقداً لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحوال نفسك ، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة ، بل تقوم بحاجته كأنك لا تدري أنك قمت بها ، ولا ترى لنفسك حقاً بسبب قيامك بها بل تتقلد منّته بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره . ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة بل تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد . كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا ، لأنّ أهلنا يذكروننا بالدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

وقال عطاء : تفقدوا إخوانكم بعد ثلاث فإن كانوا مرضى فعودوهم أو مشاغيل فأعينوهم أو كالنوا نسوا فذكروهم . وقال الشعبي في الرجل يجالس الرجل فيقول : أعرف وجهه ولا أعرف اسمه ، تلك معرفة النوكى أي الحمقى. وقيل لابن عباس : من أحب الناس إليك ؟ قال : جليسي ، وقال : ما اختلف رجل إلى مجلسي ثلاثاً من غير حاجة له إليّ فعلمت ما مكافأته من الدنيا . وقال سعيد بن العاص : لجليسي عليّ ثلاث : إذا دنا رحبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له . وقد قال تعالى : ﴿ رحماء بينهم ﴾ (الفتح : ٢٩) إشارة إلى الشفقة والإكرام . ومن تمام الشفقة أن لا ينفرد بطعام لذيذ أو بحضور في مسرة دونه بل يتنغص لفراقه ويستوحش بانفراده عن أخيه .

الحق الثالث : في اللسان بالسكوت

أما السكوت فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله ، وإذا رآه في طريق أو حاجة لم يفاتحه بذكر غرضه من مصدره ومورده ولا يسأله عنه فربما يثقل عليه ذكره أو يحتاج إلى أن يكذب فيه . وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة ، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن ، وأن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده ، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه ، فإن الذي سبّك من بلغك .

والتأذي يحصل أولاً من المبلغ ثم من القائل ، نعم لا ينبغي أن يخفي ما يسمع من الثناء عليه فإن السرور به أولاً يحصل من المبلغ للمدح ثم من القائل ، وإخفاء ذلك من الحسد .

وبالجملة : فليسكت عن كل كلامه يكرهه جملة وتفصيلاً إلا إذا وجب عليه النطق في أمر بمعروف أو نهي عن المنكر ولم يجد رخصة في السكوت فإذ ذاك لا يبالي بكراهته فإن ذلك إحسان إليه في التحقيق وإن كان يظن أنها إساءة في الظاهر .

أما ذكر مساوئه وعيوبه ومساوىء أهله فهو من الغيبة وذلك حرام في حق كل مسلم ويزجرك عنه أمران : **أحدهما** : أن تطالع أحوال نفسك . فإن وجدت فيها شيئاً واحداً مذموماً فهّون على نفسك ما تراه من أخيك وقدّر أنه عاجز عن قهر نفسه في تلك الخصلة الواحدة كما أنك عاجز عما أنت مبتلى به ولا تستثقله بخصلة واحدة مذمومة فأي الرجال المهذب ؟ وكل ما لا تصادفه من نفسك في حق الله فلا تنتظره من أخيك في حق نفسك فليس حقك عليه بأكثر من حق الله عليك .

والأمر الثاني : أنك لو طلبت منزّهاً عن كل عيب اعتزلت عن الخلق كافة ولن تجد من تصاحبه أصلا فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوىء ، فإن غلبت المحاسن المساوىء فهو الغاية والمنتهى ، فالمؤمن الكريم أبداً يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام ، وأما المنافق اللئيم فإنه أبداً يلاحظ المساويء والعيوب . قال ابن المبارك : المؤمن يطلب المعاذير والمنافق يطلب العثرات . وقال الفضيل : الفتوة العفو عن زلات الإخوان .

قال الشافعي رحمه الله : ما أحد من المسلمين يطيع الله ولا يعصيه ولا أحد يعصي الله ولا يطيعه ، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل . وإذا جعل مثل هذا عدلاً في حق الله فبأن تراه عدلاً في حق نفسك ومقتضى أخوتك أولى . وكما يجب عليك السكوت بلسانك عن مساويه يجب عليك السكوت بقلبك وذلك بترك إساءة الظن فسوء الظن غيبة بالقلب وهو منهي عنه أيضاً ، وحدّه أن لا تحمل فعله على وجه فاسد ما أمكن أن تحمله على وجه حسن . فأما ما انكشف بيقين ومشاهدة فلا يمكنك أن لا تعلمه وعليك أن تحمل ما تشاهد على سهو ونسيان إن أمكن ، وهذا الظن ينقسم إلى ما يسمّى تفرساً : وهو الذي يستند إلى علامة فإن ذلك يحرك الظن تحريكاً ضرورياً لا يقدر على دفعه ، وإلى ما منشؤه سوء اعتقادك فيه حين يصدر منه فعل له وجهان ، فيحملك سوء الاعتقاد فيه على أن تنزله على الوجه الأردأ من غير علامة تخصه به ، وذلك جناية عليك بالباطن وذلك حرام في حق كل مؤمن . إذ قال ﷺ :

« إن الله قد حرم على المؤمن من المؤمن دمه وماله وعرضه وأن يظن به ظن السوء »[١] ، وقال ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث »[٢] وسوء الظن يدعو إلى التجسس والتحسس ،وقد قال ﷺ « لا تحسسوا ولا تجسسوا ولا تقاطعوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً »[٣] والتجسس في تطلع الأخبار والتحسس بالمراقبة بالعين . فستر العيوب والتجاهل والتغافل عنها شيمة أهل الدين .

ومن ذلك أن يسكت عن إفشاء سره الذي استودعه ، وله أن ينكره وإن كان كاذباً فليس الصدق واجباً في كل مقام ، فإنه كما يجوز للرجل أن يخفي عيوب نفسه وأسراره وإن احتاج إلى الكذب ، فله أن يفعل ذلك في حق أخيه فإن أخاه نازل منزلته وهما كشخص واحد لايختلفان إلا بالبدن . هذه حقيقة الأخوة وكذلك . لا يكون بالعمل بين يديه مرائياً وخارجاً عن أعمال السر إلى أعمال العلانية فإن معرفة أخيه بعمله كمعرفته بنفسه من غير فرق وقد قال عليه الصلاة والسلام : « منْ ستر عورة أخيه ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة »[٤] ، وفي خبر آخر : « فكأنما أحيا موءودة »[٥] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « إذا حدّث الرجل بحديث ثم التفت فهو أمانة »[٦] ، وقال : « المجالس بالأمانة إلا ثلاثة مجالس : مجلس يسفك فيه دم حرام ، ومجلس يستحل فيه فرج حرام ، ومجلس يستحل فيه مال من غير حله »[٧] ، وقال ﷺ : « إنما يتجالس المتجالسان بالأمانة ولا يحل لأحدهما أن يفشي على صاحبه ما يكره »[٨] .

قيل لبعض الأدباء : كيف حفظك للسر ؟ قال : أنا قبره . وقد قيل : صدور الأحرار قبور الأسرار . وقيل : إن قلب الأحمق في فيه ، ولسان العاقل في قلبه ، أي لا يستطيع

---

(١) أخرجه الحاكم في التاريخ من حديث ابن عباس دون قوله : « وعرضه » ورجاله ثقات ، ولمسلم من حديث أبي هريرة : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه ابن ماجه وفي معناه للشيخين .

(٥) أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد .

(٦) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث جابر وقال حسن .

(٧) أخرجه أبو داود .

(٨) أخرجه الحاكم وصححه .

الأحمق إخفاء ما في نفسه فيبديه من حيث لا يدري به ، فمن هذا يجب مقاطعة الحمقى والتوقي عن صحبتهم بل عن مشاهدتهم .

وأفشى بعضهم سراً له إلى أخيه ثم قال لـه : حفظت ؟ فقـال : بل نسيت . وكان أبو سعيـد الثـوري يقـول : إذا أردت أن تـواخي رجـلاً فـأغضبـه ثم دس عليـه من يسـألـه عنـك ، وعن أسرارك ، فـإن قـال خيراً وكتم سرك فـاصحبـه . وقيل لأبي يزيـد : من نصحب من النـاس ؟ قـال : من يعلم منـك مـا يعلم الله ثم يستر عليـك كما يستره الله . وقـال ذو النـون : لا خير في صحبـة من لا يحب أن يراك إلا معصومـاً ومن أفشى السر عنـد الغضب فهـو اللئيم لأن إخفـاءه عند الرضا تقتضيه الطباع السليمة كلها . وقد قـال بعض الحكمـاء : لا تصحب من يتغير عليـك عند أربع : عند غضبه ورضاه ، وعند طمعه وهواه . بل ينبغي أن يكون صدق الأخوة ثـابتـاً على اختلاف هذه الأحوال .

وقال العباس لابنه عبد الله : إني أرى هذا الرجل ـ يعني عمر رضي الله عنه ـ يقـدّمـك على الأشياخ فاحفظ عني خمساً : لا تفشين له سراً ولا تغتابن عنده أحداً ، ولا تجرين عليه كذاباً ، ولا تعصين له أمراً ، ولا يطلعن منك على خيانة . فقال الشعبي : كل كلمة من هذه الخمس خير من ألف . ومن ذلك السكوت عن المماراة والمدافعة في كل ما يتكلم به أخوك . قال ابن عباس : لا تمار سفيهاً فيؤذيك ولا حليماً فيقليك . وقد قـال ﷺ : « من ترك المراء وهو مبطل بني لـه بيت في ربض الجن ، ومن ترك المراء وهو محق بني لـه بيت في أعلى الجنـة »[١] ، هـذا مـع أن تركه مبطلا واجب ، وقد جعل ثواب النفل أعظم لأن السكوت عن الحق أشـد على النفس من السكوت على البـاطـل وإنمـا الأجر على قـدر النصب . وأشـد الأسبـاب لإثـارة نـار الحقـد بين الإخوان المماراة والمنافسة فإنها عين التدابر والتقاطع فإن التقاطع يقع أولاً بالآراء ثم بـالأقوال ثم بالأبدان . وقـال عليـه الصلاة والسلام : « لا تـدابروا ولا تبـاغضوا ولا تحـاسـدوا ولا تقـاطعوا وكونوا عباد الله إخواناً المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحرمه ولا يخذلـه بحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[٢] ، وأشد الاحتقار المماراة فإن من رد على غيره كلامـه فقـد نسبـه إلى الجهل

(١) أخرجه الترمذي وحسنه .

(٢) أخرجه مسلم .

والحمق أو إلى الغفلة والسهو عن فهم الشيء على ما هو عليه وكل ذلك استحقار وإيغار للصدر وإيحاش .

وقال بعض السلف : من لاحى الإخوان وماراهم قلّت مروءته وذهبت كرامته . وقال عبد الله بن الحسن : إياك ومماراة الرجال فإنك لن تعدم مكر حليم أو مفاجأة لئيم . وقال بعض السلف : أعجز الناس من قصّر في طلب الإخوان وأعجز منه من ضيع من ظفر به منهم وكثرة المماراة توجب التضييع والقطيعة وتورث العداوة وقد قال الحسن : لا تشتر عداوة رجل بمودة ألف رجل . وعلى الجملة فلا باعث على المماراة إلا إظهار التمييز بمزيد العقل والفضل واحتقار المردود عليه بإظهار جهله ، وهذا يشتمل على التكبر والاحتقار والإيذاء والشتم بالحمق والجهل ولا معنى للمعاداة إلا هذا فكيف تضامّه الأخوة والمصافاة ؟ .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط وجه وحسن خلق »[1] . والمماراة مضادة لحسن الخلق . وقد انتهى السلف في الحذر عن المماراة والحض على المساعدة إلى حدّ لم يروا السؤال أصلاً . وقالوا : إذا قلت لأخيك قم فقال إلى أين ؟ فلا تصحبه بل قالوا ينبغي أن يقوم ولا يسأل . وقال أبو سليمان الداراني : كان لي أخ بالعراق فكنت أجيئه في النوائب فأقول : أعطني من مالك شيئاً ، فكان يلقي إليّ كيسه فآخذ منه ما أريد ، فجئته ذات يوم فقلت : أحتاج إلى شيء . فقال : كم تريد ؟ فخرجت حلاوة إخائه من قلبي . وقال آخر : إذا طلبت من أخيك مالاً فقال : ماذا تصنع به ؟ فقد ترك حق الإخاء . واعلم أن الأخوة بالموافقة في الكلام والفعل والشفقة . قال أبو عثمان الحيري : موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم ، وهو كما قال .

الحق الرابع : على اللسان بالنطق

فإن الأخوة كما تقتضي السكوت عن المكاره تقتضي أيضاً النطق بالمحاب بل هو أخص بالأخوة لأن من قنع بالسكوت صحب أهل القبور ، وإنما يراد الإخوان ليستفاد منهم لا ليتخلص من أذاهم ، والسكوت معناه : كفّ الأذى فعليه أن يتودد إليه بلسانه ويتفقده في أحواله التي يحب أن يتفقد فيها كالسؤال عن عارض إن عرض وإظهار شغل القلب بسببه

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه .

واستبطاء العافية عنه ، وكذا جملة أحواله التي يكرهها ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها ، وجملة أحواله التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها . فمعنى الأخوة المساهمة في السراء والضراء وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره »[1] ، وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة ، فإذا عرفت أنه أيضاً يحبك زاد حبك لا محالة فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف . والتحاب بين المؤمنين مطلوب في الشرع ومحبوب في الدين ولذلك علم فيه الطريق فقال : « تهادوا تحابوا »[2] . ومن ذلك أن يدعوه بأحب أسمائه إليه في غيبته وحضوره . قال عمر رضي الله عنه : ثلاث يصفين لك ود أخيك : أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً ، وتوسع له في المجلس وتدعوه بأحب أسمائه إليه . ومن ذلك أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبة ، وكذلك الثناء على أولاده وأهله وصنعته وفعله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه وجميع ما يفرح به وذلك من غير كذب وإفراط ولكن تحسين ما يقبل التحسين لابد منه وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح فإن إخفاء ذلك محض الحسد ، ومن ذلك أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك . قال عليّ رضي الله عنه : من لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة . وأعظم من ذلك تأثيراً في جلب المحبة الذب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه والسكوت عن ذلك هو موغر للصدر ومنفر للقلب وتقصير في حق الأخوة . وقد قال رسول الله ﷺ : « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلِمُه »[3] . وهذا من الخذلان فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه . فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك ! وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم ولذلك شبهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال : ﴿ أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ﴾ (الحجرات : ١٢) .

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح .

(٢) أخرجه البيهقي من حديث أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخاري .

فإذن حماية الأخوة بدفع ذم الأعداء وتعنت المتعنتين واجب في عقد الأخوة . وقد قال مجاهد : لا تذكر أخاك في غيبته إلا كما تحب أن يذكرك في غيبتك . فإذن لك فيه معياران : أحدهما : أن تقدّر أن الذي قيل فيه لو قيل فيك وكان أخوك حاضراً ما الذي كنت تحب أن يقوله أخوك فيك ؟ فينبغي أن تعامل المتعرض لعرضه به . والثاني : أن تقدر أنه حاضر من وراء جدار يسمع قولك ويظن أنك لا تعرف حضوره ؛ فما كان يتحرك في قلبك من النصرة له بسمع منه ومرأى ؟ فينبغي أن يكون في مغيبه كذلك فقد قال بعضهم : ما ذكر أخ لي بغيب إلا تصورته جالساً فقلت فيه ما يحب أن يسمعه لو حضر . وقال آخر : ما ذكر أخ لي إلا تصورت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أحب أن يقال فيّ . وهذا من صدق الإسلام وهو أن لا يرى لأخيه إلا ما يراه لنفسه .

وبالموافقة يتم الإخلاص ومن لم يكن مخلصاً في إخائه فهو منافق . والإخلاص استواء الغيب والشهادة ، واللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والجماعة والخلوة ، والاختلاف والتفاوت في شيء من ذلك مماذقة في المودة وهو دخل في الدين ووليجة في طريق المؤمنين ، ومن لا يقدر من نفسه على هذا فالانقطاع والعزلة أولى به من المؤاخاة والمصاحبة فإن حق الصحبة ثقيل لا يطيقه إلا محقق فلا جرم أجره جزيل لا يناله إلا موفق . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أبَاهِر أحْسِن مجاورة من جاورك تكن مسلماً ، وأحسن مصاحبة صاحبك تكن مؤمناً »[١] . فانظر كيف جعل الإيمان جزاء الصحبة والإسلام جزاء الجوار ؟ فالفرق بين فضل الإيمان وفضل الإسلام على حد الفرق بين المشقة في القيام بحق الجوار والقيام بحق الصحبة . فإن الصحبة تقتضي حقوقاً كثيرة في أحوال متقاربة مترادفة على الدوام ، والجوار لا يقتضي إلا حقوقاً قريبة في أوقات متباعدة لا تدوم . ومن ذلك التعليم والنصيحة فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال ، فإن كنت غنياً بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفعه في الدين والدنيا . فإن علمته وأرشدته ولم يعمل بمقتضى العلم فعليك النصيحة وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل وفوائد تركه وتخوّفه بما يكره في الدنيا والآخرة لينزجر عنه وتنبهه على عيوبه وتقبح القبيح في عينه وتحسن الحسن ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر لا

---

(١) قال الدارقطني والحديث ثابت ورواه القضاعي في مسند الشهاب بلفظ المصنف .

يطلع عليه أحد فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة إذ قال ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن »[١] أي يرى منه ما لا يرى من نفسه فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ولو انفرد لم يستفد . وقال الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسعر : أتحب من يخبرك بعيوبك ؟ فقال : إن نصحني فيما بيني وبينه فنعم وإن قرّعني بين الملأ فلا . وقد صدق ، فإن النصح على الملأ فضيحة والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره فيوقفه على ذنوبه سراً .

فالفرق بين التوبيخ والنصيحة بالإسرار والإعلان كما أن الفرق بين المداراة والمداهنة بالغرض الباعث على الإغضاء . فإن أغضيت لسلامة دينك ولما ترى من إصلاح أخيك بالإغضاء فأنت مدار وإن أغضيت لحظ نفسك واجتلاب شهواتك وسلامة جاهك فأنت مداهن . وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلا بالموافقة ، ولا مع الخلق إلا بالمناصحة ، ولا مع النفس إلا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلا بالعداوة .

فإن قلت : فإذا كان في النصح ذكر العيوب ففيه إيحاش القلب فكيف يكون ذلك من حق الأخوة ؟ فاعلم أن الإيحاش إنما يحصل بذكر عيب يعلمه أخوك من نفسه فأما تنبيهه على ما لا يعلمه فهو عين الشفقة وهو استمالة القلوب ، أعني قلوب العقلاء ، وأما الحمقى فلا يلتفت إليهم فإن من ينبهك على فعل مذموم تعاطيته أو صفة مذمومة اتصفت بها لتزكي نفسك عنها كان كمن ينبهك على حية أو عقرب تحت ذيلك وقد همّت بإهلاكك .

وقد وصف الله تعالى الكاذبين ببغضهم للناصحين إذ قال : ﴿ **ولكن لا تحبون الناصحين** ﴾ (الأعراف : ٧٩) وهذا في عيب هو غافل عنه فأما ما علمت أنه يعلمه من نفسه فإنما هو مقهور عليه من طبعه فلا ينبغي أن يكشف فيه ستره إن كان يخفيه ، وإن كان يظهره فلابد من التلطف في النصح بالتعريض مرة وبالتصريح أخرى إلى حد لا يؤدي إلى الإيحاش ، فإن علمت أن النصح غير مؤثر فيه وأنه مضطر من طبعه إلى الإصرار عليه فالسكوت عنه أولى ، وهذا كله فيما يتعلق بمصالح أخيك في دينه أو دنياه ، أما ما يتعلق بتقصيره في حقك

---

(١) أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد حسن .

فالواجب فيه الاحتمال والعفو والنصح والتعامي عنه ، والتعرض لذلك ليس من النصح في شيء ، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة فالعتاب في السر خير من القطيعة والتعريض به خير من التصريح والمكاتبة خير من المشافهة والاحتمال خير من الكل ، إذ ينبغي أن يكون قصدك من أخيك إصلاح نفسك بمراعاتك إياه وقيامك بحقه واحتمال تقصيره لا الاستعانة به والاسترفاق منه .

الحق الخامس : العفو عن الزلات والهفوات

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية أو في حقك بتقصيره في الأخوة . أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله . فإن لم تقدر وبقي مصراً فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته . فذهب أبو ذرّ رضي الله عنه إلى الانقطاع وقال : إذا انقلب أخوك عما كان عليه فأبغضه من حيث أحببته . ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله . وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه ، فقال أبو الدرداء : إذا تغير أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى . وقال إبراهيم النخعي:لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً . وقال أيضاً : لا تحدّثوا الناس بزلة العالم فإن العالم يزل الزلة ثم يتركها .

حكي أنّ أخوين من السلف انقلب أحدهما عن الاستقامة فقيل لأخيه : ألا تقطعه وتهجره ، فقال : أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت لما وقع في عثرته أن آخذ بيده وأتلطف له في المعاتبة وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه .

وقال بعض السلف في ستر زلات الإخوان : ودّ الشيطان أن يلقي على أخيكم مثل هذا حتى تهجروه وتقطعوه ، فماذا أبقيتم من محبة عدوّكم . وهذا لأن التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان كما أن مقارنة العصيان من محابه ، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يضاف إليه الثاني ، وإلى هذا أشار عليه الصلاة والسلام في الذي شتم الرجل الذي أتى بفاحشة

إذ قال : « مه » وزجره وقال : « لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم »[١] . هذا كله في زلته في دينه .

أما زلته في حقه بما يوجب إيحاشه : فلا خلاف في أن الأولى العفو والاحتمال بل كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصوّر تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد فهو واجب بحق الأخوة ، فقد قيل : ينبغي أن تستنبط لزلة أخيك سبعين عذراً ، فإن لم يقبله فردّ اللوم على نفسك ، فتقول لقلبك : ما أقساك ! يعتذر إليك أخوك سبعين عذراً فلا تقبله ، فأنت المعيب لا أخوك ، فإن ظهر بحيث لم يقبل التحسين فينبغي أن لا تغضب إن قدرت ، ولكن ذلك لا يمكن وقد قال الشافعي رحمه الله : من استغضب فلم يغضب فهو حمار ، ومن استرضي فلم يرض فهو شيطان . فلا تكن حماراً ولا شيطاناً ، واسْتَرْضِ قلبك بنفسك نيابة عن أخيك ، واحترز أن تكون شيطاناً إن لم تقبل . قال الأحنف : حق الصديق أن يحتمل منه ثلاث: ظلم الغضب ، وظلم الدّالة ، وظلم الهفوة . وقال آخر : ما شتمت أحداً قط ، لأنه إن شتمني كريم فأنا أحق من غفرها له أو لئيم فلا أجعل عرضي له غرضاً ثم تمثل وقال :

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره   وأعرض عن شتم اللئيم تكرّماً

وكذلك قال الله تعالى : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ (آل عمران : ١٣٤) ولم يقل : والفاقدين الغيظ .

قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الحواري : إذا واخيت أحداً في هذا الزمان فلا تعاتبه على ما تكرهه ، فإنك لا تأمن من أن ترى في جوابك ما هو شرّ من الأول ، قال : فجربته فوجدته كذلك . وقال بعضهم : الصبر على مضض الأخ خير من معاتبته ، والمعاتبة خير من القطيعة ، والقطيعة خير من الوقيعة . وينبغي أن لا يبالغ في البغضة عند الوقيعة . قال تعالى : ﴿ **عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة** ﴾ (الممتحنة : ٧) وقال عليه الصلاة والسلام : « أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما ، وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكون حبيبك يوماً ما »[٢] ، وقال عمر رضي الله عنه : لا

---

(١) رواه البخاري .

(٢) أخرجه الترمذي ورجاله ثقات .

يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً . وهو أن تحب تلف صاحبك مع هلاكك .

الحق السادس : الدعاء له

الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به ، فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه ، فإن دعاءك له دعاء لنفسك على التحقيق ، فقد قال ﷺ : « إذا دعا الرجل لأخيه في ظهر الغيب قال الملك : ولك مثل ذلك »[١] ، وفي الحديث : « دعوة الرجل لأخيه في ظهر الغيب لا ترد »[٢] . وكان أبو الدرداء يقول : إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم . وكان محمد بن يوسف الأصفهاني يقول : وأين مثل الأخ الصالح ؟ أهلك يقتسمون ميراثك ويتنعمون بما خلفت ، وهو منفرد بحزنك مهتم مما قدّمت وما صرت إليه ، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى .

الحق السابع : الوفاء والإخلاص

ومعنى الوفاء : الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه ، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه ، فإن الحب إنما يراد للآخرة ، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام في السبعة الذين يظلهم الله في ظله : « ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه »[٣] . وقال بعضهم : قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة ، ولذلك روي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين »[٤] . فمن الوفاء للأخ مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به ، ومراعاتهم أوقع في قلب الصديق من مراعاة الأخ في نفسه ، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر ، إذ لا يدل على قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به ، حتى الكلب الذي على باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب ، ومهما انقطع الوفاء بدوام المحبة شمت به الشيطان فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد متواخيين في الله

---

(١) أخرجه مسلم .

(٢) هو عند مسلم إلا أنه قال : « مستجابة » مكان « لا ترد » .

(٣) متفق عليه .

(٤) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين .

ومتحابين فيه فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما ، قال الله تعالى : ﴿ **وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم** ﴾ (الإسراء : ٥٣) .

وقال مخبراً عن يوسف : ﴿ **من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي** ﴾ (يوسف : ١٠٠) ويقال : ما تواخى اثنان في الله فتفرق بينهما إلا بذنب يرتكبه أحدهما . وكان بشر يقول : إذا قصّر العبد في طاعة الله سلبه الله من يؤنسه . وذلك أن الإخوان مسلاة للهموم وعون على الدين . ولذلك قال ابن المبارك : ألذ الأشياء مجالسة الإخوان والانقلاب إلى كفاية . والمودة الدائمة هي التي تكون في الله ، وما يكون لغرض يزول بزوال ذلك الغرض . ومن ثمرات المودة في الله أن لا تكون مع حسد في دين ودنيا وكيف يحسده وكل ما هو لأخيه فإليه ترجع فائدته ؟ وبه وصف الله تعالى المحبين في الله تعالى فقال : ﴿ **ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أُوتوا ويؤثرون على أنفسهم** ﴾ (الحشر : ٩) ووجود الحاجة هو الحسد . ومن الوفاء أن لا يتغير حاله في التواضع مع أخيه وإن ارتفع شأنه واتسعت ولايته وعظم جاهه فالترفع على الإخوان بما يتجدد من الأحوال لؤم . قال الشاعر :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا   من كان يألفهم في المنزل الخشن

وأوصى بعض السلف ابنه فقال : يا بني لا تصحب من الناس إلا من إذا افتقرت إليه قرب منك وإن استغنيت عنه لم يطمع فيك وإنّ علت مرتبته لم يرتفع عليك . وقال بعض الحكماء : إذا ولي أخوك ولاية فثبت على نصف مودته لك فهو كثير .

واعلم أن ليس من الوفاء موافقة الأخ فيما يخالف الحق في أمر يتعلق بالدين بل الوفاء له المخالفة ، والمقصود أن الوفاء بالمحبة من تمامها النصح في الله . قال الأحنف : الإخاء جوهرة رقيقة إن لم تحرسها كانت معرضة للآفات فاحرسها بالكظم حتى تعتذر إلى من ظلمك ، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك الفضل ولا من أخيك التقصير . ومن آثار الصدق والإخلاص وتمام الوفاء أن تكون شديد الجزع من المفارقة ، نفور الطبع عن أسبابها كما قيل :

وجدت مصيبات الزمان جميعها   سوى فرقة الأحباب هينة الخطب

وأنشد ابن عيينة هذا البيت وقال : لقد عهدت أقواماً فارقتهم منذ ثلاثين سنة ما يخيل إليّ أنّ حسرتهم ذهبت من قلبي . ومن الوفاء أن لا يسمع بلاغات الناس على صديقه لا سيما من

يظهر أولاً أنه محب لصديقه ـ كيلا يتهم ـ ثم يلقي الكلام عرضاً وينقل عن الصديق ما يوغر القلب فذلك من دقائق الحيل في التضريب ومن لم يحترز منه لم تدم مودته أصلاً . قال واحد لحكيم : قد جئت خاطباً لمودتك ، قال : إن جعلت مهرها ثلاثاً فعلت ، قال : وما هي ؟ قال : لا تسمع عليّ بلاغة ولا تخالفني في أمر ولا توطئني عشوة . ومن الوفاء أن لا يصادق عدو صديقه . قال الشافعي رحمه الله : إذا أطاع صديقك عدوك فقد اشتركا في عداوتك .

الحق الثامن : التخفيف وترك التكلف والتكليف

وذلك بأن لا يكلف أخاه ما يشق عليه بل يروّح سره من مهماته وحاجاته ويرفهه عن أن يحمّله شيئاً من أعبائه ، فلا يستمدّ منه جاه ومال ولا يكلفه التواضع له والتفقد لأحواله والقيام بحقوقه بل لا يقصد بمحبته إلا الله تعالى تبركاً بدعائه واستئناساً بلقائه واستعانة به على دينه وتقرباً إلى الله تعالى بالقيام بحقوقه وتحمّل مؤنته . قال بعضهم : من اقتضى من إخوانه ما لا يقتضونه فقد ظلمهم . ومن اقتضى منهم مثل ما يقتضونه فقد أتعبهم ، ومن لم يقتض فهو المتفضل عليهم . وقال بعض الحكماء : من جعل نفسه عند الإخوان فوق قدره أثم وأثموا ، ومن جعل نفسه في قدره تعب وأتعبهم ، ومن جعلها دون قدره سلم وسلموا وتمام التخفيف بطي بساط التكليف حتى لا يستحي منه فيما لا يستحي من نفسه . وقال الجنيد : ما تواخى اثنان في الله فاستوحش أحدهما من صاحبه أو احتشم إلا لعلة في أحدهما . وقال عليّ رضي الله عنه : « شر الأصدقاء من تكلف لك ومن أحوجك إلى مداراة وألجأك إلى اعتذار » . وقال الفضيل : إنما تقاطع الناس بالتكلف يزور أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه ذلك عنه . وقالت عائشة رضي الله عنها : المؤمن أخو المؤمن لا يغتنمه ولا يحتشمه . وقيل لبعضهم : من نصحب ؟ قال : من يرفع عنك ثقل التكلف وتسقط بينك وبينه مؤنة التحفظ . وكان جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهما يقول : أثقل إخواني عليّ من يتكلف لي وأتحفظ منه ، وأخفهم على قلبي من أكون معه كما أكون وحدي .

وقال بعضهم : كن مع أبناء الدنيا بالأدب ، ومع أبناء الآخرة بالعلم ، ومع العارفين كيف شئت ! بل ينبغي أن يؤاخي كل متدين عاقل ويعزم على أن يقوم بهذه الشرائط ولا يكلف غيره هذه الشروط حتى يكثر إخوانه ، إذ به يكون مؤاخياً في الله وإلا كانت مؤاخاته لحظوظ نفسه فقط . ولذلك قال رجل للجنيد : قد عزّ الإخوان في هذا الزمان أين أخ لي في الله ؟

فأعرض الجنيد حتى أعاده ثلاثاً ، فلما أكثر قال له الجنيد : إن أردت أخاً يكفيك مؤنتك ويتحمل أذاك فهذا لعمري قليل ، وإن أردت أخاً في الله تحمل أنت مؤنته وتصبر على أذاه فعندي جماعة أعرفهم لك . فسكت الرجل . واعلم أن الناس ثلاثة : رجل تنتفع بصحبته ، ورجل تقدر على أن تنفعه ولا تتضرر به ولكن لا تنتفع به . ورجل لا تقدر أيضاً على أن تنفعه وتتضرر به وهو الأحمق أو السيء الخلق فهذا الثالث ينبغي أن تتجنبه ، فأما الثاني فلا تجتنبه لأنك تنتفع في الآخرة بشفاعته وبدعائه وبثوابك على القيام به ، وقد قال بعضهم : صحبت الناس خمسين سنة فما وقع بيني وبينهم خلاف فإني كنت معهم على نفسي ومن كانت هذه شيته كثر إخوانه . ومن التخفيف وترك التكلف أن لا يعترض في نوافل العبادات . كان طائفة يصطحبون على شرط المساواة بين أربع معان : إن أكل أحدهم النهار كله لم يقل له صاحبه صم ، وإن صام الدهر كله لم يقل له أفطر ، وإن نام الليل كله لم يقل له قم . وإن صلى الليل كله لم يقل له نم ، وتستوي حالاته عنده بلا مزيد ولا نقصان لأنّ ذلك إن تفاوت حرّك الطبع إلى الرياء والتحفظ لا محالة . وقد قيل : من سقطت كلفته دامت ألفته ومن خفت مؤنته دامت مودته .

وقال بعضهم : إذا عمل الرجل في بيت أخيه أربع خصال فقد تم أنسه به : إذا أكل عنده ، ودخل الخلاء ، وصلى ، ونام . ولا يتم التخفيف وترك التكليف إلا بأن يرى نفسه دون إخوانه ويحسن الظن بهم ويسيء الظن بنفسه فإذا رآهم خيراً من نفسه فعند ذلك يكون هو خيراً منهم ، وقال أبو معاوية الأسود : إخواني كلهم خير مني ، قيل وكيف ؟ قال : كلهم يرى لي الفضل عليه ومن فضّلني على نفسه فهو خير مني . فهذه أقل الدرجات وهو النظر بعين المساواة والكمال في رؤية الفضل للأخ . ولذلك قال سفيان : إذا قيل : يا شر الناس فغضبت فأنت شر الناس أي ينبغي أن تكون معتقداً ذلك في نفسك أبداً . ومهما رأى الفضل لنفسه فقد احتقر أخاه ، وهذا في عموم المسلمين مذموم . قال ﷺ : « بحسب المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[1] ، ومن تتمة الانبساط وترك التكلف أن يشاور إخوانه في كل ما يقصده ويقبل إشاراتهم فقد قال تعالى : ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ (آل عمران : ١٥٩) وينبغي أن لا يخفي عنهم شيئاً من أسراره كما روي أنّ يعقوب ابن أخي معروف قال : جاء أسود بن سالم إلى عمي

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

معروف وكان مؤاخياً له فقال : إنّ بشر بن الحرث يحب مؤاخاتك وهو يستحي أن يشافهك بذلك وقد أرسلني إليك يسألك أن تعقد له فيما بينك وبينه أخوّة يحتسبها ويعتدّ بها إلا أنه يشترط فيها شروطاً : لا يحب أن يشتهر بذلك ولا يكون بينك وبينه مزاورة ولا ملاقاة فإنه يكره كثرة الالتقاء ، فقال معروف : أما أنا لو آخيت أحدهم لم أحب مفارقته ليلاً ولا نهاراً ، ولزرته في كل وقت ، وآثرته على نفسي في كل حال ، ثم ذكر من فضل الأخوة والحب في الله أحاديث كثيرة ، ثم قال فيها . وقد آخى رسول الله ﷺ علياً فشاركه في العلم وقاسمه في البدن وأنكحه أفضل بناته وأحبهن إليه وخصّه بذلك لمؤاخاته ، وأنا أشهدك أني قد عقدت له أخوّة بيني وبينه وعقدت إخاءه في الله لرسالتك ولمسألته على أن لا يزورني إن كره ذلك ولكني أزوره متى أحببت ، ومره أن يلقاني في مواضع نلتقي بها ، ومره أن لا يخفي عليّ شيئاً من شأنه وأن يطلعني على جميع أحواله ، فأخبر ابن سالم بشراً بذلك فرضي وسر به . فهذا جامع لحقوق الصحبة وقد أجملناه مرّة وفصلناه أخرى ، ولا يتم ذلك إلا بأن تكون على نفسك للإخوان ولا تكون لنفسك عليهم وأن تنزل نفسك منزلة الخادم لهم فتقيد بحقوقهم جميع جوارحك .

أما البصر : فبأن تنظر إليهم نظرة مودة يعرفونها منك وتنظر إلى محاسنهم وتتعامى عن عيوبهم ولا تصرف بصرك عنهم في وقت إقبالهم عليك وكلامهم معك . روي أنه ﷺ كان يعطي كل من جلس إليه نصيباً من وجهه وما استصغاه أحد إلا ظن أنه أكرم الناس عليه حتى كأنّ مجلسه وسمعه وحديثه ولطيف مسألته وتوجهه للجالس إليه[١] ، وكان مجلسه مجلس حياء وتواضع وأمانة ، وكان عليه الصلاة والسلام أكثر الناس تبسماً وضحكاً في وجوه أصحابه وتعجباً مما يحدثونه به ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم اقتداء منهم بفعله وتوقيراً له عليه الصلاة والسلام .

أما السمع : فبأن تسمع كلامه متلذذاً بسماعه ومصدقاً به ومظهراً للاستبشار به ولا تقطع حديثهم عليهم بمرادّة ولا منازعة ومداخلة واعتراض فإن أرهقك عارض اعتذرت إليهم وتحرس سمعك عن سماع ما يكرهون .

---

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل .

أما اللسان : فقد ذكرنا حقوقه فإنّ القول فيه يطول ومن ذلك أن لا يرفع صوته عليهم ولا يخاطبهم إلا بما يفقهون .

وأما اليدان : فأن لا يقبضها عن معاونتهم في كل ما يتعاطى باليد .

وأما الرجلان : فأن يمشي بهما وراءهم مشي الأتباع لا مشي المتبوعين ولا يتقدمهم إلا بقدر ما يقدّمونه ولا يقرب منهم إلا بقدر ما يقربونه ويقوم لهم إذا أقبلوا ولا يقعد إلا بقعودهم ويقعد متواضعاً حيث يقعد . ومهما تم الاتحاد خف حمله من هذه الحقوق مثل القيام والاعتذار والثناء فإنها من حقوق الصحبة وفي ضمنها نوع من الأجنبية والتكلف فإذا تم الاتحاد انطوى بساط التكلف بالكلية فلا يسلك به إلا مسلك نفسه لأن هذه الآداب الظاهرة عنوان آداب الباطن وصفاء القلب . ومهما صفت القلوب استغني عن تكلف إظهار ما فيها ، ومن كان نظره إلى صحبة الخلق فتارة يعوّج وتارة يستقيم ، ومن كان نظره إلى الخالق لزم الاستقامة ظاهراً وباطناً وزين باطنه بالحب لله ولخلقه وزين ظاهره بالعبادة لله والخدمة لعباده فإنها أعلى أنواع الخدمة لله إذ لا وصول إليها إلا بحسن الخلق ، ويدرك العبد بحسن خلقه درجة القائم الصائم وزيادة .

[الفقرة السابعة : في]
جملة آداب العشرة والمجالسة مع أصناف الخلق

إن أردت حسن العشرة فالق صديقك وعدوّك بوجه الرضا من غير ذلة لهم ولا هيبة منهم ، وتوقير من غير كبر ، وتواضع في غير مذلة . وكن في جميع أمورك في أوسطها فكلا طرفي قصد الأمور ذميم . ولا تنظر في عطفيك ولا تكثر الالتفات ولا تقف على الجماعات وإذا جلست فلا تستوفز وتحفظ من تشبيك أصابعك والعبث بلحيتك وخاتمك وتخليل أسنانك وإدخال أصبعك في أنفك وكثرة بصاقك وتنخمك وطرد الذباب من وجهك وكثرة التمطي والتثاؤب في وجوه الناس وفي الصلاة وغيرها ، وليكن مجلسك هادياً وحديثك منظوماً مرتباً واصغ إلى الكلام الحسن ممّن حدثّك من غير إظهار تعجب مفرط ولا تسأله إعادته ، واسكت عن المضاحك والحاكايات ولا تحدث عن إعجابك بولدك ولا جاريتك ولا شعرك ولا تصنيفك وسائر ما يخصك ، ولا تتصنع تصنع المرأة في التزين ولا تتبذل وتوق كثرة الكحل والإسراف في الدهن ،

ولا تلح في الحاجات ولا تشجع أحداً على الظلم ولا تعلم أهلك فضلاً عن غيرهم مقدار مالك فإنهم إن رأوه قليلاً هنت عندهم وإن كان كثيراً لن تبلغ قط رضاهم ، وخوفهم من غير عنف ولن لهم من غير ضعف ولا تهازل أمتك ولا عبدك فيسقط وقارك ، وإذا خاصمت فتوقر وتحفظ من جهلك وتجنب عجلتك وتفكر في حجتك ولا تكثر الإشارة بيدك ولا تكثر الالتفات إلى من وراءك ولا تجث على ركبتيك ، وإذا هدأ غيظك فتكلم وإن قرّبك سلطان فكن منه على مثل حد السنان فإن استرسل إليك فلا تأمن انقلابه عليك وارفق به رفقك بالصبي وكلمه بما يشتهيه ما لم يكن معصية ، ولا يحملنك لطفه بك أن تدخل بينه وبين أهله وولده وحشمه وإن كنت لذلك مستحقاً عنده فإن سقطة الداخل بين الملك وبين أهله سقطة لا تنعش وزلة لا تقال ، وإياك وصديق العافية فإنه أعدى الأعداء ولا تجعل مالك أكرم من عرضك ، وإذا دخلت مجلساً فالأدب فيه البداية بالتسليم وترك التخطي لمن سبق والجلوس حيث اتسع وحيث يكون أقرب إلى التواضع ، وأن تحيّي بالسلام من قرب منك عند الجلوس .

ولا تجلس على طريق ، فإن جلست فأدبه : غض البصر ونصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وعون الضعيف وإرشاد الضال ورد السلام وإعطاء السائل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والارتياد لموضع البصاق ، ولا تبصق في جهة القبلة ولا عن يمينك ولكن عن يسارك وتحت قدمك اليسرى .

فإن جالست الملوك :

فأدبه ترك الغيبة ومجانبة الكذب وصيانة السر وقلة الحوائج وتهذيب الألفاظ والإعراب في الخطاب ، والمذاكرة بأخلاق الملوك وقلة المداعبة وكثرة الحذر منهم - وإن ظهرت لك المودة - وأن لا تتجشأ بحضرتهم ولا تتخلل بعد الأكل عندهم ، وعلى الملك أن يحتمل كل شيء إلا إفشاء السر والقدح في الملك والتعرض للحرم .

وإن جالست العامة :

فأدبه ترك الخوض في حديثهم وقلة الإصغاء إلى أراجيفهم والتغافل عما يجري من سوء ألفاظهم وقلة اللقاء لهم مع الحاجة إليهم . وإياك أنْ تمازح لبيباً أو غير لبيب فإنّ اللبيب يحقد عليك والسفيه يجتريء عليك لأن المزاح يخرق الهيبة ويسقط ماء الوجه ويعقب الحقد ويذهب

بحلاوة الودّ ويشين فقه الفقيه ويجرّيء السفيه ويسقط المنزلة عند الحكيم ويمقته المتقون ، وهو يميت القلب ويباعد عن الربّ تعالى ويكسب الغفلة ويورث الذلّة وبه تظلم السرائر وتموت الخواطر وبه تكثر العيوب وتبين الذنوب وقد قيل : لا يكون المزاح إلا من سخف أو بطر . ومن بلي في مجلس بمزاح أو لغط فليذكر الله عند قيامه قال النبي ﷺ : « من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك . إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك »[1] .

[و] اعلم أن الإنسان إما أن يكون وحده أو مع غيره وإذا تعذر عيش الإنسان إلا بمخالطة من هو من جنسه لم يكن له بد من تعلم آداب المخالطة . وكل مخالط ففي مخالطته أدب والأدب على قدر حقه وعلى قدر رابطته التي بها وقعت المخالطة . والرابطة إما القرابة وهي أخصها أو أخوة الإسلام وهي أعمها ، وينطوي في معنى الأخوة الصداقة والصحبة ، وإما الجوار ، وإما صحبة السفر والمكتب والدرس ، وإما الصداقة أو الأخوة .

ولكل واحد من هذه الروابط درجات . فالقرابة لها حق ولكن حق الرحم المحرم آكد ، وللمحرم حق ولكن حق الوالدين آكد . وكذلك حق الجار ولكن يختلف بحسب قربه من الدار وبعده ، ويظهر التفاوت عند النسبة حتى إن البلدي في بلاد الغربة يجري مجرى القريب في الوطن لاختصاصه بحق الجوار في البلد . وكذلك حق المسلم يتأكد بتأكد المعرفة . وللمعارف درجات فليس حق الذي عرف بالمشاهدة كحق الذي عرف بالسماع بل آكد منه والمعرفة بعد وقوعها تتأكد بالاختلاط . وكذلك الصحبة تتفاوت درجاتها فحق الصحبة في الدرس والمكتب آكد من حق صحبة السفر . وكذلك الصداقة تتفاوت فإنها إذا قويت صارت أخوة فإن ازدادت صارت محبة فإن ازدادت صارت خلة .

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه .

خاتمة الكتاب

ذكرنا في هذا الكتاب وسائل التزكية التي هي بمثابة أغذية وأدوية للقلب ، والآثار العملية لأغذية القلب وأدويته صحة القلب ، وصحّة القلب تعني تخلّقاً وتحقّقاً وتحرّراً تنبثق عنها سلوكيات حياتيّة ، وكان دورنا في الغالب الاختيار والانتقاء والتحقيق من كلام الغزالي ثم وضع ذلك في هيكل عام تفهم منه نظرية التزكية في الإسلام ، وقد حرصنا أن تفهم النظرية ، وأن يخرج القارىء بزاد علمي وعملي وقد كان عمل المصنف في ذلك قليلاً لكنّه مهم بالنسبة للتأليف الإسلامي في عصرنا وذلك أننا نرى :

أن الواجبات التي لها الأولوية في التأليف في عصرنا هي :

١ - نظريات الحركة لإحياء الإسلام وتجديده على كل مستوى وما يستتبع ذلك من نظريات تربوية وثقافية وتنظيمية وخطط عمليّة ومبادرات ، وأن يكون ذلك مرتبطاً بالنصوص وبالعصر ، وأن يكون عرضه قويّاً مقنعاً .

٢ - تعميق الإيمان بالله والرسول ﷺ والإسلام لأن ذلك هو البداية الصحيحة لكل شيء .

٣ - استخلاص أنواع من النظريات أكثر تطوّراً من النظريات والمسائل والمفردات التي أفاض فيها المتقدّمون ، ومن ههنا كان لأنواع من التأليف أهمية خاصّة في عصرنا .

فمثلاً : لقد أفاض الفقهاء كثيراً في فقه الصلاة والزكاة والصوم والحج وفي فقه المعاملات فذكروا الربا والبيوع وذكروا من الأصول والفروع الكثير . كما أنّ علماء العقائد تحدّثوا في مسائل كثيرة ، وقل مثل ذلك عن علماء السلوك والأخلاق ، وكل ذلك بما يناسب عصرهم .

وقد جدّ في عصرنا أو وجدت نظريات اجتماعية وسياسية وأخلاقية واقتصادية وعسكرية ودستورية وقانونية فأصبح من واجب مؤلفي عصرنا أن يستخرجوا نظريات متكاملة من تلك المتفرّقات المبثوثة بما يناسب ما استجدّ في عصرنا من تصوّرات كليّة :

لقد كان القدماء يجمعون متفرّقات ينظمونها في سلك موضوع واحد فيوجد الكتاب ، وقد

أصبح عصرنا يحتاج إلى نوع من الضم آخر ليخرج من عملية الضم كتاب متكامل في نظام من أنظمة الإسلام ، ومن هنا كان من توفيق الله لأبناء الحركة الإسلامية المعاصرة أن غطّوا هذا الجانب فخرجت أنواع من التآليف في أنظمة الحياة في الإسلام .

٤ - تخليص بعض كتب التراث من الدخن الذي بداخلها إمّا بتعليق وتحقيق أو باستخلاص واختصار ، أو بتأليف في بعض الموضوعات .

٥ - عرض نصوص الكتاب والسنّة عرضاً يلبّي احتياجات العصر فيردّ على شبهاته ويجيب على تساؤلاته .

ولقد وفّق أعلام الحركة الإسلامية فأبدعوا في هذه الشؤون أيّما إبداع ، إبداعاً خرج عن الغلوّ والابتداع فكان ذلك من التوفيق الربّاني ، الذي يقتضي شكراً أي شكر ، وكان أعلام من كتب ووجّه وبنى في هذا كلّه البنّا والمودودي والسباعي وأبو الحسن الندوي والشيخ سعيد النورسي ومحمد محمود الصوّاف والغزالي المعاصر والشيخ عبد الفتاح أبو غدّة وسيد قطب وعمر التلمساني ومصطفى مشهور ويوسف القرضاوي ومحمد قطب وفتحي يكن وحسن هويدي ويوسف العظم وأديب الصالح ومحمد أبو فارس وصاحب العوائق والمنطلق و ... وعبد الكريم زيدان وكتّاب الصحف والمجلات الإسلامية من أمثال الشهاب المصرية والشهاب السورية والشهاب اللبنانية والنذير المصرية ، والدعوة المصرية في إصداراتها المتعاقبة والبعث الإسلامي الهندية والمجتمع الكويتية وغيرها من مجلات حديثة النشوء مرجوّة الاستمرار .

كل هؤلاء ساهموا في سد هذه الاحتياجات واحتياجات أخرى غيرها فجزاهم الله خيراً على أنّه لا معصوم إلا الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

☆ ☆ ☆

وعلى عجزي وقلّة بضاعتي فقد رأيت أن أفعل شيئاً في سدّ هذه الاحتياجات مستفيداً من القديم والجديد ، متتلمذاً على القدماء والمحدثين .

فأصدرت ما أصدرت مجتهداً أنّ ذلك يساعد على سدّ احتياجات عصرنا ، والعبرة عندي أن يأخذ الإنسان زاده الثقافي والتربوي الضروري لهذا العصر من أي كتاب موثّق .

أقول هذا بين يدي ما أريد أن أذكّر به في خاتمة هذا الكتاب ، وهو لا يخرج عن كونه : عوداً على بدء .

لقد مَنَّ الله على هذه الأمّة أن بعث فيها رسولاً ، يتلو عليها الآيات . ويعلّمها الكتاب والحكمة ويزكيها . ويعلّمها الشيء الذي لا يمكن أن تعلمه إلا عن طريق الوحي . وكل ذلك نجده في قوله تعالى :

﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلّمكم الكتاب والحكمة ويعلّمكم ما لم تكونوا تعلمون ﴾ (البقرة : ١٥١) .

وهل المراد في الآية من كلمة الكتاب : الشيء المفروض أو المراد به القرآن ؟

وهل المراد في الآية من كلمة الحكمة : السنّة كلها ، أو المراد بذلك ما علّمناه الله ورسوله ممّا نستطيع به أن نضع كل شيء في محلّه في المعنويات والماديّات ؟ أيّا كان الجواب فدراسة الكتاب والسنّة تبقى هدفاً لأنّ المفروض ذلك ومعرفة الحقائق الكليّة والجزئية طريقها دراسة الكتاب والسنّة .

☆ ☆ ☆

هذه القضايا الأربع التي بعث رسول الله ﷺ : تلاوة الآيات ، تعليم الكتاب والحكمة ، تزكية النفس ، تعليم ما لا يمكن معرفته إلا عن طريق الوحي قد أصاب الأخذ بها ضعف إمّا لجملتها أو لبعضها أو بغلط الفهم في بعضها ، وهذا الذي يجب تداركه ، لأنّ تداركه هو المقدّمة الفطرية لكل شيء بعده .

☆ ☆ ☆

تذكّر هذا والذي قبله في هذه الخاتمة ثم سر معي خطوة أخرى . ذكرنا في الباب الأولى من هذا الكتاب آداب العالم والمتعلّم ، وذكرنا فيه فكرة ترتيب حلقات العلم والذكر ، وأغفلنا في الباب الثاني ذكر الاجتماع على الخير والعلم والذكر كوسيلة من وسائل التزكية مع أنه منها لنجعل الإشارة إلى ذلك في خاتمة هذا الكتاب .

إن الاجتماع على الخير من أهمّ وسائل تزكية النفس ، وهو في الإسلام له فضله الكبير ،

لذلك ورد في فضل صلاة الجماعة وفضل الاجتماع على كتاب الله وعلى الذكر ما ورد .

فالاجتماع على الخير تذكير بهذا الخير ودفع للمجتمعين إلى العمل به ، ومن خلال الاجتماع تأخذ الروح من الروح والنفس من النفس ، وتوجد في الاجتماع البيئة الصالحة ، وهذا بعض ما في الاجتماع .

ومن أجل إحياء ما بعث به الرسل عليهم الصلاة والسلام .

ومن أجل ربط الحاضر بالماضي ، وإيجاد المسلم الذي يلبّي احتياجات عصره فإنّنا نطالب أهل الفضل والعلم أن يعمروا مساجد المسلمين أو بعضها بما يلي :

١ ـ حلقات تلاوة القرآن وتحفيظه .

٢ ـ حلقات دراسة الكتاب والسنّة ، ففهم الكتاب والسنّة شيء زائد على مجرّد التلاوة والقراءة وقد يتطابقان .

٣ ـ حلقات تزكية النفس التي تؤكّد على أبحاثها وتدفع في سلوك طريقها وتقيم وسائل التزكية كلّها حيّة متفاعلة .

٤ ـ حلقات العلوم التي يحتاج إليها فهم الكتاب والسنّة أو التي انبثقت عن الكتاب والسنّة : لغة عربية ، فقه ، أصول فقه ، مصطلح الحديث .

وليلحظ في هذا ما ذكرناه في مقدمة هذه الخاتمة من احتياجات العصر ، فالمسلم المعاصر بحاجة إلى أن يعرف أنظمة الإسلام ونظريّات الحركة من أجله ، وذلك من خلال المطالعة الموجّهة داخل المسجد أو خارجه ، من خلال المطالعة الفردية أو الجماعية .

☆ ☆ ☆

ومنطلق ذلك كلّه ينبغي أن يكون المسجد إن أمكن ونقولها كلمة ناصحة : إنّه إذا ما أريد لمثل هذا الخير أن يقوم ويستقر ويستمر فيجب أن يتجنّب القائمون على أمره الهجوم والتهجّم ، وذلك إذا أصبح واجباً شرعياً فليقم به من يستطيعه من المسلمين ، أمّا إعمار المساجد فليكن هدفاً مستقلاً ، والمسلم بعد ذلك حرّ أن يتّجه حيثما اتّجه فيما يظنّ أنّه واجب شرعي فحلقات

المساجد لاتمنع أن ينشط في الحياة ولا أن يحقق ذاته وقناعاته الحركية والسياسية، فذلك حقّه وواجبه وعلى كل فهذا اجتهاد شخصي دفعني إليه ما أراه أن القائمين على العمل في المسجد المتفرّغين له المبتعدين عمّا يؤثّر عليه الزاهدين في الحطام ، هم أكثر إنتاجاً ، وأحسن تربية ، وحيثما وجد ذلك كان الإسلام أكثر انتشاراً وأجود عمقاً ، والعبرة في النهاية أن نوصل الإسلام إلى الناس وأن نحققهم به .

☆ ☆ ☆

ومن أهمّ ما يجب أن يركّز عليه الدعاة هو الإقناع بضرورة الاجتماع على الخير فكثيراً ما يفرّ المسلمون من الاجتماع على الخير إلى فكرة أخذ الخير دون اجتماع ، فترى أحدهم يحاول أن يقرأ القرآن منفرداً وذلك طيّب ، وأن يطالع ويحصّل العلوم الإسلامية منفرداً وذلك طيّب ، وأن يذكر الله ويصلّي منفرداً وذلك طيّب ، ولكن الاجتماع على القرآن وعلى كتاب شرعي وعلى الذكر والمذاكرة فيه خيرات ، فلابدّ أن يقتنع المسلم بمثل ذلك ، والنصوص في هذا كثيرة ، وقد عرّجنا على هذا الموضوع في كتاب تربيتنا الروحية الذي يصلح أن يكون مقدّمة لهذا الكتاب .

٢٧ محرم ١٤٠٣ هـ

١٣ تشرين ثاني ١٩٨٢م

الفهرس

الموضوع	الصفحة

رقم الايداع ٤٦٤٢ / ٨٥